إِيقَاظُ أُولِي الهِمَمِ العَالِيَةْ
إِلى اغْتِنَامِ الأَيَّامِ الخَالِيَةْ

تَأْلِيفُ
الفَقِير إلى عَفْوِ رَبِّهِ

عبد العزيز بن محمد السَّلمان

غَفَرَ الله لَهُ وَلِوالدَيه وَلِجَمِيع المُسْلِمِين

مَنْ أَرادَ طباعته لِوَجه الله تعَالى لا يُريد به عَرضًا مِنْ الدّنيا فقد أُذِنَ لَهُ وَجزاه الله عني وعَن المُسلِمين خَيرًا، أَسْأل اللهَ الكريمَ العَلي العَظِيم الرّؤف الرَّحِيم أَنْ يَنْفَع بِه مَنْ قَرَأه وَمَنْ سَمِعَهُ وَأن يأجر مَن دَل عَليه أو سَعى بهِ إِلَى مَنْ ينتفِع بِه، اللهُم صَلِ عَلى محمَّد وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِه أجْمعِين

وَقْفٌ للهِ تَعَالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الــذي منَّ علينا بالإيمـــان والإســـلام، وتفضل ببيــان الشــرائع والأحكــام، ووعد من أطاعه واتبع رضاه الثواب في دار السلام.

وأوعد من عصـــــاه بالعقـــــاب في دار الهـــــوان والانتقام.

نحمده على ما أفاض علينا من الأنعـام، ونشـكره شُكرُ المنعم واجبٌ على الأنام.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شـريك له الملك العلام.

ونشـــهد أن محمـــدًا عبـــده ورســـوله ﷺ وعلى آله وأصحابه السادة الأعلام.

وبعـــد؛ فـــإني قد جمعت بعـــون الله وتوفيقه في كتـــابي هـــذا فوائد ومواعظ ونصـــائح وحِكَمًا وأحكامًا ووصـايا وآدابًا وأخلاقًا فاضـلة من كلام الله جل جلاله وتقدَّسَـــتْ أســـماؤه، ومن كلام رســـول الله ﷺ، ومن كلام أئمة السـلف، وصـالح الخلف الـذي امتثلـوا في أفعـالهم وأقـوالهم ما قاله الله جل جلالـه، وما قاله رسوله ﷺ.

وجمعت مما قاله الحكماء والعلماء والعباد والزهاد أنواعًـــا جمـــة في فنـــون مختلفـــة وضـــروب متفرقـــة ومعـــاني مؤتلفـــة، بـــذلت في ذلـــك جُهـــدي حســـب معْرفتي وقُدْرتي.

لكنَّ قُـــــدْرَةَ مِثْلِي غَيْــــرُ خَافَيَــــــــــةٍ ... والنَّمْــلُ يُعْــذَرُ في القَــدْرِ الـــــــذي حَمَلَا

يا الله يا حي ويا قيـــوم يا من لا تأخـــذه ســـنةٌ ولا نوم.

يا بديع السموات والأرض.

فالق الحب والنوى ذا الجلال والإكرام.

الواحد الأحد الفـرد الصـمد الـذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

الملك القـدوس السـلام المـؤمن المهيمن العزيز الجبـار المتكـبر الخـالق البـارئ المصـور الأول الآخر الظاهر الباطن الذي أحاط بكل شيء علمًا.

القوي العزيـز الـرحمن الـرحيم الغفـور الـودود ذا العرش المجيد المبدؤ المعيد الفعال لما يُريد.

نسألك أن تجعل عملنا خالصًـا لوجهك الكـريم وأن تفتح لدُعَائِنَا باب القبُول والإجَابة.

وأن تنفع بهـذا الكتـاب من قـرأه ومن سـمعه وأن تأجر من طبعهُ أو أعان على طبعه.

أو تسـبَّبَ لطبعه وقفًا لوجهك الكـريم يُـوزع على من ينتفع به من المسلمين.

اللهم صل على محمد وعلى آله وصـــحبه أجمعين ...

عبدالعزيز آل محمد السلمان

فصل في الحكمة

قـال الله تبـارك وتعـالى: ﴿**يُـؤْتِي الحِكْمَـةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَـةَ فَقَـدْ أُوتِيَ خَيْـرًا كَثِـيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَـابِ**﴾، وعن عبدالله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «ما أَهْدَى المـرءُ المسـلمُ لأخيه هديـةً أفضـلَ مِنْ حكمَـةٍ يزيْدُهُ بهَا هُدَى ويَـرُدُهُ بها عن رَدَى» أخرجه الـبيهقي في «شعب الإيمان»، وأبو نعيم في «الحلية».

وقـــال –عليه الصـــلاة والســـلام-: «أوتيتُ جوامع الكلم واخْتُصَرتْ لي الحكمةُ اخْتصارًا».

في «الصحيحين»: عن أبي هريرة ﷺ، عن النـبي ﷺ قال: «بُعثتُ بجوامع الكلم».

وعن ابن مســعود قــال: ســمعت رســول الله ﷺ يقــول: «لا حسد إلا في اثنـتين: رجل آتـاه الله مـالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حِكْمـةً فهو يقضي بها ويعلمها» رواه البخاري ومسلم.

وقيل: إن في التـوراة أن الله قـال لموسى –عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام-: «**عَظِّم الحكمة فـــــــإني لا أجعل الحكمة في قلب عبد إلا وأوردت أن أغفر له فتعلمهـا، ثُم اعمل بهـا، ثُم ابذلها كي تنال بـذلك كرامـتي في الـدنيا والآخرة**».

وخـــرج أبو يعلى الموصـــلي من حـــديث عمر بن الخطـاب ﷺ، عن النـبي ﷺ قـال: «إني أوتيْتُ جَوَامِـعَ الكلم وخواتمه واختصر لي الكلام اختصـارًا»، وقــال ﷺ: «أعطيت جوامع الكلم واختصر لي الحـــــــــديث اختصارًا».

وقـال لقمـان: إن القلب ليحيا بالكلمة من الحكمة كما تحيا الأرضُ بوابل المطر.

وقـال أبـان بن سـليم: كلمة حكمة من أخيك خـيرٌ لك من مال يعطيك.

وقـــال بعض الحكمـــاء: الحكمة صـــديقة العقـــل، وميزان العدل، وعين البيان، وروضة الأرواح، ومزيحة الهموم عن النفوس بـإذن اللـه، وأنس المسـتوحش، وأمن الخـائف، ومتجر الـرابح، وحظ الـدنيا والآخـرة بـــإذن الله لمن وفقه اللـــه، وســلامة العاجل والآجل لمن وفقه الله.

وقال آخـر: الحكمة نـور الأبصـار، وروضة الأفكـار، ومطية الحلم، وكفيل النجاح، وضمين الخير والرشد، والداعية إلى الصواب، والسفير بين العقل والقلوب.

لا تنـــــــدرس آثارها ولا تعفو ربوعها كل ذلك لمن وفقه الله تعالى.

وروي عن الشعبي أنه قال: لو أن رجلاً سـافر من أقصى الشـام إلى أقصى اليمن ليسـمع كلمة واحـدة ينتفع بها فيما يُستقبل من عمـره ما رأيت أن سـفرهُ قد ضاع.

وقـال بعض العلمـاء: من تفـرد بـالعلم لم تُوحشه الخلوة، ومن تسلى بالكتب لم تفته سـلوة، وإن هـذه القلـوب تمـلُ كما تمل الأبـدان فـابتغوا لها طرائف الحكمة.

والحكمة موقظة للقلوب من سنة الغفلة، ومنقذة للبصـائر من سـنة الحـيرة ومحيية لها بـإذن الله من موت الجهالة ومستخرجة لها من ضـيق الضـلالة لمن وفقه الله تعالى، والله أعلم، وصلى الله على محمد.

حكم وفوائد ومواعظ

قيل لبعض العلمـــاء: لم تـــركت مجالسة النـــاس؟ قـــال: ما بقي إلا كبـــير يتحفظ عليك أو صـــغير لا يوقرك.

من ســـوء الأدب في المجالســـة: أن تقطع على جليسك حديثه أو تبدره إلى تمام ما ابتدأ به تُريه أنك احفظ له منه.

قــال رســول الله : «المجــالسُ بالأمانــة، وإنما يتجـالس الـرجلان بأمانة الله –عز وجـل- فـإذا تفرقا فليسترُ كل منهما حديث صاحبه».

روي عن عيسى ـ عليه السلام ـ أنه قال: جالســوا من تُـذكركم بالله رؤيتــه، ويزيد في علمكم منطقــه، ويرغبكم في الآخرة عمله.

قــال مسـعرُ بن كـدام: رحمن الله من أهـدى إلي عيــوبي في ســترٍ بيــني وبينــه، فهو الناصــح، فــإن النصيحة في الملأ تقريع.

إيـــاك وكل جليس لا يفيـــدك علمًا ولا تكسب منه خــيرًا، وإيــاك وطــول المجالسة لمن لا يفيــدك علمًا نافعًــا، فــإن الأسد إنما يجــترؤ عليها من أدام النظر إليها.

وقيــل: أزهد النــاس بالعــالم أهلــهُ وجيرانه لكـثرة الاتصــال بينهم، كل شــيء إذا تكـرر يمل إلا كلام الله وكلام رسله.

جمي الكتب يُـــــدرك من قراها ... ملال أو فتـــورٌ أو ســـآمةْ

سـوى القـرآن فـافهم واسـتمع لي ... وقـول المصـطفى يا ذا الشـهامةْ

وقال آخر: يا بُني لا تُمكن الناس من نفسك، فــإن أجرأ الناس على السباعِ أكثرُهم لها مُعاينةً.

قال الشاعر:

رأيتُ حياة المـرء تُـرخصُ قـدرةُ ... فـإن مـات أغلتـهُ المنايا الطـوائحُ

كما يُخلق الثـــوب الجديد ... كذا تخلـقُ المـرء العيـون

ابتذاله اللوامـــــــــــــــــــعُ

وقال بعض العلماء يصف أهل بلده:

يـــــــــرون العجيب كلام الغـــــــــــــــــريب
وأما القـــريبُ فلا يُعجبُ
وجــــوابُهم عند تعـــنيفهم
مُغنية الحي لا تُطـــــرب

من التواضع الرضا بالدُون من المجلس.

ويـروى عن ابن مسـعود أنه قـال: إنَّ من التواضع أن ترضى بالدُون من المجلس، وأن تبدأ السـلام من لقيت.

قال إبراهيم النخعي: إن الرجل ليجلس مع القــوم فيتكلَّمُ بالكلام يُريد الله به فتصـيبهُ الرحمة فتعم من حوله.

وإن الرجل يجلس مع القـــــوم فيتكلمُ بــــالكلام يسخطُ الله به فتصيبه السخطة فتعمُ من حولهُ.

وقـــال : «وَيْـــلٌ لِلَّذِي يُحـــدِّثُ النـــاسَ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَهُمْ وَيْلٌ لَهُ ثُم وَيْلٌ لَهُ».

قلت: وفي زمننا هذا قد كثروا جدًا فكُن على حذر منهم ومن يتصـلُ بهم عافنا الله وإيـاك من شـرهم، والله أعلم، وصلى الله على محمد.

فصل في حكم وفوائد ومواعظ ووصايا ينبغي الاعتناء بها

أجلُّ السرور رضى الرب جلَّ وعلا وتقدَّس.

أغنى الغنا صحةُ العقيدة والفقه في الدين.

القلوب الفارغة من طاعة الله مُوكلةٌ بالشهوات.

أفضل أمر الـدين والـدنيا وأشـرفه العلم النـافع والعمل الصالح والعلم النافع ما جاء عن النبي .

أفضل ما في الآخـــرة رضى الله ورؤيته وســـماع كلامه.

ومما أوصى به بعضهم ما يل:

لا تمل مع الهوى وحلاوة الدنيا فإنهما يصُـدَّانكَ عن الشغل بمعادكَ وتكون كالغريق المشتغل عن التدبير لخلاص نفسه بحمـلِ بضـاعةٍ ثقيلة قد اغـتر بحسـنها وهي سبب عطبه.

وقـــال: أبعـــدوا عن مُخالطة الخونة والفســـقة ومُبتغي الملاهي والضلال وأصحاب البدع كالأشـاعرة والرافضة والمعتزلة والجهمية والصوفية المنحرفة.

واحذر أن تغترَّ بقول المُغفلين نُخـالطُهْمَ لنجـذبَهُم إلى الاستقامة وهذا غلط.

أهل البـدع والفسـقة وأصـحاب الملاهي كأصـحاب الكورة والتلفاز والفيديو مجالستهم تضر وهم مرضاء عقول.

والصحيح هو الذي يتضرر بمخالطة المريض، وأمــا المريض فلا يبرأ بمخالطة الصحيح، وقديمًا قيل:

وما ينفع الجربـــاء قُـــربُ صـــــــــــــــحيحةٍ
إليها ولكنَّ الصـــــــحيحة تُجْـــــــــــــــــرَبُ

يبقى الصالح صالحًا حتى يُصاحب فاسدًا فإذا صاحبه فسد مثل مياه الأنهار تكون حُلوة عذبة حتى تخالط ماء البحر فإذا خالطته ملُحت وامترت وفسدت.

ولكن الدعاية إلى مخالطة أهل المنكر لجــــذبهم عنه خِدْعَة من إبليس وأتباعه لِسُخَفَاءِ العُقول.

فكم أوقعـوا في هـذه الشـبكة من مُغفَّل زعم أنه يجـــذبهم فجـــذبوه وأغرقـــوه وبقي في الحســـرة والندامة.

وقـال: اعلمـوا واسـتيقنوا أن تقـوى الله سـبحانه وتعـــــالى هي الحكمة الكـــــبرى والنعمة العُظمى والسـببُ الـداعي إلى الخـير والفـاتح لأبـواب الفهم والعقل والخير.

كَيْـفَ الرَّحيـلُ بلا زادٍ إلى وطن
ما ينفـعُ المــرء فيه غـيرُ تقـــــــــــواهُ

من لم يكن زادُه التقـــوى فليس له
يـــوم القيامة عُـــذْرٌ عند مــــــــــــولاهُ

وقال: استشعروا الحكمة، وابتغوا الديانة، وعـودُوا أنفسكم الوقـارَ والسـكينة، وتحلـوا بـالآداب الحسـنة الجميلة، وتروَّوْا في أموركم، ولا تعجلوا ولاسـيما في مُجازاة المُسيء.

واجعلـــوا خشـــية الله حشو جنـــوبكم في الحكم، واحذروا النِّفـاق والريـاء ولا تُزكـوا الخونة ولا تُخونـوا الأزكياء.

وقـــال: إذا جـــادلكم المخـــالفُون لكم في الـــدين بالفضاضَة والغلظة وسُـوء القـول فلا تقـابلوهُم بمثل ذلـــك، بل قـــابلُوهُم بـــالرفقِ واللين واللطف والدلالة والهداية.

قال الله جل وعلا لنبيه ﷺ: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾.

وقال جلا وعلا وتقدس: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَـكَ وَبَيْنَـهُ عَـدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَـا إِلاَّ الَّذِينَ صَـبَرُوا وَمَـا يُلَقَّاهَـا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾.

وقال عز من قائل في صفة أهل العبودية الخاصة: ﴿**وَعِبَـادُ الـرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُـونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَـاهِلُونَ قَـالُوا سَـلامًا**﴾، وقال: ﴿**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا**﴾، وقال جل وعلا وتقدس: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْـوِ مُعْرِضُـونَ**﴾، وقـــال عـــز من قائـــل: ﴿**وَإِذَا سَـــمِعُوا اللَّغْـــوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ**﴾.

إذا نطقَ السفيهُ فلا تجبهُ ... فخيرٌ من إجابَتِهِ السُكُوت

سَـكَتُّ عن السـفيهِ فظنَّ أني ... عـــييتُ عن الجـــواب وما عـــــــــــــييتُ

وقـال حكيم: أكـثروا من الصـمت في المحافل ولا تطلقـــوا ألســـنتكم بحضـــرة المتحفظين عليكم بِمَا عَسَى أن يجعلوه سلاحًا يضربونكم به وأقلـوا المـراء والهذْر والفضلَ من القول.

واحـذروا مصـاحبة الأشـرار، وأصـحاب البـدع في الدين، والحساد، والمشتغلين على العـداوة والأحقـاد والجهال.

وإذا هممتم بـالخير فقـدموا فعلـه لئلا يعارضـكم سواه فتوقفوا عنه، قال الشاعر:

وإذا هممت بـــأمر ســـوءٍ فاتئـــــــــــــــــدْ
وإذا هممت بـــأمر خـــير فاعْجَل

فصل

عبـاد اللـه: احرصـوا على تـأديتكم لفـرائض الله بالكمال والتمام والخشوع والخضـوع، من غـير عُجبٍ ولا استكبار، وإيَّاكم والتفاخر والتكاثر.

وعليكم بالسـكينة والإخبـات والتواضع لتسـتثمروا الخير من عمالكم، وتفوزوا برضاء ربكم.

وإذا فرط من الإنسان بادرة إثم بأن ارتكب منكرًا فعليه أن يُقلع فـورًا ويتـوب توبـةً نصـوحًا ولا تحمله السلامةُ منها على العودة إليها.

فإنها وإن سترت عليه في الـدنيا، فـإن أمامه يـومُ الدين يومُ المجازات على الأعمال، قال الله جل وعلا وتقـدس: ﴿**فَمَن يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ خَيْـرًا يَـرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًا يَرَهُ**﴾.

وأوصيكم بالتمسك بكتاب الله وسُّنة رسوله ﷺ.

قـال الله جل وعلا وتقـدس: ﴿**فَاسْتَمْسِـكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾، وقـال ﷺ: «عليكم بسـنتي وسـنة الخلفـاء الراشـدين المهـديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ».

وتــأدبوا بأدابهمــا؛ أي الكتــاب والسُّــنة، واقتــدوا بالعلمـاء العـاملين بعلمهم الـذي جَعلـوا الـدنيا مطية للآخرة.

واحـذروا كل الحـذر من المتسـمين بـالعلم الـذين هـدفهم الـدنيا فقـط، فضـررهم عظيم وتحـرزوا من المآكل الخبيثة، فإن الله طيبٌ لا يقبلُ إلا طيبًا.

واحتشـموا المكاسب الدَّنيئـة، فإنها سـببٌ لعـدم قبول الدعاء.

اجمعوا بين محبة الديانة والحكمة وقفوا نفوسـكم على تعلمها.

وإن قدرتم علي أن يكون زمان مقـامكم في هـذه الـدنيا مصـروفًا بأسـره إلى العمل بالكتـاب والسُّـنة فافعلوا.

ومـتى كنتم بهـذه الصـفة سـهل عليكم ما يصـعب على غيركم، وكان ما يحصل لكم من شرف الفضيلة أنفع من ذخائر الأموال؛ لأن عـروض الـدنيا تفـنى ولا تبقى وثواب الله يبقى ولا يفنى.

قال الله جل وعلا وتقدس: ﴿**بَلْ تُـؤْثِرُونَ الحَيَـاةَ الـدُّنْيَا * وَالآخِـرَةُ خَيْـرٌ وَأَبْقَى**﴾، وقـال جل وعلا وتقـدس: ﴿**وَمَـا عِنـدَ اللَّهِ خَيْـرٌ لِّلأَبْـرَارِ**﴾عبـاد الله سـاووا بين ظـواهركم وبـواطنكم في المخاطبـات بينكم، ولا تكن ألسنتكم مخالفة لضمائركم.

ولا تُخـالفوا الـرأي الصـواب، ومشـاورة النُصـحاء؛ لتأمنوا من الندامة، ويسلموا من الملامة.

ولتكن أفـــواهكم مملـــوءة بحمد اللـــه، وذكـــره، وشكره، والثنـاء عليه وتقديسه وتنزيهه عن النقـائص والعيوب.

وليكن همكم مصـــروفًا إلى طاعة ربكم ســـبحانه وتعـــالى، واجتهـــدوا في دعائه بقلـــوب ســـليمة، واعتقادات مستقيمة.

يستجب لكم، ويبلغكم آمالكم، ويفتح لكم أبواب الرشد في مساعيكم ومتوجهاتكم، ويعصمكم من أفكار السُوء، ويحفظ أنفسكم من المكاره، وينجيكم من فخاخ الآثام، ويردَّ عنكم المخاوف، فما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها.

وقال: اكتسبوا الأصدقاء، وقدموا الاختبار لهمن قبل الاستنامة إليهم، ولا تعجلوا بالثقة بهم قبل الاختبار، لئلا يلحقكم الندم والأسف، وتنالكم منهم المضرة.

أبل الرجال إذا أردت إخاءهُمْ ... وتوسَّمنَّ أمورُهم وتفقَّد
فإذا ظفرتَ بذي الأمانة والتُّقى ... فبه اليدين قريْرَ عَيْن فاشْدُد

صحبة أهل الصلاح تورث في القلب الصلاح، وصحبة أهل الشر والفساد تورث في القلب الفساد.

أخوك من عرَّفك العيوب، وصديقك من حذَّرك من الذُنُوب.

كان بعض العلماء لا يدع أحدًا يغتاب في مجلسه أحدًا، يقول: إن ذكرتم الله أعناكم، وإن ذكرتم الناس تركناكم.

وقال آخر: لا تكن وليًا لله في العلانية وعدوهُ في السر.

وقال: كل ما شغلك عن الله عز وجل من أهل ومال وولدٍ فهو عليك شُؤم.

إذا كانت الآخرة بالقلب جاءت الدنيا تزاحمُها وإذا كانت الدنيا بالقلب لم تزاحمها الآخرة؛ لأنها كريمة، فاجعل الآخرة في قلبك.

ومن أعطاه الله فضلاً في دنيا فليحمد الله، وليكثر من شكره وذكره، ولا يفخرنَّ به على أخيه، ولا يتداخله الكبرُ والعجبُ والتعاظمُ.

وقــال: لا تبــدر منكم عند الغضب كلمــةُ الفحش، فإنها تزيد العـــار والمنقصـــة، وتلحـــقُ بكم العيب والهجنة، وتجر عليكم المآثم والعُقوبة.

وقال: خير الملوك شرفًا من بدل سُنة السـوء في مملكته بالسُّـنة الصـالحة، وشـرهم من بـدَّل السُّـنة الصالحة الحسنة بالسُنة السيئة.

والدليل على غريزة الجود السـماحةُ عند العسـرة ومعنى العُسرة (الضيق والشدة).

والـدليل على غريـزة الـورع الصـدق عند السـخط والبُعد عن الشبهات ومواضع الريب والإكثـار من ذكر الله وحمـــده وشـــكره والتفـــتيش على المآكل والمشارب والملابس ونحوها بدقة.

والدليل على غريزة الحلم العفو عند الغضب.

ومن أعظم النـــاس مُصـــيبة من لم يكن عقل ولا حكمة، ولا له في الأدب رغبة.

لا يبخل بـــالعلم على مســـتحقيه إلا جاهل قليل العلم، وإن لم يكن قليل العلم فهو دنيء الهمة حسَّاد.

ومن جــاد بــالعلم والحكمة فهو أفضل ممَّن جــاز بالمال وأبقى لـذكره؛ لأن المـال يفـنى والعلم يبقى، والله أعلم، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فصل يحتوي على حكم وآداب متنوعة

ما ينبغي للعـــالم أن يطلب طاعة غـــيره وطاعة نفسه ممتنعة عليه.

يَا أَيُّها الرجـــــلُ المُعَلِّم غـــــــــيرَهُ ... هَلاَّ لِنَفْسِـــكَ كـــانَ ذَا التَّعْلِيْمُ

تَصِفُ الدواءَ لِذِي السِقامِ مِن الضـــــنى ... كيما يَصِحُ بِهِ وأنْتَ سَـقيمُ

ما زِلْتَ تُلْقَحُ بالرشَّـــادِ عُقُولنا ... عظت وأنت من الرشـــاد عَـــــــدِيْمُ

إذا وليت أمــرًا فأبعــد عنــك الأشــرار والفســقة والمجرمين، فإن جميع عُيوبهم تُنسـبُ إليـك رضـيت أم سخطت.

عن المرء لا تسـأل وسل عن قرينه
فكل قـــرين بالمقـــارن يقتـــــــــــــدي

فـإِنَّ قَـرِينَ السُـوءِ يُـرْدِي وشَـــــــــــاهِدِي
كما شَـرقَتْ صَـدْرُ القَنَـاة من الـــــــــــدَّمِ

الحكمة كـالجواهر في الصـدف في قعـور البحـار، فلا تنال إلا بالغواصين الحذَّاق.

العاقل لا تدعُهُ عيوبه يفرح بما ظهر من محاسنه.

النصح بين الناس تقريع.

إعـادة الإعتـذار تـذكير للـذنب وما عفا عن الـذنب من ويَّخ به.

رب كلام جوابه السـكوت، ورب عمـلٍ الكـفُ عنه أفضل، ورب خصومة الإعراض عنها أصوب.

الـــدنيا تُهينُ مَن كـــانْتْ تكْرِمُه
والأرضُ تأكل مَن كـــانْتْ تطْعِمُه

نَميْـــرُ من أمِّنَا الغَبْـــراءِ مِيْرتَنَا
ولِلْبَسِـــيْطَةِ مِنْ أجْسَـــادِ نَـــــــــــــامِيَرُ

أمر الدنيا أقصر من أن تتعـادى فيه النفـوس، وأن تتفانا وأن تطاع فيه الضغائن والأحقاد.

وقـال: لا يسـتطيع أحد أن يجد الخـير والحكمة إلا أن تُخلص نفسه في المعـــــاد، ولا خلاص له إلا أن تكون له ثلاثة أشياء: وزير، وولي، وصديق.

فوزيره عقله، ووليه عفته، وصديقه عمله الصالح.

الجـود أن تجـود بمالـك، وتصـون نفسـك عن مـال غيرك، وأقصى غاية الجود أن تجود بنفسك في سبيل الله.

يَجُــوْدُ بــالنَّفْسِ إنْ ظَنَّ البخيــلُ بها ... والجُـوْدُ بـالنَّفْسِ أَقْصَـى غَايَــةِ الجَــودِ

العجب ممن يحتمي من المآكل الرديئة ولا يــترك الذنوب مخافة رب العالمين، ويستحي من الخلق ولا يسـتحي ممن لا تخفى عليه خائفــة، قــال تعــالى: ﴿**يَسْـتَخْفُونَ مِنَ النَّـاسِ وَلاَ يَسْـتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ**﴾.

العمى خـيرٌ من الجهـل؛ لأن العمى يخـافُ منه السُقوط في حُفـرة، والجهل يخـاف منه الوقـوع في الهلاك.

ينبغي للـرئيس أن يبتـدي بتقـويم نفسه قبل أن يبتدي بتقويم رعاياه.

وإلا كان بمنزلة من رام اسـتقامة ظل معـوجٍّ قبل تقويم عوده الذي هو ظل له.

إبْـدَأْ بِنَفْسِـكَ فانْهَهَا عن غَيِّهَا ... فــإذا إنْتَهَتْ عنه فــأنْتَ حَكَيُم

فهنــاكَ يُقْبَــلُ ما تقُــولُ ويُقْتَــدَى ... بالرَّأي مِنْك ويَنْفَعُ التَّعْليمُ

استدامةُ الصحة تكـون بـإذن الله بـترك التكاسُـل عن التَّعب، وبـترك الامتلاء من الطعـام والشـراب وترتيب المآكل.

للقلب آفتان الهمُّ والغم، فالغمُ يعرض منه النـوم، والهم يعرضُ منه السهر.

العلم كثـير والعمر قصـير فخذ من العلم أحسـنه وما بلغك قليله إلى كثيره.

ما حـوى العلم من الخلق ... لا ولو حاوله ألف سَــنةْ

أحد فاتَّخــذْ مِن كُــلْ شــيءٍ
إنَّما العِلْمُ كَبَحْــرٍ زاخــرٍ أَحْسَـــــــــــــــنَهُ

عجبًا لمن عـرف الـدُنيا وأنها دار فنـاء كيف تلهيه عن دار البقــــاء الــــتي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

إعطاء المريض ما يشتهيه أنفع له من أخذه كل ما لا يشتهيه.

الدنيا تنصح تاركها وتغش طالبها، فنصيحتها لتاركها ما تُريه من تغيرها بأهلها وفتكها بهم ونكـدها وكـدرها وغمومها وهمومها، وغشها لطالبها ما تذيبقه من لـذة ساعتها ثم تعقبُهُ مرارة طعمها وسُوء مُنقلبها.

طـالب الـدنيا كنـاظر السـراب يحسـبه سـببًا لريه فيتعب نفسه في طلبــه، فــإذا جــاءه خانه ظنه وفاته أمله وبقي عطشه ودامت حســرته وندامتُــهُ وخسر طُول عنائه.

وقال آخر: الإنسان في الدنيا مُعذَّبٌ بجميع أحوالها غير باق عليه ما يصيرُ إليه من أسبابها.

قليل التهنئة بما يجده من ملاذها دائم النكد والكبد والغُصص بمفارقة أحبابه فيها.

يا هــذا الــدنيا وراءك والآخــرة أمامك والطلب لما وراءك هزيمةٌ، إنما يعجب بالدنيا من لا فهم له الــدنيا كأضغاث أحلام تسرُّ النائم.

لُعب خيــال يحســبها الطفل حقيقــةً، فأما العاقل فيفهمها.

رَأَيْتُ خَيَــاَ الظِــلِ أكْبَــرَ عِْبَــــــــــــــرةٍ لمنْ هُو في علْمِ الحَقيْقَةِ رَاقِي
شُــخُوصٌ وأشْــبَاحٌ تَمُــرُّ وتَنْقَضي جَمْيعًا وتَفْــنى والمُحَــرِّكُ بَـــــــــــــــــاقِ

قال ثابت بن قرة: راحة الجسم في قلة الطعـام، وراحة الـروح في قلة الآثـام، وراحة اللسـان في قلة الكلام، قلت: إلا بذكر الله فكثرته أولاً.

والـــذنوب للقلب بمنزلة الســـموم إن لم تهلكه أضــعفته ولابُـــدَّ، والضــعيف لا يقــوى على مقاومة العوارض، قال عبدالله بن المبارك:

رَأَيْتُ الـــذُنُوبَ تُمِيْتُ القُلـــوب ... وقد يُـورثُ الـذلَّ إدْمَانُهَا
وتَـــرْكُ الـــذُنُوبِ حَيَـــاةُ القُلـــوبِ ... وخَيْـرٌ لِنَفْسِـكَ عِصْـيَانُهَا

كل شيء إذا كثر رخص إلا العلم والعقل كلما كـثر أحـدهما إلا، والله أعلم، وصـلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

أشد الأمور تأييدًا للعقل أربعـة: اسـتخارة اللـه، ثم مشاورةُ العلمـاء المخلصـين، وتجربة الأمـور، وحُسن التثبت والتوكل على الله.

و أشـــدها ضـــررًا على العقل الاســـتبدادُ بـــالرأي، والتهاون والعجلة.

قـــال بعض العلمـــاء: إذا ظفر إبليس من ابن آدم بثلاث لم يطلبه بغيرهن: إذا أعجب بنفسـه، واسـتكثر عمله، ونسي ذنوبه.

ثلاثــةٌ من أقل الأشــياء ولا يــزددن إلا قلــة: درهم حلال تنفقُه في حلال، وأخ في الله تأنسُ به وتسـكنُ إليه، وأمين تطمئن إليه وتستريح إلى الثقة به.

إذا عاديت أمـرًا فلا تعـادي جميع أهلـه، بل صـادق بعضهم، ليكن سلاحًا لك عليه، ويكف أذيته عنك.

قيل لبعضـهم: من الـذي يسـلم غالبًا من النـاس، قال: من لم يظهر منه لهم خيرٌ ولا شر؛ لأنه إذا ظهر

منه لهم خـــيرٌ عــاداه شـــرارهم، وإن ظهر منه شر عاداهُ خيارهم.

احــرص على مجالسة العُلمـاء المسـتقيمين، فـإنَّ العقـول تلقُح العُقـول، واحـذر من علمـاء الـدنيا كل الحذر فهو الذئاب الضارية.

لا تفني عمـرك في البطالة ولا بالكد فيما لا منفعة لك به.

ولكنه أفنه في الباقيـات الصـالحات لتفـوز برضا الله.

قـال أحد الملـوك لأحد الحكمـاء: من تـرى نُـولِّي القضـاء؟ قـال لـه: من لا يهُـزُّهُ المـدحُ، ولا يمحكُه الإغـراء، ولا تضـجرهُ فدامة الغـبي، ولا يغـره فهمُ الذكي.

وقـال آخـر: إن السـعاة أخبثُ من اللصـوص؛ لأن اللصوص يسلبون الأموال وهؤلاء يسـلبون المـودَّات، قلتُ: ويوقعون في المهالكِ والأضرارِ.

تنعَّمْ بمالك قبل أن يتنعَّم به غيُـرك واحـرص على بذله فيما يقربك إلى الله والدار الآخرة كبناء مسـاجد وبث كُتْب دينيـــةٍ تعين على فهم الكتـــاب والسُّـــنة، واحذر أن يكون عونًا على معاصي الله.

من نـــزلت به مصـــيبة فـــأراد تخفيفها وتمحيقها فليتصـــور أكـــثر مما هي وأعظم تهن عليه ولـــيرجو ثوابها يرى الربح في الاقتصار عليها.

وليتصور سـرعة زوالها فإنه لـولا كـرب الشـدة ما رُجيت ساعة الراحة.

وليعلم أن مدة مقامها كمدة مقام الضيف فليتفقد حوائجه في كل لحظة فيا سرعة انقضاء مقامه.

قــال عمر بن الخطــاب: الفــواقرُ في ثلاث: جــارُ ســوء في دار مقـام إن رأى حسـنة سـترها وإن رأى سـيئة أذاعهـا، وامـرأة سـوء إن دخلت لسـنتْكَ (أي

سليطةُ اللسان) وإن غبتَ لم تأمنها، وسُـلطانُ جـائر إنْ أحسنت لم يحمدك وإن أسأت قتلك.

قـال الحسـن: لـولا ثلاث ما وضع ابنُ آدم رأسـه: المرض، والفقر، والموت.

كدر العيش في ثلاث: الجار السوء، والولد العـاق، والمرأة السيئة الخلق.

حب الـدنيا يُـورثُ الضـغائن والعـداوات ويـزرع الأحقـاد ويُكمنُ الشر ويمنع الـبر ويسـبب العقـوق وقطيعة الرحم والظلم.

طالب الدنيا قصيرُ العُمر كثير الفكر فيما يضـرُ ولا ينفع.

طالب الدنيا كراكب البحر إن سلم، قيـل: مخـاطر وإن عطب قيل مغرور.

شعرًا:

أَلا كُــلُ حَيٍ هالِــكٌ وابنُ هَالِــكٍ ... وذُوْ نَسَــبٍ في الهــالكينَ عَرِيْــقُ

فَقُــلْ لِغَــرِيْبِ الــدارِ إنَّكَ رَاحِــلٌ ... إلى مَنْــزِلٍ نَــائي المَحَــلِّ سَــحِيْق

وَمَا تَعْـــدِمُ الـــدُنيا الدَّنِيَّةُ أَهْلَهَا ... شِــواظَ حَرِيْــقٍ أو دُخَــانَ حَرِيْق

تُجَـــرِّعُ فيها هَالِكًا فَقْـــدَ هالِــكٍ ... وتشــجى فريقًا مِنْهُمُــوا بفَرِيْق

فلا تَحْسَــبِ الــدُنيَا إذَا ما سَــكَنْتَهَا ... قَــرَارًا فَمَا دُنْيَــاكَ غَيْــرُ طَرِيْق

إذا امْتَحَنَ الــدنيا لَــبيْبٌ تَكَشَّــفَتْ ... له عن عَـــدُوٍ في ثِيَــابِ صَــدِيْق

عَلَيْكَ بِدارٍ لا يَزَالُ ظِلالُها ... ولا يَتَــأَذَّى أهْلُهَا بِمَضِــيْق

فَمَا يَبْلُـغُ الرَّاضِـي رِضـاهُ بِبُلْغَــةٍ ... ولا يَنْفَـعُ الصَّــادِي صَـداهُ برِيْق

من خاف من شيء عمل ما يُؤمِّنُه، فمن خاف من المــوت فليعمل ما يرجُو به الســلامة وبــابُ التوبة مفتوحٌ، وأبوابُ الخير مفتوحة، وقد حث الله ورسوله عليها.

العاقل يعرف بكثرة صمته، والجاهلُ يُعرفُ بكـثرة كلامه.

الكلام مملــوك للإنســان ما لم ينطق به صــاحبه، فإذا نطق به خرج عن ملكه له.

حُسن الخلق يغطي غـــيره من القبـــائح، وســـوء الخلق يغطي غيره من المحاسن.

من حسُن خلقه طابت عيشته ودامتْ سـلامته في الغالب وتأكدت في النفوس محبتـهُ، ومن سـاء خلقه تنكدت عيشته ودامت بغضته ونفرت النفوسُ منه.

قــال الله جل وعلا وتقــدس لنبيه ﷺ: ﴿**وَلَـوْ كُنتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾.

حُسْنُ الخلُق يُـؤدي غالبًا إلى السـلامة ويـؤمنُ من الندامة ويُســببُ الألفة ويبعث على الفعل الجميــل، ويؤمنُ من الفرقة بـإذن الله تعـالى، ومن سـاء خُلُقُه اجتمع عليه نكد الدنيا والآخرة.

شعرًا:

لأن كــانت الأفعــال يومًا لأهلها	كمالاً فحُسْنُ الخُلق أبهى وأكمـــــــــــــــــلُ
وإنْ كــانَتِ الأرزاق رزقــاً مُقَــــــــــــــــدَّراً	فقلتُ جُهْــدِ المَــرْء في الكَســــبِ أجْمَــــــلُ
وإن كــانت الــدُنيا تعــدُّ نفيســــــــــــــةٍ	فـــدارُ ثـــواب الله أعلى وأنبــــــــــــــــلُ
وإنْ كانت الأبدانُ للمـوتِ أنشــــــــــــئتْ	فقتلُ امـرئٍ بالسـيف في الله أفضل
وإن كانت الأموال للــترك جمعها	فما بالُ مـتروكٍ به المـرء يبخـــــــــــــــلُ

وقال : «البر حَسْنُ الخلق».

وقال : «إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا».

وقــال : «ما من شــيء أثقل في مــيزان العبد المؤمن يوم القيامة من حُسْن الخُلُق».

وسُـئل عن أكـثر ما يـدخل النـاس الجنـةَ، قـال: «تقوى الله، وحُسْنُ الخُلُق».

وقال : «أكمل المؤمنين إيمانًا أحْسَنُهم خُلُقًا».

وقال : «إن المؤمن لَيُدْرِكُ بِحُسْـنِ خُلُقِـهِ دَرَجَـةَ الصائِمِ القائمِ».

وقـــال : «إنَّ من أحَبكم إليَّ وأقْـــرَ بكم مِـــني مَجْلسًا يومَ القيامِةِ أحَسِنكم أخلاقًا».

وقيل في تفسير حُسْنِ الخُلُـق: هو طلاقـةُ الوجـه، وبــذل المعــروف، وكــفُّ الأذى، وطيبُ الكلام، وقلة الغضب، واحتمال الأذى.

لأجل حُبِّ الــدُنيا صُــمت الأســماعُ عن ما ينفــعُ الإنســان دُنيا وأخــرى، وعميت القُلُــوبُ عن نُــور البصيرةِ.

ينبغي للعاقِــلِ أن لا يغـترَّ بحُسْــن شـبابِهِ وصـحَّةِ جِسْمِهِ.

فإن عاقبةَ الصحةِ السقم وربما أعقبه الموت.

لا تَغْــترر بشَــبَاب نــاعم ... فكم تَقَــدَّمَ قَبْـلَ الشَّـيْبِ
خظـــــــــــــلٍ ... شُـــــــــــــبَّانُ

مما ينبغي ويُستحســنُ عِمــارَةُ الــذِهن بالحكمــة، وجلاءُ العقل بــالأدب، وقمــعُ الغضب بــالحلم، وقمــعُ الكِبر والعُجْب بالتواضع.

وقمــع الشــهوة بالزُهْــدِ والعفــةِ، وتــذليلُ المــرَحِ بالسُــكُون، وردْعُ الحِــرص بالقناعِــةِ يُكْسِــبُ رَاحَــةَ النفسِ والبَدَنِ.

هي القناعــةُ فالْزَمْها تكنْ ... لو لم يَكنْ لـــكَ الإراحـــةَ

مِلكًا البَـــــــــــــــــدَنِ

إذاَ كُنْتَ في الـدنيا قَنُـوعٍ فَأنْتَ ومالكُ الدنيا سَـوَاء

أكْـرِمْ يَـدَيْكَ عن السُـؤالِ فإنَّما قَـدَرُ الحيـاةِ أقـلُّ مِنْ أن تسْـــــــــــــــألَا

ولقَـــدْ أضُـــمُّ إليَّ فَضْـــلَ قَنـــــــــــــاعَتي وأبيْتُ مُشتملاً بها مُتَزمِّلاً

وأرى الغُـــــــــــدُوَّ على الخَصَاصَـــــــةِ شَـــــارَةً تَصِــفُ الغِــني فتخَــالُني مُتمِّولاً

وإذا الفَتَى أفْنَى اللَّيَـــاليَ حَسْـــــــــــــــرَةً وأمَانيا أفْنَيْتُهُنَّ تـــــــوكلاً

والله أعلم، وصــلى الله على محمد وآله وصــحبه وسلم.

فصل

قـال لقمـان لابنـه: يا بـني، أكـثر من ذكر الله عز وجــل، فــإنَّ الله ذاكـــرُ من ذكــرهُ، قـــال جل وعلا وتقدس: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾.

يا بُـــني، لتكنُ ذُنوبُـــكَ بين عَينَيْـــكَ، وعملك خلف ظهرك، وفرَّ من ذنوبكَ إلى الله، ولا تستكثر عملك.

يا بني، إذا رأيتَ الخـاطئ فلا تُعَيِّرْهُ واذْكُـرْ ذُنُوبَـكَ فإنما تسأل عن عَمَلِك.

يا بُني، أطعْ الله فإنَهُ من أطاعَ الله كفـاهُ ما أهمَّهُ وعصَمَهُ مِن خَلْقِهِ.

يا بُنيَّ، لا تَـرْكَنْ إلى الـدنيا ولا تُشْـغِلْ قَلبَـكَ بحبها فإنَك لم تخلق لها وما خلق الله خلقًا أهـــــون عليه منهــا؛ لأنه لم يجعل نعمتها ثوابًا للمطيعين ولم يجعل بلاها عُقُوبةً للعاصين.

ميَّزْتُ بين جمالها وفعالَها فـإذا الملاحـةُ بالقباحـةِ لا

تَفِي

حَلَفَتْ لنا أن لا تخـــــــونَ فكَأَنمَّا حَلَفَتْ لَنَا أنْ لا تفي
عُهُودَنَا

تفي

وقـــال الله جل وعلا: **وَمَـــا أُوتِيتُم مِّن شَـــيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَـا عِنـدَ اللَّهِ خَيْـرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**، وقـال تعـالى: **بَـلْ تُـؤْثِرُونَ الحَيَـاةَ الـدُّنْيَا * وَالآخِـرَةُ خَيْـرٌ وَأَبْقَى**، وقـال : «من أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه أمــره وحفظ عليه ضيعته وأتته الدنيا وهي راغمة» الحديث.

وحقيقة الزهد خــروج حب الــدنيا والرغبة فيها من القلب.

وهـوان الـدنيا على العبد حـتى يكـون إدبـار الـدنيا وقلة الشيء أحب إليه وآثر عنــده من إقبالها وكثرتها هذا من حيث الباطن.

وأما من حيث الظــــاهر فيكــــون متجافيًا عنها مع القدرة عليها.

ويكـون مقتصـرًا من سـائر أمتعتها مـأكلاً وملبسًـا ومســكنًا وغـير ذلك على ما لابد نــه، قلت: هــذا في عصرنا نادرًا الوجود كالكبريت الأحمر.

كما قــال : «ليكن بلاغ أحــدكم من الــدنيا كــزاد الراكب».

يا بُني، لا تَفْرَحْ بطـول العافيـة، واكتم البلـوى فإنه من كنوز البر، واصبر عليها فإنَّهُ ذُخْرٌ لك في المعاد.

يا بُـنيَّ، عليك بالصـبر واليقين ومجاهـدة نفســك، واعلم أنَّ الصــبر فيه الشــوقُ (أي الشــرف)، وفيه الشفقةُ والزهادةُ والترَقُب.

فـإذا صـبرت عن محـارم الله وزهـدت في الـدنيا وتهاوَنْتَ بالمصائب (أي مصائب الــدنيا) لم يكنْ أحبَّ إليكَ مِن الموت وأنْتَ تترقبُه.

وإيَّاك والغفْلةَ، خفِ الله ولا تُعْلِمْ بذلك النـاسَ، ولا يغُرنَّك النـاسُ بما لا تعلم من نفسـك، لا تغـتر بقـول الجاهل إن في يَدَكَ لُؤْلُؤةً وأنت تعلم أنَّها بَعْرَةٌ.

يا بـني، كنْ لَيْن الجـانب، قـريْبِ المعـروف، كثـيرَ التفكر قليـلَ الكلام إلا في الحـق، كثـير البُكـاء قليل الفرح.

ولا تمـــازحْ ولا تصَـــاخبْ ولا تمـــارِ، و إذا سَـــكَتَّ فاسكُتْ في تفكرُ، وإذا تكلمتَ فتكلم بِحِكَم.

يا بني، لا تُضَيِّعْ مالكَ وتصلحْ مالَ غيرِكَ، فإن مالكَ مَا قـــدَّمتَ لِنفْسِـــكَ، ومـــالَ غـــيركَ ما تـــركْتَ وراء ظَهْركَ.

يا بـــني، اجْعَـــلْ هَمَّكَ فيما كُلفْتَ ولا تجعل همَّك فيما كُفيت، لا تهْتَمَّ للدُنيا فتشغلكَ عن الآخرة.

وقـال: يا بـنيَّ، إذا أنعم الله عليك نعمة فـيرَ أثرُهَا عليـكَ في شُـكْركَ وتواضُـعكَ وإحْسَـانكَ إلى مَن هُو دُونك.

وقال: لكل شيء آفة وآفة العمل العُجبُ، لا تُرائي الناس بما يعلم الله منك غيرهُ.

ولا تعجبن بما تعمل وإن كثر، فإنَّك لا تـدري أيقبل الله منك أم لا؟ والله أعلم وصـــــلى الله على محمد وآله وسلم.

فصل

يا بُني، أداءُ صلاتك الـتي فُرضت عليك أفضـلُ من كُل ما تعمل.

يا بُني: جـالس قومًا يـذكرون اللـه، إن كُنت عالمًا نفعك علمـك، وإن كنت جـاهلاً عَلَّمُـوك، وإن نـزلت عليهم رحمةٌ أو رزقٌ شركتهمُ فيه.

يا بُني، لا تجالس قومًا لا يـذكرون اللـه، فـإن كنت جاهلاً زادوك، وإن كنت عالمًا لم ينفعك علمك شـيئًا، وإن نزلت عليهم لعنةٌ أو سخطٌ شركتهم فيها.

وقـال: اعـتزلوا شـرار النـاس تصـلحْ لكم قلـوبكُم وتسترح أبدانُكُم وتطبْ نُفوسُكم.

وقــــال: اشــــكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شـكرك، فإنه لا بقـاء للنعمة إذا كُفـرت، ولا زوال لها إذا شكرت.

وقال: لقاء أهل الخير عمارة القلوب.

وقال: يا بني، إن الدنيا بحرٌ عميـقٌ وقد غـرق فيها ناسٌ كثير، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله، والأعمـال الصالحة بضـاعتك الـتي تحمـلُ فيهـا، والحـرصَ عليها ريحُكَ، والأيام موجُها، وكتاب الله دليلهـا، وردُّ النفس عن الهـوى حبالهـا، والمـوت سـاحلها، والقيامة أرض المتجر التي تخرج إليها، والله مالكُها.

يا مَنْ تَمَسَّـــــكَ بالـــــدنيا وزُخرُفها | وجـــدَّ في جمعهَا بالكَــدِّ والتَّعَبِ
هَلَّا عَمَــــرتَ لِـــدَارٍ أنتَ تسْـــــــــــكُنُهَا | دَار القَــرارِ وفيها مَعْــدِنُ الطَّلَبِ
فَعَنْ قَلِيــــــلٍ تراهَا وهْيَ دائــــــــــرةٌ | وقَدْ تَمـزَّقَ ما جَمَّعْتَ مِن نَشَـــــــب

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: يُؤتى بالدنيا يوم القيامة على صُـورةٍ عجـوزٍ شـمطاء زرقـاء، أنيابُها باديـةٌ مُشَـوَّهَةُ الخلقة لا يراها أحـدٌ إلا كرِهَهَا، فتُشْرِفُ على الخلائقِ، فيُقـال لَهُمْ: أتعرفُـون هذه؟

فيقال لهم: هذه التي تفاخرتُم وتحاربتُم عليهــا، ثم يُــؤمَرُ بها إلى النـــار، فتقـــولُ: يا ربِّ أين أتبـــاعي وأصحابي وأحبابي؟ فيلحقونَهَا.

ووجه إلقائها في النــــار لينظر إليها أهلها فــــيرون هوانها على الله جلَّ وعَلا.

وذكر في الخـبر عن عيسى ــ عليه السـلام ــ: أنه كان ذاتَ يومٍ ماشيًا إذْ نظر إلى امـرأةٍ عليها من كل

زينةٍ فذهب ليُغطي وجهـهُ عنهـا، فقـالت: اكشف عن وجهكَ فلستُ بامرأة أنا الدنيا، فقال لهـا: ألـكِ زوجٌ؟ فقالت لهُ: لي أزواجٌ كثير، فقـال: أكل طلَّقَـكِ أم كلاً قتلتِ؟ فقالت: بلْ كُلاً قتلتُ، فقال: حزنت على أحــد منهم؟ فقــالت: هم يحزنــون عليَّ ولا أحــزنُ عليهم ويبكون علي ولا أبكي عليهم.

ولو كـانَتِ الـدُنْيَا عَرُوْسًـا وجَـــــــــــدْتَها | بما قَتَلَتْ أوْلَادَهَا لا تَزَوَّجُ

ولو كــــانَتِ الــــدُنْيَا من الإنْسِ لم تكُنْ | سِــوَى مُــوْمِسٍ أفْنَتْ بِمَا سَـــــــــــــاء عُمْرَهَا

ورُوي أن رجُلاً قدم على النبي ﷺ من أرض، فسأله عن أرضهم، فـأخبرهُ عن سـعتها وكـثرة النَّعيم فيهـا، فقال رسول الله ﷺ: «كيف تفعلون؟» قال: إنـا نتخـذ ألوانًا من الطعـام ونأكلهـا، قـال رسـول اللـه ﷺ: «ثم تصير إلى ماذا؟» قال: إلى مـا تعلم يـا رسـول اللـه، يعني بولاً وغائطًا، فقال رسول الله ﷺ: «فكذلك مثـلُ الدنيا»

قَــــدْ نَــادَت الــدُنْيَا على نَفْســــــــــــهَا | لَو كـــانَ في العَــالَم مَن يَسْــــــــــــمَع

كَمْ واثِـقِ بـالعُمْر أفنيتُـهُ | وجَـامِعٍ بَـددْتُ ما يجمـعُ

والله أعلم، وصــلى الله على محمد وآله وصــحبه وسلم.

فصل

ثم اعلم: أن الــدنيا عبــارة عن كل ما يشــغل عن الله قبل الموت، فكلما لك فيه حظ وغـرض ونصـيب وشــهوة ولــذة في عاجل الحــال قبل الوفــاة، فهي الدنيا.

وليس كل ذلك مـذموم، بل المـذموم المنهي عن محبته هو كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمــــــرة له في الآخرة.

وإذا سمعت بذم الدنيا، فـاعلم أنه ليس راجعًا إلى زَمانها الـــذي الليل والنهـــار المتعاقبـــان إلى قيـــام الساعة.

فـإن الله سـبحانه وتعـالى جعلهُما خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا.

وليس الذم راجعًا إلى مكان الـدنيا وهو الأرض ولا إلى ما أنبته الله فيها مِن الشجر والزرع.

فإن ذلك كله من نعم الله على عبـاده لما لهُم فيه من المنافعِ والمصالحِ والاعتبار والاستدلالِ بذلك على وحدانيَّة الله وقدرتِه وعظمته وحكمته ورحمته بعباده.

قـــال جل وعلا: ﴿**هُـــوَ الَّذِي خَلَـــقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا**﴾، وقـال تعـالى: ﴿**وَفِي الأَرْضِ آيَـاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ**﴾.

وإنما المـــذموم أفعـــال بـــني آدم من المعاصي الكبائر والصغائر كالشرك وترك الصلاة وترك الزكـاة أو الصوم أو الحج وكالكـذب على الله أو على رسـله أو كراهة ما أنزل الله أو قتل نفس بغـير حق أو ظلم أو شهادة زور.

واللواط وقـذف المحصـنات والسـحر والزنا والربا والتولي يوم الزحف والرياء والعقوق وقطيعة الـرحم وأكل مال اليتيم والسـرقة والغصب والنميمة والغيبة والكبر والحسد والعُجْب والخمر والدخان.

واللهو واســتعمال آلاته والاجتمـــاع مع الكفـــار والتاركين للصلاة ومـواكلتهم واسـتخدامهم مـزارعين أو سـائقين أو خـدامين خيـاطين أو فراشـين أو نحو ذلك.

نسأل الله الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم أن يعصــمنا وإخواننا المســلمين منهم وأن يتوفانا ما أضلَّنَا سقْفٌ معَهم.

ومما يدخل في الدنيا المذمومة، ما قادَ العبــدَ إلى المعاصي وشــوقه إليها وألهــاه عن ذكر الله وأغفله عن الآخرة.

وذلك كــاللعب بــالكورة، والجلــوس عند التلفــاز، والفيــديو، والمــذياع، وضــياع الــوقت في المجلات، والجرائــد، واللعب في الــورق، والاشــتغال بحظــوظ الدنيا، والإعراض عن الله.

والتكاسل عن طاعته والتفــــاخر والتكــــاثر في الأموال والأولاد، وإيثار ملـذات الـدنيا وشـهواتها على الآخرة.

جــاء عن علي بن أبي طــالب أنه ســمع رجلاً يسب الدنيا، فقال لـه: إنها لـدار صِـدْقٍ لِمَنْ صَـدَقها، ودارُ عافية لمن فهم عنها، ودارُ غنى لِمَنْ تزود بها.

مسجدُ أحباب الله، ومهبطُ وحيه، ومُصـلّى ملائكته ومتجرُ أوليائِهِ.

اكتسبُوا فيها الرحمة، وربحـوا فيها الجنــة، فمن ذا يـذُمُ الـدنيا وقد آذنت بفراقهـا، ونـادت بعيبهـا، ونعت نفسها وأهلهـا، فمثَّلَتْ ببلائها وشـوَّقَتْ بسُـرورها إلى أهل السرور.

فذمَّهَا قـومٌ عند الندامة ومـدَحَهَا آخـرون، حـدثْتُهم فصدقوا وذكرتهم فذكروا.

فيا أيها المغــتر بالــدنيا المغــتر بغرورهــا، مــتى استلأمت إليك الـدنيا، بل مـتى غرتك أبمضـاجعِ آبائك تحت الثرى، أمْ بمصارع أُمَّهاتِكَ مِن البلى.

نَقِمْتَ على الدنيا ولا ذَنْبَ أسْـــلَفَتْ ... إليـــكَ فـــأنتَ الظـــالمُ المتُكَـــذِّبـ
وهَبْهَا فَتَـــاةً هَـــلْ عَلَيها جِنَايَـــةٌ ... بِمَنْ هُــوَ صَــبٌ في هَوَاهَا مُعَـــذَّبُ

كم قَلَّبْتَ بكفيك ومَرَّضْتَ بيـدك تطلب له الشـفاء وتسـأل له الأطبـاء فلم تظفُر بحاجَتِـكَ ولم تُسْـعَفْ بطلْبَتِكَ قد مَثلَتْ لك الدنيا بِمَصْرَعِه مَصْرعَكَ غدًا ولا يُغْني عَنكَ بُكاؤكَ ولا ينفعُكَ أحْبَابُك.

قال ابنُ رجب ـ رحمه الله ــ على كلا علي بن أبي طـالب : فَبَيَّنَ أمـير المؤمـنين أن الـدنيا لا تُـذم مطلقًا وأنها تحمدُ بالنسبة إلى من تزود منها الأعمال الصالحة، وأن فيها مساجدُ الأنبياء ومهبَطُ الوحي.

وهي دارُ التجارة للمؤمـنين اكتسـبُوا فيها الرحمـةَ وربحُـوا بها الجنــةَ فهي نعم الــدارُ لِمَنْ كـانت هــذه صفتُه.

وأما ما ذكر من أنها تَغُر وتخـــــدعُ فإنها تُنـــــادي بمواعظها وتنصح بعبرها تبـــدي عيوبها بما تُـــرى من أهلها من مصارع الهلكى.

وتقلب الأحـــوال من الصـــحة إلى الســـقم، ومن الشيبية إلى الهرم، ومن الغنى إلى الفقــر، ومن العز إلى الذل؛ ولكن مُحبها قد أعماه وأصمه حبها.

نَعَمْ إنها الـدنيا إلى الغَـدْرِ دَعْـــوَةٌ ... أجَابَ إليها عَالِمٌ وجَهُـوْلُ
وخَلَّى أمِيْـرَ المـؤمِنِيْنَ عَقِيْـلُ ... فَفَـارَقَ عَمْـرُو بنُ الزُبَيْـرِ شَـقِيْقَهُ

والله أعلم، وصــلى الله على محمد وآله وصــحبه وسلم.

فصل

روي أن عبدالعزيز بن مروان ـ رحمه اللـه ــ قـال لما حضـرته الوفـاة: إئتـوني بكفـني الـذي أكفن فيـه أنظر إليه فلما وضع بين يديه نظر إليه، فقـال: مـالي من كبير ما أخلـفُ من الـدنيا إلا هـذا، ثم ولى ظهـره فبكى وهـو يقـول: أف لـك من دار وإن كـان كثـيرك

لقليـل وإن كـان طويلـك لقصـير وإن كنَـا منـك لفي غرور.

مَكـرُ الـذنوبِ عَلينا غـيرُ ... فلا تَظُنَنَّ أمْـرًا غَـيرَ
مَـأمُونِ ... مَظْنُـونِ
بَـلْ المخَـوفُ علينا مَكْرُ ... ذَات المنَى دُونَ مَكْـرِ
أنْفُسِـنا ... الـبيْضِ والجُـونِ
إنَّ الليـاليَ والأيـامَ قَـدْ ... مِن مَكْرِهَا كُـلَّ مَسْـتُورٍ
كَشَـفَتْ ... ومَكْنُونِ
وحَـدَّثْتنَا بأنا مِن فَرائِسِـهَا ... نواطقًا بَفَصِـيْحٍ غَـيرِ
واسْتَشْـهَدَتْ مَن مَضـيَ ... مَلْحُـونِ
مِنَّا فأنْبأنَا ... عَن ذاك كـلُ لَقَى مِنَا
وأمُ سُـوْءِ إذا مَا رَامَ ... ومَـدْفُونِ
مُرْتَضِـعُ ... أخْلافَها صَـدَ عنها صَـدَّ
ونحنُ في ذاك نُصْـفيْهَا ... مَزْبُـونِ
مَوَدَّتَنَا ... تَبًا لكُل سَـفيْهِ الـرَأي
نَشـكُو إلى الله جَهْلاً قَـدْ ... مَغْبُـونِ
أضَـرَّر بنَا ... بَـلْ ليْسَ جَهْلاً ولكن علْمَ
أغَوَى الهَوىَ كلَّ ذي عَقْلً ... مَفْتُـونِ
فَلَسْـتَ تـرَى ... إلا صَـحِيْحًا له أفَعْـالُ
حَتَّى مَتَى نَشْـتَري دُنيًا ... مَجْنُـونِ
بـآخَرَة ... سَـفَاهَةً ونـبيعُ الفَـوْقَ
نَبْـني المعَاقِـلَ والأعْـداءُ ... بالـدُّوْنِ
يُخَلـدِنَا ... وقد أبَى قَبْلَنَا تَخْلِيـدَ
نَظَـلُ نَسْـتنفقُ الأعْمَـارَ ... قـارُونِ
طيّبَـةً ... عنها النُفُـوسُ ولا نَسْـخُوا
وما تـأخَّرَ حَيٌ بَعـدَ ميتـهِ ... بما عُـونِ
إلا تأخَّرَ نَقْـدٌ بَعـدَ عُرُبُـونِ

وكـان المعتمد بن عبـاد ملك إشـبيلية يرفُـلُ في زاهي حُلل الملك ويتقلب في أنواع النعيم والشـرف، وبعد أن سـلبُه تاشـفين مُلكَـهُ وقبض عليه وأسـره

وسجنه في أغمات، وحلت عليه في السجن بناتُه بعد مُــدة وكــان يــوم عيد وكُنَّ بعد ما انــتزع الملك من أبيهن يغـزلن للنـاس بـالأجرة في أغمـات حـتى إن إحداهن غزلتْ لأهل بيت صاحب الشرطة الـذي كـان في خدمة أبيها فيما مضى وهو في سـلطانه فـراهُنَّ في أطمارٍ رثةٍ وحالةٍ سيئةٍ يـرثى له فصد عن قلبـه، فأنشد هذه الأبيات:

فيما مَضَـــى في الأعيَــادِ مَسْــــــــــــرُوْرًا فَسَاءَكَ العِيْدُ في أغْمـاتٍ مَأْسُــــــــــــورَا
تَـرَى بَنَاتِـكَ في الأطمـار جَائعــــــــــــــةً يَغْــزِلْنَ لِلنــاس ما يَمْلِكْنَ قِطْمِيْــــــــــــرَا

ولما رجع السلطان محمد بن محمـود بن ملكشـاه من محاصرة بغـداد إلى همـذان أصـابه مـرضُ السل فلم ينج منه.

وقبل وفاته بأيـــام أمر أن يُعـــرض عليه جميع ما يملكه ويقدر عليه وهو جالس في المنظرة.

فـــركب الجيش بكماله وأحضـــرت الأمـــوال كلها ومماليكهُ حتى جواريه وحظاياه.

فجَعَلَ يبكي ويقول: هذه العساكر لا يدفعون عـني مثقـــال ذرة من أمر ربي ولا يزيـــدون في عمـــري لحظةً.

ثم نـــدم وتأسف على ما كـــان منه إلى الخليفة المقتفي وأهل بغداد وحصارهم وأذيتهم.

ثم قـال: وهـذه الخـزائن والأمـوال والجـواهر لو قبلهم ملكُ الموت مني فداءً لجدتُ بذلك جميعه له.

وهــذه الحظايا والجــواري الحســان والممالك لو قبلهم ملكُ الموت مني فداءً لجدتُ بذلك جميعه له.

ثم قـال: ﴿**مَـا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَـهْ * هَلَـكَ عَنِّي سُـــلْطَانِيَهْ** ﴾ثم فَـــرَّق شــــيئًا من ذلك الحواصل والأموال ثم توفي.

يـأتي على النـاسِ إصْـبَاحٌ وإمْسَـــــــــــــــــاءٌ وكُلُنا لِصُرُوْفِ الدهرِ نَسَّاءُ
خَسِسْتِ يا دَارَ دُنْيَانَا فأفٍّ لمنْ يَرضَى الخسِيْسَةَ أو نَـاسٌ أخِسَـــــــــــــــــاءُ
لَقَد نَطِقْتَ بأصْـــــــــنَافِ العِضَـــــــــــــــاتِ لنا وأَنْتِ فيما يظنُ النـــاسُ خَرْسَـــــــــــــــــاءُ
إذا تَعَطَّفْتِ يَوْمًا كُنْتِ قَاسِـــــــــــــــيَةً وإنْ نَظـــــرتِ بعَينٍ فهي شَوْسَـــــــــــــــاءُ
أيْنَ الملُوكُ وأبْنَاءُ الملوك ومَنْ كَانَتْ لهمُ عزةٌ في الملك قَعْسَــــــــــــــــاء
نــالوا يَسْــيرًا مِن اللَّذَاتِ وارْتحَلُــــــــــــــوا بِـــرَغْمِهِمْ فـــإذا النّعْمَـــاءُ بأسَـــــــــــــــاءُ

والله أعلم، وصلى على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

قيل: إن حاتم الأصم قـال لأولاده: إني أريـد الحج، فبكــوا، وقــالوا: إلى من تكِلْنَـا، فقــالت ابنتــه: لهم اسكتوا، دعوه فليس هـو بـرزَّاق، هـو الـرزاق فبـاتوا جياعًا وجعلوا يوبخون البنت، فقالت: اللهم لا تُخجلني بينهم، فمرَّ أميرُ البلـد وطلب مـاءً فناولـه أهـلُ حـاتم كُوزًا جديدًا فيه ماء بارد فشرب، وقال: دارُ من هذه؟ فقالوا: دارُ حاتم الأصَم فرمَى فيها منطقةً من ذهب، وقـال لأصـحابه: من أحبـني فعـل مثلي، فـرمى من حوله كُلُهم مثله فجعلت بنت حاتم تبكي، فقـالت لهـا أمها: ما يُبكيك وقد وسَّعَ الله علينا، فقـالت: مخلُـوقٌ نظر إلينا فاستغنينا، أي فما ظنـك بالخـالق جـل وعلا الذي سخر لنا هذا المخلوق فعطفه علينا.

قيل لبعض العلماء: كيف تـركت الصـبيان؟ فقـال: ﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا**

خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ تقوى الله لَنَا ولهُم.

قيل: إنه كان عبدالله بن المبارك يتجر في البحــر، ويقــول: لــولا خمسة ما اتجــرت: ســفيان الثــوري، وسـفيان بن عيينـة، والفضـيل بن عيـاض، ومحمد بن السماك، وابن علية.

وكـان يخــرج فيتجــرُ إلى خراســان فكلما ربح من شيء أخذ القوت للعيال ونفقة الحج والباقي يصلُ به إخوانهُ الخمسة.

فقـدم سـنة، فقيل لـه: قد وليَّ ابن علية القضـاء، فلم يأته ولم يصـله بالصُّـرة الـتي كـان يصـلُه بها في كل سنة.

فبلغ ابن علية أن ابن المبـــارك قد قـــدم فـــركب وتنكس على رأسه، فلم يرفع به عبدالله بن المبـارك رأسًا ولم يكلمه فانصرف.

فلما كــــان من الغد كتب إليه رقعــــةً: «بسم الله الرحمن الرحيم، أسعدك الله بطاعته وتـولاك بحفظه وحاطك بحياطته قد كُنت منتظرًا لبرك وصلتك أتبرك بها، وجئتك أمس فلم تُكلمني ورأيتُك واجدًا علي فأي شيء رأيت مني حتى اعتذر إليك منه».

فلما وردت الرقعة على ابن المبـارك دعـا بالـدواة والقرطــاس ثم كتب إليــه: «بســم اللــه الــرحمن الرحيم»، وكتب إليه أبياتًا من الشعر:

«أَيْنَ رِوَايَاتُكَ في سَرْدِهَا عن ابن عَـــــــوْنٍ وابن سـيْرين
أيْنَ رِوَايَاتُـكُ في سَـرْدها لِتَرْكِ أبـواب السَّـلاطِين»

فلما وقف ابنُ علية على الأبيـات قـام من مجلس القضاء فوطئ بساط هارون الرشيد، فقـال: يا أمــير المؤمنين، الله الله ارحم شـيبتي فـإني لا أصـبرُ على القضاء.

فأعفـــــاهُ من القضـــــاء، فلما اتصل بعبدالله بن المبـارك وجه إليه بالصـرة الـتي كـانت يُتْحِفُه بها مع زُملائه. اهـ.

عن الشعبي، قـال: جـاء رجلان إلى شـريح، فقـال أحدهما: اشـتريتُ من هـذا دارًا فوجـدتُ فيها عشـرة آلاف درهم، فقـال: خـذها، فقـال لـه: إنما اشـتريتُ الدارَ.

فقال للبائع: فخـذها أنت، فقـال لـه: ولم وقد بعته الدار بما فيها فأدار الأمر بينهما.

فـأتى زيـادًا فـأخبره، فقـال: ما كنت أرى أن أحـدًا هكذا بقي، وقال لشريح: أدخل بيت المـال فـألق في كل جراب قبضة حتى تكون للمسلمين.

وقيل: كان مورث العجلي يتجر فيصيب المــال فلا يـــأتي جمعة وعنـــده منه شـــيء يلقى الأخ فيعطيه أربعمائة أو خمســمائة أو ثلاثمائــة، فيقــول: ضــعها عندك حتى نحتاج إليها.

قال: ثم يلقاه بعد ذلـك، فيقـول الأخ: لا حاجـة لي فيها، فيقول: والله إنـا مـا نحن بآخـذيها أبـدًا فشـأنك بها، وعلى هذه الطريقة كـان كثـير من السـلف على حد قول الشاعر:

لا يَألفُ الدِرهمُ المَضْرُوْبُ صُــــــــرَّتَنَا
لَكِنْ يَمُــــرُّ عَلَيْهَا وَهْــــوَ مُنْطَلِــــــــقُ

ـلاً في المسجد يُصلي بخشوعٍ وإتقـانٍ، فقـال له بعد صلاته: أبنُ من أنت؟ فقال: إني يتيم، فقدت أبي وأمي، فقال: أترضَـى أن تكـونَ لي ولـدًا، فقـال: هل تطعمني إذا جعت؟ قال: نعم. قال: وهل تكسوني إذا عــريتُ؟ قــال: نعم، قــال: وهل تُحييــني إذا مت؟ فدهش الصحابيُ، وقال: هذا ليس إليه سبيل، فأشاح الصبي بوجهـه، وقـال: إذن اتركـني للـذي خلقـني ثم

رزقني ثم يميتني ثم يحييني، فقال الصحابي: لعمري من توكل على الله كفاه.

شكى أحدهم إلى عالم كثرة العيـال وقلة الـرزق، فقـــال: ارجع إلى بيتـــك، فمن ليس رزقه على الله فاطرده عنك.

هدد الحجاج محمد بن علي بكتـاب، فكتب إليـه: «إن لله ثلاثمائة وستين نظرة إلى خلقه وأنا أرجو أن ينظر الله إليَّ نظرة يمنُعني بها منك».

من اتَّكل على حسن اختيــار الله له لم يتمنَّ غــير ما اختار الله عز وجل له.

التوكل اعتمــاد القلب على الله في جلب المنــافع ودفع المضار مع الثقة بالله وفعل الأسباب.

وكُنْ بالذي قَدْ خُطَّ باللَّوْحِ رَاضـيًا ... فلا مَهْـــرَبٌ مِمَّا قَضَـــاهُ وخَطَّهُ
وإن مَـعَ الـرزق اشـتراطُ التِمَاسِـهِ ... وقد يَتَعَـــدَّى إنْ تَعَـــدَّيْتَ شَـرْطَهُ
ولَـــوْ شَـــاءَ أَلْقَى في فَمِ الطَّيْـرِ قُوْتَـهُ ... ولَكنَّهُ أوْحَى إلى الطَّيْـرِ لَقْطَـهُ

قال النبي لعبدالله بن عباس ــ رضي الله عنهما ــ: «إني أعلمك كلمـات: احفظ الله يحفظـك، احفظ الله تجــده تجاهــك، إذا ســألت فاســأل اللــه، وإذا اسـتعنت فاسـتعن باللـه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعـوك بشــيء، لم ينفعـوك إلا بشــيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليـك، رُفعَتِ الأقلامُ، وجَفَّتِ الصُحُف».

قال بعضهم يوصي إخوانه:

إن الجنة لا تنـــال إلا بالعمـــل، اخلطـــوا الرغبة بالرهبــة، ودمــوا على صــالح الأعمــال، والقــوا الله بقلوب سليمة وأعمال صادقة من خاف أدلجْ.

مَا دَارُ دُنْيا لِلْمُقيمِ بـــدَارِ | وبِها النفُـــوسُ فَرِيْسَـــةُ الأقْـــــــــــــــــدارِ
مَا بَيْنَ ليلٍ عاكفٍ ونَهارهِ | نَفَسَانِ مُرْتَشفَانِ للأَعْمَارِ
طُــولُ الحيــاة إذا مَضَــى كَقَصِــــــــــــــيْرهَا | واليُسْرُ لِلإنْسَانِ كَالإعْسَارِ
والعَيشُ يَعقبُ بـــالمرارَةِ حُلْــــــــــــــوَهُ | والصَّـــــــفْوُ فِيه مُخَلَّفُ الأكْـــــــــــــــدَارِ
وكأنما تَقْضــــــيْ بُنيَّاتُ الــــــــــــــرَّدَى | لفَنَائنَا وَطَرًا من الأوْطَـارِ
والمَرْءُ كَالطَّيْفِ المُطْيـفِ وعمْـــــــــــــرُهُ | كَــــالنَّومِ بَيْنَ الفَجْــــرِ والأسْـــــــــــــحَارِ
خَطْبٌ تَصَاءَلَتَ الخُطُـوبُ لِهَوْلِـــــــــــــــهِ | ونَلَـــوْذُ مِن حَـــرْبٍ إلى اسْتِشْـــــــــــــعَارِ
إنَّ الـــذينَ بَنَــوا مَشــيْدًا وانتنـــــــــــــوا | يَسْــعَونَ سَــعْيَ الفاتِــكِ الجَبَّارِ
سُــلبُوا النَّضَــارَةَ والنَّعِيْمَ فاصْــــــــــــبَحُوا | مُتَوَسِّدِيْنَ وَسَائِدَ الأحْجَارِ
تَركُـــــوا دِيـــــارَهُمُ على أعْـــــــــــــدَائِهم | وتوسَّدُوا مَدَرًا بغَـيرِ دثَـارِ
خَلَـــطَ الحِمَـــامُ قَـــويَّهمُ بضَـــــــــــــعْيفِهم | وغَنِّيهمُ سًاوَى بذي الأقْتَارِ
والخَـــــــوْفُ يُعْجِلُنا عَلىَ آثـــــــــــــارِهِم | لابُـــدَّ مِن صُـــبْحٍ المُجِـــدِّ السَّـــــــــــــارِي
وتَعَاقُبُ الملَوَيْن فِينَا ناثِرٌ | باكَرِّ مَا نَظَمَا مِن الأعْمَارِ

والله أعلم، وصــلى الله على محمد وآله وصــحبه وسلم.

فصل

لا تستعين في حاجة بمن يبتغي مثلها فينسى الذي كلفته أو يتناساه، ويبدؤ بحاجته قبلها؛ لأنها عنده أهمُ.

تســعة لا يُفــارقهم الحــزنُ ولا الكآبــة: الحقــود، والحسـود، وجديد عهـدٍ بغنـاه، وغـنيٌ يخشى الفقـر، وفقـــير مـــديون، وطـــالبُ رتبة يقصر عنها قـــدرةُ، وجليس أهل العلم وليس منهم، والمســـــجون، ومن يطلب بثأر.

من اهتم بالدنيا ضيع نفسه، ومن اهتم بنفسه زهد في الدنيا، طالبُ الدُنيا لا يخلو من الحزن في حالين: حزن على ما فاته كيف لم ينلهُ، وحُـزنٌ على ما نالـهُ يخشى أن يسـلبه، وإن أمن سـلبه أيقن بتركه لغـيره بعد موته فهو مغموم ومحزون في جميع أحواله.

ومهما كان الإنسان آمنًا في سربه معافى في بدنه وله قوت يومه وليلته فحزنه وغمه وكدره بسبب أمر الدنيا علامة على نقصان عقله وجهله وحماقتـه، فـإن ذلك لا يخلو إما أن يكـــون تأسُـــفًا على ما مضى أو خوفًا من مُســـتقبل أو حُزنًا على ســـبب حاضر في الحال.

فـإن كـان على فـائت، فالعاقل بصـير بـأن الجـزع والحزن على ما فات لا يلم شعثًا ولا يَرُمُّ ما انتكث.

وما لا حيلة فيه فــالغمُّ والهمُّ عليه جهــل؛ ولــذلك يقول الله جل وعلا وتقدس: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَـوْا عَلَى مَـا فَاتَكُمْ**﴾.

وقال الشاعر:

ولا يَرُدُّ عليكَ الفَائِتَ الحَزَنُ

وقال الآخر:

وهل جَزَعٌ مُجْدٍ عليَّ فأجزعُ

وإن كان تأسف على حاضر، فإما أن يكون حســدًا لوصــول نعمــةً إلى من يعرفــهُ أو يكــون حزنًا للفقر وفقدان المال والجاه وأسباب الدنيا.

وسبب هذا الجهل بغوائل الدنيا وتقلباتها وسمومها وأكدارها.

ولو عرفها حق معرفتها لشــكر الله قائمًا وقاعــدًا وماشيًا على كونه من المُخفين دُوْنَ المثقَلين.

قــال رســول اللــه ﷺ: «من أصــبح منكم آمِنًــا في سِرْبِهِ، مُعَافَى في جسده، عنـده قـوتَ يومِـهِ فكأنمـا حِـيزت لـه الـدنيا بِحَـذافِيرِها» رواه الترمـذي، وقـال: حديث حسن.

إذا ما كـان عنـدي قُـوت يَـــــــــــــوم
طَـــرَحْتُ الهَمَّ عــــني يا سَـــــــــــــعِيْدُ

ولم تخطر هموم غدٍ ببالٍ
لأن غـــــدًا له رزق جديد

عن ابن عباس وعمران بن الحصين ﷺ عن النبي ﷺ قال: «اطلعتُ في الجنةِ فرأيت أَكْثَرَ أهلِها الفُقَــراء» الحديث متفق عليه.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اله ﷺ: «يدخل الفُقَــراءُ الجنة قبل الأغنيــاء بخمســمائة عــام» رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

قـــال أحمد بن عاصـــم: أنفع اليقين ما عظم في عينيك ما به أيقنت، وأنفع الخـــوف ما حجـــزك عن المعاصي، وأطال منك الحزن على ما فــات، وألزمك الفكر في بقية عُمرك وخاتمة أمرك.

وأنفع الصدق أن تقرَّ لله عز وجل بعيـوب نفسـك، وأنفعُ الحياء أن تستحي أن تسـألهُ ما تُحبُ وتـأتي ما يكره.

وأنفع الصـبر ما قـواك على خلاف هـواك، وأفضل الجهاد مُجاهدتك نفسك لتردها إلى قبول الحق.

وأوجبُ الأعــداء منك مجاهــدة أقــربُهم منك دُنُــوًّا وأخفـــاهُم عنك شخصًـــا وأعظمهم لك عـــداوةٌ وهو إبليس.

قُلتُ: فما تـــرى في الأنس بالنـــاس؟ قـــال: إن وجدت عـاقلاً مأمونًا فـأنس به واهـرب من سـائرهم كهربك من السباع.

قُلتُ: فما أفضل ما أتقـرب به إلى الله عز وجـل؟ قال: ترك معاصيه الباطنة.

قلتُ: فما بـال الباطنة أولى من الظـاهرة؟ قـال: لأنَّك إذا اجتنبت الباطنة بطلت الظاهرةُ والباطنةُ.

قلتُ: فما أضر الطاعـات لي؟ قـال: ما نسـيت بها مساوئك، وجعلتها نُصب عينيك إدلالاً بها وأمنًا.

قـال: وسـمعته يقـول: اسـتكثر من الله عز وجل لنفسك قليل الـرزق تخلصًـا إلى الشـكر، و اسـتقلل من نفسك لله عـــزّ وجـــلّ كثـــير الطاعة إزراءً على النفس وتعرضًا للعفو.

واســتجلب شــدة التيقظ بشــدة الخــوف، وادفع عظيم الحرص بإيثـار القناعـة، واقطع أسـباب الطمع بصحة اليأس، وسد سبيل العُجب بمعرفة النفس.

واطلب راحــة البــدن بإجمــام القلب، وتخلص إلى إجمــام القلب بقلــة الخُلطــاء، وتعــرض لرقــة القلب بدوام مجالسة أهل الذكر، وبـادر بانتهـاز البُغيـة عنـد إمكان الفرصة، وأحذرك «سوف».

وكُنْ صَـــارِمًا كَـــالْوَقْتِ فَـــالمَقْتُ في عَسَـــى
وإيَّاكَ مَهْلاً فهي أخْطَـــرُ عِلَّـــتي
وجُدَّ بسَيْف العَزْمِ سَـوْفَ فـإن تَجُـدْ
تَجِـدْ نَفَسًـا فـالنَّفْسُ إنْ جُـدْتَ جَّدتِ

عن الأوزاعي أنه وعـظ، فقـال في موعظتـه: أيها النـاس، تقـوَّوا بهـذه النعم الـتي أصـبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئـدة، فـإنكم في دار الثـواءُ فيها قليل وأنتم فيها مُؤجلـون خلائف من بعد القـرون الـذين اسـتقبلوا من الـدنيا أنفها وزهرتها، فهم كـانوا أطـول منكم أعمـارًا وأمـدَّ أجسامًا وأعظم آثارًا فخددوا الجبال، وجابوا الصخور، ونقبــوا في البلاد مُؤيــدين ببطش شــديدٍ وأجســام كالعماد.

فما لبثت الأيامُ والليالي أن طـوت مُـددهم وعفت آثـارهم وأخـوت مـنزلهم وأنست ذكـرهم، فما تحسُ منهم من أحدٍ ولا تسمع لهم ركزًا.

كانوا بلهو الأمل آمنين لبيات قوم غافلين أو لصباح قوم نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذي نـزل بسـاحتهم بياتًا من عقوبة الله عز وجل.

فأصـبح كثـير منهم في ديـارهم جـاثمين، وأصـبح الباقون ينظرون في آثار نقمة وزوال نعمة ومسـاكن خاوية فيها آية للـذين يخـافون العـذاب الأليم وغـيره لمن يخشى.

وأصـــبحتمُ من بعـــدهم في أجل منقـــوصٍ ودُنيا مقبوضة في زمان قد ولى عفوه وذهب رخاؤه.

فلم تق منه إلا حمة شر وصـــبابة كـــدر، وأهاويل عبر، وعقوبات غير وإرسال فتن، وتتابع زلازل ورذالة خلفٍ بهم ظهر الفسادُ في البر والبحر.

فلا تكونـوا أشـباهًا لمن خدعـهُ الأمـلُ وغـرَّ بطـول الأجل وتبلغ بالأمـاني، نسـأل الله أن يجعلنا وإيـاكم ممَّن وعى نذرهُ، وعقل فمهد لنفسه.

كتب بعضهم إلى أخ يُوصيه: أما بعد، فإني أوصـيك بتقـــوى اللــــه، والعمل بما علمك الله عز وجـــل، والمراقبة حيث لا يـــــراك أحد إلا الله عز وجـــــل، والاسـتعداد لما ليس لأحد فيه حيلـة، ولا تنفع الندامة عند نُزوله.

فاحسر عن رأسك الغـــافلين، وانتبه من رقـــدة المـوتى، وشـمر للسـباق غـدًا فـإن الـدنيا ميـدان المسـابقين، ولا تغـترَّ بمن أظهر النُّسـك، وتشـاغل بالوصف، وترك العمل بالموصوف.

واعلم يا أخي: أنه لابـــدّ لي ولك من المقـــام بين يدي الله عز وجل، ولست آمن أن يسألني وإياك عن وساوس الصدور، ولحظات العيون، وإصغاء الأسماع، وما عسى أن يَعْجز مثلي عن صفته.

واعلم: أنه مما وصف به منـافقوا هـذه الأمة أنهم خالطوا أهل الدنيا بأبدانهم وطابقوهم عليها بأهوائهم، وخضعوا لما طمعوا من نائلهم، وداهن بعضـهم بعضًـا في القول والفعـل، فأشر وبطر قـولهم، ومـرُّ خـبيث فعلهم، تركوا بـاطن العمل بلا تصـحيح فحـرمهم الله تعالى بذلك الثمن الرَّبيح.

واعلم يا أخي: أنه لا يجـزي من العمل القـول، ولا من البــذل العــدةُ، ولا من التقــوى ولا من التــوقّي التلاوُم.

وقد صـرنا في زمـان هـذه صـفة أهله فمن كـان كـذلك فقد تعـرّض للمقت وصُـدّ عن سـواء السـبيل، وفقنا الله عـزَّ وجل وإيـاك لما يحب ويرضـى، انتهى. والله أعلم، وصـــلى الله على محمد وآله وصـــحبه وسلم.

فوائد ومواعظ

قال مالك بن دينار: مثـلُ قُـراء هـذا الزمـان كمثل رجلٍ نصب فخًا ونصب فيه بُرة فجاء عُصفورٌ، فقـال: ما غَيَّبك في التراب؟ قال: التواضع، قـال: لأي شـيء انحنيت؟ قال: من طول العبادة.

قــال: فما هــذه البُـروة المنصــوبة فيــك؟ قــال: أعددتُها للصائمين، فقال: نعم الجار أنت.

فلما كان عند المغرب دَنَا العصفور ليأخذها فخنقه الفخُّ.

فقال العصفور: إن كـان العبـاد يخنقـون خنقك فلا خير في العباد اليوم، ومرَّ والي البصر بمالك بن دينار والــوالي يرفــلُ (أي يجــرُّ ذيلــهُ ويتبخــتر)، فصــاح به مالك: أقل من مشيتك هذه، فهمَّ خدم الوالي بمالك، فقال: دعوه۔

ثم قـال: ما أراك تعرفـني، فقـال له مالـك: ومن أعـرف بك مـني أما أولك فنطفة مـذرة، وأما آخـرك فجيفة قـذرة ثم أنت بين ذلك تحمـلُ البـول والعـذرة فنكس الوالي رأسه ومشى.

عن مالك بن دينار قال: قدمت من سـفر لي فلما صـرتُ بالجسـر، قـال العشَّـار (الـذي يأخذ العشر ضريبة): لا يخرجن أحد من السـفينة ولا يقـومن أحـدٌ من مكانه فأخذت ثوبي فوضعته على عُنقي ثم وثبت فإذا أنا على الأرض.

فقال العشَّار: ما أخرجك؟ قلتُ: ليس معي شيء، قـال: اذهب، فقلتُ في نفسـي: هكـذا الأمر الآخـرة (يعني ما يحصلُ للمخفِ تعويق يـوم القيامة) التعويق يحصل لأهل الأموال كل بحسبه.

وقـال بعض العلمـاء: ما يسـرُ العاقل أن الـدنيا له منذ خلقت إلى أن تفنى يتنعم فيها حلالاً لا يسألُ عنه يـوم القيامـة، وأنه حُجب عن الله عز وجل سـاعةً واحدةً، فكيف بمن حُجب أيام الدنيا وأيام الآخرة.

من أكـثر ذكر المـوت كفـاهُ اليسـير، ومن علم أن منطقه من عمله قـلَّ كلامـهُ (إلا بـذكر الله وحمـده وشكره).

عن الأوزاعي، قـال: كـان يُقـالُ يـأتي على النـاس زمانٌ أقل شيءٍ في ذلك الزمان أخ مـؤنسٌ أو درهمٌ من حلال، أو عملٌ في سنة.

وقال: كان السلفُ إذا صـدع الفجر أو قبله بشـيء كأنَّ على رؤوسهم الطيرُ مُقبلين على أنفسهم لو أن حميمًا (أي صديقًا أو قريبًا) لأحدهم غاب عنه حينًا ثم قدم ما التفت إليه.

فلا يزالـون كـذلك حـتى يكـون قريبًا من طلـوع الشمس، ثم يقوم بعضهم إلى بعض فيتحلقون، وأوَّل ما يُفيضون فيه أمرُ معـادهم، وما هم صـائرون إليـه، ثم يتحلفون إلى الفقه والقرآن.

من توفيق الله للإنسان أن يكون له إخوان في الله يزدادُ علمهُ بمخالطتهم وتزداد طاعاته ويزداد حفظًا لأوقاته.

مَن لم يَكُنْ بَيْنَ إخْوانٍ يُسَرُّ	فإنَّ أوقاتَه نَقْصٌ وخُسْرانُ
وأطْيَبُ الأرض ما لِلنَّفْسِ فيه تقى	سَمُّ الخياط مع الأحْبَاب مَيْدَانُ
وأخْبَثُ الأرضِ مَا لِلنَّفْسِ فيه أذَى	خضر الجنان مَعَ الأعْداء نيران

عن عامر أن ابنًا لشريح قال لأبيه: بيني وبين قوم خصومة فانظر فإن كان الحقُ لي خاصمتهم، وإن لم يكن لي الحق لم أخاصمهم، فقص قصته عليه.

فقال: انطلق فخاصمهم، فانطلق فخاصمهم إليه فقضى على ابنه.

فقال له لما رجع إلى أهله: والله لو لم أتقدم إليك لم ألمك فضحتني.

فقال: والله يا بني لأنت أحب إليَّ من ملئ الأرض مثلهم؛ ولكن الله هو أعزُّ عليَّ منك أخشى أن أخبرك أن القضاء عليك فتصالحهم فتذهب ببعض حقهم، تأمل يا أخي، هل يوجد مثل العدل والورع؟

قيل لإياس بن معاوية: فيك أربع خصال: دمامة، وكثرة كلام، وإعجاب بنفسك، وتعجيل بالقضاء.

قال: الدمامة فالأمر فيها إلى غيري، وأما كثرة الكلام فبصواب أتكلم أم بخطأ؟ قالوا: بصواب، قال: فالإكثار من الصواب أمثل (أي أحسن)، وأما إعجابي بنفسي، أفيعجبُكمُ ما ترون مني؟ قالوا: نعم، قال: فإن أحقُّ أن أعجب بنفسي، وأما قولكم: فإني أتعجل القضاء، فكم هذه -وأشار بأصابع يده؟ فقالوا: خمسة، فقال: أعجلتم ألا قُلْتُم واحدًا واثنين وثلاثة وأربعة وخمسة.

قالوا: ما نعدُّ شيئًا قد عرفناه، قـال: وأنا ما أحبس شيئًا قد تبين لي فيه الحكم.

عن جعفر بن يحـيى بن خالد الـبرمكي، قـال: ما رأينا في القُـراء أحـدًا مثل عيسى بن يـونس أرسـلنا إليه فأتانا بالرقة فاعتل قبل أن يرجـــع، فقلت: يا أبا عمـرو، قد أمر لك بعشـرة آلاف، فقـال: هي، فقلت: خمسون ألفًا، قال: لا حاجة لي فيها، فقلت: لِمَ والله لأهنئنكها هي والله مائة ألف.

قال: لا والله لا يتحدث أهل العلم أني أكلتُ للسُّنة ثمنًـا، ألا كـان هـذا قبل أن ترسـلوا إليَّ، فأما على الحديث فلا والله ولا شرابةَ ماء ولا هليلجة.

وقـال أبو بكر المـرزوي: سـمعتُ أحمد بن حنبل وذكر ورع عيسى بن يونس، قال: قدم فأمر له بمائة ألف، أو قال: بمال فلم يقبـل، وتـدري ابن كم؟ كـان عيسى أراد أنه كان حدث السن.

وقـــال محمد بن المنكـــدر: حج الرشـــيد فـــدخل الكوفة فركب الأمين والمأمون إلى عيسى بن يونس فحدثهما فأمر له المأمون بعشرة آلاف درهم.

فـــأبى أن يقبلها فظن أنه اســـتقلها، فـــأمر له بعشرين ألفًـا، فقـال عيسـى: لا والله ولا إهليلجة ولا شربة مـاء على حـديث رسـول الله ﷺ، ولو ملأت لي هذا المسجد ذهبًا إلى السقف.

طلب الخليفة هشـام بنُ عبـدالملك ذات يـوم أحد العلماء، فلما دخل عليه، قال: السلام عليك يا هشام، ثم خلع نعليه وجلس بجانبه.

فغضب هشـام وهم بقتله ولما تحـدث معه وجـده عالمًا كبيرًا.

فلما انتهى الحـــديث عاتبه بقوله له لقد ســـميتني باسمي ولم تُكنِّني أو تدْعُني بالخلافـة، وخلعت نعليك وجلست بجانبي فلم فعلت ذلك.

فقـــال لـــه: لم أدعُك بالخلافـــة؛ لأن النـــاس لم ينتخبوك كُلُّهم.

وســـميتك ولم أكنَّك؛ لأن الله جل وعلا وتقـــدس نادى الأنبياء بأسمائهم، فقال: يا عيســى، يا إبــراهيم، يا موسى، يا نوح، يا داود.

وكنَّى عدوه، فقال: **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾**.

وخلعتُ نعلي بجانبك وأنا أخلعهما لما أدخُل بيت ربي.

وجلست بجانبـك؛ لأني ســمعتُ أن رسـول الله ﷺ قـال: «مَن سَـرَّهُ أن يُمَثَـلَ له الرجَـالُ قِيامًا فَلْيَتَبـوَّءْ مَقْعَدَهُ من النار».

فكرهت لك النـار فـأمر له هشـام بمـال فلم يقبله وانصرف.

تأمل يا أخي، هذا الورع عن أخذ شيء من حطـام الدنيا على ما حدثهما به، وقال: لا يتحــدث أهل العلم أني أكلتُ للسُّنة ثمنًا.

فما ظنك بمن يأكل بـــالكتب الـــتي تحتـــوي على الآيــات والأحــاديث باسم تحقيق أو نشر ويحتكرهــا، نسـأل الله العفو والعافية في الـدنيا والآخـرة، نعـوذ بالله من عمى البصـــيرة، قـــال الله تعـــالى: **﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾**.

قال يوسف بن أسـباط: عجبتُ كيف تنـامُ عينٌ مع المخافة أو يغفلُ قلب مع اليقين بالمحاسبة!!

من عرف وجوب حق الله عز وجل على عباده لم تستحل عيناه أبدًا إلا بإعطاء المجهود من نفسه.

خلق الله تعالى القلـوب مسـاكن للـذكر، فصـارت مساكن للشهوات.

الشهوات مُفسدة للقلوب، وتلف للأمـوال، وإخلاق للوجــوه، ولا يمحو الشـهوات من القلــوب إلا خــوف مزعج أو شوق مُقلق.

وقـــال: الزهـــد في الرياسة أشد من الزهد في الدنيا.

وكــان يُقــال: اعمل عمل رجل لا يُنجيه إلا الله ثم عمله، وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما كُتب له.

اللهم عرَّفني نفسي ولا تقطع رجاءك من قلبي.

وقـالت زوجتـه: كـان يقـول اشـتهي من ربي ثلاث خصال، قُلتُ: وما هُنَّ؟ قـال: اشـتهي أن أمـوت حين أمــوت وليس في ملكي درهم، ولا يكــونُ عليَّ دينٌ، ولا على عظمي لحم.

فأعطي ذلك كُله، ولقد قـال لي في مرضــه: أبقي عنــدك نفقــة؟ فقلت: لا، قــال: فمــاذا تــرين؟ قلتُ: أخــرج هــذه الخابية للــبيع، فقـال: يعلم النـاس بحالنا ويقولون ما باعُوها إلا وثم حاجة شديدة. فــأخرج إليَّ شــيئًا كـــان أهـــداه إليه بعضُ إخوانه فباعه بعشـــرة دراهم، وقــال: اعز لي منها درهمًا لحنــوطي وأنفقي باقيها، فمات، وما بقي غير درهم.

لِرَبِّيْ عِبادٌ وَحْدَهُ يَعْبُدُوْنِهُ ... يَرُوْمُوْنَهُ لا يَسْتَقِرُوْنَ دُوْنَهُ

هُــوَ السَّــنَدُ الأقْــوى الــذي اسْــــــــــــتَنَدُوْا به ... هُوَ المَقْصَدُ الأسْنى الــذي يَقْصُــــــــــــــدُوْنَهُ

إذا اعْتَمَــدَ المُضْــطَرُ في الخَطبِ غَيْــــــــــــرَهُ ... فليسَ سِــوَى مَوْلاهُمُــوا يَطْلُبُوْنَـــــــــــــــهُ

وإنْ حَسَدَ الناسُ الملُـوكَ بِمُلْكِهَمْ ... فَلَيْسَ لهم في الناسِ من يَحْسُــــــــــــــدُوْنَهُ

لأنّهُمُوْا حَلُّوْا بسَاحَةٍ مَالِكِ مَحَبَّتُـــهُ القُـــوتُ الـــذي يَقْتَدُوْنَــــــــــــهُ ... فَمَهْمَا أرَادُوا عِنْـــــــدَهُ يَجِدُوْنَــــــــــــهُ

مَتَى فَاتَهُمَ من وَصْلِهِ قَدْرُ ذَرَّةٍ ... وتوحِيْــدُهُ الــوِرْدُ الـــذي يَردُوْنَــــــــــــهُ

لِهَــذا اصْــطَفَاهُمْ لَلْعِبَـادَةِ دُوْنَ مَنْ ... فَبا الــروحِ ذَاكَ القَــدْرَ هُمْ يَفْتَدُوْنَــــــــــــهُ

تَوَلاّهُمُــوْا دُوْنَ الـــوَرَى ... سِوَاهُمْ فَهُمْ طُوْلَ المَــدَى

فَـــــــــولاؤه يَعْبُدُوْنَــــــــــــــــهُ
طِـــرزٌ على ثـــوبِ التُقَى يَرْتَدُوْنَــــــــــــــهُ

والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وسلم.

عن يزيد الرقاشي قال: دخلتُ على عابد وإذا أهلُ بيته حوله فإذا هو مجهود قد أجهده الاجتهاد.

قال: فبكى أبوه فنظر إليـه، ثم قـال: أيها الشـيخ، ما الذي يُبكيك؟ قال: يا بُـني، أبكي فقـدك، وما أرى من جهدك.

قـال: فبكت أمـه، فقـال: أيتها الوالـدة الشـفيقة الرقيقة، ما الذي يبكيـك؟ قـالت: يا بُـني، فراقك وما أتعجلُ من الوحشة بعدك؟ قال: فبكى أهله وصبيانه، فنظر إليهم، ثم قـال: يا معشر اليتـامى، بعد قليل ما الذي يُبكيكم؟ قـالوا: يا أبانا نبكي فراقـك، وما الـذي تتعجل من اليُتم بعدك.

قال: فقال: أقعدوني أرى كلكم يبكي لـدُنياي، أمـا فيكم من يبكي لآخرتي! أما فيكم من يبكي لما يلقاه في التراب وجهي! أما فيكم من يبكي لمسألة منكــر ونكـير وإيَّاي! أمـا فيكم من يبكي لوقـوفي بين يـدي الله ربي!

قال: ثم صرخ صرخةً فمات.

عن عبـــدالرحمن بن يزيد بن جـــابر قـــال: كـــان عبـــــدالرحمن بن يزيد بن معاوية خلاً لعبد الملك بن مــروان، فلما مــات عبـدالملك بن مــروان وتصــدع النـاس عن قـبره وقف عليـه، فقـال: أنت عبـدالملك الذي كُنت تعدُني فأرجوك وتوعدني فأخافك أصـبحت وليس معك من ملكك غـير ثوبك وليس لك منه غــير أربعة أذرع في عرض ذراعين.

ثم انكفأ إلى أهله واجتهد في العبــادة حــتى صــار كأنه شــنٌ بــالي، فــدخل عليه بعض أهله فعاتبه في

نفسه وإضراره بها، فقال للقائـل: أسـألك عن شـيء تصـدقني عنـه؟ قـال: نعم، قـال: أخـبرني عن حالتك التي أنت عليها أترضاها للموت؟ (المعـنى أترضى أن يأتيك المـــوت وأنت عليها)، قـــال: اللهم لا. قـــال: أفعـــزمت على انتقـــال منها إلى غيرهـــا؟ قـــال: ما انتصحت رأيي في ذلك.

قال: أفتأمنُ من أن يأتيك الموتُ على حالك الـتي أنت عليها؟ قـال: اللهم لا، قـال: حـال ما أقـام عليها عاقل، ثم انكفأ إلى مصلاه.

وروي أن سليمان بن عبـدالملك تجمل يومًا ولبس ثيابه واعتم بعمامة وعنـدهُ جاريـة، فقـال لهـا: كيف ترين الهيئة؟ فقالت: أنت أجمل العـرب لـولا، فطلب منها أن تكمل الجواب وتصرح بما أضمرت، فقالت:

أنْتَ نِعْمَ المتــاعُ لَــوْ كُنْتَ تَبْقَى ... غَـيرَ أن لا بَقَـاءَ للإِنْسَـانِ
أنْتَ خِلْـــوٌ مِنْ العُيُـــوبِ ومما ... يكرَهُ الناسُ غَيْرَ أنَّكَ فَـانِ

فتكدر عليه ما كان فيه من الأبهَةِ والنعيم وما لبث بعدها إلا أيامًا قلائل حتى تُوفي.

فَقُلْ لِلَّذي قد غَـرَّهُ طُـوْلُ عُمِـــــــــــره ... وما قد حَوَاهُ مِن زَخَـارِف تَخْــــــــــدَعُ
أفِـــقْ وانْظِرِ الــدنيا بعَينِ بَصِـــــــــيْرةٍ ... تَجِـــدْ كُـــلَّ ما فيها ودَائِع ترْجِـــــــــعُ

آخر:

مَوَاعِظُ بِـرٍ تُـوْرِثُ النَّفْسَ عِبْـــــــــرَةً ... وتَتْرُكُها وَلْهَـــــاءَ حَـــوْلَ المَقَـــــــــابِرِ
مَواعِظُ إمَّا تَسْـأمِ النَّفْسُ ذِكْرَهَا ... تُهَيِّجُ أحْزَانًا ممِن القلبِ ثَـــــــــــائِرِ
فَـــــدُونَكَ يا ذَا الفَهْمِ إنْ ... فَبَـادِرْ فـإنَّ المـوتَ أوَّلُ

كُنْتَ ذَا نُهَى زائِرِ

روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه قال: لأن أدمع دمعةً من خشـية الله عز وجل أحب إليَّ من أن أتصدق بألف دينار.

ولما حضـرت عـامر بن قيس الوفـاة بكى، وقـال: إني لم أبك جزعًا من المـوت ولا حرصًـا على الـدنيا؛ ولكن أبكي على عـدم قضـاء وطـري من طاعة ربي وقيام الليل في أيام الشتاء.

وبكى أحد العباد عندما احتضـر، وقـال: ما تأسـفي على دار الهمـــوم والأنكـــاد والأحـــزان والخطايا والذنوب، وإنما تأسفي على ليلة منتها ويــوم أفطرته وساعة غفلت فيها عن ذكر الله.

ولما احتضر مسروق بن الأجدع بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: ما لي لا أجـزع وإنما هي سـاعة ولا أدري أين يسـلك بي وبين يـدي طريقـان لا أدري إلى الجنة أم إلى النـــار، والله أعلم، وصـــلى الله على محمد وآله وسلم.

فصل

الناس في القناعة والزهد أقسـام، منهم من عمل لدنياه وآخرته واسمتع من الدنيا بما رزقه الله ورضي وقع به، وهذا عيش المؤمن والقناعـةُ محمـودة، قـال بعضهم:

يُقولُـــون لي مَن أرْغَـــدُ النـــاسِ عِيْشَـــة ومَن بَـــاتَ عن سُـــبْلِ المخَـــــــــاوُفِ نَائِبًا
فَقُلْتُ لِبَيْبٌ عـارِفٌ قَهَـرَ الهَـــــــــــوى وصـــــارَ بحُكْمِ الله في الـــــرزقِ رَاضِـــــيًا

آخر:

يا لَهْفَ قَلْبي على شَـيْئَيْنِ لو جُمِعَا عِنْدِي لَكُنْتُ إذًا مِن أسْعَدِ البَشَـــــــــــرِ

كَفـافِ عَيْشٍ يَقِيْـني شَـرَّ مَسْـــــــــــــألةٍ وخِدْمَــةِ العِلمِ حَتَّى يَنْتَهِي عُمُـــــــــــــرِي

القسم الثاني من الناس وَجَـدَ مَتَـاعَ الحَيـاة الـدنيا وزخرفها عرضًـا زائلاً ولـذة مؤقتة وشـاغلاً لـهُ عن عبادة ربه والدار الآخرة، فأخذ من الـدنيا ما لابُـدَّ منه وعاش عيش الكفاف من الكسب الحلال.

وصـرف معظم أوقاته لعبـادة ربه طمعًا في محبة الله ورضـاه عملاً بقوله ﷺ: «ازْهَـدْ في الـدُنيا يُحبُـكَ الله، وازهَدْ فيما عند الناس يُحبُكَ النـاس»، وهـذا هو الـــذي عَـــرفِ كيف يصـــرفُ وقته عكس من ذهبت أعمارهم فُرطًا.

وأهم الزهد في الـدنيا أنْ لا تُلقى لها بـالاً إنْ أَتَتْ لم تَفْرَحْ بها، وإنْ لم تـأتِ لم تأسف عليهـا، وتخرجها من قلبك وتصـــــــرف رغبتك وفرحك إلى فضل الله ورحمته، قـال تعـالى: ﴿**قُـلْ بِفَضْـلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِـهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾.

وقسـمٌ من النـاس ورعـون ودرجة الـورع عاليـة، وهي اجتنابُ الشبهات خوفًا من الوقـوع في الحـرام، والإقلالُ من الحلال لئلا يُشغِلْ عن العبادة.

والورعُ ملاكُ الدين وآفة الدين الطمع.

وأهم ما في الزهد والـــورع، الزهد في الحــــرام، والورع عن الشبهات، وحُسنُ الأدب مع الله.

روي عن أبي حنيفة ﷺ أنه له ديْنٌ على رجل في بغـــداد فـــذهب إليه ومعه بعض تلاميـــذه، وذلك في وسط النهار، والحرُ شديد فطرق الباب على الـدائن، وابتعد عن الباب لوجود سقيفة فـوق البـاب لها ظـلٌ يقي من حَـــرِّ الشـــمس، فقـــال له أحد تلاميـــذه: لم ابتعدنا عن السـقيفة ووقفنا في الشـمس، فقـال أبو حنيفة: لنا دين على صـاحب السـقيفة، ووقوفنا تحت السقيفة هو استفادة من الدين، وهذه شُبْهَةُ ربا.

جاءت امرأة إلى عمرو بن قيس بثوب، فقـالت: يا أبا عبدالله، اشتر هذا الثوب، واعلم أن غزله ضــعيف وكان إذا جاءه إنسـان يعرضه عليه قـال: إن صـاحبته أخبرتــني أنه كـان في غزله ضـعف حـتى جـاء رجل فاشتراه، وقال: برأناك منه.

وبعث أبو حنيفة إلى حفص بن عبدالرحمن شريكه في التجارة وأعلمه أن ثوبًا من المبيع فيه عيبًا فبينــهُ للمشتري.

فباع حفصُ المتاع ونسي أن يُبين العيب واستوفى الثمن كـــاملاً، وقيـــل: إن الثمن كـــان ثلاثين ألفًا أو خمسة وثلاثين ألفًــا، فبعث أبو حنيفة لشـريكه وكلّفه أن يبحث عن المشــتري فلم يهتـــدي إلى الرجـــل، ففـارق أبو حنيفة شـريكه وتتاركـا، ورفض أبو حنيفة أن يُضيف الثمن إلى حُرِّ ماله وتصدَّقَ به كاملاً.

وكـــان عند يـــونس بن عُبيد حُلل مختلفة فيها ما قيمتها أربعمائة وفيها ما قيمتها مائتان.

فخلّف ابن أخيه في الـدُكان فجـاء أعـرابي فطلب حُلَّةً بـأربع مائة فعـرض عليه من الـذي قيمتُه مائتـان فاشتراها بأربعمائة.

فاستقبلهُ يُونس وهي على يده فعرفها، فقـال لـه: بكم اشتريتها؟ فقال: بأربعمائة، فقال: لا تساوي أكثر من مائتين فارجع حتى ترُدَّهَا.

فقـــال: هـــذه في لـــدنا تُســـاوي خمســـمائة وأنا ارتضيتُها، فقال يونس: انصرف معي، فإن النصح في الـدين خـيرٌ من الـدنيا وما فيهـا، ثم أتى إلى الـدكان وردَّ عليه مائتي درهم.

وخاصم ابن أخيه في ذلك ووبخـــــه، وقـــــال: أما اســـتحييت أما اتقيت الله تـــربح مثل الثمن وتـــترك النصح للمسلمين.

فقـــال: ما أخـــذها إلا وهو راضٍ بهـــا، قـــال: فهلا رضيت له بما ترضاهُ لنفسك.

وقيل لمجمع التيمي وقد جلب شاته للبيع: كيف شاتك، قال: ما أرضاها؟

وروي عن محمد بن المنكدر أن غلامه باع لأعرابي في غيبته ما يُساوي خمسةً بعشرة، فلم يزل يطلبُ الأعرابي ويسأل عنه حتى وجدهُ.

فقال له: إن الغُلام قد غلط فباعك ما يُساوي خمسةً بعشرة، فقال: يا هذا قد رضيتُ، فقال: وإن رضيتَ، فإنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، ورَدَّ عليه خمسة.

ولله در القائل:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ فلا تَظُنِّي غَيْرَهُ ... أنَّ التَّورُعَ عند هذا الدَّرْهَم
فإذا قَدِرْتَ عليه ثُمَّ تَرَكْتَهُ ... فاعْلَمْ بأنَّ هُناكَ تَقْوى المُسْلِمِ

وفي المثل السائر: الدنيا مَحَكُّ الدِين.

وعرض محمد بن واسع بسوق مرو حمارًا له على البيع، فقال له رجل: أترضاهُ لي؟ قال: لو رضيتُه لكَ لَمْ أبِّعهُ.

وذكر أن جرير بن عبدالله -وكان من أفاضل الصحابة- اشترى له غُلامُهُ فرسًا بثلاثمائة، فلما رأى جرير الفرس أعجبه، فذهب إلى صاحبه، وقال له: إن فرسك خيرٌ من ثلاثمائة (أي تسوى أزيد) وما زال يزيده في الثمن حتى أعطاه ثمانمائة.

تأمل يا أخي، هذا الورع هل له نظير في زمننا الذي ساد فيه الغش، بلِّغ يا أخي معشر الغشَّاشين والطماعين والغرارين والخدَّاعين.

وروى ابن أبي حاتم بسنده أن أبا الدرداء لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان، وغرس الأشجار، قام خطيبًا في مسجدهم.

فنــادى يا أهل دمشــق، فــاجتمعوا إليه فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا تسـتحيون! ألا تسـتحيون! ألا تستحيون! تجمعون ما تأكلون وتبنون ما لا تســكنون، وتؤملُون ما لا تُدركون.

إنه قد كان قبلكم قرون، يجمعن فيُوعون، ويبنُـون فيوثقون، ويُؤملُون فيُطيلون.

فأصبح أملهم غرورًا وأصبح جمعهم بُورًا، وأصبحت مســاكنهم قبــورًا، ألا إن عــادًا ملكت مــا بين عــدنٍ وعُمــان خيلاً وركابًــا، فمن يشـتري مي مـيراث عــادٍ بدرهمين.

إذا مَرضْــــنَا نَويْنَا كُــــلَّ صَــــــــــــــالحة	وإن شُـــــفْيْنَا فَمِنَّا الزيغ والزَّلَـــــــــــلُ
نرجو الإله إذا خِفنا ونُسْــــــــــــخِطُه	إذا أمنَّا فما يَزْكُو لَنَا عَمَلُ

وكَتب أبو الدرداء إلى مسلمة بن مخلد الأنصــاري: أما بعــد، فــإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبــهُ اللــه، فإذا أحبهُ الله حبَّبَهُ إلى خلقِهِ، وإذا عمل بمعصيةِ الله أبغضهُ الله، فإذا أبغضه الله بغضهُ إلى خلقه.

وكتب مــرةً إلى أخ لــهُ: أما بعد فلست في شــيءٍ من أمر الـــدنيا إلا ما قـــدمت لنفســـك، فآثرها على المُصــلح من ولــدك فإنك تقــدمُ على من لا يعــذُرك وتجمع لمن لا يحمدك.

وإنما تجمعُ لواحدٍ من اثنين، إمَّا عاملٌ فيه بطاعــةِ الله عز وجل، فيسعد بما شقيت به.

وإما عاملٌ فيه بمعصية الله عز وجل، فيشـقى بما جمعتَ له.

وليس والله واحــدٌ منهما أهــلٍ أن تُــبرِّد لــهُ على ظهرك، وأن تؤثرهُ على نفسك.

أرجُ لمن مضى منهم رحمة اللــــه، وثق لمن بقي منهم برزق الله عز وجل، والسلام.

وقيل لأبي الدرداء: مالك لا تشعر؟ قـال: قـد قُلْتُ فاسْمعوا:

يُرِيْـــدُ المـــرءُ أنْ يُعْطَى مُنَـــــــــــــــاهُ ويَـــــأبى الله إلا مَا أرَادَا
يَقَـــولُ المـــرءُ فائِدتي ومَـــــــــــــالي وتقـــوى الله أفضــلُ ما اسْـــــــــــــتَفَادا

وقـــال: ما من أحد إلا وفي عقله نقص عن حلمه وعلمه، وذلك أنه إذا أتتهُ الـدُنيا بزيـادة في مـال ظل فرحًا مسرورًا.

و الليلِ والنهارُ دائبَانِ في هدم عُمُرِهِ لا يُحزنُه لك، ظلَّ ظلالُه، ما ينفعُ مالٌ يزيد وعُمُرٌ ينقص.

وقال: نِعْم صومَعةِ المرءِ المسلم بيتُه يكُفُ لسانه وفرجه وبصــرهُ، و إيــاكم ومجــالس الأســواق، فإنها تُلهي وتلغِي.

خَلَتِ القلـوبُ من المعـاد وذكـــــــــــــره وتشــــاغلُوا بــــالحرص والأطمـــــــــــــاع
صَارتْ مجَـالسُ من تـرى وحـــــــــــــديثهم في الصُـــحْفِ والتلفـــاز والمـــــــــــذياع

وعن أبي الدرداء قـال: أخـوفُ ما أخـافُ أنْ يُقـال لي يوم القيامة: أعلمتَ أم جهلتَ.

فــإن قُلتُ: علمتُ لا تبقى آية آمــرةٌ أو زاجــرةٌ إلا أخــذتُ بفرضــيتها الآمــرةُ هل ائتمــرت والزاجر هل ازدجرت.

فأعوذُ بالله من علمٍ لا يَنْفَع ونِفْسٍ لا تَشْبَع ودعـاءٍ لا يُسْمَع، رواه أحمد.

وقال: لو تعلمـون ما أنتم راؤون بَعْـدَ المـوت، لما أكلتم طعامًا على شــهوة، ولا شــربتُم شــرابًا على شــهوة، ولا دخلتم بيتًا تســتظلون، ولخــرجتم إلى

الصعدات تضربون صدوركم، وتبكـون على أنفسـكم، ولوددتُ أني شجرة تُعْضَد ثم تُوكل.

وعن جبير بن نفـير قـال: لما فُتحت قـبرص فـرق بين أهلها فبكى بعضــهم إلى بعض، فرأيا أبا الــدرداء جالسًا وحدهُ يبكي.

فقلت: يا أبا الــدرداء، ما يُبكيك في يــوم أعز الله الإسلام وأهله؟ قـال: ويحك يا جُبـير، ما أهـون الخلق على الله عز وجل إذا تركوا أمره.

بينا هي أمة قـاهرة ظـاهرة لهم الملك تركـوا أمر الله فرأيتهم كما ترى.

لا تَخْــدَعَنْكَ مُنَى الحَيَــاةِ فإنها ... تُلْهِي وتُنْسِــــي والمُنَى تَظْلِيْـــــــلُ

وتأهَّبَنْ لِلْمَوتِ قَبلَ نُزُولِـهِ ... فالمَوتُ حَتْمٌ والبَقَاءُ قَلِيلُ

فوائد ونصائح

اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظــــره إليــــك، واجعل شـــكرك لمن لا تنقطـــعُ نعمـــهُ عنك واجعل خضوعك لمن لا تخرجُ عن مُلكه.

وقال العمري: إن من غفلتك عن نفْسِـكَ إعراضك عن الله بـأن تـرى ما يُسـخطه فتجـاوزه ولا تـأمر ولا تنهى خوفًا ممن لا يملك ضرًا ولا نفعًا.

الشـكر من أعلى المقامـات وهو أعلى من الصـبر والخوف والزهد، وهو مقصود لنفسه ولذلك لا ينقطع في الجنــة، وليس فيها خــوف، ولا توبة ولا صــبر، ولا زهد.

والشــكر دائم في الجنــة، ولــذلك قــال جل وعلا: ﴿**وَآخِـرُ دَعْــوَاهُمْ أَنِ الحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ العَــالَمِينَ**﴾، وقــال عن أهل الجنــة: ﴿**وَقَــالُوا الحَمْــدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ**﴾.

أما كيفية شـــكر الله فيتم بـــأمور، **أولاً**: أن يحمد الله على نعمه بلسانه ويشكره.

ثانيًا: أن يعتقد أن هـــذه النعمة أو النعم آتيتُه من الله تعالى كرمًا منه وإحسانًا.

ثالثًا: أن لا يســتعينَ بها على مَعاصــيه، بل يُطيع الله فيها.

رابعًا: أن يعرف فضل الله عليه وكرمه فيســتحي منه فلا يعصـــه، والله أعلم، وصـــلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

قـــال ســـهل بن عبداللـــه: اســتجلبْ حلاوةَ الزُهد بقصر الأمـل، واقطع أسـباب الطمع بصـحَّة اليـأسِ، وتعرَّضْ لرقة القلب بمجالسة أهل الذكر.

واسـتفتحْ بـاب الحُـزن بُطـول الفكـر، وتـزيَّنْ لله بالصدق في كل الأحوال.

وإيَّاك والتَّســـويف، فإنه يُغـــرقُ الهلكى، وإيـــاك والغفلة فإن فيها سواد القلب، واستجلب زيادة النعم بعظيم الشكر.

وقال يحـيى بنُ مُعـاذ: عمل كالسـراب، وقلبٌ من التقوى خراب، وذُنُوب بِعدد الرمل والتُراب، ثم تطمع في الكواعب الأتراب.

هيهـات أنت سـكرانٌ بغـير شـراب، ما أكملك لو بادرت أملك، ما أجلّك لو بادرت أجَلَكَ، وما أقـواك لو خالفت هواك.

وقـــال يحـــيى بن معـــاذ: يا ابن آدم، طلبتَ الـــدنيا طلب من لابُد له منهـــا، وطلبتَ الآخـــرة طلب من لا حاجة له إليها.

والدُنيا قد كُفيتها وإن لم تطلبها، والآخـرة بـالطلب منك تنالُها، فاعقل شأنك.

وقال: مفاوزُ الدنيا تُقطعُ بالأقدام، ومفـاوز الآخـرة تُقطعُ بالقُلُوب.

وقـال: يـا ابن آدم، لا يـزالُ دينُـك مُتمزقًـا مـا دام قلبُك بحُب الدنيا متعلقًا.

نرقع دُنْيَانَا بتَمْزِيْـــقِ دِيْنَنا فَلا دِينُنَا يَبْقَى ولا ما نُرَقِّعُ
فَطُـــوبَى لِعَبْـــدِ آثر الله وحْـــــــــــــدَهُ وجــاد بــدنياه لِما يُتَوقّــعُ

الدنيا لذةُ ساعة، يتبعُها حُزْنٌ طويل، وهمـومٌ وغمـوم وأنكاد، ومصائب ومتاعب.

والآخــرة صــبرٌ قليــل، وســرور، ونعيم، لا نهاية له لمن رضي الله عنـــه، قـــال الله تعـــالى: **فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُـرَّةِ أَعْيُنٍ جَـزَاءً بِمَـا كَانُوا يَعْمَلُونَ**.

وعن سـهل بن سـعد قـال: شـهدتُ من رسـول الله مجلسًـا وصف فيه الجنة حـتى انتهى، ثم قـال في آخرتـه: «فيها مَا لا عينٌ رَأتْ ولا أذنٌ سـمِعَتْ ولا خطر على قلب بشر»، ثم قـرأ: **تَتَجَـافَى جُنُـوبُهُمْ عَنِ المَضَــاجِعِ** إلى قوله تعــالى: **فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** رواه البخاري.

وعن صهيب : أن رسـول الله قـال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقـول الله تبـارك وتعـالى: تُرِيْـدُونَ شَيْئًا أزِيْدُكم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّض وجُوهَنَا! ألم تُدْخِلْنا الجنَةَ وتنجينا من النار، فيكشَفُ الحجابَ، فما أعْطُـوا شَيْئًا أَحَبَّ إليهم مِن النظرِ إلى رَبِهم».

حكم ووصايا

أخوك مَن عَرَّفَكَ العُيُوبَ، وصديقك من حذرك من الذنوب، وعلى قدر خوفك من الله يهابُك الخلق.

وعلى قـــدر حُبك لله يُحبك الخلـــق، وعلى قـــدر شغلك بالله يشتغل الخلقُ بأمرك.

عجب ممن يحزنُ على نُقصان ماله كيف لا يحــزنُ على نُقصان عمره.

وقـــال: أيها المريـــدون، إن اضـــطررتم إلى طلب الـــدُنيا، فاطلبوها ولا تُحبوهـــا، واشـــغلوا بها أبـــدانكم، وعلقوا بغيرها قُلوبكم.

فإنهـا دار ممـر، وليسـت بـدار مقـر، الـزاد منهـا، والمقيلُ في غيرها.

النَّاس قَـــدْ عَلِمُـــوْا أنْ لا بَقَــــــاءَ لَهُمْ ... لَـوْ أنَّهُمْ عَمِلُـوْا مِقْـدَارَ مَا عَلِمُـــــــــــــوْا

ألا يعتبر المغرور بمن قد دفنـه، كم رأى من جبـارٍ فـــارق أهله وأولاده ومســـكنه، انتبِهُـــوا يا راحلين بالإقامة، يا هالكين بالسلامة.

أين من أخذ صــفو ما أنتمُ في كــدره، أما وعظكم بسيره في سيره، بل قد حمل بريد الإنـذار أخبـارهم، وأراكم تصفح الآثار آثارهُم.

وحَــــدَّثَتْكَ اللَّيــــالي أنَّ شِــــــــــيمَتَهَا ... تَفْرِيْـقُ ما جَمَعَتْه فاسْـمَعِ الخَبَــــــــــــرَاَ

وكُنْ على حَـذرٍ منها فقَـدْ نَصَــــــــــحَتْ ... وانَظُـرْ إليها تـرى الآيـات والعــــــــــبرا

حبال الـدنيا خيـال تغُـر الغـرَّ، المتمسـك بهـا يلعب بلعــاب الشــمس وبيت العنكبــوت، الــدنيا كــالمرأة الفاجرة لا تثبت مع زوج.

ولو كــــانت الـــدُنْيَا من الإنس لم تكن ... ســـــوى مُـــومِسٍ أفنتْ بماسَــــــــــاء عُمْرَهَا

يا هذا أما علمت أن اللطف مع الضـعيف أكـثر لما كـانت الدجاجة لا تحبو على الولد أخـرج كاسـيًا، ولما كــانت النملة ضــعيفة البصر أعينت بقــوة الشم فبها تجدُ ريح المطعوم من بعيد فتطلب.

ولما كـــان التمســـاح مُختلف الأســـنان كُلما أكل حصل بين أسنانه ما يؤذيه فيخـرجُ إلى شـاطئ البحر

فاتحًا فـــاه طالبًا للراحة فيـــأتي طـــيرٌ فينقر ما بين أســـــنانه فيكـــــون ذلك رزقًا للطـــــائر وترويحًا عن التِّمْسَاح.

وهـذه الخُلـد دويبـة عميـاء من أقـوى المخلوقـات سمع، قال الشاعر:

فهُم في جُمـــــوعٍ لا يَراهَا ابنُ دَايــــــــــــــةٍ
وهم في ضَـــجِيْجٍ لا يُحسُّ به الخُلْـــــــــــــــدُ

قد أُلهمت هذه الدُّويبة العمياء وقت الحاجة إلى القوت أن تفتح فاها فيسقط الذباب فيه فتتناول منه.

وهذه الأطيار تترنَّم طُـول النهـار فيقـال للضـفدع: مالكِ لا تنطقين، فتقـول مع صـوت الهـزار: يُستبشـعُ صوتي.

فيُقالُ: هذا الليل ولما خلق الله جَل وعلا الأخـرس لا يقدر على الكلام سُلبَ السَّمْعَ لئلا يسـمعُ ما يكـره ولا يُمكنِهُ الجواب فكُلُ أخرس أطرُوش.

و لِمَّا تولع الجـذام بأظفـار أصـحابه صـعُبَ عليهم الحـكُّ فمُنِـعَ منهم القمـلُ فليس في ثيـاب المجـذوم قملة.

سُـبحان من هـذا لُطفه وهـذه حكمـه، ﴿**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾، ﴿**الَّذِي أَحْسَـنَ كُـلَّ شَـيْءٍ خَلَقَهُ**﴾، و﴿**أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾.

من أدعية المضــــطرين: يا ودُوْدُ يا ذا العـــــرش المجيد، يا مُبْـدئُ يا مُعِيْـد، يا فَعَـالٌ لِمَا تُرِيْـد، أسـألك بنـوُرِ وجهك الـذي ملأ أركـانَ عرشك وبقُـدْرَتِكَ الـتي قدرت بها على جميع خلقك.

وبرحمتك التي وسـعت كل شـيء لا إله إلا أنت، يا مُغِيْث أغثني.

قيل لجعفر الصادق: مالنا ندعوا فلا يسـتجاب لنـا؟ قال: لأنكم تدعُون من لا تعرفونه.

عن ســـهم بن منجـــاب قـــال: غزونا مع العلاء بن الحضرمي دارين (قرية في بلاد فـارس) فـدعا بثلاث دعواتٍ، فاستُجيبت له فيهن: نزلنا منزلاً فطلب الماء

ليتوضأ فلم يجده، فقام فصلى ركعـتين، وقـال: اللهم إنا عبيدُك وفي سبيلك نُقاتلُ عدُّوَكَ، اللهم أسْقِنَا غيثًا نتوضـأُ منه ونشـربُ، فـإذا توضـأنا لم يكن لأحـدٍ فيه نصيب غيرنا، فسرنا قليلاً، فإذا نحن بماء حين أقلعتْ عنه السماء فتوضأنا منه وتزودنا وملأتُ إدواتي (إنــاء صـــــغير من جلد) وتركتُها مكانها حــــــتى أنظر هل اسـتُجيب له أم لا؟ فسـرنا قليلاً ثم قُلْتُ لأصـحابي: نسـيتُ إدواتي، فجئتُ إلى ذلك المكــان فكأنـــهُ لم يُصيبهُ ماءٌ قطُ، ثم سرنا حـتى أتينا دارين والبحر بيننا وبينهم، فقــــال: يا عليمُ يا حليمُ يا عليُ يا عظيمُ إنا عبيـدُكَ وفي سـبيلك نُقاتـلُ عَـدُوَّكَ، الهم فاجعل لنا إليهم سـبيلاً، فتقحَّم البحر فخُضْـنَا ما يَبْلُـغُ لبودنــا، فخرجنا إليهم فلما رجع أخـــذه وجـــعُ البطنِ فمـــات فطلبنا مـــاء نغســـلهُ فلم نجـــده فلففنـــاهُ في ثيابه ودفناهُ.

فسرنا غير بعيد فإذا نحنُ بماء كثـير، فقـال بعضُـنا لبعضٍ: لو رجعنا فاســـــتخرجناهُ فغسَّـــــلناه، فرجعنا فطلبنـــاهُ فلم نجـــدُه، فقـــال رجــلٌ من القـــوم: إني سـمعته يقـول: يا عليُ يا عظيمُ يا حليمُ أخف عليهم مـوتي -أو كلمة نحوهـا- ولا تُطلِع على عـورتي أحـدًا، فرجعنا وتركنـاه، والله أعلم، وصـلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

اعلم وفقنا الله وإيـاك أن الأعمـال الصـالحة تُفيـدُ الراحة في الدنيا والتنعم في الآخرة.

وعمـــارة الـــدنيا تكسب التعب فيها والشـــقاء بعد مُفارقتها.

ومن صدق نفسهُ بفناءِ الدنيا زهد فيها ومن صـدَّق نفسه ببقاء الآخرة رغب فيها.

احـذر كل الحـذر من الكـذاب، والمُمَثِّل، والنَّمـام، والمُتجسِّس، والسَّاخر، والغشاش والحاسد، والعيان،

والمتكـــبر، والمعجب بنفســـه، والمتهم بـــاللواط، والمتهم بالزنـا، فـإن هـؤلاء قُـربهم وخيم وضـررهم عظيم في الدنيا والآخرة.

ينبغي للعاقل أن يغتنم أوقاته في الدنيا، إما بسبب يُثمر راحة في الدنيا أو يُثمر نعيمًا وحمدًا في الآخرة، وهذا ما يتمناه اللبيبُ العاقل.

أيَا ابْنَ آدَمَ لا تَغْـــــرُرْكَ عَافيـــــــــــةٌ	عَلَيــكَ شَــامِلةٌ فــالعُمرُ مَعْـــــــــــدُوْدُ
ما أنت إلا كَـــــزَرْع عِنَ خُضْــــــــرَتِهِ	بكُـلِ شــيءٍ مِن الآفــات مَقْصُــــــــودُ
فـإن سَـلِمْتَ مِن الآفـاتِ أجْمَعِهَا	فـأنْتَ عنـدَ كمـالِ الأمـرِ مَحْصُــــــــودُ

قال بعضـهم: عجبًا لمن لا يهتم بمؤنة الشـتا حـتى يقوى البرد، ولا بمؤنة الصيف حتى يشـتد الحـرُ، ومن هذه صفته في أمور الدنيا ﴿**فَهُوَ فِي الآخِـرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾.

هذا الطـائر إذا علم أن الأنـثى قد حملت أخذ ينقل العيــدان لبنــاء العش قبل الوضع أفــتراك ما علمتَ قُــربَ رحيلك إلى القـبر المظلم الـذي سـتنفرد فيه وحدك ويُسد عليك فيه باللبن والطين.

فهلّا عملت لك فراش تقـوى، قـال اللـه جـل وعلا وتقـــدس: ﴿**وَمَنْ عَمِـــلَ صَـــالِحًا فَلأَنفُسِـــهِمْ يَمْهَدُونَ**﴾.

تَـزَوَّدْ من الـدُنيا بسَـاعَتِكَ الـــــــــــتي	ظَفِــرْتَ بها مَا لم تَعُقْــكَ العَوائِقُ
فلا يَوْمُكَ المَاضِـي عَلْيْـكَ بعَائــــــــــدٍ	ولا يَومُــــكَ الآتي به أنْتَ وَاثِــــــــــقُ

وهــــذا الـــيربوع لا يتخذ بيتًا إلا في موضع طيب مرتفع ليسلم من سـيل أو حـافر، ثم لا يجعله إلا عند

أكمة أو صـخرة لئلا يضل عنه إذا عـاد إليـه، وليجـده بسرعة عندما يحذر من شيء.
ثم يجعل له أبوابًا من جهـــات، ويرقق بعضـــها ليسـهل عليه الخـروج، فـإذا أتي ن بـاب دفع برأسه مأرق وخرج.
وهـذا الأيل يأكل الحيـات فيشـتد عطشه فيحـومُ حول الماء ولا يشـربُ لعلمه أن المـاء يُنفذ السـموم إلى أماكن لا يبلغها الطعام.
ومن عادته أنه يسقط قرنُه كُـلَّ سـنة وهو سـلاحه فيختفي إلى أن يَنبُت فسـبحان من أعطى كل شـيء خلقه ثم هدى.
وهذه الحية تختفي طـول الشـتاء بـالأرض فتخـرج وقد عشى بصرها فتحكه بأصول الرازيـانج؛ لأنه يزيل الغشـاء، فسـبحانه من حكيم عليم أعطى كل شـيء خلقه ثم هدى.
وهـذا الفهد إذا سـمن علم أنه مطلـوب وشـحمه يمنعُه من الهـــرب فهو يســـتر نفسه إلى أن ينحل جسمه ويـزول الشـحم، فسـبحانه من إله بصـير بكل شيء.
وهذه النملة تدخر في الصيف للشتاء، فإذا خـافت فساد الحب وتعفُنَهُ أخرجته إلى الهـوى، فـإذا حـذرت أن ينبت نقرت موضع القطمير.
وهو الشـــقُ في الحبة والنـــواة، فســبحانه من إله حي قيـوم لا تأخـذه سـنة ولا نـوم أحـاط بكل شـيء علمًا.
وهـذه السـمكة إذا حبسـتها الشـبكة قفـزت بكل قوتها لتقطع الحـــابس وأنت لو نهضت بقـــوة العـــزم لانخرقت شبكة الهوى.
اســـمعْ يا من ضـــيق على نفسه الخنـــاق بفعل المعاصـي، فما أبقى لعُـذرٍ موضـعًا، يا مقهـورًا بغلبة النفس قم عليها بسوط العـــزم، فإنها إن علمت منك

الجــدَّ والاجتهــاد والعــزم الصــادق استأســرت لــك، فامنعها ملذوذها ليقع الصلحُ على ترك الحرام.

وخَالِفِ النَفِسَ والشيطانَ واعْصِـــهِمَا ... وإنْ هُمَا مَحضَـاكَ النُصْـحَ فــاتَّهِمِ
كم حَسَّـنْتْ لَـذَةً لِلْمَـرءِ قاتِلَـةً ... مِن حَيْث لم يَدْرِ أنَّ السم في الدِّسَـمِ

ثم اعلم: أن الـدنيا والشـيطان خارجيـان خارجـان عليك خارجان عنك، فالنفس عدو مباطن.

ومن آداب الجهـاد ما أرشـدنا إليه اللــه، قـال جل وعلا وتقدس: ﴿**يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا قَـاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم**﴾.

وليس من بــارز بالمحاربة كَمَنْ كَمَنَ واختفى، فما دامت النفسُ حية تسعى، فهي حية تسعى أقل فعلها تمزيقُ العمرِ بكفّ التبذيرِ كالخرقاء وجدت صُوفًا.

أخلُ بنفسك في بيت الفكر ساعة، وانظر هل هي معك أو عليـك، نادِهَا بلسـان التـذكرة، وقُل يا نفسُ صابري عطش الهجير، يحصل الصوم وتحزمي تحـزُم الأجير فإنما هو يوم.

الجَـدُّ بِالجِـدِّ والحِرمَـانُ في الكَسَــلِ ... فانْصَـبْ تُصِـبْ عن قَــرِيْب غَايَة الأمــلِ
إنَّ الفَـتى من بماضِــي الحَــزْم مُتَّصِــفًا ... وما تَعَـوَّد نقَضَ القَــولَ والعَمل
ولا يُضَــيّعُ سَــاعَاتِ الزَّمَــانِ فَلَنْ ... يَعُودَ ما فَـاتَ مِن أيَّامِـهِ الأولِ
ولا يَعُــدُ عُيُوبًا بــالورى أبَــدَا ... بَلْ يَعْتَني بالذي فيه من الخَلَــلِ
ولا يؤمِّلُ آمالاً بصُبْحِ غَدٍ ... إلا عَلى وَجَـلٍ مِن وَثْبَـةِ الأجَــلِ
ولا يَصُــدُ عن التَّقــوَى بَصَــيْرتَهُ ... لأنها لِلْمَعَــالي أوضَــح السُــبُلِ

مَن لم يَصُنْ عِرْضَهُ مما يُدَنِسُــــــــــــــــــهُ عَــارٍ وإنْ كــانَ مغمُــورًا مِن الحُلـــــــــــــــلِ

يا هذا دَبـرْ دينَـكَ كما دَبَّرْتَ دُنْيَـاكَ لو عَلِـقَ بِثَوبِـكَ مِسْمَار رجعت إلى وراء لتخلصه.

هذا مسمارُ الأضرارِ قد تشبث بقلبـك، فلو عـدلت إلى الندم خطوتين تخلَّصْتَ.

ولكن هَيْهَاتَ صَبيُ الغَفْلَةِ، كُلَّما حُرِّكَ نَامَ.

كُل يـوم تحضر المجلس وتسـمع الموعظـة، فـإذا خرجت كما دخلت، قال الشيطان: فديتُ من لا يُفلح.

ويحك إبك بكاء من يدري قيمة الفائت من الوقت.

يا هذا، اسمع كلام الناصح المخلص الذي يريد نفـع جميـع المسـلمين، الـدنيا حمالـةُ المصـائب كـدرةُ المشارب تورثُ للبرية أنواع البلية مع كل لقمة غُصَّة فما أحـدُ فيهـا إلا وهـو في كـل غـرض لأسـهُمٍ ثلاثـةٍ: سهم نقمة، وسهم رزية، وسهم منيَّةٍ.

تُنَاضِلُه الأوقاتُ مِن كُـلِّ فَتُخْطئُه طَـوْرًا وطَـوْرًا

فمن كـان معتـبرًا بما يتجـدد كل يـوم من حلول الحوادث بأصحابها.

ومعتـبرًا بما يتجـدد كل يـوم من ارتجـاع النعم من أربابها وشـدة حُـزنهم واغتمـامهم بفقـدها لم يأسف على فواتها.

أرَىَ الدهرًا أَغْنَى خَطْبُـهُ عن خِطَابِـــــــــهِ بِوَعْـــظٍ شَـــفَى الْبَابَنَا بِلُبَابــــــــــــــهِ

لَـهُ قُلَّبٌ تَهْـدِي القُلـوُبَ صَـــــــــــوَاديًا إليها وتَعْمَى عن وَشِـيْكِ انْقِلابِـــــــــــهِ

هُو الليثُ إلا أَنَّهُ وهْــــوَا خَــــــــــــادِرٌ سَطَا فأغَــابَ اللَّيثَ عن أنْسِ غابِـــــــــهِ

وهَيهاتَ لَمْ تَسْلَمْ حَلاوَةُ شَــــــــــهْدِهِ لِصَــابِ إليه مِن مَــرَارَةِ صَـــــــــــابِهِ

مُبيْدٌ مَبَادِيــهِ تَغُــرُّ وإنَّما عَواقُبَهُ مَختُومَـةٌ بِعِقَابِـهِ

أَمْ تَـــرَ مَن سَـــاسَ المَمالِـــكَ قـــادِرًا ... وسَــارَتْ مُلُــوكُ الأرَضِ تَحتَ رِكَابِـــــــهِ
ودَانَتْ لَهُ الدنيا وكَـادْتْ تُحِلُّهُ ... عَلَى شُهْبِهَا لَـولا خُمُـودُ شـــــــهَابِهِ
لقد أسْـــلَمَتْهُ حِصْـــنُهُ وحُصُـــــــونُهُ ... غَـدَاةَ غَــدًا عَن كَسْـبِهِ باكْتِسَـــــــابِهِ
فَلا فِضَّــةٌ أنْجَتْــهُ عنــدَ انْفِصَاضِـــــــهِ ... ولا ذَهبٌ أغْنَـــاهُ عِنـــدَ ذَهَابِــــــــهِ
سَـــلا شَخْصَـــهُ وُرَّاثُـــهُ بتُراثِـــــــهِ ... وأفْــرَدَهُ أتْرابُــهُ بتُرابــهِ

ومهما أمعن اللــبيب فكــره في أصــحاب الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وكـثرة مصـائبهم فيها، تسلَّي عنها وهان عليه تركها.

وكـــان بعضـــهم يحضر دار المرضى ليُشـــاهدهم ويُشـــــاهد عللهم ومحنهم، ويحضر الســـــجون والمستشفيات والمقابر مساكن الموتى.

فيشـاهد أربـاب العـزاء وأسـفهُم على ما فرطـوا وعلى ما لا ينفع مع اشتغال الموتى بما هو فيه.

وكان يعـودُ إلى بيته بالحمد والشـكر طـول النهـار على نعم الله عليه في تخليصه من البلايا.

وينبغي للإنسـان أن ينظر إلى من دونه في المـال والجـاه ليشـكر الله ويحمـده، وينظر في الـدين إلى من هو فوقه ليجتهد ويُشمر ليلحقه.

وإبليس لعنه الله إذا اســـتولى واســـتحوذ على الإنسان نكَّس هذا النظر وعكسه.

فإذا قيل له لم تتعاطى هـذا الفعل القـبيح، اعتـذر بعـذرٍ قــبيحٍ، وذلك بـأن يقـول: فلان يتعـاطى ما هو أعظم منه.

وإذا قيل له: لم لا تقنع بهذا الموجود، يقــول: فلان أغنى مني ولا قنع فلم أصبر على ما ليس يصبر عنه.

وهذا عين الضلال والجهل.

قال بعضهم: إخواني الدنيا غرَّارة، غدَّارة، خدَّاعــة، مكَّارة، تظنها مقيمة وهي ســيارة، وتظنها مصــالحة، وهي قد شنَّت على أهلها الغارة، فانتبه لها:

يَا أيُّها ذا الـذي قَد غَـرَّهُ الأمَــــــــــــلُ ... ودُوْنَ ما يأمـلُ التَّنْغِيْصُ والأجَــــــــــــلُ

ألا تـــرى إنَّما الــدُنيا وزيْنَتُهَا ... كمَنْــزلِ الــرَّكبْ حَلُّوْا ثُمَّتَ إرْتَحَلُـــــــوْ

حُتُوفُهَا رَصَـدٌ وعَيْشُـهَا نكَــــــــــــدٌ ... وصَــفُّوُها كــدَرٌ ومُلكُها دُوَلُ

تَظَـلُ تُفْـزِعُ بالروَّعَـاتِ سَــــــاكِنَهَا ... فَمَا يَسُوغ لَـهُ عَيْشٌ ولا جَـــــــــذَلُ

كأنَّهُ لِلْمَنَايا والــــرَّدَى غَـــــــرَضٌ ... تَظَـلُ فيه سِهَامُ الـدَّهِرْ تَنْتَظِــــــــلُ

والنفسُ هارِبَةٌ والمـوتُ يَتْبَعُهَا ... وكُلُ عَثْرَةِ رِجْـلٍ عِنْـدَهَا جَلَــــــــلُ

والمـــرءُ يَسْـــعَى بِمَا يَسْـــعَى لِوَارِثِـــهِ ... والقَبْـرُ وَارِثُ ما يَسْـعَى لَـــــهُ الرَّجُـــــلُ

قال وهب بن كيسان: كتب إليَّ عبدالله بن الزبــير بموعظة:

أما بعـد، فـإن لأهل التقـوى علامـاتٍ يُعرفـون بها ويعرفُونها من أنفســهم: من صــبر على البلاء ورضي بالقضاء وشُكرٍ للنعماء، وذُلٍّ لحكم القرآن.

وإنما الإمـــام كالســوق ما نفق فيها حمل إليها إن نفق الحق عنـده حمل إليه وجـاء أهل الحق وإن نفق عنده الباطل جاءه أهل الباطل.

قيل لبعضهم: من يعرف كل العلم قال كل الناس، قُلتُ: هذا غلط واضح ما يعرف كل العلم إلا الله جل وعلا، قال عز من قائل: ﴿**وَمَـا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾.

قيل: إنه لمـا طُعن عمـر قـال لابنـه: ضَـعْ خـدِّي على التُـراب فوضـعه فبكا حـتى لصق الطينُ بخـده وعينه، وجعل يقول: ويليْ وويـلُ أمي إن لم يرحَمـني ربي، ودخل عليه كعب وكـان قد قـال لـه: إنك ميت إلى ثلاثة أيام فلما رآه أنشد:

وَوَاعَـــــدَانِي كَعْبٌ ثلاثًا يَعُـــــــــــدُّهَا ... ولا شَـــكَّ أنَّ القَـــولَ ما قَالَـــــــــــهُ كَعْبُ
وما بِي حِـــذَارَ المـــوتِ إنّي لَمَيتٌ ... ولكن حِذارَ الذَّنْب يَتْبَعُهُ الـــــــــــذَّنْبُ

واعجبًا من خـــوف عمر مع كمالـــه، وأمنك مع نقصـانك، قيل لابن عبـاس ــ رضي الله عنهما ــ: أيُّ رجل كـان عمـر؟ فقـال: كـان كالطائر الحذر الذي له بكل طريق شرَكًا.

وكـــان لم يكن له وقتٌ معين ينـــام فيه فكـــان ينعسُ وهو قاعـــد، فقيل لـــه: يا أمـــير المؤمـــنين، ألا تنام؟ فقال: كيف أنام! إن نُمتُ بالنهار ضـيّعْتُ أمـور المسـلمين، وإن نمتُ باللّيْـلُ ضـيَّعْتُ حظِي من الله عز وجل.

قال حماد بن سـلمة: ما أتينا سـليمان الـتيمي في ساعة يُطاع الله عز وجل فيها إلا وجدناه مطيعًا.

فإن كان في ساعة صلاة وجدناه مصـليًا، فـإن لم تكن ساعة صـلاة وجـدناه متوضأ أو عائـدًا مريضًـا أو مُشيعًا لجنازة أو قاعدًا يُسبِّحُ في المسجد.

وقال الأسود بن سالم: سمعتُ مُعتمر بن سليمان الـتيمي قـال: سـقط بيتٌ لنـا كـان أبي يكـون فيـه، فضرب فُسْطاطًا فكان فيه حتى مات، فقيل لـه: لـو بنيته، فقال: الأمر أعجل من ذاك غدًا الموت.

تَبْنِي المَنَـــازلَ أعْمَـــارٌ مِن الزمـــانِ بأنْفَـــاس

آخر:

أتَبْـــني بِنَـــاء الخالِـــدِينَ مَقَامُـــكَ فيها لو عَـــرَفْت

وإنَّما قَلِيْـــــــــــــــــلُ
لقد كان في ظل الأرَاكِ لِمَن كـــان يومًا يقتفيه
كِفَايَـــــــــــــةٌ رَحَيْـــــــــــــــلُ

فيا مُسَـدود الفهم بكـثرة الشـواغل حضـرْ قلبك لحظـةً للموعظـة، يا عبد الطمع طـالع دار الأحرار القنوعين.

ما أطول غشية غفلتك فلمن نُحدَّث.

قلبك في غلاف غفلة وفطنتك في غشاوة غباوة.

وكلامُنا يـدور حـول سـتور سـمعك وموانع الهـوى تحجبهُ أن يصل فلو قد وصل إلى القلب أثر.

قيـــل: إنه عضت رجلاً حية فلم يعلم أنها حيَّةٌ فلم يتغيَّرْ.

فلما أخـبر أنها حيَّةٌ مـات؛ لأنه حين أخـبر انفتحت مسامُّهُ فوصل السُّمُ إلى القلب.

فيا أعمى البصيرة، إمش مع من يُبْصِر.

ويا أطرش، الهوى صاحب من يسمع.

جالس المخبتين والخاشـعين والبكـائين، فلعلك أن تتأثر فتأثير الصحبة أمر لا يخفى.

يا من يشاهد ما يجري على الخائفين ولا ينزعج.

أقل الحـالات أن تبكي رحمـةً لهم إذا رأيت دمـوع الثُكلى والأرملة واليـــتيم، فلابُـــدَّ من الرحمة إلا أن تكـون ممَّن نـزعت من قلـوبهم الرحمـة. والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل في فوائد نافعة لمن له عقل وفهم

اطلب في الحيـــاة العلم والمـــال: العلم لإزالة الجهل عن نفسك وعن المؤمنين، والمال لاسـتعماله فيما يرضي الله لا للتكـــاثر والتبـــاهي تحـــرزْ بهما الرِّياسة على الناس.

لأنهم ينقســمون إلى قسـمين: خــواص وعــوام، فالخاصة تُفضِّــلُك بما تُحســنُ، والعامة تُفضــلك بما تملك.

لا تطلب سُــرعة العمل واطلب حُســنُه وجودتــه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾والنـاس لا يسـألون كم يـوم اسـتغرقت مُـدة العمل وإنما يسألُون عن جودة صنعته.

المُعلم زارع والنفــوس مــزارع، والدراسة مـــاء التربية فمن لم تكن مزرعته نقية وماؤها متــدفقًا لم ينجح الزرع.

القـــدوةُ مُعلم يفيد بلا لســانٍ بـــإذن الله ومرشد ناصح من غير بيان.

وهي مدرسة الإنسـان العلمية الـتي يرسخ تعليمها في النفوس ويعلقُ بالأفهام.

والناس مائلون دائمًا إلى أن يتعلموا بعيونهم أكـثر مما يتعلمون بآذانهم.

والمرْئِي يؤثرُ أكثر من المقروء والمسموع.

وتعليم العمل أنفع من تعليم القول والإرشاد يُـرى الطريق، ولكن القدرة البكماءُ تسيره فيه بإذن الله.

ومهما أوتي المُعلم من الفصـــــاحة والبراعة في تهـذيب النفــوس فليس ببــالغ ما يبلغه زميل له دُونه في المهارة وفوقه في السيرة.

ولهـــذا قيـــل: خـــير النصح افعل كما أفعل لا كما أقول، ولما كانت غريـزة التشـبه أقـوى في الأحـداث ينبغي أن ينشـئوا في بيئة صـالحة لينشـئوا نـافعين، فــإنهم يتشــبهون ويتمثلُــونَ بمن حــولهُم، قــال الله تعالى عن بلقيس: ﴿**وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ**﴾.

ولهذا قالوا: انظر إلى الحشـرات الصـغيرة تتلـون بلون النَّباتِ الذي تقتاتُ به.

ومن أجل ذلك كان التربيةُ البيتية أبلغ في نفوسهم من التربية المدرسية.

فـــــالبيت أصل المجتمع ومن ينوعه تنبعث الآداب والأخلاق؛ ولهذا يجب الاعتناء به.

وصـــفات الوالـــدين تظهر في أولادهما وأفعالهما المختلفة الـــتي يمارســـونها تحيا في أولادهما بعد أن يكونوا قد نسوْا تعليمها الشفوي.

ونظرة واحدة من الأب أو الأم قد تبقى مؤثرة في الولد مدى الحياة.

وعن نهشل بن كثـــــير، عن أبيه قـــــال: أدخل الشـــافعي يومًا إلى بعض حُجر هـــارون الرشـــيد ليسـتأذن له ومعه سـراج الخـادم، فأقعـده عند أبي عبدالصمد مؤدب أولاد هارون الرشـيد، فقـال سـراجُ للشافعي: يا أبا عبدالله، هؤلاء أولادُ أمـير المؤمـنين، وهذا مـؤدبهم فلو أوصـيته بهم، فأقبل عليهم، فقـال: ليكن أول ما تبدأ به من إصـلاح أولاد أمـير المؤمـنين إصلاحك نفسك، فإن أعينُهم معقودةٌ بعينك، فالحَسنُ عنـدهم ما تستحسـنهُ، والقـبيحُ عنـدهم ما تكرهُـه، علمهم كتاب الله ولا تُكرههُم عليه فيملوُه ولا تتركُهمُ منه فيهجُـــروه، ثُمَّ روهم من الشـــعر أعفـــهُ، ومن الحديث أشرفه، ولا تُخرجهم من علم إلى غيره حـتى يُحكمُوه فإن ازدحام الكلام في السمع مضلةٌ للفهم.

إذا وقفت النفسُ عما اشتبه عليها وقبلت ما اتضح لها فهو دليلٌ على ذكائها وورعها.

نُفوسُ الأبرار تنفر من أعمال الفُجار.

ونفوسُ الأشرار مُتبرمة ومتكرهةٌ لأعمال الأبرار.

مُتبـــعُ الشـــهوات نـــادمٌ في العاقبة مـــذمومٌ في العاجلة، وتـارك الشـهوات سـالم غـانم في العاجلـة، محمود مغتبط في الآجلة.

من مال إلى الـدنيا تعجل التعب فيهـا، وكـان على يقين من فنائه.

ومن زهد فيها استـراح من عنائها وأحبــهُ أهلُهــا، وأمن خوف العاقبة بعد مُفارقتها.

ما أغفل من يـتيقن بالرحيل عن الـدنيا، وهو دائب جاد في عمارتها.

وجدير بالعاقل أن لا يُجـدَّ في عمـارةِ شـيء يتركه لغيره.

لله عَشْرٌ مِن الأعــوامِ بـــــاهِرةً ... مَضَـــيْنَ كالســـهمِ أو كالبَرقِ في عَجَلِ
كذا تمـرُ لَيـالي العُمْـرَ راحلــــةً ... عَنَّا ونحنُ مَــعَ الآمــالِ في شُـــغُلِ
نُمْسِيُ ونُصْبِحُ في لَهْـوٍ نُسَــرُّ به ... جَهْلاً وذَلِـكَ يُـدْنِينا مِن الأجَـــلِ
والعُمـــرُ يَمْضِـــيُ ولا نَـــدْري فـــوا أسَـــفًا ... عليه إذْ مـرَّ في الآثـام والزَّلَـــلِ
يا لَيْتَ شِـــعْرِي غـــدًا كيف الخلاصُ به ... ولم نُقدمْ لنا شـيئًا مِن العمـــلِ
يا رب عَفْـــوَكَ عما قد جَنَتْه يـــدِي ... فليسَ لي بجَزَاء الذنْبِ مِنْ قِبـــلِ

حكم متنوعة

الحُـــزْنُ على فقـــدان الطاعة مع عـــدم القيـــام والاجتهاد في طلبها من علامات الإغترار.

إذا أردت أن تشاور أحدًا في شيء من أمر نفسك فانظر كيف يُدرُ ذلك المستشار أمر نفسه.

فإن كان لم يصلح تـدبير نفسه ولم يُكسبها خـيرًا فــأنت أحــرى أن لا تنتفع به ولست ألــزم عليه من نفسه.

الحكمـةُ والـذكر الحسن أبقى وأحسـنُ من المـال عند العقلاء؛ لأن المــال مضــمحلٌ والحكمة والــذكر الحسنُ باقيان.

وقد يكون المالُ عند السُفَل والأراذل.

وأما الحكمة والذكر الجميل فعند أهل الفضل.

العجــزُ يُعــرفُ في الرجل من ثلاث خَصــال: قلــةُ اهتمامه بمصــالح نفسه وقلــةُ مُخالفتِــهِ لما يشــتهي وقبولُه الشيء بدُون تفكُّر ونضرٍ في العواقب.

كُن مع والديك كما تُحب أن يكون معك ولدُك.

يا هذا، مثِّلْ لنفسك صرعة المـوت وما قد عـزمتَ أن تفعل حينئذٍ وقت الأسرِ فافعلهُ وقت الإطلاق.

ومثل نفسك في زاوية من زوايا جهنَّم وأنت تبكي أبــدًا وأبوابها مُغلقة وســقوفها مُطبقة وهي ســوداء مظلة.

لا رفيق تــأنسُ به ولا صــديق تشــكو إليه ولا نــوم يُــريحُ ولا نفس ولا طعــام إلا الزَّقُــوم ولا شــرابَ إلا الحميم.

قـــال كَعْب: إنَّ أهل النـــار ليـــأكلُونَ أيـــديهُم إلى المنــاكب مِن النَّدامة على تفــريطهم وما يشــعرون بذلك.

فانتبه يا غافل لاغتنــــام عُمِــــركَ وازرع في ربيع حياتك قبلَ جُدوبة أرض شخصك.

وادَّخِــرْ من وقت قُــدرتك لــزمن عجــزك واعتــبر رحلك قبل رحيلك.

فكأنك بحرب التَّلف قدْ قامت على ساق وانهزمت جُيوشُ الأمل.

وإذا ملك الموت قد بارز الروح يجتذبها بخطاطيف الشدائد من تيار العُروق.

وقد أوثق كتاف الذبيح وحار البصر لشدة الهَوْلِ.

ولا تســـألْ عن حـــال المُحتضر وما نـــزل به من الكروب والسكرات.

فتيقظ يا مسكين وتهيأ لتلك الساعة وحصِّلْ زادًا قبل العوزِ.

أفَكِّرُ في مَـوْتي وبَعْـدُ فَضِـيْحَتي فَيَحْـزَنُ قَلْبِي مِن عَظِيمِ خَطِيْئَتي
وتَبْكِي دَمًا عَيْني وحُقَّ لَهَا البُكَا على سُـوءِ أفْعَـالي وقِلَّةِ حِيْلَتَي
فما لي إلا الله لا أرْجُ غَيْـرَهُ ولا سِيَّمَا عندَ اقْـترَابِ مَنِيَّتِي
واسـألُ رَبي في وَفَـاتي مَؤْمِنًا على مِلَّةِ الإسـلامِ أشْـرَفَ مِلَّةِ

يا عجبًا ربنا جل وعلا يتحبب إلينا بـالنعم وهو غـنيٌ عنا وعن كل خلقه أهل السموات والأرض.

ونتمقت ونتبغض إليه بالمعاصي ونحن محتـاجون إليه، بل مضطرون إليه.

علامة مَحبة الله إيثـار طاعته وتجنب معاصـيه ومُتابعة رسوله ﷺ.

قـال بعضـهم: أحببتُ ربي حُبًا سـهل عليَّ كُـلَّ مُصيبة ورضاني في كل قضيَّة.

فما أبـالي مع حـبي إيـاه ما أصـبحت عليه وما أمسيت وأرجو أن أكون من أحبابه.

قـال أحد الشـعراء أبياتًا في مخلـوق لا تصـلح إلا لرب العزة والجلال تبارك وتعالى، فعدلنا فيها ووجهنا الطلب والتمني إلى الله:

فَلَيْتَـكَ تَعْفُو والحيـاةُ مِرْيَـرةٌ ولَيْتَـكَ تَرضَـى والأنـامُ غِضَـابُ
ولَيْتَ الذي بَيْني وبَيْنَكَ عـامِرٌ وبَيْـنيْ وبَيْنَ العَـالمِينَ خَـرَابُ
إذا نِلْتُ مِنْـكَ الـودَ يَا خَالِقَ الوَرَى فكل الـذي فَـوْقَ التُـرابِ تُـرابُ

والله أعلم، وصـــلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

قال سفيان الثوري: لا يجتمع في هذا الزمان لأحد مال إلا وعنده خمس خصال: طول الأمل، وحرص غالب، وشح شديد، وقلة الورع، ونسيان الآخرة.

ستة أشياء هن غريبةٌ في ستة مواضع: المسجدُ غريب بين ناس لا يصلون فيه، والمصحفُ غريبٌ في منزل قوم لا يقرءون فيه، والقرآن غريب في جوف الفاسق، والمرأة المسلمة غريبة في يد رجل ظالم سيئ الخلق، والرجلُ المسلمُ الصالحُ غريبٌ في يد امرأةٍ رديئةٍ سيئة الخلق، والعالم غريب بين قوم لا يستمعُون إليه.

اعلم أن القلوب القاسية تعالج بأمور:

أولاً: الإقلاع عَما هي عليه من المعاصي، وذلك بحضور مجالس الوعظ والتذكير والتخويف والترغيب، وأخبار الصالحين، والإكثار من مطالعة الكتب المحتوية على ذلك، فإنَّ ذلك يُلين القلوب بإذن الله.

الثاني: ذكر الموت فيكثر من ذكر هادم اللذات، ومفرق الجماعات، ومميت البنين والبنات.

يروى أن امرأة شكت إلى عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قساوة قلبها، فقالت: أكثري من ذكر الموت يرقُ قلبك، ففعلت ذلك فرقَّ قلبها، فجاءت تشكر عائشة.

قال بعض العلماء: يا من يجد في قلبه قسوةً، احذر أن تكون نقضت عهدًا، فإن الله تعالى يقول: **﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾**.

ولما احتضر عمرو بن قيس الملائي بكى، فقال له أصحابه: علام تبكي من الـدنيا فوالله لقد كُنت تبغضُ العيش أيام حياتك!! فقال: والله ما أبكي على الـدنيا إنما أبكي خوفًا أن أحرم خوف الآخرة.

وكـان إذا نظر إلى أهل السُـوقِ، قـال: ما أغفل هؤلاء عما أعدَّ لهُم.

قال جارٌ لمسعر بن كدام: بكى مسعر فبكت أمـه، فقـال لها مسـعر: ما أبكـاك يا أمَّاه؟ فقـالت: يا بُـني رأيتـكَ تبكي فبكيتُ، فقـال: يا أمـاه لمثل ما نهجمُ عليه غـدًا فلنطل البكـاء، قـالت: وما ذاك؟ فـانتحب، فقال: القيامة وما فيها، قال: ثم غلبه البكاء، فقام.

وكان يقـول: لـولا أمي ما فـارقتُ المسـجد إلا لما لابد منـه، وكـان إذا دخل بكى، وإذا خـرج بكى، وإن صلى بكى، إن جلس بكى.

ولما حضـرته الوفـاة دخل عليه سـفيان الثـوري فوجده جزعًا، فقال له: تجزع فوالله لوددتُ أني مُتُّ الساعة.

فقال مسعر: أقعدوني فأعاد سـفيان الكلام عليـه، فقال: إنك لواثق بعملك يا سُفيان.

لكـني والله على شـاهقَةِ جبل لا أدري أين أهبـط، فبكى سفيان، وقال: أنتَ أخوفَ لله مِني.

قال بعضُهم: من غض بصرهُ عن المحارم وأمسك نفسـهُ عن الشـهوات وعمر باطنه بـدوام المراقبة وظـاهره باتبـاع السُّـنة وعـوَّد نفسه أكل الحلال لم تُخْطِ له فراسة.

فصل في بعض ذكر فوائد الموت

اعلم أن في ذكر الموت فوائد عديدة من ذلك:

أولاً: أنه يردعُ عن المعاصي، ويُلينُ القلب القاسي.

ثانيًا: يُـذهب الفـرح والسـرور بالـدنيا، ويُزهـدُ فيهـا، ويُهون المصائب.

ثالثًا: التـأثر في مشـاهدة المحتضـرين الـذي تخـرج أرواحهم، فــــــإن في النظر إليهم ومشـــــــاهدة سـكراتهم عند نـزع أرواحهم، وشـخوص أبصـارهم عند نزعها، وعجزهم عن الكلام، عند تسلُل الـروح من الجسد.

وتأمل صُـورهم بعد خــروج الــروح ما يقطــعُ عن النُفوسِ لذاتها ويطرد عن القلوب مسرَّاتها ويمنــعُ الجفــون من النَّوم ويمنـــعُ الأبـــدان من الراحـــة، ويبعثُ على الجد والاجتهاد في العمل للآخرة.

فروي أن الحسن البصري دخل على مريض يعوده فوجـــده في ســـكرات المـــوت، فنظر إلى كُربه وشدَّة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطعام، فلم يأكل، وقــال: فوالله لقد رأيتُ مصــرعًا لا أزالُ أعمل له حتى اللقاء.

رابعًا: مما يلين القلوب القاسية زيارةُ القبور.

فإنهـا تَبْلُـغُ مِن القلـوب مـا لا يبلغـه الأول والثـاني والثالث؛ لأنها تذكر بالآخرة.

ولم أرَى كــــالأمواتِ ولا واعِظِي جُلَّاسِــــهم

آخر:

وَعَظَتْـكَ أجْـدَاثٌ وهُنَّ وأصْحَابُها تحْتَ التُرابِ

الخـــــامس: زيـــــارة المستشــــــفيات والمستوصـفات فإنها تلين القلـوب وتحث الإنســـان على حمد الله وشـــكره وعلى الجد والاجتهـــــاد فيما يعــــودُ نفعُه على الإنسان في الآخرة.

وينبغي للإنســـان أن يُقـــوِّي ظنه بالله ويستحضر رحمته ورأفته ولطفه بعباده ولاسيما عند الاحتضار.

قــال ﷺ: «لا يمــوتن أحــدكم إلا وهو يحسن الظن بالله» رواه مسلم، في حديث أبي هريرة عن رسول

الله أنه قــال: «قــال الله عز وجــل: أنا عند ظن عبدي بي» الحديث متفق عليه.

ولا ريب أن حُسن الظن برب العالمين الـذي خلق فسـوى والـذي قـدر فهـدى الحليم الكـريم الجـواد الـرحمن الـرحيم الـرءوف بالعبـاد الغـني عنا وعن أعمالنا وعن تعذيبنا عقابنا.

من أعظم ما نتقـرب به إليه ومن أجـزل ما نتوجه به عليه.

أيُّ عبادَةٍ أعظمُ من حُسْنِ ظننا برب العـالمين مع الخوف مِن مُعاملتِهِ إيَّانا بعَدْلِهِ.

فالعاقل يكــون بين الخــوف والرجــاء لكن يُغلب الرجاء عند الاحتضـار ويحسن الظن بـالكريم الغفـار، ويستحضر أنه قــادم على أكــرم الأكــرمين، وأجــود الأجودين البر الرحيم.

وإن حصل أن يتلى عند المحتضر آيـــات الرجــــاء وأحــاديث الرجــاء ليقــوى ظنه بالله تعــالى أجــود الأجودين وأكرم الأكرمين.

ومن آيات الرجاء قوله جلَّ وعلا وتقدس: **قُـلْ يَا عِبَــادِيَ الَّذِينَ أَسْــرَفُوا عَلَى أَنفُسِــهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِـرُ الـذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**.

وقـال تعـالى: **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُـلَّ شَـيْءٍ**، **وقولـه: وَالَّذِينَ لاَ يَـدْعُونَ مَـعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَـرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِـالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُــونَ وَمَن يَفْعَــلْ ذَلِــكَ يَلْــقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَـوْمَ القِيَامَـةِ وَيَخْلُـدْ فِيـهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَـالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**.

وقوله: **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْـرَكَ بِـهِ وَيَغْفِـرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**.

ومن أحاديث الرجاء ما ورد عن عمر بن الخطـاب قال: قُدم على رسول الله بسـبي فـإذا امـرأة من السَّـبْي تسـعى إذا وجـدت صـبيًا في السـبي أخذته فألزقته ببطنها فأرضـــعتهُ، فقـــال رســـول الله : «أترونَ هَذَهِ المرأةَ طارَحِةً ولَدَهَا في النار؟» قلنا: لا يا رسـول اللـه، فقـال: «الله أرْحَمُ بعبـادهِ مِن هـذه بِوَلَدِها» متفق عليه.

وورد عنه أنه قـال: «فـإنَّ الله حَـرَّمَ على النـارِ مَن قال: لا إله إلا الله يبتغي بـذلك وجْـهَ الله» متفق عليه.

وقال : «لما خَلَق الله الخَلْقَ كَتَبَ في كِتابٍ فهو عنده فوق العرشِ: إن رحمـتي تغلب غضـبي»، وفي رواية: «غَلبت غضبي»، وفي رواية: «سَبَقَتْ غضبي» متفق عليه.

وروي عن الإمام أحمد أنه لما حضرته الوفاة قـال لولده عبدالله: الْقِ عَليَّ أحاديث الرجاء؛ لأن المؤمن إذا سمع آيات الرجـاء وأحـاديث الرجـاء قَـوِيَ حُسْـنُ ظنه بربه عز وجل، واشتاق إلى لقـاء سـيده ومـولاه الـذي هو أرحم به من والديه وأولاده فعند ذلك تَهـون عليه سكراتُ الموت إذا أرَادَ الله.

إذا اشْـــتكَتْ مِن كَلالِ وَصْـــلَ المُحِبِّ فَتَحْيَا

والمهم أنه يحرص كل الحـرص على تقوية وحسن ظنه بـرب العـالمين، ثم أن للمـوت سكرات قال الله جل وعلا وتقـدس: ﴿وَجَـاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

وقيل: إن الأعضاء يسـلم بعضُـها على بعض، ففي تذكرة القرطبي، عن أنس مرفوعًا: «إن العبد لَيُعَالج كُرَبَ الموت، وإن مَفَاصِلَهُ لَيُسَلَمُ بَعْضَـها على بعض، يقـول: السـلام عليـكَ تُفَـارِقُنِي وأفارِقُـكَ إلى يـومِ القيامةِ».

أي يُودِّعُ بعضها بعضًا.

خُلقْنَا لأحْدَاثِ الليَـالي فَرائِسًـــــــــا | تُزَفُ إلى الأجْدَاثِ مِنَّا عَرائِسَـــــــــا
تُجَهِّزُ مِنَّا لِلْقُبـــــــورِ عَسَـــــــــاكِرًا | وتُـرْدِفُ أعـوادَ المنايا فَوارِسَـــــــــا
إذا أمَـلٌ أرْخَى لنا من عِنَانِـــــــــهِ | غَـدًا أجَـلٌ عَمَّا نُحَـاوِلُ حَابسَـــــــــا
أرَى الغُصْنَ لَمَّا اجتُثَّ وهو بمائِهِ | رَطيبًا وما أنْ أصـــبحَ الغُصْـــن يابسَـــا
نَشِـيدُ قُصـورًا لِلْخُلـودِ سَـــــــفَاهَةً | ونصبر ما شـئنا فتـورًا دَوَارسا
وقد نَعتِ الـــدنيا إلينا نُفُوسَـــــــــنَا | بِمَن مَـــــاتَ مِنَّا لو أصَـــابَتْ أكَايِسَـــا
لقَـدَ ضَـرَبَتْ كِسْـرَى الملـــــوكَ وتُبَّعا | وقَيْصَـرَ أمثـالاً فلم نَر قَائِسَـــــــــا
وقد فَضَـــح الـــدنيا لنَا المـــــوتُ واعِظًا | وهيهـاتَ ما نَـزْدَادُ إلا تقاعُسَـــــــــا

والله أعلم، وصـلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

قـال مالك بن دينــار: عجبًا لمن يعلم أن المــوت مصيره والقبر مـورده، كيف تقر بالـدنيا عينـه، وكيف يطيب فيها عيشه، ثم يبكي حتى يسقط مغشيًا عليه.

قـال الحـارث بن سـعيد: كنا عند مالك بن دينـار وعنـده قـارئ يقـرأ: ﴿**إِذَا زُلْـزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا**﴾ فجعل مالك ينتفض وأهل المجلس يبكـــون، حـــتى انتهى القارئ إلى: ﴿**فَمَن يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ خَيْـرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ شَـرًا يَـرَهُ**﴾، فجعل

مالك يبكي ويشــهق حــتى غُشي عليــه، فحُمل بين القوم صريعًا.

واحــــــترق بيته فأخذ المصـــــحف وأخذ القطيفة فأخرجهمـا، فقيل له: يا أبا يحـيى، الـبيت، فقـال: ما فيه إلا السندانة ما أُبالي أن يحترق.

وروي عنه أنه كـــان يقـــول: إن الله عز وجل إذا أحب عبـــدًا انتقصه من دنيـــاه وكـــفَّ عنه ضـــيعته، ويقول: لا تبرح من بين يديَّ، قال: فهو متفرغٌ لخدمة ربه عز وجل.

وإذا أبغض عبـدًا دفع في نحـره شـيئًا من الـدنيا، ويقول: أعزب من بين يدي فلا أراك بين يدي، فـتراه معلقُ القلب بأرض كذا وبتجارة كذا.

وروي عن أبي عبدالله الــبراثي أنه كــان يقــول: حملتنا المطامعُ على أسوأ الصنائع نـذل لمن لا يقـدرُ لنا على ضررٍ ولا على نفـعٍ، ونخضـعُ لمن لا يملـكُ لنا رزقًا ولا حيـــاةً ولا موتًا ولًا نشـــورًا، فكيف أزعمُ أني أعــرف ربي حــقَّ معرفته وأنا أصــنع ذلــك، هيهــات هيهات.

قيـل: إنه مر تـاجر بعشـار فحبسـوا عليه سـفينته، فجاء إلى مالك بن دينار، فـذكر ذلك لـه، قـال: فقـام مالك فمشى إلى العشــــار، فلما رأوه، قـــالوا: يا أبا يحيى ألا تبعث إلينا حاجتـك؟ قـال: حـاجتي أن تخلـوا سفينة هذا الرجل.

قالوا: قد فعلنا، قال: وكـان عنـدهم كـوز يجعلـون فيه ما يأخذون من النـاس من الـدراهم، فقـالوا: ادع الله لنا يا أبا يحيى، قال: قولوا للكوز يدعو لكم، كيف أدعو لكم وألف يدعون عليكم، أترى يُســتجاب لواحد ولا يستجاب لألف؟

وقـــال الربيـــع: نصب المتقـــون الوعيد من الله أمامهم فنظرت إليه قلـوبهم بتصـديق وتحقيـق، فهم

والله في الـدنيا متغصـون، ووقفـوا ثـواب الأعمـال الصالحة خلف ذلك.

فمتى سمعت أبصار القلـوب وارتـاحت إلى حلـول ذلك فهم والله إلى الآخرة متطلعـون بين وعيـدٍ هائل ووعدٍ حق صادق لا ينفكون من خوف وعيد إلا رجعوا إلى شوق موعود.

فهم كـذلك وعلى ذلـك، وفي المـوت جُعلتْ لهم الراحة ثم يبكي.

وقــال: إن لله عبــادًا أخمصــوا له البُطــون عن مطاعم الحرام وغضُّوا له الجُفون عن مناظر الآثام.

وأهملُوا له العيـون لما اختلط عليهم الظلام رجـاءَ أن يُنير قُلُوبهم إذا تضمنتهم الأرضُ بين أطباقهم فهُم في الدنيا مُكتئِبون وإلى الآخرة مُتطلعون.

فهم الذين لا راحةَ لهم في الـدنيا وهم الـذين تقـرُّ أعينُهم بطلعةِ ملك الموت.

وقال في كلام له: قطعتنا غفلةُ الآمال عن مبـادرة الآجـال فنحن في الـدنيا حيـارى لا ننتبه من رقـدةٍ إلا أعقبتنا في أثرها غفلة.

فيا إخوتاه، نشدكم باللـه، هل تعلمـون مؤمنًا بالله أغـرَّ ولنقمته أقل حـذرًا من قـوم هجمت بهم العـبر والأمثال، ثم رجعوا عن ذلك إلى غير قلعةٍ ولا نقلة.

فـإن تحسن أيها المـرء يُحسن إليـك، وإن تُسـيء فعلى نفسك بالعُتب فارجع فقد بيَّن وحذَّر فما للناس على الله حُجة بعد الرسُل **﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾**.

نزل جماعة من العباد ذات ليلة على الساحل فهيَّأ لهم أحدُ إخـوانهم طعامًـا ودعـاهم إليـه فجـاءوا فلمَّا وُضـع الطعـام بين أيـديهم إذا قائـل ينشـد وهـو على ساحل البحر هذا البيت:

وتهلِيْكَ عن دار الخلودِ ولَـذَّةُ نَفْسٍ غيُّها غَيْـرُ نافعِ

فبكى القوم ورُفعَ الطعام وما ذاقوا منه لُقمةً.

رُوَيُـدَكَ فالـدُّنيا الدنيـةَ كَمْ دَنَتْ | بمَكْرُوْهِهَا مِن أهْلِها وصِـــــــــــحَابها
لَقَـدْ فـاقَ في الآفـاقِ كُـــــــــلُ مُوَفَّقِ | أفـاقَ بها مِن سُـكْرِها وصَـــــــــــحَابَهَا
فَسَـلْ جَـامِعَ الأمـوالِ فيها بحرصِــــــــهِ | أخلَّفَهَا مِن بَعْـــدِهِ أمْ سَــــــــرَى بها
وكم أسِـدٍ سَـادَ البَرايَا بـــــــــبرِهِ | ولو نَابَها خَطْبٌ إذا ما وَنَى بِها
فأصْـــبَحَ فيها عِبْـــرةً لأولي النُهَى | بِمِخْلَبِهَا قَـــدْ مَزَّقَتْـــهُ ونَابِهَا

وقـال بعض العبـاد: لو يعلم الخلائق ما يستقبلون غدًا ما لذوا بعيش أبدًا، والله إني لما رأيت الليل وهولة وشدت سواده.

ذكرتُ به الموقف (أي موقف يوم القيامة) وشـدة الأمر هنا ك وكل امـــرئ يومئذ تهمه نفسه يـــوم ﴿**لاَّ يَجْـزِي وَالِـدٌ عَن وَلَـدِهِ وَلاَ مَوْلُـودٌ هُـوَ جَـازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا**﴾.

كـانت إحـدى العابـدات تقـول: طـوى أملي طلـوع الشمس وغروبها، فما من حركة تُسمع، ولا من قـدم تُوضع، إلا ظننتُ أن الموت في أثرها.

وكانت تقول: سكانُ دار أوذنوا بالنقلة (أي اعلمـوا بالارتحـــال) وهم حيــارى يركضــون في المهلة كــأن المراد غيرهم، أو التـأذينُ ليس لهم، والمعـني بـالأمر سواهم.

آهٍ من عقـــول ما أنقصـــها، ومن جهالة ما أتمهـــا، بؤسًـــا لأهل المعاصــي، مــاذا غــرُّوا به من الإمهـــال والاستدراج؟ بسطوا آمـالهم، فأضـاعوا أعمـالهم ولو نصبوا الآجال وطووا الآمال خفت عليهم الأعمال.

وكانت تقول: لم ينل المطيعون ما نالوا من حُلولِ الجنان ورضا الرحمن إلا بتعب الأبدان لله والقيام لله بحقه في المنشط والمكرَه.

وعن أبي سنان القسـملي قـال: سـمعتُ وهب بن مُنبه، وأقبل على عطاء الخراساني، فقال: «ويحك يا عطـــاء، ألم أخـــبرك أنك تحمل علمك إلى أبـــواب الملـوك وأبنـاء الـدنيا؟ ويْحضك يا عطـاء، تـأتي من يُغلق عنك بابه، ويُظهر لك فقرهُ، ويُواري عنك غنـاه، وتـدع من يفتحُ لك بابـه، ويُظهر لك غنـاءه ويقـول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

ويْحَكَ يا عطاء، ارْضَ بالدُّون من الدنيا مع الحكمة ولا تـــرض بالـــدون من الحكمة مع الـــدنيا، ويحك يا عطـــاء، إن كـــان يُغنيك ما يكفيك فـــإن أدنى ما في الـــدنيا يكفيـــك، ويحك يا عطـــاء، إنما بطنُـــكَ بحر من البُحور وواد من الأدوية فليس يملؤه إلا التراب».

قـــال مقاتل بن صـــالح الخراســـاني: دخلت على حماد بن سـلمة فـإذا ليس في الـبيت إلا حصـير وهو جـالس عليه ومصـحف يقـرأ فيه وجـرابٌ فيه علمه ومطهرةٌ يتوضأ منها.

فبينما أنا عنـده جـالس إذا دقَّ البـاب، فقـال: يا صـبيةُ أخـرجي، فـانظري من هـذا؟ فقـالت: رسـول محمد بن سليمان أمير البصرة، قال: قُولي له يـدخل وحـده، فـدخل فناولـهُ كتابًا فـإذا فيـه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن سليمان إلى حمـاد بن سـلمة، أما بعـد، فصـبَّحك الله بما صـبح به أوليـاءه وأهل طاعته وقعت مســـــألة فأتنا نســـــألك عنها والسلام».

قـال: يا صـبية، هلمي الـدواة، ثم قـال لي: اقلب الكتاب (أي الورقة)، واكتب: أما بعـد، وأنت فصـبَّحَكَ الله بما صبح به أولياءَه وأهل طاعته.

إنا أدركنا العُلماء وهم لا يأتون أحدًا.

فإن كانت وقعت مسألة فأتنا واسألنا عمَّا بدا لك.
وإن أتيتــني فلا تــأتني إلا وحــدك ولا تــأتني بخيلك ورجلك فلا أنصحُك ولا أنصح نفسي والسلام.
فبينما أنا عنــده دق البــاب داق، فقــال: يا صــبية، أخــــرجي فـــانظري من هـــذا؟ فقـــالت: مُحمد بن سليمان.
قـال: قـولي له ليـدخل وحـده، فـدخل فسـلم، ثم جلس بين يديه.
فقال: مالي إذا نظرت إليك امتلأتُ رُعبًا.
فقـال حمـادُ: سـمعت ثابتًا البُنـان يقـول: سـمعتُ أنس بن مالك يقـول: سـمعتُ رسـول الله يقُـول: «إنَّ العَالِمَ إذا أَرَادَ بعِلْمِهِ وجْهَ الله عَزَّ وجَل هَابَه كلُ شــيءٍ، وإذا أرادَ أنْ يَكتَنِـزَ به الكُنُـوزَ هَـابَ مِن كُـلِ شيءٍ».
فقال: أربعُون ألف درهم تأخذها تســتعين بها على ما أنت عليه.
قال: ارددها على من ظلمتهُ بها.
قال: والله ما أعطيتك إلا ما ورثته.
قال: لا حاجة لي فيها إزوها عني (أي أبعدها عني) زوى الله عنك أوزارك.
قال: فتقسمها، قال: فلعلي إن عدلت في قسمتها أن يقول بعضُ من لم يُرزق منها لم يعدل إزوها عني ذوى الله عنك أوزارك. اهـ.
تأمل يا أخي، كيف يـــــؤثر في القلـــــوب كلام المخلصين الذين لا يريدون الدنيا وعروضـها، قـال أبو الوفـاء بن عقيـل: لا يعمل الوعـظُ إلا من متقشـفٍ مُتزهـــدٍ متـــورعٍ في نظافة جســـمٍ (قلتُ: ونظافة قلب)، قال: فأما من يخرجُ بطينًا فاخرَ الثياب مداخِلاً للأمـراء فكيف تسـتجيبُ له القُلـوبُ إنما يُسـمعُ من هؤلاء على سبيل الفُرجة، قلت: والانتقاد والاســتهزاء والسخرية.

وكان حماد ـ رحمه الله ــ مشغولاً بنفسه إما أن يحدث، وإما أن يسبح ، وإما أن يصلي، كان قد قسم النهار على هذه الأعمال.

هُمُ الرجَـــالُ وغَبْنٌ أن لم يَتَّصِـــفْ بمعَـــالي

جاء رجل إلى يونس بن عبيد فشكا إليه ضيقًا من حاله ومعاشه واغتمامً منه بذلك.

فقال له يونس: أيسرُّك ببصرك هذا الذي تُبصرُ به مائةُ ألفٍ، قال: لا.

قال: فسمعك الذي تسمعُ به يسرُّك به مائةُ ألف، قال: لا.

قال: فيداك يسرُّك بهما مائة ألف، قال: لا.

قال: فرجلاك، قال: فذكره نعم الله عليه.

فأقبل عليه يونس، فقال: أرى لك مئين أو لُوفًا وأنت تشكو الحاجة.

وجاءته امرأة بجبةِ خز، فقالت له: اشترها، فقال: بكم تبيعينها؟ قالت: بخمس مائة (500)، قال: هي خير من ذلك (يعني تسوى أزيد).

قالت: بستمائة (600)، قال: هي خير من ذلك، فلم يزل يقول هي خير من ذلك حتى بلغت ألفًا (1000)، وقد بذلتها له بخمسمائة (500).

وكان يشتري الإبريسم من البصرة فيبعث به إلى وكيله وكان وكيله يبعث إليه بالخز (أي الحرير) فإن أخبر وكيله أن المتاع عنده زائد لم يشتر منهم أبدًا حتى يخبرهم أنه زائد، لئلا يغتروا.

وإذا زاد عندهم المتاعُ قال لوكيله: أخبر من تشتري لنا منه أن الشيء زائد عندنا.

وكان يقولُ: لو أصبت درهمًا حلالاً من تجارة لاشتريت به بُرًا ثم صيرته سوقًا ثم سقيته المرضى.

وأخرج شاة للبيع، وقال للدَّلال: بعْهَا وابرأ من أنها تقلبُ العلف وتنزع الوتد (أي أشرط على المشتري

هــذا العيب) هل يوجد مثل هــذا النصح والــورع في زمننا.

وكـان السـلف –رحمهم اللـه- قد جمعـوا خصـالاً حميــدة منها النصح للأمة والصــدع بــالحق، ولو أدى ذلك إلى ضـررهم وبـذل المـال و الجـاه والمحافظة على الأوقـات أعظم من مُحافظة أهل الأمـوال على أموالهم.

يقطعون الأوقات إما بتعليم علم مما جاء به النـبي وإما بصلاة.

وإما بالباقيـات الصـالحات لا إله إلا الله وسـبحان والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم أو نحو ذلك.

وأما أكـثر أهل هـذا الزَّمـان فقد ذهبت أعمـارهم فُرطًا مضاعة عند قتالات الأوقـات فيما يضر ولا ينفع كالتلفزيون، والفيـديو، والمـذياع، والكـورة، والـورق، والقيل والقال، والكذب، والغيبة، والنميمة، وما أشبه ذلك.

وقد اتسع في زمننا الغيبة والنميمة والســـــعاية بسبب التلفون؛ لأنها بالزمـان الأول لابُـدَّ من اجتمـاع الأبدان.

ويـنـدُرُ جـدًا أن تجـد الفطن اللـوذعي المحاسـب لنفسه على الحركات واللحظـات الصـائن لوقتـه عن الضياع.

لا يَحْقِر الرجُـــلُ الرفيـــعُ دَقيقـــــــــــــةً   في السَّـــهْوِ فيها للوضـــيع مَعَـــــــــــــــاذرٌ

فكبَــائرُ الرجــلِ الصَّــغِيْرِ صَـــــــــــــغِيرةٌ   وصِـــغائرُ الرجــلِ الكبـــيرِ كبَـــــــــــــائِرُ

آخر:

ولا يَذْهَبّنَّ العُمْرُ مِنْــكَ ولا تُغْبَنَنْ بالنَّعْمَتَين بَل

سَـــــــــــبَهْلَلا أَجْهـــــــــــدِ
فَمَنْ هَجرَ اللَّذَاتِ نَـالَ أكَبَّ على اللَّذَاتِ
المُنِى ومَنْ عَضَ على اليَـــــــدِ

والله أعلم، وصــلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

ينبغي للإنسـان أن يكـون دائم الـذكر للمـوت ليلاً ونهارًا لئلا يفجاءهُ قبل الاستعداد والتـأهب له كما هي طريقة كثير من السلف.

والناسُ في ذكر الموت أقسام ثلاثة:

قسم لا يذكره أبدًا.

وقسم يذكره رُعبًا وخشيةً.

وقسم يذكره عقلاً وحكمة.

القسم الأول: أحمق وهو الذي لا يتذكر المـوت ولا يجـــري له على خـــاطر كأنَّه قد ثبت في عقله أن لا موت.

فلا يحس هذه الحقيقة إلا عند المشاهدة، ولا يذكر الموت إلا ريثما تنقضي تلك المشاهدة كـأن يشـتد به المـــرض أو يختطف المـــوت أحد أهله أو جيرانه أو يحصل عليه حادث يقربه من الهلاك.

فهو لا يتفكر في المـــوت وما يعقبه إلا نظـــرًا في حـــال ماله وأولاده عند موتـــه، ولا ينظر ويتـــدبر في أحوال نفسه.

وعندما يرى جنازة يقول بلســانه: «إنا لله وإنا إليه راجعون» ولا يرجع إلى الله بأفعاله، بل يرجع بأقواله فقط، وهذا على خطر عظيم.

القسم الثاني: يذكره دائمًا لخشـية وقوعه وخـوفٍ من نُزوله فيتولاهم الرعب ويستولي عليهم الفزع.

وأكـثر ما يذكرونه إذا خلـوا من أشـغالهم وانتقلـوا إلى أوقات فراغهم فيكدر عليهم صفاء هناءتهم وأشد

ما يكــون كــدرهم ونكــدهم إذا أقبلت عليهم الــدنيا وتتابعت عليهم النعم وازداوا من متاع الـدنيا وزينتهـا، فـتراهم في هم دائمٍ وقلق وعنـاء مُقيم للتـوقي من الأخطـار والتحـرُز من أسـباب الهلاك ويتوهمـون في كُلَّ لقمة تخمةً وفي كل جُرعةٍ غُصَّةً وتجدهم مهتمين دائمًا بالفحص عن أبدانهم خوف الموت.

القسم الثـالث: وهو الــذي وفقه الله للاســتعداد للموت والتأهب للقاء الله، فهذا لا يفارقه ذكرُ الموت كالمتنقل من محل إلى محل آخر أو كالمســـافر من بلدٍ إلى بلدٍ ليُقيم فيها.

فإنه لا يفارقه ذكر مقصــــــده، وذلك لأنه يعلم أن ذكر المــوت يطــردُ فضــول الأمــل، ويقطع المــنى، ويهـون المصـائب، ويحـول بين الإنسـان والطُغيـان، ومن فوائد ذكر المـــوت أن يُولـــدُ القناعة بما رُزق، والرضا بالميسور، والمبادرة إلى التوبة.

والاعتنـــاء بالوصـــية، والتخلص من حقـــوق الله وحقوق عباده، وترك التحاسد، والحـرص على الـدنيا، والابتعــاد عن الكــبر والعُجب، ومن فوائد ذكــره أنه يزيد النشاط في العبادة.

فعلى العاقل أن يكثر من ذكـره، ولا يمهل نفسـه، بل يصبح كل يوم على تقدير الاسـتعداد للرحلـة؛ لأنه ما من وقت إلا والمـوت فيه مُمكن، وهـذا أمر متفق عليه.

والنـاس مختلفـون في كـل الأشـياء إلا المـوت فلا خلاف فيـه، قـال اللـه تبـارك وتعـالى: ﴿**كُـلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ**﴾.

أكْــدَحْ لِنَفْســكَ قَبْــلَ المــــوتِ في مَهَــــلِ	ولا تَكُن جـــــاهلاً في الحـــــــــقِ مُرْتابًا
إن المنيّة مَـــــــورُودٌ مَنَاهِلُها	لابُـــدَّ مِنْهَا ولو عُمِّرتَ أحْقابًا
وفي اللَّيَـــــالي وفي	يَزْدادُ فيها أولُو الألْبابِ

الأيـــــامِ تَجْربـــــةٌ ... ألبابًا

بَعْــدَ الشــبابِ يَصِـير الصّــــــلْبُ مُنْحَنيًا ... والشَّــعرُ بعــدَ ســوادٍ كـــانَ قَـــدْ شَـــابَا

يُفْـــني النُفُـــوسَ ولا يُبْقِي على أحَـــــــدٍ ... لَيــلٌ سَــرَيعٌ وشَـمْسٌ كَرُّها دَابَا

لِمُسَـــتقرٍ ومِيقَـــاتٍ مُقَـــــــــــدَّرةٍ ... حَتَّى يَعُـــودَ شُـــهودُ النـــــــاسِ غُيَّابًا

ومَن تعَـــاقِرهُ الأيـــامُ تُبْدِلُـــــــــــهُ ... بالجـــــارِ جـــــارًا وبالأصــحابِ أصــحَابًا

خَلَّوا بُروَجًا وأوطانًا ومُغْترَبًا ... كُســيْتَ مِنه لِطُــولِ النَّأْيِ أثْوَابًا

بمُــوحِشٍ ضَــيِّقٍ نَـاءٍ مَحَلّتُـــــــــــــهُ ... ولَيْسَ مَن حَلَّهُ مَن غَيْبَـــــــــــةٍ آبَا

كَمْ مَن مَهيْبٍ عَظِيْمِ المُلْـــــكِ مُتَّخِـــــذٍ ... دُونَ السُّرادِقِ حُرَّاسًــا وَحُجَّابًا

أضْــحَى ذليلاً صَــغِيرَ الشــــأنِ مُنْفـــردًا ... وما يُـــرَى عِنْـــدَهُ في القَـــــــــبر بَوَّابا

وقَبْلـــكَ النـــاسُ قَـــدْ عَاشُوا وقد هلَكُوا ... فاضْرَبَ الحيُّ عن ذِي النـــــأيِيْ إضــــرابًا

اللهم ارحم ذُلنا يوم يقوم الأشــهاد، وأمِّن خوفنا من فــزع المعــاد ووفقنا لما تنجينا به من الأعمال في ظلم الإلحاد، ولا تخزنا يـــوم القيامة إنك لا تخلف الميعـــــــاد، واغفر لنا ولوالــدينا ولجميع المســلمين الأحيــاء منهم والميــتين برحمتك يا أرحم الــراحمين، وصل الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فصل

ثم اعلم أن للمـوت نُـذُر، قـال القرطـبي: ورد في الخــبر أن بعض الأنبيــاء قــال لملك المــوت: أما لك رسول تقدمه بين يديك يكون الناس على حذر منــك،

قـــال: نعم، لي والله رسُـــل كثـــيرة من الإعلال والأمراض والهرم وتغيُّر السمع والبصر والشيب.

فإذا لم يتذكر من نـزل به ذلك ولم يتب ناديتُـهُ إذا قبضـتُه ألم أقـدم لك رسُـولاً بعد رسـول وأنا النـذير الذي ليس بعدي نذير.

قال بعضهم:

تَسَـــاقَطُ أسْـــنَانٌ وتَقْصرُ خُطْوَاتٌ وَيَثْقُلُ

فما من يوم تطلـع شمسـه لاْ وملـك يُنـادي: يـا أُبنـاء الأربعين، هـــذا وقت أخـــذ الـــزاد أذهـــانكم حاضـــرة وأعضاؤكم قوية شداد، يا أبناء الخمسين، قـد دنـا الأخـذ والحصاد، يا أبناء الستين، نسيتم العقاب وغفلتم عن ردِّ الجواب.

ومَنْ سَـارَ نَحْـوَ الـدارِ فَقَدْ حَانَ مِنْهُ المُلْتَقَى

وورد في «صحيح البخـاري»: أعـذر الله إلى امـرئٍ آخر أجله حتى بلغ سـتين سـنة، ورُوي أن ملك المـوت دخل على داوُد ـ عليه السلام ـ، فقال: من أنت؟ قال: من لا يهابُ الملـوك، ولا يمتنـعُ من القُصُـور، ولا يقبـلُ الرُّشَاء.

قال: فإذًا أنت ملكُ الموت ولم أستعدَّ بعـدُ، قـال: يا داوُدُ، أين فُلانٌ جارك؟ أين فلانٌ قريبك؟ قال: ماتا، قال: أما كان لك في هؤلاء عبرة لتستعد.

يا سَـــــاهِيًا لاهِيًا عَمَّا آنَ الرَّحِيْلُ وما قَدَّمْتَ
يُـــــــرادُ بِـــــــهِ مَن زَادِ
تَــرْجُ البَقَــاءَ صَــحيْحًا هِيْهَـاتَ أنْتَ غَــدًا مَــعْ
سَــــــالمًا أبَــــــدَا مَن غَــــــدَا غـــــــادِ

آخر:

تمضي الحيـاةُ وأبنــاءُ في غفلـــةٍ بانْصِـــرامِ

قيـل: إنها تُعـرضُ على الإنسـان في الـدار الآخـرة ساعاتُ أيامه ولياليه في هيئة الخـزائن، كل يـوم وليلة

أربع وعشـرون خزانة بعـدد سـاعاتهما فـيرى السـاعة التي عمل فيها بطاعة الله خزانة مملوءة نـورًا فيفـرح بـــذلك فرحًا شـــديدًا، والــتي عمل فيها بمعصـــية الله مملوءة ظُلمة، والتي لم يعمل فيها بطاعة ولا معصـــية يجدها فارغة لا شيء فيها.

فيعظم ندمه وحســـــرته إذا نظر إلى الفارغـــــة، ويتمـنى لو ملأها بـذكر الله جل وعلا، قـال جل وعلا وتقدس: ﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْـرَةِ إِذْ قُضِـيَ الأَمْـرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾.

وقال عز من قائـل: ﴿**هُنَالِـكَ تَبْلُـو كُـلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْـلَفَتْ** ﴾فالعامل بطاعة الله يكـون فرحًا مسـرورًا مغتبطًا على الدوام يزيد فرحُه واغتباطه ويكاد فؤاده يطير من شدة الفرح.

وعكسه العامل بمعاصي الله يكــــــون مغمومًا محزونًا قلقًا يـزداد حُزنه وحسـرتُه وندامتُه إلى غـير نهاية.

ففكر يا أخي، واخــــتر لنفسك رحمنا الله وإيــــاك وجميع المســـلمين ما دُمت في قيد الحيـــاة في دار الاختيار لم تطوى صحيفتك.

فالبــــدار البــــدار فيما ينفعك ويرفعك وإيــــاك والتســـويف، فإنه شـــرٍ والإنســـان معــرض للآفــات والشواغل الكثيرة.

قــال ﷺ: «اغتنم خمسًــا قبل خمس: شــبابك قبل هرمك، وصـحتك قبل سـقمك، وفراغك قبل شـغلك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك».

وأخرج الترمـذي وحسـنه والحـاكم وصـححه، وابن ماجه عن النــبي ﷺ، قــال: «المــؤمن يمــوت بعــرق الجـبين»، وقـال ابن مسـعود: إن المـؤمن يبقى عليه خطايا يُجازي بها عند الموت، فيعرق لذلك جبينه.

وقال سفيان: كانوا يستحبونة العرق للمـوت، ومن ثم قال علقمة لبعض أصحابه: أحضرني فَلِقـني لا إله إلا الله، فإن عرق جبيني فبشرني.

قال بعضُ العلماء: وإنما يعرق جبينه حيـاءً من ربه لما اقـترف من مخافتـه؛ لأن ما سـفل منه قد مـات وإنما بقيت منه قوة الحياة وحركاتها فيما علا.

والحياءُ في العينين، والكافر في عما عن هذا كله، والمُوحد المُعذَّبُ في شغل عن هذا بما حل به.

ولما احتضر عمـرو بن العـاص قـال ابنـه: يا أبت، إنك كُنت تقول: ليتـني ألقى رجلاً عـاقلاً عند المـوت حـــتى يصف ما يجـــدُ، وأنت ذلك الرجل فصِـــفْ لي الموت، قال: يا بُني والله لكأني أتنفسُ من سمِّ أبرةٍ وكأن غُصْنَ شوكٍ يُجرُّ به من قدمي.

وقال: أجدُ كأن السموات أطبقت على الأرض وأنا ينهما وكأن نفسي تخرج على ثقب لأبرةٍ وكأن غُصـن شوكٍ يُجذبُ به من هامتي إلى قدمي.

لَعَمْرَكَ مَا يُغْنِي الثراءُ إذا حَشْـــــــرَجت يومًا

سمع بعضهم بكاء على ميت، فقال: عَجبًا من قـوم مُسـافرين يبكـون على مسـافر قد بلغ منزله.

قــال عمر بن عبــدالعزيز: ما أحب أن تهــون عليَّ سكرات الموت؛ لأنه آخر ما يؤجر عليه المؤمن.

أهل القبور محبُوسُون ندموا على ما قـدموا، وأهل الــدور مُنتظـرون يقتتلُـون على ما عليه أهل القبــور مُتندمُون.

فلا هــؤلاء إلى هــؤلاء يرجعــون، ولا هــؤلاء بهــؤلاء معتبرون.

سُئل بعضهم: هل من علامة تــدل على أن الله قد قَبِلَكَ؟

فقــــال: إذا رأيت الله عز وجل قد عصــــمك عن المعاصي كُلِّها كرهها إليك، ووفقك لطاعته علمت أنه

قد قبلـك، قُلتُ: لو قـال قـوي ظنك ورجـاؤك لكـان أولى، إن للسيئة ظلمة في القلب وشـينًا في الوجـه، ووهنًا في البـــدن، ونقصًـــا في الـــرزق، وبغضة في قلوب الخلق، ونقصًا في العقل والدين، وأما الحسـنة فإن لها نورًا في الوجـه، ونشـاطًا في البـدن، وزيـادة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وزيادة في العقل والدين.

حِجَـــابُ عُمْـــرِكَ يا مَغْـــرُورُ مَهْتُـــوكُ وبَيْتُ عِـزِّكَ لَو فَكَّرْتَ مَنْهُـــــــــــوكُ
كَفَـــاكَ ما قَمَشَـــتْ كَفَّاك مِن نَشَـــــبٍ لابُـدَّ يُصْـبِحُ يَومًا وهْـوَ مْتُـــــــــــروكُ
لله بَـــاكٍ عَلى زَلاَّتِـــهِ نَـــــــــــدَمًا دَمًا يُخَضَّبُ منه النَّحْـرُ مَسْـــــــــفُوكُ
لا شَـــكَّ في الأجَـــلِ المحتُـــومِ يَلْحَقُـــهُ وإفِـــكُ الفِكْـــرِ في الآيَـــات مَـــأفُوكُ
يَقْلى الثَّواءَ بـدَار غَـير ثَاوِيَـــــــــــةٍ فيها اسْـــتَوَى مالِـــكٌ هُلْكًا ومَمْلُـــــــوكُ

موعظة

أيُها العبـــــد، حاسب نفسك في خلوتك وتفكر في سرعة إنقراض مُدتك، واعمل بجد واجتهاد في زمـان فراغك لوقت حاجتك وشدتك.

وتدبَّر قبل الفعل ما يُملى في صحيفتك وانظر هل نفسك معك على الشـيطان والهـوى والـدنيا أو عليك في مجاهدتك.

لقد سَـــعِدَ من حاسـبها وفـــاز من حاربها وقـــام باستيفاء الحقوق منها وطالبها وكلما قصـرت أو ونَتْ عاتبها وكلما توقَّفَتْ جذبها.

قــال –عليه الصــلاة والســلام-: «الكيس مَن دَان نَفْسَه وعمل لما بعد المـوت، والعـاجِز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني».

وقـال عمـر: حاسـبوا أنفسـكم قبل أن تحاسـبوا وطالبوها بالصدق في الأعمال قبل أن تطالبوا وزنــوا أعمـــالكم قبل أن توزنـــوا، فإنه أهـــون عليكم في الحساب غدا وتزينوا للعرض الأكبر ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ**﴾.

فصل

أخـرج الحـاكم في «المسـتدرك» وابنُ سـعدٍ عن عوانة بن الحكم: أن عمـرو بن العـاص كـان يقـول: عجبًا لمن نزل به الموت، قال له ابنه عبدالله: يا أبتِ إنك كُنْتَ تَقُولُ: عجبًا لمن نزل به الموت وعقلُه معه كيف لا يصفُه، فصفْ لنا الموت؟ قـال: يا بُـني، أجـلُّ من أن يوصـف، ولكن سأصف لك منه شـيئًا، أجـدني كـأن على عنقي جبـال رضـوى، وأجـدني كـأن في جوفي شوك السلان، وأجدني كـأن نفسي تخـرجُ من ثقب إبرة.

وقال عمر لكعب: أخبرني عن المـوت؟ قـال: يا أمـير المؤمـنين، هو مثل شـجرةٍ كثـيرة الشـوك في جـــوف ابن آدم فليس منه عـــرق ولا مفصل إلا وفيه شوكة، ورجُلٌ شديدُ الذراعين فهو يُعالجها وينزعها.

وأخـــــــرج أبو نعيم في «الحلية»، عن واثلة بن الأسقع، عن النبي قال: «احْضُروا مَوْتَاكم ولقِنُوهُم لا إله إلا الله وبَشـــروهُم بالجنـــةِ، فـــإنَّ الحَليمَ مِن الرجـــالِ والنســـاءِ يَتَحَيَّرُ عند ذلك المَصْـــرَعِ، وإنَّ الشـــيطانَ أقـــربُ ما يكـــون من ابن آدم عند ذلك المصرع، والذي نفسي بيده لمُعاينةُ ملك الموت أشدُّ من ألف ضربةٍ بالسيف، والذي نفسي بيـده لا تخـرج نَفْسُ عبدٍ من الـدنيا حـتى يَتَـألم كـلُ عـرقٍ منه على حِيَالِهِ».

قال بعضهم: من خـاف الوعيد قصَّـرَ البعيـد، ومن طال أمله ضعف عمله وكل ما هو آتٍ قريب.

واعلم يا أخي، أن كل ما يشـــــغلك عن ربك فهو عليك مشؤم.

واعلم أن أهل القبـور إنما يفرحـون بما يُقـدِّمُون، ويندمُون على ما يُخلفُون.

وأهل الـدنيا يقتتلـون ويتنافسـون فيما عليه أهل القبور يندمُون.

وقال مالك بن دينـار: إن الله جعل الـدنيا دار مفر والآخــرة دار مقــر، فخــذوا لمقــركم من مفــركم، وأخرجــوا الــدنيا من قلــوبكم قبل أن تخــرج منها أبدانكم، ولا تهتكُوا أستاركم عند من يعلم أسراركم.

ففي الـدنيا حـييتم ولغيرها خُلقتم إنما مثل الـدنيا كالسُم أكله من لا يعرفه واجتنبه من عرفه.

ومثل الــدنيا مثــلُ الحية مسُّــها لينٌ وفي جوفها السُّــم القاتل يحــذرها ذووا العقــول، ويهــوى إليها الصبيان بأيديهم.

وقال رجل لمالك بن دينـار: يا مُـرائي، قـال: مـتى عرفت إسمي؟ ما عرف اسمي غيرُك.

وقــال: ما ضُــربَ عبد بعقوبة أعظم من قســوة القلب.

وقـال: إن العـالم إذا أتيتُه في بيته رأيت حصـيرةُ للصلاة ومصحفه ومطهرته في جانب الـبيت تـرى أثر الآخرة.

وقال: إن الأبـرار لتغلي قُلـوبهم بأعمـال الـبر وإن الفجــار تغلي قلــوبُهم بأعمــال الفُجُــور والله يــرى هُمُومكم فانظروا ما هُمُومكم رحمكم الله.

مُحَمَّدُ ما أعْــــــدَدْتَ ... وللْمَلَكيْنِ الــــوَاقِفَيْن
لِلْقَــــــــــبرِ والبلى ... على القَبْــــــــــــرِ
وأنْتَ مُصِــرٌ لا تُراجِــعُ ... ولا ترعَــوي عما يُــذَمُّ
تَوبَـــــــــــــــةً ... مِن الأمْــــــــــــرِ

سَيَأْتِيْكَ يَـومٌ لا تُحَـاوِلُ قَقَـــدِّمْ لَـــهُ زادًا إلى دَفْعَـــــــــــــهُ البَعْثِ والنَّشْــــــــــرِ

قـال بعض العلمـاء: الأشـياء المقتضـية لسُـوء الخاتمة والعيـاذ بالله أربعـة: التهـاون بالصلاة، وشـرب الخمـر، وعقـوق الوالـدين، وإيــذاءُ المسـلمين، وزاد بعضـهم النظر إلى الأحداث.

وعن أبي سـعيد قـال: دخل رسـول الله مُصـلاه فـرأى ناسًـا يكتشـرون (أي يضـحكون)، فقـال: «أما إنكم لو أكثرتُم مِن ذِكـرِ هـادِمِ اللـذاتِ لَشَـغَلكُم عَمَّا أرَى».

فأكثر ذكرها ذم اللذات الموت، فإنه لم يــأت على القبر يوم إلا يتكلم، فيقـول: أنا بيت الغُربـة، وأنا بيت الوحدة، وأنا بيت التُراب، وأنا بيت الدود.

فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر: أهلاً ومرحبًا، أما إن كنت لأحب من يمشي على ظهري فإذا وليتك اليـوم وصـرت إلي فسـترى صـنيعي بك فيتسـعُ مـدَّ بصره ويُفتحُ لهُ بابٌ إلى الجنة.

وإذا دُفن العبد الفاجر أو الكـافر قـال له القـبر: لا مرحبًا ولا أهلاً، أما إن كنت لأبغض من يمشي على ظهري فإذا وليتك اليوم وصرت إليَّ فسترى صــنيعي بك.

قـال: فليـتئم عليه حـتى تلتقي وتختلف أضـلاعُه، وقــال : «في أصــابعه و أدْخَــلَ بَعْضَــهَا في بعض، ويُقيضُ له تِسـعُونَ تَنِّيْنًا لَو أنَّ واحــدًا نَفَخَ في الأرضِ ما أنْبَتَتْ شَيْئًا ما بَقِيَتِ الدُنيا فتَنْهَشُـه وتَخْدِشُـه حـتى يُفْضى به إلى الحساب».

قال: وقـال رسـول الله : «القـبر إمَّا رَوْضَـةٌ مِن ريـــاض الجنة أو حُفْــرَةٌ مِن حُفَـــرِ النـــار» أخرجه الترمذي.

وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا مِن هذا الوجه.

قال الحافظ ابن رجب: لكن روي معناه من وجوه ذكر بعضها. اهـ.

فتفكر يا مغرور بالموت وسكراته وصعوبة كأسِهِ ومرارته فيا للموت من وعدٍ ما أصدقه ومن حاكم ما أعد له.

فكفى بالموتِ مُقرِّحًا للقلوب ومُبْكيًا لِلْعُيون ومُفرقًا لِلْجَماعات وهاذمًا للذات وقاطعًا للأمنيات.

فهلا تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك وانتقالك من موضعك، ونقلت من سعة إلى ضيق، وفارقك الصاحب والرفيقُ، وهجرك الأخ والصديق، وأخذت من فرشك وغطائك إلى حفر وغطوك من بعد لين لحافك بترابٍ ومدرٍ.

نُزَاعُ لِذكْرِ المَوتِ سَاعةَ ذِكْرِه وتَعْتَرضُ الدُنْيَا فَنَلْهُوا ونَلْعَبُ
يَقِيْنٌ كأنَّ الشكَ غَالِبُ أمْرِهِ عليه وعِرْفَانٌ إلى الجَهْلِ يُنْسَبُ

آخر:

ومُنْتَظِرٍ لِلْموتِ في كل لَحْظَةٍ يَشِيْدُ ويَبْني دَائمًا ويُحَصِّنُ
لَـهُ حِيْنَ تَبْلُوهُ حَقِيْقَةُ مُوْقِنٍ وأعمالُه أعْمَالُ مَن لَيْسَ يُوقِنُ
عِيانٌ كإنْكَارٍ وكالْجَهْلِ عِلْمُهُ بَمَذْهَبِهِ في كُلِّ ما يَتَيقَنُ

فيا جاع المال والمجتهد في البنيان ليس لك من مالكِ إلا الأكفان بَلْ هِيَ للخراب وجِسْمُكَ للتَّراب والمآب.

فأين الـذي جمعته من المـال أأنقـذك من الأهـوال كلا بل تتركه إلى من لا يحمـدك وقـدمت بـأوزارٍ إلى من لا يعذرك.

إذا كُنْتَ جَمَّاعًا لِمَالِـكَ مُمْسِــــــــــــكًا فـــأنْتَ عليه خَــــازنٌ وأمِيْنُ
تُؤدِّيْهِ مَذْمُوْمًا إلى غير حَامِــــــــــــدٍ فيأكله عَفْــــــوًا وأنَتَ دَفِيْنُ

كان بعضهم يـوبخ نفسـه، فيقـول: عمل كالسَّــراب وقلبٌ من التقـوى خـرا، وذنـوبٌ بعدد الرمل والتراب.

ثم تطمع في الكـــواعب الأتـــراب هيهـــات أنت سكرات بغير شراب.

ما أكملك لو بـــادرت أملـــك، ما أجلَّك لو بـــادرت أجلك، ما أقواك لو خالفت هواك.

وقال آخر: العلمُ عصـمة الملـوك؛ لأنه يمنُعهم من الظلم، ويـــدرهم إلى الحلم، ويصـــدهم عن الأذيـــة، ويعطفهم على الرعية.

فمن حقهم أن يعرفوا حقه، ويستنبطوا أهلـه، فأما المال فظل زائل وعارية مسترجعة، وليس في كثرته فضيلة، إلا لمن يسلطه الله على هلكته في الحق.

كمن ينفقه في الجهـاد في سـبيل اللـه، وعمـارة المساجد وسائر المشاريع الدينية، ويتَنسَّخ من زكاته.

كـــــــان موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسـين يُـدعى العبد الصـالح لأجل عبادته واجتهـاده وقيامه بالليـــل، وكـــان كريمًا إذا بلغه عن رجل أنه يؤذيه، بعث إليه بمال.

وبعث موسى إلى الرشـيد من الحبس رسـالة إنه لن ينقضي عـني يـوم من البلاء إلا انقضى عنك معـهُ يومٌ من الرَّخـاء حـتى نُفضي جميعًا إلى يـوم ليس له انقضاء يخسرُ فيه المبطلون.

أخِي إنَّما الـدُّنيا محلَّة نَغْصَـــــــــــةٍ ودَارُ غُـــــــرور آذَنَتْ بِفِـــــــــــراقِ
تزوَّد أخِي مِن قَبـلِ أن تَسْـــــــكُنَ الثَّرى وتَلْتَفَّ سـاقٌ لِلْمَمـاتِ بِســــــــــاقِ

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وسلم.

فصل

من فوائد ذكر المـــوت أنه يـــورث الاستشـــعار بالانزعـاج عن هـذه الـدار الفانية المملـوءة بالأكـدار والأنكاد والهموم والغموم.

ويحثُك ذكر الموت على التوجُه في كل لحظةٍ إلى الآخـــرة بالاســـتعداد لها ثم إن الإنســـان لا ينفك عن حالتي ضيقٍ وسعةٍ ونعمةٍ ومحْنةٍ.

فإن كانَ في حال ضيقةٍ ومحنةٍ فذكر الموت سهَّلَ عليه بعض ما هو فيه إذ لا مُصـيبة إلا والمـوت أعظم منها وهو ذائقه ولابُد.

قال الله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَـةُ المَـوْتِ**﴾ وإن كان في حال سعةٍ ونعمةٍ.

فذكرُ المـوت يمنعه من الإغـترار بالـدُنيا والركـون إليها لتحقق عـــــــــدم دوامها وتحقق ذهابها عنه وانصرامها.

قال الله جل وعلا وتقدس: ﴿**فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَـاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ**﴾.

يُسِــــيءُ امْـــرؤٌ منا فَيُبْغَضُ دَائِمًا ودُنْيَــــــاكَ مَا زَالَتْ تُسِـــيءُ وتُوْمَـــــقُ
اسَـــرَّ هَوَاهَا الشـــيخُ والكهـــــلُ والفَــــتى بجَهْــــــلٍ فمن كُل النَّواظر تُرْمَـــــــقُ
وما هي أهْلٌ أن يؤهَّلَ مِثْلُهَا لَــــــوُدٍ ولكِنَّ ابنَ آدم أحْمَــــــــــــقُ

وكتب عمر بن عبــدالعزيز إلى بعض أهل بيتـــه: أما بعـــد، فإنك إن استشـــعرت ذكر الموت في ليلك ونهارك بغض إليك كُلَّ فان.

وقال بعض العلماء: الأيامُ سـهام والنـاس أغـراض والــدهر يرميك كُــلَّ يــوم بســهامه ويخترمك بلياليه وأيامه حتى يسـتغرق ويسـتكمل جميع أجزائك فكيف تبقى سلامتُك مع وقوع الأيام بك وسرعة الليالي في بدنك لو كُشفَ لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص لاستوحشت من كل يومٍ يأتي عليك واسـتثقلتَ مَمـرَ الساعات بك ولكن تدبيرُ الله فوق كل تدبير.

ومَثِّلْ لِعَيْنَيْـكَ الحمــامَ وَوَقْعَـــــــــــــهُ وَرَوْعَةَ مَلْقَــاهُ وَمَطْعَمَ صَـــــــــــــابِهِ
وأَنَّ قُصَـــــارَى مُنْتَهَى الحَي حُفْـــــــــــرةٌ سَيَنْزِلُها مُسْـتَنْزَلاً عن قُبَابِـــــــــــــهِ

آخر:

نَطْـويْ سُـبُوْتًا وآحـادًا ونَنْشُـــــــــــــرَهَا ونَحَنُ في الطَّي بَيْنَ السَّـــبتِ والأَحَـــــدِ
فعُــــدَّ ما شِـــئْتَ مِن سَــــبْتٍ ومِنْ أحَـــــدٍ لابُدَّ أن يَـدْخُلَ المَطْـوِيُ في العَـــــــــــدَدِ

وبالســـلو عن غوائـــل الـــدنيا وأنكادهـــا وتكديراتها وجد طعم لذاتها، وإنهـا لأمـرُّ من العلقم، و الصبر والمر والحنظـل إذا عجنهـا الحكيم وقد أعيت الواصفون لعيوبها بظاهر أفعالها وما تأتي بـه من العجـائب أكـثر ممـا يُحيط بـه الواعـظُ والمحـذَّر منهـا، ومـع هـذا فالقلب متعلق بها أعظم تعلق، قال الله جل وعلا: ﴿وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْـوَالَكُمْ * إِن يَسْـأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ أمَّا اللسان فيذمُ الدنيا، وأما القلب فمحبتها في سويدائه على حدِّ قول الشاعر:

لِسَـــانُكَ لِلـــدُّنْيا عَـــدُوٌ وقَلْبُـــكَ فيها لِلِّسَـــانِ

مُشَـــــــــاحِنٌ مُبَـــــــــــــــايِنٌ
وما ضَــــــرَّها ما قُلْتَ لَهَا مِنْــــــــكَ وِدٌ في
فيها وقَـــــدْ صَـــــفَا فُـــــؤادِكَ كَــــامِنُ

آخر:

أبَى القَلْبُ ألَّا أمَّ دَفْر سِوى أم عمرو مُوْجَـعُ
كَمَا آبى القلبِ هـــــــــــائِمُ
هي المُشْــــــــــتَهَى أمَـــــاني مِنْهَا دُوْنَهُنَّ
والمُنْتَهَى ومَعَ السُهَى العَظَــــــــــــائِمُ
ولَمْ تُلْفِنَا إلَّا وفِيْنَا عليها وإلا في الصُـدُور
تَحَاسُــــــــــــدٌ سَــــــــــــخَاءِمُ

تنبيه:

اعلم يا أخي، أن الدنيا لا تذم لـذاتها وكيف يـذم ما منَّ الله به على عبـــاده وما هو ضـــرورة في بقـــاء الآدمي وسبب في إعانته على تحصيل العلم والعبادة من مطعم ومشــرب وملبس ومســجد يُصــلى فيــه، وإنما المــذموم أخذ الشـــيء من غــير حله أو تناوله على وجه السـرف لا على مقـدار الحاجـة، ويُصـرفُ النفس فيه بُمقتضى رُعوناتها لا بإذن الشرع فالعاقل يجعلها مطية للآخــــرة فينفقها في ســــبيل الله في المشـــــاريع الدينية من طباعة مصـــــاحف كتب دينية وعمارة مساجد وبذل للفقراء الذين لا موارد لهم.

وقــال آخــر: وقد استوصف الــدنيا وقــدر بقائهــا، فقال: الدنيا وقتك الـذي يرجـعُ إليك فيه طرفـكَ؛ لأن ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه، وما لم يـأت فلا علم لك به، والدهرُ يوم مقبل تنعـاه ليلته وتطويه سـاعاته وأحداثه تتــوالى على الإنســان بــالتغيير والنقصــان والـدهر مُوكَّلُ بتشـتيت الجماعـات وانخـرام الشـمل وتنقُل الدُول والأملُ طويل والعمر قصـير، و إلى الله تصير الأمور.

يا آدَميُ أتَــــــدرْي مَا أم دُونَ ذُهْنِــكَ سِـــتْرٌ

مُنْيتَ بهِ   لَيْسَ يَنْجَـــــــابُ
يَــــومٌ ويَـــــومٌ ويَفْنَى العُمْـــــــرُ مُنْطَوِيًا   عَام جَديْبٌ وعـامٌ فيـهِ إخْضَـــــــــابُ
فلا تَغُرنَّكَ الـــــدُنْيَا بزُخْرُفِهَا   فأرْيُهَا إنْ بَلَاهَا عَاقِــلٌ صَــــــابُ
والحَـزْمُ يَجْـني أمُـوْرًا كُلَّهَا شَـــرَفٌ   والخُرْقُ يَجْني أمُورًا كُلّها عـــــابُ

أما عمـرك كل يـوم يُنتهب، أما المُعظم منـهُ قد تـولَّى وذهب، إلى أي حين أنت في جمع الـورق والـذهب، تبخل بالمـال وأوقـات العمر تهب، يا من إذا خلا تفكر وحســب، فأمَّا لــنزول المــوت فما قدر وحسبْ.

تــأهب فإنك مُقبل على كربــةٍ لا كــالكرب، تطلب النجاة من غـير بـاب الطّلب، وتقـفُ في الصـلاة وإن صلاتك لعجبْ، الجسْمُ حاضرٌ والقلبُ في شُعب.

الجسدُ بالعراق والقلبُ في حلب، الفهم أعجميُ و اللفظ لفظ العـرب، وهـذا يـدل على أن حُبَّ الـدُنيا والهوى على قلبك قد غلب.

فكــأنكم الــدنيا قد تــولت، والنفــوس الكريمة قد هـــانت وذلت، وبكـــؤوس الأسى والتأسف قد انهلت وعلت، وبحمول الظاعنين على الأسف قد استقلَّتْ.

مــتى يُقــال لهــذه الغمــرة الــتي جلَّتْ قد تجلَّت، فواعجبًا لنفس ما تنتبه وقد زلت.

عَيْنُ المنيةِ يَقْضَى غَيْرُ مُطْرِقَـــــــةٍ   وطَـرْفُ مَطْلُوْبهَا مُــذْ كَـــــانَ وَسْـــــنَانُ
جَهْلاً تَمكَّنَ مِنـــهُ حِيْنَ مَوْلِـــــــدهِ   فــالنُّطْقُ صـــاحٍ ولُبُّ المـــرءِ سَـــكْرَانُ

قال أحد العلماء: وجدت الدنيا شيئين، فشيء منها هو لي فلن أعجله قبل أجله ولو طلبته بقوة السموات والأرض.

وشـــيءٌ منها هو لغـــير فلم أنلـــهُ فيما مضى ولا أرجـوه فيما بقي يُمنـعُ الـذي لي من غـيري كما يمنع الذي لغيري مني، ففي أي هذين أفني عمري.

ووجدت ما أعطيتُ من الدنيا شيئين، فشيءٌ يـأتي أجله قبل أجلي فأغلبُ عليه، وشيء يــأتي أجلي قبل أجله فـــأموتُ وأخلفُه لمن بعـــدي ففي أي هـــذين أعصي ربي عز وجل.

وعن مصــعب بن عبدالله قــال: ســمع عــامر بن عبدالله المـــؤذن وهو يجـــودُ بنفسه أي في الـــنزع ومنزله قريبٌ من المسجد، فقال: خُذُوا بيدي.

فقيل لـه: إنك عليـل، فقـال: أسـمع داعي الله فلا أجيبه، فأخذوا بيده، فـدخل في صـلاة المغـرب فركع مع الإمام ركعة ثم مات، بلغ يا أخي الذي إذا ســمعوا داعي الله تلفلفوا بأرديتهم.

كان لتاجر صاحب أكياس عبد صالح فقـال لعبـده: افتقــدنا بعض الأكيــاس ففتش لعلك تجــدها فلما لم يجدها، قـال لعبـده: أتعـرف من هي عنـده؟ قـال: لا، وبعد ذلك حضرت الصلاة، فصل التـاجر وتـذكرها في صلاته وبعد إنتهاء الصلاة، قـال لمملوكـه: لقد ذكـرتُ من هي عنده، عند فلان اذهبْ فأت بها.

فقـال الغلام: يا عمُّ، أنت في صـلاتك كُنتَ طـالبَ أكياسٍ أو طالب خالق، فأعتقهُ حيث نبَّهَــهُ للخلل في صلاته التي هي أول ما يُحاسب عنه العبد.

كــان أبو الــدرداء يقــول: اللهم إني أعــوذ بك من تفرقة القلب، قيـــــل: وما تفرقة القلب؟ قـــــال: أن يوضع لي في كل وادٍ مال.

وقال سـفيان الثـوري: بلغـني أنه يـأتي على النسا زمان تمتلئ قلـوبُهم في ذلك الزمـان مِن حب الـدنيا فلا تدخله الخشية.

عن مجاهد قـال: مـررتُ مع ابن عُمر على خربـة، فقــال: يا مجاهــد، نــاد يا خربة ما فعل أهلــك؟ أين أهلك؟ قال: فنـاديتُ، فقـال ابنُ عُمـر: ذهبـوا وبقيت أعمالهم.

وعن الحسن قال: مرَّ عمر على مزبلةٍ فـاحتبس عندها فكأنَّ أصحابه تأذوا بها، فقال: هذه دُنياكم التي تحرصون عليها.

عن عمر بن الخطــاب قــال: لو نــادَ مُنــادٍ من الســماء أيها النـــاس، إنكم داخلـــون الجنة إلا رجلاً واحدًا لخفتُ أن أكون ذلك الواحد.

ولو نـاد مُنـادٍ أيها النـاس، إنكم داخلـون النـار إلا رجُلاً واحدًا لرجوتُ أن أكون أنا ذلك الواحد.

وقـال عثمـان : لو أني بين الجنة والنـار ولا أدْري إلى أيتهما يُؤمرُ بي لاخـترتُ أن أكـون رمـادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصبر.

وعن عــون بن ذكــوان قــال: صــلَّي بنا زرارةُ بنُ أوفى صلاة الصبح، فقرأ: **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ** حتى بلـغ: **فَـإِذَا نُقِـرَ فِي النَّاقُورِ** فخر مغشـيًا، وكُنت فيمن حمله إلى داره.

وقال عبدالأعلى التيمي: شيئان قطعا عـني لـذات الدنيا ذكرُ الموت، والوقوفُ بين يدي الله.

أتى رجل إلى خيـــــاط ليخيط له ثوبًـــــا، فاجتهد الخيـاطُ لتكـون الخياطـةُ جيـدة ومُتقنـة، ولما جـاء صاحب الثوب أعطاه الأجرة وأخذ الثوب، وذهب.

وفي اليوم الثاني عاد الرجل وأتى الخيـاط، وقـال لـه: وجـدت في الخياطة بعض العيـوب وأراه إياهـا، فبكى الخياط، فقال له الرجل: ما قصـدت أن أحزنك وأنا راضٍ بـالثوب، فقـال له الخيـاط: ليس على هـذا أبكي لأنيِ عملت جهـــــدي لأتقن لك الخياطـــــة، ثم خـرجت هـذه العيـوب فأنا أبكي على طـاعتي لـربي، وقد اجتهدت بها عُمري فكم فيها من العُيُوب.

تأمل يا أخي، هذا التفكير لله دره.

وعن أبي عثمان النهـدي قـال: تضـيَّفْتُ أبا هريـرة سبعًا، فكان هو وامرأته يتعقبُـون الليل أثلاثًـا، يُصـلي هذا ثم يوقظ هذا، ويُصلي هذا ثم يُوقظ هذا.

وعن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريـرة، قـال: ما وجـــــعٌ أحب إلي من الحمى؛ لأنها تُطي كل مفصل قسطهُ من الوجع، وإن الله تعالى يُعطي كل مفصـلٍ قسطهُ من الأجر.

عن عبدالرحمن بن مهدي قـال: ليلة بـات سـفيان عندي فلما اشتد به الأمر جعل يبكي، فقال له رجـل: يا أبا عبداللــه، أراك كثـير الـذنوب، فرفع شـيئًا من الأرض، فقال: والله لـذُنُوبي أهـونُ عنـدي من ذا إني أخافُ أن أُسلَبَ الإيمان قبل الموت.

قال ابن القيم:

والله ما خَــوْفي الــذُنُوبَ فإِنَّهَا ... لَعَلَى سَـــبِيْل العَفْـــوِ والغُفْـــــرَانِ

لَكِنَّما أخْشَــى انْسِــلاَخَ القَلْبِ مِن ... تَحْكي هـــذا الـــوَحْي والقُـــرآنِ

ورِضًـــا بـــآرَاءِ الرِجـــالِ وخَرصِـــها ... لا كــان ذَاكَ بِمِنَّةَ المَنَــانِ

قـال وهيب: عجبًا للعـالم كيف تُجيبه دواعي قلبه إلى ارتيـــاح الضـــحك، وقد علم أنَّ لـــهُ في القيامة روعات ووقفات وفزعات.

وعن وهيب يقـول الله عز وجـل: وعـزتي وجلالي وعظمـتي ما من عبد آثر هـواي على هـواه إلا أَقْلَلْتُ هُمومه وجمعتُ عليه ضـيعته ونـزعتُ الفقر من قلبه وجعلتُ الغـــنى بين عينيه واتجـــرت له من وراء كُل تاجرٍ.

وعزتي وجلالي ما من عبد آثر هواهُ على هواي إلا كثرتُ همومه وفرقت عليه ضيعته ونزعتُ الغـنى من قلبـــه، وجعلت الفقر بين عينيه ثم لم أبـــالي في أي أوديتها هلك.

وعن وهيب قال: بلغني أن موسى ـ عليه السلام ـ قـــال: يا رب أخـــبرني عن آية رِضـــاكَ عن عبـــدك؟

فأوحى الله تعـالى إليه إذا رأيتـني أهـيئُ له طـاعتي، وأصرفه عن مَعصيتي فذلك آيةُ رضاي عنه.

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصـــــحبه وسلم.

فصل

وعن حفص بن ميسرة قـال: قـال أبو حـاتم: عجبًا لقـوم يعملـون لـدار يرحلـون عنها كُـلَّ يـوم مرحلـة، ويدعون أن يعملوا لدار يرحلون إليها كل يوم مرحلة.

وقـال: شـيئان إذا عملت بهما أصـبت خـير الـدنيا والآخرة، تحمل ما تكره إذا أحبَّهُ الله، وتترك ما تُحبُ إذا كرههُ الله.

وقال: يسيرُ الدنيا يُشغلُ عن كثير من الآخرة.

وقال: ما أحببتَ أن يكون معك في الآخرة فقدمـهُ اليوم، وما كرهتَ أن يكون معـكَ في الآخـرة فاتركـهُ اليوم.

حج أبو جعفر فـدعا ابن أبي ذئب، فقـال: نشـدتُكُ بالله ألستُ أعملُ بالحق؟ ألستَ تراني أعدلُ؟

فقال ابن أبي ذئب: أما إذا نشدتني بالله، فـأقول: اللهم لا أراك تعــدل، وإنك لجــائر، وإنك لتســتعمل الظلمة وتدعُ أهل الخير.

قال محمد بن عمر: فحدثني محمد بن إبراهيم بن يحيى، وأخبرتُ عن عيسى بن علي، قـالوا: فظننا أن أبا جعفر سـيعاجله بالعقوبـة، فجعلنا نلـفُ إلينا ثيابنا مخافة أن يُصـيبنا من دمــه، فجــزع أبو جعفر واغتم، وقال له: قم فاخرج.

تأمل يا أخي، هل يوجد هــــذا الطــــراز ممن لا تأخـذهم في الـدنيا لومة لائم أظنه معـدُومٌ في هـذا الـوقت ما فيه اليـوم من يصـدعُ بـالحق فلا حـول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

دخل عمرو بن عبيد على المنصور، فقـال: أن الله أعطاك الدُنيا بأسرها فاشترْ منه نفسك ببعضـها وإني لأحذرك ليلةً تتمخَّضُ صبيحتها عن يوم القياة.

ثم قال له عن حاشـيته: إن هـؤلاء اتخـذوك سُـلمًا لشهواتهم، فأنت الأخذ بالقرنين وهم يحلبون.

فـاتق الله فإنك ميت وحـدك، ومحاسب وحـدك، ومبعوثٌ وحدك، ولن يغنوا عنك هؤلاء من ربك شيئًا.

فقال له: أعني بأصحابك فأستعين بهم دون هـؤلاء فرَّد عليه أظهر الحق يتبعُك أهله.

فقـال لـهُ: ألك حاجـة؟ قـال: نعم، قـال: ما هي؟ قال: ألا تعث إليَّ حـتى آتيـك، إذًا لا نلتقي، قـال: عن حاجتي سألت، ثم ذهب.

قال الحجاج ليحيى بن يعمـر: ما تقـول في واسط (مدينة بناها الحجـاج)، فقـال لـه: ما أقـول فيها وقد بنيتها من غير مالك وسيسكُنُها غيرُ أهلك.

فقال له الحجاج في غيظٍ وغضـبٍ: ما حملك على ما قُلت؟ قـال: ما أخذ الله تعـالى على العلمـاء من العهد ألا يكتموا الناس حديثًا.

فقال له: ألم تخش سيف الحجاج؟

فقـال: لقد ملأتـني خشـيةُ الله جل وعلا فلم تـدعْ مكانًا لخشية سواه.

وقيل: إن الحجاج خطب يومًا، فقـال: أيها النـاس، الصبر عن محـارم الله أيسر من الصـبر على عـذاب اللـه، فقـام إليه رجل فقـال لـه: ويحـكَ يا حجـاجُ، ما أصفق وجهك وأقل حياءك تفعلُ ما تفعلُ وتقولُ مثل هذا الكلام خِبْثَتَ وضل سعْيُكَ.

فقال للحرس: خذوه، فلما فرغ من خُطبتـه، قـال له: ما الذي جرَّأك عليَّ؟ فقال: ويحكَ يا حجـاج، أنت تجترئُ على الله ولا أجترئُ عليـك، ومن أنت حـتى لا أجترئُ عليك، وأنت تجترئُ على رب العالمين! فقال: خلوا سبيلهُ، فأطلق.

ودخل العزُ بنُ عبدالسلام على السـلطان فوعظـهُ وشدَّد في الموعظة فعاتبهُ ولدُه في ذلك، فقـال لـه: هذا اجتماع لله فلا أكدرُهُ بشيءٍ من عرض الدنيا.

يا بُــني، لقد رأيت الســلطان في تلك العظمــة، فأردتُ أن أهينُه لئلا تكبُر نفسُه عليه فتُؤذيه.

ولقد استحضرتُ هيبة الله تعالى إذ أُخاطِبُه، فصار السلطان أقلَّ من القط.

ولو كــانت بنفسي لديه حاجة من حاجــات الــدنيا لرأيتُه الدُنيا كلَّها.

وأجبر أحد العلمـاء على أن يـدخل على ملك مصر وطلب منه أن يلبس ملابس خاصة فأبى، وقال: كيف أتجملُ لهُ بلباسٍ لا أتجملُ به لربي في الصلاة.

دخل عبـاد الخـواص على إبـراهيم بن صـالح -وهو أمير فلسطين-، فقال له: يا شيخ، عظني، فقــال: بم أعظُك أصلحك الله، بلغني أن أعمال الأحيـاء تُعـرضُ على أقــاربهم من المــوتى فــانظر ما يُعــرض على رسـوله من عملك فبكى حـتى سـالت دموعُه على لحيته.

وقال مالك: وجَّهَ إليَّ الرشيدُ أن أحدثــه، فقلتُ: يا أمـير المؤمـنين، إن العلم يُـؤتى ولا يـأتي فصـار إلى منزلي فاستند إلي الجدار مَعِي.

فقُلتُ لـــه: يا أمــير المؤمــنين إنَّ من إجلال الله إجلال ذي الشـيبة المسـلم، فقـام، فجلس بين يـدي، قال: فقـال بعد مـدةٍ: يا أبا عبداللـه، تواضـعنا لعلمك فانتفعنا بــــه، وتواضع لنا علمُ سُـــفيان بن عُيينة فلم ننتفع به.

وروى البيهقي وغيره أن المهـدي لما قـدم المدينة حاجًا جـاءه مالك فسـلم عليــه، فـأمر المهـدي ابنيه الهادي وهارون الرشيد أن يسمعا منه، فطلباه إليهما فامتنع.

فعاتبه المهدي في ذلك، فقال: يا أمـير المؤمـنين، إن للعلم نضارة، يُؤتى أهلُه.

وفي روايــة: العلم أهل أن يُــوقر، ويُــوقّرَ أهلُــه، فأمرهما والــداهما بالمصـير إليه فسـأله مؤدبهُما أن يقرأ عليهما، فقال: إن أهل هذه البلدة يقـرءون على العـالم كما يقـرأ الصـبيانُ على المُعلم فـإذا أخطـوا أفتاهُم فرجعُوا إلى الخليفة فعاتبهُ المهدي في ذلــك، فقال: يا أمير المؤمـنين، سـمعت ابن شـهاب يقـولُ: سـمعنا هـذا العِلْم من رجـال في الروضة سـعيد بن المســيب وأبو ســلمة وعـــروة والقاسم بن محمد وسالم بن عبدالله وعد آخرين كل هـؤلاء يُقـرأ عليهم ولا يقرؤون، فقال المهـدي في هـؤلاء: قـدوة صـيرُوا إليه فأقرءوا عليه.

أراد الوليد أن يــولي يزيد بن مرثد القضـــاء، فبلغ ذلك يزيــــد، فلبس فـــــروةً وقلبها فجعل الجلد على ظهره والصـوف خارجًا وأخذ بيـده رغيف (أي خُـبزة) وعرقًا (أي عظم عليه لحم) وخـــــــــرج بلا رداء ولا قلنسُوة (أي أصـلع الـرأس) ولا نعل ولا خُف ويمشي في الأسواق ويأكل، فقيل للوليــد: إن يزيد قد اختلط (أي خــرَّف)، وأخـــبر بما فعل فتركه الوليـــد، قلتُ: وفعل يزيد يـدل على ورعه وخوفه من تبعة القضـاء؛ لأن القضــاء فيه خطر عظيم؛ ولهــذا قــال العلمــاء: يحــرم على من لا يُحســنه ولم تجتمع فيه شــروطُه الدخول فيه.

وقال : «القضاة ثلاثة واحد في الجنة واثنــان في النــار»، وقــال : «مَن وُلي القضــاء فقد ذبح بغــير سكين»، وقال : «لَيـأتين على القاضي العـدل يـوم القيامة سَاعة يَتَمَنَّى أنه لم يقض بين اثنين في تمـرة قط».

وفي لفظ يُــدعى القاضي العــدل يــوم القيامة فيلقى من شدة الحسـاب ما يتمـنى أنه لم يقض بين اثنين في عمُره قط.

ترك خلفُ البزار الرواية عن الكسائي، فلم يــروي عنه مع أنه كـان أسـتاذه وهو بحاجة إليه في تصـنيفه كتاب «القراءات»، ولما أن ضايقُوه لِمَ لَمْ يَرو عنه.

قال: لقد سمعتُه يقـول: قـال لي سـيِّدي الرشـيد، فقلتُ: إن إنسانًا مقدارُ الدنيا عنده أن يُجلَّ أهلها هذا الإجلال لحريٌ أن يُؤخذ عنه شيءٌ من العلم.

قُلتُ: لله درهُ حيث لم يطمئنَّ قلبُـــــهَ لمن يُعظمُ الدنيا.

فــانظر رحمك الله إلى شــدة ورعهم وتــرفُعهم وتنزُهِهم عن مُخالطة الملـوك و أهل الـدنيا، وصـيانة العلم وإعزازه وبمثل هذه الأخلاق العطرة والصـفات الفاضلة عظمَ الإسلامُ وأهله.

دخل رجل على المـأمون كـان يمشي في النـاس فيــأمرهم بــالمعروف وينهــاهم عن المنكر دُونَ أن يكون مأمورًا من قبل الخليفـة، فاسـتدعاه المـأمونُ، وقــال لــه: لِمَ تــأمُرْ وتنهى وقد جعل الله ذلك إلينــا، ونحن الذين قال الله فيهم: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَـامُوا الصَّـلاةَ وَآتَـوُا الزَّكَـاةَ وَأَمَـرُوا بِـالْمَعْرُوفِ وَنَهَـوْا عَنِ المُنكَـرِ**﴾؟ فقـال الرجـل: صدقتَ يا أمير المؤمنين، أنت كما وصفت نفسك من السُلطان والتمكن غير أنا أوليـاؤُك وأعوانُك فيـه، ولا يُنكر ذلك إلا من جهل كتــاب الله وسُّــنة رســوله ﷺ، قـــــال الله جل وعلا وتقـــــدس: ﴿**وَالْمُؤْمِنُـــــونَ وَالْمُؤْمِنَـــاتُ بَعْضُـــهُمْ أَوْلِيَـــاءُ بَعْضٍ يَـــأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ**﴾، وقال رسول الله ﷺ: «المـؤمن للمـؤمن كالبنيـان يشد بعضُـه بَعْضَـا» فأعْجبَ المأمونُ بكلامِهِ وسُرَّ به، وقـال: مثلك يجـوزُ

أن يـأمر بـالمعروف فـامض على ما كُنْتَ عليه بأمرنا وعن رأينا.

وهكـــذا حين أحسن الرجل الاحتجـــاج بـــالقُرآن والسُّــنة انقطعتْ حُجَّةُّ المـأمون، ولم يجــدْ بُــدًا من إقـرار الرجل على طريقته بـالأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر.

وعكس هــذا الرجــل، دخل واعظ على المــأمون فوعظه وأغلط عليه في القول، فقال له المأمون: يا رجُل، ارفُقْ فإن الله بعث من هُـوَ خـيرٌ منك إلى من هو شـرٌ مـني، وأمـره بـالرِّفْق، بعث موسى وهـارون إلى فرعون، فأوصاهُما بقوله: ﴿**فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًَــا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾.

وهُنا كان موقف المـأمون هو الأقـوى؛ لأنَّ الـدليل معه.

بعث الأمــير طـاهر بن عبدالله إلى محمد بن رافع بخمسة آلاف درهم على يد رسـوله، فـدخل عليه بعد صلاة العصر وهو يأكل الخبز مع الفجـل، فوضع كيس الـدراهم بين يديــه، فقـال: بعثَ الأمــيرُ طـاهر بهـذا المـال إليك لتُنفقه على أهلـك، فقـال: خُـذه خُـذه لا أحتاجُ إليه، فإن الشـمس قد بلغت رؤوس الحيطـان، وإنما تغربُ بعد ساعة وأنا قد جاوزتُ الثمـانين سـنة إلى متى أعيشُ، فرد المال ولم يقبل، فأخذ الرسولُ المال وذهب ودخل على الشـيخ ابنـه، وقـال: يا أبتِ ليس لنا الليلة خبز.

قـال: فـذهب بعض أصـحابه خلف الرسـول ليُـرد المـــال إلى صـــاحبه خوفًا من أن يـــذهب ابنُه خلف الرسول فيأخذ المال.

وقال أحـدُ الزهـاد للمنصُـور: أذكُـرْ ليلـةً تـبيتُ في القبر لم تبت ليلةً مثلها، واذكر ليلــةً تمخَّضُ عن يــوم القيامة لا ليلة بعدها.

فأفحم المنصور قولُه فأمر لُه بمالٍ فـردَّهُ، وقـال: لو احتجتُ إلى مالك ما وعظتُك.

وقال لابنه لما ولاَّه العهد: استدم النعمةَ بالشـكر، والقدرة بالعفو، والنصر بالتواضع، والتـألف بالطاعـة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، ونصيبك من رحمة الله.

وقال للربيـع: وَيْحَـكَ، لقد رأيتُ منامًا هـالني رأيت قائلاً وقفَ في باب هذا القصر يقول:

كـأني بهـذا القصْـرِ قد بَـادَ أهلُه ... وأوحَشَ منه أهلُه ومَنَازلُه

وصَـارَ رَئِيْسُ القصر من بَعْـدِ بَهْجَـةٍ ... إلى جَـدَثٍ يُبْنَي عليه جَنَادِلُـهْ

وكان ابن أبي ذئب جالسًا في المسجد النبوي الشريف في المدينة فدخل أمير المؤمنين المهدي فلم يبق أحدٌ إلا قام، فلما وصل إلى ابن أبي ذئب لم يُقم، قال المسيب بن زهير: قُم هذا أمير المؤمنين، فقال: إنما يقومُ الناس لرب العالمين، فقال المهدي: دعهُ فلقد قامت كُلُ شعرةٍ في رأسي.

فهكـذا العُلمـاء المخلصـون الـذين يحفظ الله بهم الإسلام ويرفع الله بهم المسلمين.

تأمَّل يا أخي، هل يوجد في زمننا مثل هــؤلاء ما أظنُّ يُوجد ولا رقم ثلاثة لا حول ولا قوة إلا بالله.

فـإنْ قُلْتُ زَنْـدَ العِلم كَبَى فإنَّما ... كَبَى حَيْثُ لم تُحْمى حِمَـاهُ وأظلما

ولَو أنَّ أهـلَ العلمِ صَـانُوهُ صَـانَهُم ... ولو عَظَمُـوهُ في النفـوسِ لَعُظِّمَا

ولكنَّ أهـانُوه فهـانوا ودنَّسُـوا ... مُحَيَّاه بالأطْمَـاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل في فوائد ومواعظ منوعة

قـال وهيبُ بن الـورد: لو أن عُلماءنا عفا الله عنَّا وعنهم نصحُوا لله في عبـاده، فقـالوا: يا عبـادَ الله اسمعُوا ما نُخبركم عن نـبيكم ﷺ وصـالح سـلفكم من

الزهد في الدنيا فاعملوا بـه، ولا تنظـروا إلى أعمالنا هذه الفسْلَةِ، كانُوا قد نصـحوا لله في عبـاده، ولكنهم يأبون إلا أن يجرُّوا عباد الله إلى فتنهم وما هُم فيه.

وكـان عيسى بنُ مـريم يقـول: يا معشر العلمـاء، مثلكُم مثل الـدِّفْلَى يُعجب وردةُ من نظر إليه ويقتـلُ طعمةُ من أكله، كلامكم دواءٌ يُـبرئ الـداء، وأعمـالكم داءٌ لا يقبـلُ الـدواء، والحكمة تخـرجُ من أفـواهكم وليس بينها وبين آذانكم إلا أربـعُ أصـابع ثم لا تعيها قلوبُكم.

معشر العلمـاء، كيف يكـون من أهل العلم من يطلبُ الكلامَ لِيُخْبِرَ به ولا يطلبه ليعمل به.

العلم فوق رُؤسكم، والعمل تحت أقدامكم.

فلا أحرارٌ كرام و لاعبيدٌ أتقياء.

أهلُ المشَـاغِلِ بالـدنيا وَزِينَتِهَا ... عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمُـوْا سَـاهُونَ لاهُوْنَا
لَـوْ أَنَّهُم قَنِعُـوا مِمَّا يُبَلِّغُهُم ... لَعَجَّلُـوا رَاحَـةً مِمَّا يُقَاسُـوْنَا
تُفَـوِّتُ الـدارَ الأخْـرَى وهي فَانِيَـةٌ ... يا وَيْـلَ عُشَّـاقِهَا مِمَّا يُلاقُوْنَا
لا دارهم لَهُمُـوْا في الـدَّهْرِ بَاقِيَـةٌ ... كلَّا ولا هم لَهَا في الـدَّهْرِ بَاقُوْنَا

وقـال بعض العلمـاء: اعلم أن للعـالم العامل بعلمه حقيقـةً علامـات وأمـارات تُفـرق بينه وبين عُلمـاء اللسـان المخلطين المتبعين للهوى المؤثرين للدنيا على الآخرة، فمن علامـات العـالم الحقيقي الممتاز: أن يكون متواضعًا خائفًا وجلاً مشفقًا من خشـية الله زاهدًا في الـدنيا قانعًا باليسـير منها بعيـدًا عن الحسد والعُجب والغيبة والنَّميمة والمُداهنة، ملتمسًا للفقـراء المتمسـكين بـدينهم الخالية بيوتهم من الملاهي والمنكرات، الـذين ليس لهم مـوارد ولا مساكن ليُسْعِفَهم بما يقدر عليه من مـال وجـاه، ناصـحًا لعبـاد الله شـفيقًا عليهم رحيمًا بهم، آمـرًا بـالمعروف، فـاعلاً له وناهيًا عن المنكـر، ومُجتنبًا له ومسـارعًا في الخـيرات ملازمًا للعبـادات، دالاً على الخـير، داعيًا إلى الهـدى، ذا صـمتٍ وتـوأدة ووقـار وسـكينةِ، حَسَـنُ الأخلاق، واسـعَ الصَّـدْرِ، ليِّنَ الجـانب، مخفـوض الجنـاح للمؤمنين، لا متكبرًا، ولا مُتجبرًا، ولا طامعًا في النـاس، ولا حريصًـا على الدنيا، ولا مؤثرًا لها على الآخرة.

ولا منهمكًا بجمع المـال، ولا مانعًا له عن حقـه، ولا فظًا ولا غليظًا، ولا مُمَاريًا، ولا مُخاصـمًا بالباطـل، ولا ســيئ الأخلاق، ولا ضَــيِّقَ الصــدرِ، ولا مــداهنًا، ولا مخادعًا، ولا غشاشًا، ولا مقدمًا للأغنياء على الفقراء، ولا مُرائيًا، ولا مُحبًا للولايات.

وبالجملة فيكـــــون مُتصـــــفًا بجميع ما يحثُه عليه الكتـاب والسُّـنة، مـؤتمرًا بما يأمرانه به من الأخلاق المحمـودة والأعمـال الصـالحة، مجانبًا لما ينهى عنه كتابُ الله وسُّنةُ رسـول الله من الأخلاق والأعمـال المذمومة.

وهــــذه صــــفات ينبغي أن يتصف ويتحلى بها كل مُـؤمن، إلا أنَّ العـالم وطـالب العلم أولى أني تصف بها ويحافظ عليها ويدعو إليها.

وينبغي للعالم أن يكون حديثه مع العامة في حــال مخالطته لهم في بيـان الواجبـات المحرمـات ونوافل الطاعــات وذكر الثــواب والعقــاب على الإحســان والإساءة، ويكـون كلامه بعبـارة يعرفونها ويفهمونهـا، ويبين لهم الأمور التي هم ملابِسُون لها.

ولا ينبغي له أن يسكُت حتى يُسـأل وهو يعلم أنهم مُحتاجُون إليه، أو مضطرون له، والله الموفق.

وقـــــــــال رجل لعبد العزيز بن أبي رواد: كيف أصــبحت؟ فبكى، وقـــال: أصــبحتُ والله في غفلة عظيمـةٍ عن المـوت مع ذُنُـوبٍ كثـيرة ومؤئل لسـتُ أدري علام أهجمُ ثم بكى.

الأيــام ثلاثــة: فـأمس حكيم مــؤدب تــرك حكمته وأبقاها عليك، واليوم صـديق مـودِّع كـان عنك طويل الغيبة حـتى أتـاك ولم تأته وهو عنك سـريع الفـراق، وغدًا لا تدري أتكون من أهله أو لا تكون.

وكـان يُقـال من أشد النـاس حسـرةً يـوم القيامة ثلاثة: رجل كان له عبدٌ فجاء يوم القيامة أفضَل عملاً منـه، ورجـلٌ له مـال فلم يتصـدق منه فمـات فورثه

غيرهُ فتصدقَ منه، ورجـل عـالم لم ينتفع بعلمِه فَعَلَّم غيرهُ فانتفعَ به.

وقال بعضـهم: لمْ أرَ أوْعَـظَ من قـبر، ولا آنس من كتاب، ولا أسلمَ من الوَحْدَةِ.

فقيل لـه: قد جـاء في الوحـدةٍ ما جـاء، قـال: لا تُفسدُ إلا جاهلاً.

قيـــل: كـــان مبـــدؤ توبة داود الطـــائي أنه دخل المقبرة، فسمع امرأة عند قبر وهي تقول:

مُقِيْمٌ إلى أنْ يَبْعَثَ اللـــــهُ خَلْقَـــــهُ ... لِقَـاؤُكَ لا يُـرْجَى وأنْتَ قَـــــــريبُ
تَزَيْدُ بلىً في كُلِّ يَـومٍ وَلَيْلَــــــــةٍ ... وتُسْـــــلَى كَمَا تَبْلَى وأنْتَ حَـــــبيْبُ

آخر:

لكُل أنـــاس مقـــبرٌ بفِنَــــــائهم ... فَهُمْ يَنْقصُونَ والقُبُـورُ تَزيــــــدُ
فهُم جِيْزَةُ الأمَواتِ أمَّا مَـــــزَارَهُم ... فَـــدَانٍ وأمَّا المُلْتَقَى فبَعِيْـــــدُ

وكـان بعضـهم إذا وافق أخـاه في الله قـال: نقصت الأعمـارُ بعدك، واقتربت الآجالُ ما فعل جيرانك (يعني أهل القبـور)، ولعـلَّ مسكنه قـريب من المقـبرة، قلت: وفي عصـرنا من الـذي فـاز في الكورة؟ وما الذي ظهر في التلفاز؟

كأنْكَ لم تَسْمَعْ بأخْبَار مَن مَضَـــــــى ... ولمْ تَـــرَ في البـــاقينَ مَا يَصْـــنَعُ الــــدهرُ
فـإنْ كُنْتَ لا تَـدْرِي فَتِلْـكَ دِيَـــــارُهُم ... عليها مِجَـالُ الـريحِ بَعْـدَك والقَطْـــــرُ
وهَل أبْصَـرَتْ عينَـاكَ حيًّا بمَنْــــزِلٍ ... على الأرضِ إلا بالفَنَاءِ لَهُ قَبْـــــرُ
وأهَـلُ الثَّرَى نَحْو المَقَـابرِ شُـــرّعٌ ... ولَيْسَ لَهم إلا إلى ربِّهمْ نَشْـــــرُ
على ذاكَ مَـرّوا أجْمَعُـونَ وهَكَـــذا ... يَمُـــرُّونَ حتّى يَسْـتَرِدَّهُم الحَشْـــرُ

فلا تَحْسَــبنَّ الــوَفْرَ مَــالاً جَمْعْتَـــــــــــــــــهُ ... ولَكِنَّ ما قَدَّمْتَ مِن صالحٍ وَفْـــــــــــــــــرُ

ولَيْسَ الــذي يَبْقَى الــذي أنتَ جَـــــــــــامِعٍ ... ولكنَّ مَا أوْلَيْتَ منه هُو الـــــــــــــــذُّخْرُ

قَضَى جَامِعُوا الأمْــوالِ لم يَتَـــــــــــــزودَّوا ... سِوَى الفَقْرِ يَا بُؤسًــا لِمَنْ زَادُهُ الفَقْـــــــــــرُ

بَلى سَــوْفَ تَصَّــحُو حِينَ يَنْكَشِـــــــــفُ الغَطَا ... وتَذْكُرُ قَــولَي حِيْنَ لا يَنْفَـعُ الــــــــــــذِّكْرُ

وما بَينَ ميْلادِ الفَــــــتى وَوَفَاتِــــــــــــهِ ... إذا نَصَحَ الأقــوامُ أنفسَــهم عُمْــــــــــــرُ

لأنَّ الذي يَأتي كَمِثْلِ الذي مَضَـــــــــــــى ... وما هُو إلا وقتُــكَ الضــيّق النَّزْرُ

فصَبْرًا على الأوقَاتِ حتى تُحوزَهَا ... فعمَّا قَليْل بَعْــدَهَا يَنْفَـــعُ الصـــــــــــبرُ

فصل

قـــال بعض العلمـــاء: إذا بلغك عن صـــديق لك ما تكره فإيَّاك أن تُبـادره بالعـداوة وقطع الولاية فتكـون ممَّن أزال يقينهُ بشك؛ ولكن إلقه وقُل له بلغني عنك كذا وكذا، واحذر أن تُسمِّيْ لـهُ المبلِّغ، فـإن أنكر ذلك فادفع بالتي هي أحسن واعفُ عنه ولا تــزد على ذلك شيئًا.

وإن اعترف بـذلك فـرأيت لـهُ في ذلك وجهًا لعـذر فاقبل منه، و إن لم تُرد ذلك، فقلْ لهُ: ماذا أردت بما بلغـني عنـك، فـإن ذكر ما له وجـهٌ من العـذر فاقبل منـــه، وإن لم تر لـــذلك وجهًا لعـــذرٍ وضـــاق عليك المسلكُ فحينئذٍ أثبتها عليه.

ثم أنت بعد ذلك بالخيار إن شـئت كافأته بمثله من غـير زيـادة، و إن شـئت عفـوتَ عنـه، والعفـوُ أقـربُ

للتقوى وأبلغ في الكرم. لقـول الله تعـالى: ﴿**وَجَزَاءُ سَـيِّئَةٍ سَـيِّئَةٌ مِّثْلُهَـا فَمَنْ عَفَا وَأَصْـلَحَ فَـأَجْرُهُ**﴾، وقوله: ﴿**وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾.

فإن نازعتك نفُسـكَ بالمكافـأة، فـأفكر فيما سـبق لديك من الإحسان فعاجل لـهُ إحسـانًا بهـذه السـيئة، ولا تبخس باقي إحسانَهُ السـالف بهـذه السـيئة، فإنه ظلم.

فوائد

قبول السعاية شرٌ من السعاية؛ لأن السعاية دلالة، والقبول إجـازة، وليس من دل على شـيء كمن قبل وأجاز.

قال بعض العلماء: لا تُنزلن حاجتك من أغلق دُونك أبوابه وجعل عليها حُجَّابَـــهُ؛ ولكن انزلها بمن بابـــهُ مفتوحٌ لك إلى يوم القيامة أمـرك أن تـدعوهُ وضـمنَ لك أن يستجيب لك.

قـال اللـه جـل وعلا: ﴿**ادْعُونِي أَسْـتَجِبْ لَكُمْ**﴾، وقـال تبـارك وتعـالى: ﴿**وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَـادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾.

لا تَسْـــأَلَنَّ إلى ابن آدم حَاجَـــــــــــةً وسَـــلِ الـــذي أَبْوابُـــهُ لا تُحْجَبُ
الله يَغْضَـــبُ إن تَـــرَكْتَ سُــــــــــؤالَهُ وبُنَيُ آدمَ حِيْنَ يُسْـــــألُ يَغْضَـــــــــبُ

قيـل: إنه عـرض عثمـان على ابن عمر ــ رضي الله عنهما ـــ القضــاء فــأبى، ولمَّا ألح عليه لقبــول القضاء مُذكرًا إياهُ بأن أباه كان يقضي، قال عبداللـه: إن أبي كان يقضي، فإذا أشـكل عليه سـأل النـبي ، وإذا أشكل على النـبي سـأل جبريـل، وإني لا أجـدُ من أسأل.

وكان ابن عمر إذا أعجبه شيء من ماله يقربه إلى الله عز وجل، وكان عبيده قد عرفوا منه ذلـك، فربما

لــزم أحــدهم المسـجد فـإذا رآه ابن عمر على تلك الحال أعتقه.

فيقال له: إنهم يخدعونك، فيقول: من خـدعنا بالله انخدعنا له.

وكان له جارية يحبها كثيرًا فأعتقها وزوجها لمــولاه نـافع، وقـال: ﴿**لَن تَنَـالُوا البِـرَّ حَتَّى تُنفِقُـوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾.

واشـترى مـرة بعـيرًا فأعجبه لما ركبه فأدخله في إبل الصدقة.

وأعطاه ابن جعفر في نافع عشرة آلاف، فقال: أو خير من ذلك هو حر لوجه الله تعالى.

واشـترى مـرة غلامًا بـأربعين ألفًا وأعتقـه، فقـال الغلام: يا مولاي قد أعتقتني فهب لي شـيئًا أعيش به فأعطاه أربعين ألفًا.

واشترى مرة خمسة عبيـد، فقـام يصـلي، فقـاموا خلفه يصــلون، فقــال: لمن صــليتم هــذه الصــلاة؟ فقــالوا: للــه، فقــال: أنتم أحــرار لمن صــليتم لــه، فأعتقهم.

والمقصود أنه ما مات حتى أعتق ألف رقبة وربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفًا.

وكانت تمضي عليه الأيام الكثـير والشـهر لا يـذوق لحمًا إلا وعلى يديه يتيم.

وكان يقول: لا أسأل أحدًا شيئًا وما رزقني الله فلا أرده.

عن عبدالله بن زيد بن أســـلم عن أبيه عن جـــده أسلم، قـال: بينما أنا مع عمر بن الخطـاب وهو يعسُّ (أي يــدور على الــبيوت والأســواق يحــرس النــاس ويكشف عن أهل الريبة) إذ أعيا واتكأ على جـــــانب جـدار في جـوف الليـل، وإذا امـرأة تقـولُ لابنتهـا: يا ابنتـاه قُومي إلى ذلك اللبن فامذُقيه بالمـاء، فقـالت لهــا: يا أمتــاه وما علمت ما كــان من عزمَــةَ أمــير

المؤمنين اليوم؟ فـالت: وما كـان من عزمته يا بُنيـة، قومي إلى اللبن فامذُقيه بالماء فإنك بموضع لا يراك عُمَرُ ولا مُنادي عُمر، فقالت الصبية لأمها: يا أمتاهُ ما كنت لأطيعهُ في الملأ وأعصيه في الخلاء.

وعُمَر يسمع كل ذلك، فقـال: يا أسـلم علِّم البـاب واعرفْ الموضـع، ثم مضى في عسسه حـتى أصـبح، فلما أصـبح قـال: يا أسـلم امض إلى الموضع فـانظر من القائلة ومن المقــولُ لهــا؟ وهل لهُم من بعــل؟ فأتيت الموضع فنظرت، فـإذا الجارية أيِّمٌ لا بعل لهـا، وإذا تِيك أمها وإذا ليس لهُم رجُل.

فأتيت عمر بن الخطاب فأخبرته، فدعا عمر ولــده فجمعهم، فقــال: هــل فيكم من يحتــاج إلى امــرأةٍ أزوجُه، ولو كان بـأبيكم حركـة إلى النسـاء مـا سـبقه منكم أحد إلى هذه المرأة، فقال عبدالله: لي زوجــة، وقال عبدالرحمن: لي زوجة، وقال عاصم: يا أبتــاهُ لا زوجـةَ لي فزوِّجْـني، فبعث إلى الجاريـة فزوّجَهـا من عاصـم فولـدت لِعَاصِـمٍ بنتًـا وولـدت البنتُ عُمـرَ بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ.

تَجَّهزي بِجَهَـازٍ تَبْلُغِيْنَ بِـهِ	يا نَفْسُ قَبْــلَ الــرَّدَى لم تُخْلَقِي عَبَثًا
ولا تكَـــــــدِّي لِمَنْ يَبْقَى وتَفْتَقِــــــــــــري	إن الرَّدَ وارثُ البـاقي ومَا وَرِثَا
مَن كـــــان حيْنَ تُصِـــيْبُ الشــــــمسُ جَبْهَتَــــــهُ	أو الغُبَــارَ يَخَــافُ الشَّــيْنَ والشَّـــــــــــــــــعَثَا
ويَــأْلَفُ الظِــلَّ كي تَبْقَى بشاشَـــــــــــــــتُهُ	فَسَوْفَ يَسْكُنُ يَوْمًا راغمًا جَــــــــــــــــــدَثَا
في قَعْـرِ مُوْحِشـةٍ غَبْـراءَ مُظْلِمَـــــــــــــــــةٍ	يُطِيْــلُ تَحْتَ الثَــرى في قَعْرِهَا اللَّبَثَا

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصـــــحبه وسلم.

فصل

وقال في الفنـون: لقد عظم الله الحيـوان لاسـيَّما ابن آدم حيثُ أباحــهُ الشــرك عند الإكــراه وخــوف الضـرر على نفسـه، فقـال جل وعلا: ﴿**إِلاَّ مَنْ أُكْـرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾.

من قدَّم حرمة نفسك على حُرمته حتى أباحَـكَ أن تتــوقى وتُحــامي عن نفسك بــذكره بما لا ينبغي له سبحانه.

فحقيق أن تعظم شعائرهُ وتوقِّر أوامرهُ وزواجرهُ.

وعصم عرضك بإيجاب الحد بقــذفك، وعصم مالك بقطع مسلم في سرقته.

وأسقط شطر الصلاة لأجل مشـقتك، وأقـام مسح الخُفِّ مقـام غَسْـل الرجل إشـفاقًا عليك من مشـقة الخلع واللبس وأباحك الميتة ســـــدًا لرمقك وحفظًا لصحتك، وزجرك عن مضارك بحدٍ عاجل ووعيدٍ آجلٍ، وخرق العوائد لأجلك وأنزل الكتب إليك.

أيحسنُ بك مع هذا الإكـرام أن تـرى على ما نهـاك مُنهمكًا وعمَّا أمرك مُتنكبًا وعن داعيه مُعرضًا ولسنته هاجرًا ولداعي عدُوك فيه مُطيعًا.

يُعظمُك وهُو هُوَ وتهملُ أمـره وأنت أنتَ وهو حـطَّ رُتب عبــــاده لأجلك وأهبط إلى الأرض من امتنع من سجدةٍ يسجدُ لأبيك.

هل عـاديت خادمًا طـالت خدمته لك لـترك صـلاة، هلْ نفيتهُ من دارك للإخلال بفـرض أو لارتكـاب نهى، انتهى.

قلت: وفي وقتنا هل أخرجت الملاهي والمنكــرات من بيتـك؟ هل منعت الأجـانب والأجنبيـات سـوَّاقين وخدَّمات من بيتك؟

فائدة

كُلما قويت حاجة الناس إلى الشيء ومعرفته يسر الله أســبابه، كما يُيســرُ ما كــانت حــاجتهم إليه في أبدانهم أشد.

فلما كانت حاجتهم إلى النفس والهوى أعظم منها إلى الماء كان مبذولاً لكل أحد في كل وقت.

ولما كانت حاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى القُوت كان وجود الماء أكثر لذلك.

فلما كــانت حــاجتهم إلى معرفة الخــالق أعظم كــانت آياتُه ودلائــلُ ربوبيته وقدرته وعلمه ومشــيئته وحكمته أعظم من غيرها.

ولما كـانت حـاجتهم إلى معرفة صـدق الرسل بعد ذلك أعظم من حاجتهم إلى غير ذلك.

أقــام الله من دلائل صــدقهم وشــواهد نُبــوتهم وحُسن حــال من اتبعهم وســعادته ونجاته وبيــان ما يحصل له من العلم النافع والعمل الصالح.

وقُبح حال من خالفهم وشقاوتهم وجهله وظلمه ما يظهر لمن تدبر ذلك ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَـهُ نُـورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾.

قال وهيب بن الورد: بلغنا أن الخبيث إبليس تبـدى ليحيى ابن زكريا –عليهما السلام- فقال لــه: إني أريد أن أنصــحك! قــال: كــذبت، أنت لا تنصــحني؛ ولكن أخبرني عن بني آدم.

قــال: هم عنــدنا على ثلاثة أصــناف، **أما صــنف منهم**: فهم أشد الأصـــناف علينا نُقبل حتَّى نفْتِنُـــهُ ونســتمكن منــه، ثم يفــزع إلى الاســتغفار والتوبــة، فيُفْسِدُ علينا كل شيء أدركنا منه، ثم نعود له فيعــود فلا نحن نيأس منــه، ولا نحن نُـدركُ منه حاجتنا فنحنُ من ذلك في عَنَا.

و**أما الصنف الآخر**: فُهم بين أيدينا بمنزلة الكرة في أيــدي صــبيانكم نتلقفُهُم كيف شــئنا فقد كفونا أنفُسهم.

وأما الصـــنف الآخر: فهم مثلك معصـــومُون لا نقدرُ منهم على شيء.

فقــال له يحــيى: على ذاك هل قــدرتَ مــني على شيء؟

قال: لا إلا مرةً واحــدةً فإنك قــدَّمْتَ طعامًا تأكلــه، فلمِ أزل أشهيه لك حتى أكلتَ أكــثر مما تُريــدُ فَنِمْتَ تلكَ الليلة ولم تقم إلى الصلاة كما كُنْت تقومُ إليها.

قال: فقال له يحيى: لا جَـرَمَ لا شــبعتُ من طعــام أبدًا حتى أموت.

فقال له الخبيث: لا جَرَمَ لا نَصَحْتُ آدميًا بَعْدَكَ.

إنِّي بُلِيْتُ بأربْعٍ ما سُلِّطُوا إلَّا لأجْلِ شَقَاوَتي وعَنَائِي
كَيْـــــــفَ الخَلاصُ وكُلُّهُم
إبْلِيْسُ والــدُنْيَا ونَفَّسِـــي أعــــــــــــــــــدائي والهَـــــــــــــــوَى

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصـــــحبه وسلم.

مواعظ وفوائد

ما أقبح الغفلة عن طاعة من لا يغفل عن بـــــرِّك وعن ذكر من أمرك بذكره.

قال أبو حازم: يسيرُ الدنيا يُشغلُ عن كثير الآخرة، وقــال: ما أحببت أن يكــون معك في الآخــرة فقدمــهُ اليوم، وما كرهْتَ أن يكــون معك في الآخــرة فاتركَـهُ اليوم.

وقال بعضُــهم يُوصِــي ابنَــه: إنه مَن قنـع بما قَسَــمَ الله له اسْــتغني، ومن داخل السُــفهاءَ حُقــر، ومَن خالطَ العُلماءَ وقِّرْ.

ومن دَخل مــداخل الســوء اتهم، يا بــني، قُل الحق لك أو عليك، وإيَّاكَ والنَّميْمَةَ فإنها تَزْرَعُ الشحناء.

وعنه أنه قال: من اشــتاق إلى الجنة ســارع إلى الخــيرات ومن أشــفق من انتهى عن الشــهوات ومن

تيقن بالموت انهدمت عليه اللذات ومن عـرف الـدنيا هانت عليه المصيبات.

وقـال بـديلُ العقيلي: من أراد بعمله وجه الله عز وجل أقبل الله عليه بوجهه وأقبل بقُلُوب العباد إليـه، ومن عمل لغـــير الله عز وجل صـــرف الله عز وجل عنه وجهه وصرفَ قلوبَ العباد عنه.

وقـــال محمد بن واســـع: إذا أقبل العبد بقلبه إلى الله عز وجل أقبـــــلَ الله عز وجل إليه بقلـــــوب المؤمنين.

وقال الحارث بن نبهان: سـمعتُ ابن واسع يقـول: واصحاباه، ذهب أصحابي، فقلت: يرحمك اللـه، أليس قد نشأ شـــبابٌ يصـــومون النهـــار ويقومـــون الليل ويجاهدون في سبيل الله عز وجل، قـال: بلى، ولكن أخ وتفل أفسدهم العُجبُ.

قلت: فكيف لو رأى شـــباب زماننا الحـــالقين للِّحَا المسبلين للثياب المخنفسين أصحاب الشنبات.

سُـئل بعضـهم: هل يعـرف العبد إذا تـاب أن توبته قُبلتْ أم رُدَّتْ؟ قـال: لا أحكم في ذلـك؛ ولكن لـذلك علامـات، إحـداها: أن يـرى نفسه غـير معصـومة من المعصية، ويرى في قلبه الفرح غائبًا والحزن شـاهدًا، ويُقرِّبَ أهلَ الخير، ويُباعـدُ أهل الشـرِّ، ويـرى القليل من الدنيا كثيرًا، ويرى الكثـير من عمل الآخـرة قليلاً، ويرى قلبه مشـتغلاً بما ضـمن من الله تعـالى، فارغًا عما ضـــمن الله لـــه، ويكـــونُ حافظًا للســـانه دائم الفكرة، لازم الغم والنَّدَامةِ.

وقـال يحـيى بن معـاذ: من أعظم الاغـترار عنـدي التمادي في الذُنوبُ على رَجَاء العَفو من غير ندامـــة، وتوقَّعُ القُربِ من الله تعالى بغير طاعة.

وانتظـــار زرع الجنـــة ببـــذر وطلبُ دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغـير عمـل والتمـني على الله مع الإفراط.

تَرجُـوا النجـاةَ ولم تسْـلُكْ إنَّ السَّفِيْنَةَ لا تَجْري على مَسَـــــــــــــالكَهَا اليَبَس

أولها: يذنبون برجاء التوبة، ويتعلمون العلم ولا يعملون به، وإذا عملوا لا يُخلصُون، ويــأكلون رزق الله ولا يشكرون، ولا يرضون بقسمة اللــه، ويـدفنون موتاهم ولا يعتبرون.

عن أبي وائل قـال: خرجنا مع عبدالله بن مسـعود ومعنا الربـــبيع بن خيثم، فمررنا على حـــداد، فقـــام عبدالله ينظر حديدة في النار.

فنظر الربيع إليها فتمايل ليسـقط، فمضى عبدالله حتى أتينا على أتون على شاطئ الفرات.

فلما رآه عبدالله والنار تلتهب في جوفه قـرأ هـذه الآيـــة: ﴿**إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَـانٍ بَعِيـدٍ سَـمِعُوا لَهَـا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا** ﴾إلى قوله: ﴿**ثُبُورًا**﴾.

فصـــعق الربيع بنُ خيثم فاحتملنـــاه فجئنا به إلى أهله.

قـــال: ثم رابطه عبدالله إلى الظهر فلم يُفــق، ثم رابطهُ إلى العصر فلم يفـق، ثم رابطـهُ إلى المغـرب فلم يُفق، ثم إنه أفاق فرجع عبدالله إلى أهله.

عن سـعيد بن جبـير قـال: إن الخشـية أن تخشى الله حــتى تحــول خشـيته بينك وبين معصـيتك فتلك الخشية والذكر طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره ومن لم يطعه فليس بذاكر وإن أكـثر التسـبيح وتلاوة القرآن.

كتب أبو الدرداء إلى سلمان ـ رضي الله عنهما ــ: يا أخي، اغتنم صـحتك وفراغك قبل أن يــنزل بك من البلاء ما لا يستطيعُ العبادُ ردَّه واغتنم دعوة المبتلىَ.

يا أخي، ليكن المسجدُ بيتك، فإني سمعتُ رسـول الله ﷺ يقــول: «المســاجدُ بيتُ كل تقي، وقد ضــمن الله عز وجل لمن كـانت المسـاجد بيـوتهم بــالروح

والرحمة، والجوار على الصراط إلى رضـوان الله عز وجل» حديث حسن، أخرجه الطـبراني في «الكبـير» و«الأوسط»، والبزار، وقال: إسناده صحيح.

وروي عن عيسى ـ عليه السـلام ـ: لا تجالسـوا الموتى فتمـوت قُلُـوبكم، قيـل: ومن المـوتى؟ قـال: المحبون للدنيا.

قال بعض العلماء: من عجيب ما نقدتُ من أحوال النـاس: كـثرة ما نـاحُوا على خـراب الـديار، ومـوت الأقـــارب والأســـلاف، والتحسر على الأرزاق بـــذم الزمــان وأهلــه، وذكر نكد العيش فيــه، وقد رأوا من انهدام الإسلام وموت السُنن وظهور البـدع وارتكـاب المعاصي وتقضي العُمر في الفــارغ الــذي لا يُجــدي والقبيح الذي يُوبقُ ويؤذي.

فلا أجد منهم من نـــــــاح على دينه ولا بكى على فارِطِ عُمُرهِ ولا آسَي على فَائِتِ دَهْره.

وما أرى لـذلك سـببًا إلا قلة مبـالاتهم في الأديـان وعظم الـدُنيا في عيـونهم، ضد ما كـان عليه السـلف الصالح يرضون بالبلاغ وينوحُون على الدين. اهـ.

كتب عباد الخواص إلى إخوانه يعظهم، فقال: إنكم في زمان قد رق فيه الورع وقلَّ فيه الخشـوع وحمل العلم مُفسدُوه فـأحبُّوا أنْ يُعرفـوا بحمله وكرهـوا أن يعرفوا بإضاعة العمل به فنطقوا فيه بـالهوى لـيزينوا ما دخلـــوا فيه من الخطر فـــذنوبهم ذنـــوب عظيمة وتقصيرهم تقصير لا يعـترف به أحبُـوا الـدنيا وكرهـوا منزلة أهلها فشاركوهم في العيش وزايلوهم بـالقول (أي فارقوهم في القول).

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصـــــحبه وسلم.

فصل

الطريق إلى الله مسـدودًا على خلق الله عز وجل إلا على المقتفين آثار النـبي والتـابعين لسـنته، كما

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

من علامـــــــات توفيق العبد أنه إذا زاد جَاهه زاد تواضعه، وإذا زاد ماله زاد سخاؤه، وإذا زاد عمره زاد اجتهاده.

خمس خصال يعرف بها الجاهـل: الغضب في غـير شيء، والثقة بكل أحد، والكلام في غير نفع، والعظة في غير موضعها، ولا يعرف عدُوّهُ من صديقه.

من توفيق الله للإنســـان أن يكـــون بين قـــوم صالحين، إن أمر بمعـروف آزروه، وإن نهى عن منكر أعانُوه، وإن احتاج إلى شيء من الدنيا ساعدوه، وإن مات دعوا له وشيعوه.

الناس أربعة أقسـام منهم من مُخالطته كالغـذاء لا يســتغنى عنه في اليــوم والليلة وهم العلمــاء بالله وأمــره ومكائد عــدوه وأمــراض القلــوب وأدويتها الناصــحون لله ولكتابه ولرســوله ولخلقــه، فهــؤلاء مخـالطتهم ربح كلهـا، قلت: وهـؤلاء ينـدر وجـود أحد منهم، فهم مثل الكــبريت الأحمــر، إن ظفــرت بأحد منهم ولو رقم 2 فالزمه ليلاً ونهـــــارًا ونم على عتبة بابه.

الثـــاني: من مُخالطته كالـــدواء يحتـــاج إليه عند المـرض فما دُمت صـحيحًا فلا حاجة لك في خلطتـه، وهم من لا يســـتغنى عن مخـــالطتهم في مصــــلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه.

الثـالث: من مخالطته كالــداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضـــعفه، وهم من في خلطته ضــــرر ديني أو دنيوي.

ومتى ابتليت بواحد من هؤلاء فعاشـره بـالمعروف حتى يجعل الله لك فرجًا ومــتى تمكنت من نقله إلى الخير فهي فرصة.

الرابــع: من مخالطته الهلاك والــدمار وهو بمنزلة السم وهم أهل البـــدع والضـــلالة، قلت: كالجهمية والمعتزلة والأشـاعرة والرافضة ونحــوهم، ومن أضر ما يكون في عصرنا الحالي الأشاعرة والرافضة.

وقال ـ رحمه الله ــ: حـذار حـذار من أمـرين لهما سوء العـواقب رَدُّ الحق لمخالفة هـواك فإنك تعـاقبُ القلب.

وردُّ ما يــردُ عليك من الحق رأسًــا ثانيًا التهــاون بــالأمر إذا حضر وقته فإنك تعـاقب بالتثبيط والإقعـاد والكسل.

القلب في سيره إلى الله بمنزلة الطـائر، فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه.

فمــتى ســلم الــرأس والجناحــان فالطــائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مـات الطـائر ومع عـدم الجناحان فهو عرضة لكُلِّ صائد وكاسر.

الحياء خلق ناشئ عن حياة القلب ورؤية التقصــير في حقوق الله.

ويثمر الحياء اجتناب المحرمات والقيام بالواجبات؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير».

كان بعضهم يقول في دعائه: اللهم اغفر لي ريائي وسمُعتي.

قـال عـون بن عبداللـه: صـحبت الأغنيـاء فلم يكن أحد أطول غمًا مـني أن رأيت أحـدًا أحسن ثيابًا مـني وأطيب ريحًا مني، فصحبت الفقراء فاسترحت.

وقال: ما أحسـبُ أحـدًا تفـرغ لعيب النـاس إلا من غفلةٍ غفلها عن نفسه.

وقال: جالسوا التوابين، فإنهم أرق الناس قلوبًا.

وقـال: إن من كـان قبلنا كـانوا يجعلـون للـدنيا ما فضل عن آخرتهم، وإنكم تجعلــون لآخــرتكم ما فضل عن دنياكم.

وقال عمرو بن مرة: من طلب الآخرة أضر بالدنيا، ومن طلب الــدنيا أضر بــالآخرة، فاضــروا بالفــاني للباقي، وما كتب لك من الرزق سوف يأتيك.

للناسِ حِـرْص على الـدُنيا وتَـــدْبِيْرُ | وفي مُــرَادِ الهَــوَى عَقْــلٌ وتَشْــمِيْرُ
وإن أتَوا طاعــةً لله رَبِّهِمُ | فالعقــلُ منهم عن الطاعـــاتِ مأسُــوْرُ
لأجل هــذا وذاك الحــرص قَــدْ مُــزِجَتْ | صَفَاءُ عيشاتِها هَمٌ وتكْدِيرٌ
لم يُرْزَقُوهَا بعَقْــلٍ عند مَا قُسَــمَتْ | لَكِنَّهُم رُزِقُوهَا بالمَقَــادِير
لو كــان عن قُــوةٍ أو عَن مُغَالَبَــةٍ | طَــارَ البُــزَاتُ بــأقْواتِ العَصَــافِير

كتب بعضهم إلى صديق له يشاروه في شــيء من أمر الــدنيا، فكــان الجــواب: اطلب الــدنيا على قــدر مكثك فيها، واطلب الآخرة على قدر حاجتك إليها.

قيل للأحنف بن قيس: ألا تــأتي الأمــراء؟ قــال: فــاخرج جــرة مكســورة فكبهــا، فــإذا فيها كسر (أي كسر خبز وتمر)، فقــال: من كــان يُجزيه مثل هــذا ما يصنع بإتيانهم.

وقيــل: كــان عــامر بن قيس يقــول: ما رأيتُ مثل الجنة نام طالبُها، وما رأيتُ مثل النار نام هاربهُا.

وكان إذا جــاء النهــار، قــال: اذهب حــرُّ النــار النَّوم فما ينامُ حتى يُمسي، وإذا جاء الليل قــال: من خــاف أدلج، وعند الصباح يحمد القوم السرى.

وكــان يقــول: أحببتُ الله عز وجل حُبًا ســهل عليَّ كل مُصيبة، ورضــاني كل قضــية، فما أبــالي مع حــبي إياهُ ما أصبحتُ عليه وما أمسيت.

لقي معاويــةُ بن قُــرة أحد إخوانه وقد جــاء من الكلاء، فقــال له معاوية بن قــرة: ما صــنعت؟ قــال: اشتريت لأهلي كذا وكذا، قال: وأصبت من حلال.

قُلتُ: نعم، قال: لأن أغدو فيما غدوتَ به أحبُّ إليَّ من أقوم الليل وأصوم النهار.

قيـل لحسـان بن أبي سـنان: كيـف تجـدك؟ قـال: بخير إن نجوت من النار، فقيل له: ما تشتهي؟ قـال: ليلـةً بعيـدةً مـا بين الطـرفين أحـيي مـا بين طرفيهـا يعني بالتهجد وكان كثيرًا ما يتمثلُ هذا البيت:

لا صَـحَّةُ المـرءِ في الـدُنْيَا تُـــــــــــــــــؤخِرُهُ ولا يُقَدِمُ يومًا مَوْتَهُ الوجَعُ

وكان من تجار أهل البصرة وله شريك بالبصرة وحسان مقيم بالأهواز يُجَهِّزُ على شريكه بالبصرة ثم يجتمعان على رأس السنة يتحاسبان، ثم يقتسمان الربح، فكان يأخذ قوته من ربحه، ويتصدَّق بما بقي.

وكان صاحبه يبـني الـدور، ويتخـذُ الأرضـين، قـال: فقدم حسان البصرة ففرق ما أراد أن يفرق.

فذكر له أهلُ بيت لم تكن حاجتهم ظهرت، فقـال: أما تخُبرنا فاســــتقرض لهم ثلاثمائة درهم فبعث بها إليهم.

وقال امرأته: كان يجيء فيـدخل معي في فراشي ثم يخادعني كما تخادع المرأة صبيها.

فإذا علم أني قد نمتُ سلَّ نفسهُ فخرج، ثم يقــومُ فيصلي.

فقالت له: كم تُعذِّبُ نفسك، فقال: اسكتي ويحـكِ فيوشك أن أرق رقدةً لا أقوم منها زمانًا.

ومر بغرفة، فقال: مـتى بُنِتْ هـذه؟ ثم أقبـل على نفسـه، فقـال: تسـألين عمَّالا يعنيـك لأعاقبنَّك بصـوم سنة فصامها.

وكـــان يفتح بـــاب حانوته فيضع الـــدواة، وينشر الحســاب، ويُــرخي ســترهُ، ثم يُصــلي فــإذا أحسَّ بالإنسـان قد جـاء يُقبل على الحسـاب، يريه أنه كـان في الحســاب، خوفًا من الريــاء وكــان يقــول: لــولا المساكين ما اتَّجَرْتُ.

وقال شـميط بن عجلان: بـادروا بالصـحة السـقم، وبـالفراغ الشـغل، وبـادروا بالحيـاة المـوت، ويقـول:

بئس العبد خلق للعاقبـة، فقصـدته العاجلة عن العاقبة فزالت عنه العاجلة، وشقي في العاقبة.

ويقــول: أعطيت ما يكفيك وأنت تطلبُ ما يُطغيك لا بقليل تقنع ولا بكثير تشبع.

كيف يعمل للآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته.

وكــان يقــول: العجب كل العجب لمُصــدقٍ بــدار الحق، وهو يسعى لدار الغرور.

تُخَبرُّني الآمَالُ أنِّي مُعَمَّرٌ وأنَّ الــذي أخشــاه عــني مُــؤخر
فكيفَ ومَرُّ الأرَبْعينَ قضِيَّةٌ عَليَّ بحُكْمٍ قـاطِعٍ لا يُغَيَّرُ
إذا المَـــرْءُ جَـــازَ الأَربعيْنَ فإنَّه أسَــــيْرٌ لأسْــــبَابِ المَنَايَا ومَعْبَــــرُ

آخر:

أرِيْدُ مِن الــدُنيا ثلاثًا وإنَّهَا لَغَايَــةُ مَطْلُــوبٍ لَمَنْ هُو طَــالبُ
تِلاَوَةُ قرآنٍ ونفْسٌ عَفِيْفَةٌ وإكثـــارُ أعمـــالٍ عليها أوَاظِبُ

رُبَّ مسـرورٍ مغبـون يأكـلُ ويشـربُ ويضـحكُ وقد حُقَّ له في كتاب الله تز وجل أنه من وقود النار.

من الغرور ذكرُ الحسنات ونسيانُ السيئات.

وقال بلال بن سعد: يا أولي الألبــاب ليتفكَّرِ مُتفكِّرِ فيما يبقى له وينفعهُ.

أما ما وكلكم الله عزَّ وجلَّ به فتُضيِّعُونَه.

وأما ما تكفل لكم به فتطلبونه ما هكــذا نعت الله عبادة المؤمنين.

أذووا عقــول في طلب الــدنيا وبله عما خُلقتم له فكما ترجــون الله بما تــؤدون من طاعته فكــذلك أشفقوا من عذاب الله بما تنتهكون من معاصيه.

وقـال: عبـاد الله إعلمـوا أنكم تعملـونَ في أيـام قصـار لأيَّامٍ طـوال، وفي دار زوال لـدار مقـام، وفي دار نصبٍ وحُزنٍ لدارِ نعيم وخُلْدٍ.

ومن لم يعملَ على اليقين فلا يَتَعَنَّ.

عباد الله، هل جـاءكم مُخـبر يخـبركم أن شـيئًا من أعمالك تقبل منكم أو شيئًا من أعمالكم غُفَر لكم!!

قال أبو عمرو الأوزاعي: ليس سـاعةٌ من سـاعات الـدنيا إلا وهي معروضة على العبد يـوم القيامة يومًا فيومًا وساعةً فساعةً.

ولا تمر به ســاعة لم يــذكر الله فيها إلا وتقطعت نفسـهُ عليها حسـرات، فكيف إذا مـرَّت به سـاعة مع ساعة ويومٌ إلى يومٍ!!

إبن آدم اعْمَــــلْ عَمَــــلَ رجل لا ينجيه إلا الله ثم عملُهْ، وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما كتبه الله له.

فصل

روي أن امـرأة جـاءت إلى الإمـام أحمد بن حنبل تسأل وتقول: يمر بنا العَسَسُ الليل حاملين مشـاعل السلطان ويقفون أمام بيتنـا، فهل يحل لي أن أغـزل على ضوء مشاعِلِهم؟

فقال: من أنت؟ قالت: أخت بشر الحافي، فقـال: لا يَحلُ لك.

وروي عن الإمام النـووي أنه كـان يلبس من غـزل زوجته ونسجها، فلبس قميصًا جديدًا ذات يوم فشـعر بحكـةٍ شـديدةٍ واستمرتْ مُـدة اضـطر معها أن يخلع القميص، ثم سـأل زوجتـه: كيف نسـجتي القميص؟ فـــذكرت أنها نســجتْ بعضه على ضـــوء الشـــارع، فتصدق به.

كتب غلام لحسان بن أبي سـنان إليه من الأهـواز: إن قصب السـكر أصـابته آفـةُ، فاشـتر السـكر فيما قبلـك، قـال: فاشـترى من رجـل، فلم يـأت عليه إلا القليل، فإذا فيما اشترى ربح ثلاثين ألفًا.

قـال: فـأتى صـاحب السـكر، فقـال: يا هـذا، إن غلامي كـــــان كتب إلي ولم أعلمك فــــــأقلني فيما اشتريتُ منك، قال: قد أعلمتني الآن وطيبته لك.

قال: فرجع حسان فلم يحتمل قلبـه، فـأتى البـائع، وقال: يا هذا، إني لم آتي الأمر من وجهه، أي لأنه لم يخبره أن السكر زائد.

قال حسان للبـائع: فـأحب أن تسـترد هـذا المـبيع، فما زال به حتى رده عليه.

دخل ابن محـــــيريز حانوتًا بــــــدانق وهو يريد أن يشتري ثوبًا، فقـال رجل لصـاحب الحـانوت: هـذا ابن محـــيريز، فأحسن بيعه (أي ســـامحه)، فغضب ابن محـيريز وخـرج، وقـال: إنما نشـتري بأموالنا لسـنا نشتري بديننا.

حمل إلى محمد بن إســماعيل البخــاري بضــاعة أنفذها إليه المراسل له، فاجتمع التجـار إليه بالعشـية فطلبوها منه بـــربح خمسة آلاف درهم، فقـــال لهم: انصرفوا الليلة، فجاءه من الغد تجار فطلبـوا منه تلك البضاعة بربح عشرة آلاف، فردهم، وقال: إني نـويت البارحة أن أدفع إليهم بما طلبوا –يعني الـذين طلبـوا أول مـــرة-، ففعـــل، وقـــال: لا أحب أن انقض نيَّتي، فقنع بـــــــربح خمسة آلاف درهم مُحافظة على النية وتـرك ربح عشـرة آلاف الـدرهم تورعًا منه ــ رحمه الله ـ.

قــال حذيفة المرعشــي: إنما هي أربعــة: عينــاك ولسانك وهواك وقلبك، فـانظر عينيك لا تنظر بها إلى ما لا يحل لك وانظر لسانك لا تقل به شـيئًا يعلم الله خلافه من قلبـــك، وانظر قلبك لا يكن في غـــلٌ على أحد من المسلمين، وانظر هـواك لا تهـوى شـيئًا –أي مخالفًا لما جاء به النبي ﷺ.

وقال آخر: كان عشــرة ممن مضى من أهل العلم لا يدخلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال.

وقـــال آخـــر: ليكن عملك لله خالصًـــا، وأن تحب للنـاس ما تحب لنفسـك، وأن تتحـرى في مأكلك فلا يدخل بطنك إلا حلال.

قــال حذيفة المرعشــي: إيــاكم وهــدايا الفُجــار والسفهاء، فـإنكم إن قبلتموها ظنـوا أنكم قد رضـيتُم فعلهُم.

أنعم النـــاس عيشًـــا من تحلى بالعفـــاف ورضي بالكفاف وتجاوز ما يُخاف إلى ما لا يُخاف.

قال بعضهم: طوبى للفقـير في الـدنيا والآخـرة، لا يطلب السلطان منه خراجًا في الدنيا ولا زكاة عليــه، وفي الآخرة خفيف الحساب.

وقـال آخـر: كـوخ تتبسط فيه خـير من قصر تبكي فيه.

ومن تمـــــام نعمة الله عليك أن منعك ما يطغيك ويحملُك على الكبر والجبروت.

العجبُ والكـــبرُ حُمُق يُغطي به صـــاحبُه عيـــوب نفسه.

مثل الذي لا يجدُ ما يُفاخر به سوى الآباء والأجـداد مثل البطاطا أهم ما فيه مدفون تحت الأرض.

رؤي رجل يطـوف بالكعبة وحوله شـرطة يمنعـون النـاس حوله من الطـواف لأجلــه، ثم رؤي بعد مــدة على جسر بغداد يسأل النـاس، فعجب منه الـذي رآه وسأله، فقال: تكبرت في موضع يتواضع الناس فيــه، فأذلني في موضع يترفع الناس فيه.

مر الحسن بصبيان يأكلون كسر الخبز فاستضافوه فـــنزل وأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله فـــأطعمهمُ وكساهُم.

وقال الفضل لهم: لأنهم لم يجدوا غـير ما أطعمونا ونحنُ نجد أكثر مما أعطيناهم.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يطوف على العجائز يقضي حـوائجهن، وقبله الصـديق كـان يتفقد

ضُعفاء المسـلمين، وقد ذكرنا عنهما في المـوارد من القصص ما فيه كفاية.

مَشِيْبُ النواصِـي للمَنُـونِ رَسُـــــــــولُ
يُخَبِّرُنا أنَّ الثَّواءَ قليـــــلُ
فَصِـيْحٌ إذا نَـادَا وإنْ كـانَ صَــــــامتًا
مُثِـيرُ المَعَـاني للنُفُـوسِ عَــــــــذُولُ
فواعَجَبًا مِن مُوقن بفنَائـهِ أمن بَعْد ما جــــاوزتَ سَـــــبعينَ حِجَّةً
وآمَالُهُ تَنْمُو وليسَ يَحُـول
وقَدْ آنَ منّي لِلْقُبُورِ رَحِيْلُ
أُؤَمِــلُ آمَــالاً وأرغَبُ في الغِنَى
بدَارِ غِنَاهَا يَنْقَضِي ويَزُولُ
وإنْ امرءً دُنْيَاهُ أكبرُ هِّمِه
ويُؤثرُهَا حُبًّا لها لجَهُــولُ
فكَمْ عَـالمٍ والجهـلُ أوْلَى بِعلِمِــــــهِ
لَـهُ مِقْـولٌ عند الخِطَـاب طَويـــــلُ
وكم من قَصيرٍ في عُلـومٍ كثــــــيرةٍ
لَه مَخْبَـــرٌ لِلصَّـــالحاتِ وصُـــــول
فَمَا العلمُ إلا خَشْـــيَةُ الله والتُّقى
فكُــلُّ تقيٍّ في العُيـــونِ جَليل
فيا ربِّ قد علّمتـني سُـبُلَ الهُـــــــدى
فأصــــبحتُ لا يَخْفَى عليَّ ســــــبيلُ
فيا ربِّ هبْ لي منــــكَ عزْمًا على التُّقى
فـأنتَ الـذي مَـالي سِـوَاهْ يُنِيْــــــلُ

قـال المغـيرة بن حـبيب: قـال عبدالله بن غـالب الحــداني: لما بــرزوا للعــدو علام آسى من الــدنيا، فوالله ما فيها للبيب جذلٌ.

والله لولا محبتي لمُباشرتي السهر بصفحة وجهي، وافــــترش الجبهة لك يا ســــيدي، والمُراوحة بين الأعضاء في ظُلم الليل رجاءَ ثوابِكَ وحُلول رضـوانك، لقد كنت متمنيًا لفراق الدنيا وأهلها.

ثم كسر جفن سـفيه، ثم تقـدم فقاتل حـتى قتـل، قــال: فحُمِل من المعركة وإنَّ به لرمقــات، فمــات دون العسكر.

فلما دفن أصـابوا من قـبره رائحة المسـك، قـال: فرآه رجل من إخوانه في منامه، فقال: يا أبا فــراسٍ ما صنعت؟ قال: خير الصنيع.

قـال: إلى ما صـرت؟ قـال: إلى الجنـة، قـال: بِمَ؟ قال: بحسن اليقين وطول التهجُّد وظمأ الهواجر.

قـــال: فما هـــذه الرائحة الطيبة الـــتي توجد من قبرك؟

قــال: تلــك رائحــة التلاوة والظمــأ، قــال: قلت: أوصـني، قـال: اكسـب لنفسـك خـيرًا لا تَخْـرجْ عنـك الليالي والأيام عُطُلاً.

ولا يَـــذْهَبَنَّ العُمْــــرُ منك سَـــــــــــــــبَهْلَلَا ولا تُغْبَنَنْ بَــــــالنَّعْمَتيْنِ بل اجْهِــــــــــــــــــــدِ

فَمَنْ هَجَر اللَّذَاتِ نـــــالَ المُنَى ومَن أكَبَّ على اللَّذَاتِ عَضَّ على اليَـــــــــــــــدِ

والله أعلم، وصـل اللـه على محمـد وآلـه وصـحبه وسلم.

عبرٌ ومواعظٌ

قيل: إنه مرض بعض العلماء وكف بصره واعــتراه ألم لا يهــدأ بالمُســكنات، فــدخل عليه أحد تلامذته فوجده يبكي، فبدأ يواسيه ويحثُهُ على الصـبر على ما أصابه.

فقال له: أنا لا أبكي ضجرًا من ألمي ولكنني أبكي فرحًا وسرورًا؛ لأن الله وجدني أهلاً لأن يبتليـني، وقد قال رسـول الله حين سـأله سـعد بن أبي وقـاص: أي النـــاس أشـــدُّ بلاءً؟ فقـــال: «الأنبيـــاء ثم الأمثل فالأمثل».

فيبتلى الرجل على حسب دينــه، فــإن كــان رقيق الدين ابتُلي على حسب ذاك، وإن كـان صـلب الـدين ابتلى على حسب ذاك فما تــزال البلايا بالرجل حــتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة.

وكف بصـرُ سـعدُ بنُ أبي وقـاص ، وكـان مجـاب الدعوة تأتي الناس ليدعُو لهُم فيستفيدُوا.

فقــال لهم أحــدهم: يا عم، إنك تــدعو للنــاس فلو دعــوت لنفسك لَــيرُدَّ الله عليك بصــرك، فقــال : يا بُــنيَّ، قضــاءُ الله عنــدي أحســنُ من بصــري، فالرضا درجته أعلى من درجة الصــــــبر، وقلَّما يبلغها إلا من آتاه الله إيمانًا كاملاً وصبرًا عظيمًا.

فترى الراضي مسـرورًا بما هو فيه سـواء كـان ما أصابه علة أو مرض أو فقر أو نحو ذلـك؛ لأنها حـدثت بمشيئة الله.

وقيـــل: إنه لما أصـــيب جيش الإســـلام بعد وقعة الــيرمُوك بالطــاعون، كــان المصــاب به يُقبِّلُ دُمَّلَ الطاعون في يده ويحمد الله؛ لأنه إذا مات بالطاعون يكتسب درجة الشـــهادة، فقد قـــال : «الطـــاعون شهادة لكل مسـلم»، ومن أدعيته : «أسْـألكَ الرِضا بالقضاءِ».

وقال زين العابـدين: الرضا بالقضـاء أرفع درجـات اليقين.

طلب الخليفة من أبي حازم أن يرفع إليه حوائجه، فكت إليه هيهـات رفعت حـوائجي إلى من لا يخـتزنِ الحــوائج، فما أعطــاني منها قنعت وما أمسك عــني رضيت، وقال شميط بن عجلان: يعمد أحـدهم فيقـرأ القرآن ويطلب العلم حتى إذا علمه أخذ الدنيا فضَمَّهَا إلى صدره وحملها على رأسه.

فنظر إليه ثلاثة ضـعفاء: امـرأة ضـعيفة، وأعـرابي جاهل، وأعجمي، فقالوا: هــذا أعلم بالله منا لو لم ير

في الــدنيا ذخــيرة ما فعل هــذا فرغبــوا في الــدنيا وجمعوها، فصار هو السبب في جمعهم لها.

وقـال: رأس المـؤمن دينُه حيثما زال معه لا يخلفُه الرجـال، ولا يـأمن عليه الرجـال، وقـال: إن الله عز وجل وسم الدنيا بالوحشة ليكون أنس المطيعين به.

وكان يقـول: النـاس رجلان، فمُتمـرُّدُن من الـدنيا، ومتنعم فيهـا، فـانظر أيَّ الـرجلين أنت، إن تطيع الله عز وجل وتحُسن عبادتـــه، وتتقـــرب إليه بالأعمـــال الصالحة فطوبى لك.

أم تحب طول البقاء لتأكل وتشـرب، وتجمع الـدنيا وتثمرها وتنعم زوجتك وولـــدك فلـــبئس ما أردْت له البقاء.

وكـان يقـول: إذا وصف المؤمـنين أتـاهم عن الله تبــارك وتعــالى أمر صــرفهم عن الباطل فأســهروا الأعين وأجـاعوا البطـون، وأظمئـوا الأكبـاد، وأنفقـوا الأمــوال، واهتضــموا التالد والطــارف في طلب ما يقــربهم إلى الله عز وجــل، وفي طلب النجــاة مما خَوفهم به.

وكان يقـول: إنَّ المـؤمن اتَّخذ كتـاب الله عز وجل مـرآة (أي قـدوة يقتـدي به) فمـرَّة ينظر إلى ما نعت الله به المُغترِّيْنَ.

ومرة ينظر إلى الجنة وما أعد الله عز وجل فيها.

تلقــاه حزينًا كالســهم المــرمي به شــوقًا إلى ما شوقهُ الله عزَّ وجل منه.

وكان يقول: إن المؤمن أبصر الدنيا فأنزلها منزلتها فإن هي أقبلت عليه، قـال: لا مرحبًا ولا أهلاً، والله ما أراك جئت بخــير وما فيك من خــير إلا أن تطلب بك الجنة، ويُفتدي بك من النار.

فــإن هي أدبــرت، قــال: عليك العفــاء، وعلى من يتَّبعُـكِ الحمد لله الـذي خـار لي وصـرف عـني فتنتك وشغلك.

وكان يقـول: أهل الـدنيا حيـارى سـكارى فارسُـهُم يــركضُ وراجلهم يســعى ســعيًا لا غــنيهم يشــبع ولا فقيرهم يقنع.

وكـان يقـول: إذا وصف المقبل على الـدنيا، دائبُ البطنة، قليل الفطنة، إنما همه بطنه وفرجُهُ وجلدُه.

مــتى أصــبح فأكل وأشــرب وألهو وألعب، مــتى أمسي فأنام، جيفة بالليل بطّال بالنهار.

ويحك ألهذا خُلقت، أم بهـذا أُمـرت أم بهـذا تطلب الجنة وتهربَ من النار.

وكان يقول: إن العافية سترت البرَّ والفـاجر، فـإذا جـاءت البلايا اسـتبان عنـدها الـرجُلان. فجـاءت البلايا إلى المؤمن فأذهبتْ ماله وخادمه ودابتـه، حـتى جـاع بعد الشـبع ومشى بعد الركـوب وخـدم نفسه بعد أن كان مخدومًا.

فصبر ورضي بقضاء الله عز وجل، وقال: هذا نظر من الله عز وجل لي هذا أهون لحسابي غدًا.

وجــاءت البلايا إلى الفــاجر فــأذهبت ماله وخادمه ودابته، فجزع وهلعَ، وقال: مالي والله بهذا طاقة.

والله لقد عودتُ نفسي عادةً مـالي عنها صَـبْرٌ من الحُلْوِ والحَامِض والحار والبارد ولِيْن العيش.

فـإن هو أصـابه من الحلال، وإلا طلبه من الحـرام والظلم ليُعود إليه ذلك العيش.

وكان يقول: الناس ثلاثـة: فرجـلٌ ابتكر الخـير في حداثة سنه ثم داوم عليه حتى خرج من الـدنيا، فهـذا المقرَّبُ.

ورجل ابتكر عمُرَهُ بالذنوب وطول الغفلة ثم راجع توبة، فهذا صاحب يمين.

ورجل ابتكر الشرَّ في حداثة سنَّه ثم لم يـزل فيـه حتى خرج من الدنيا، فهذا صاحب شمال.

وكـان يقـول: أيها المغـتر بطـول صـحته، أما رأيت ميتًا قط من غير سقم! أيها المغتر بطول المهلة، أما

رأيت مأخوذًا قط من غير عدة! أبالصحة تغـترون! أم بطول العافية تمرحـون، أم المـوت تـأمنون! أم على الملك تجترؤن!

إن ملك الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروةُ مالـك، ولا كثرة احتشادك، أما علمت أن ساعة المـوت ذاتُ كربٍ شديدٍ وغُصَص وندامة على التفريط.

ثم يقـول: رحم الله عبـدًا عمل لسـاعة المـوت، رحم الله عبـدًا عمل لما بعد المـوت، رحم الله عبـدًا نظر لنفسه قبل نزول الموت.

قـال بعضـهم: للبكـاء دواعي، أحـدها: الفكـرة في الـذنوب، فـإن أجـابت النفس إلى ذلك وإلا نقلها إلى موقف العرض، وتلك الشدائد والأهوال.

فـإن أجـابت على ذلك وإلا فـاعرض عليها التَّقلُبَ في أطباق النيران.

قـال يحـيى بن سـعيد لرجـل: اقـرأ، فقـرأ ﴿**حـم**﴾ الـــدخان، فلما بلغ ﴿**إِنَّ يَـــوْمَ الفَصْـــلِ مِيقَـــاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ صعق يحـيى وغشي عليه وسـقط وأصـاب البابُ فقار ظهره وسال الـدم وتقَّرح محل الصـدمة، ثم عـاد إلى فراشه وجعل يُـردِّدُ الآية ثم ما زالت به القرحة حتى مات ـ رحمه الله ـ.

قـال أحد أقربـاء ربـاح بن عمـرو القيسـي: كُنتُ أدخل عليه في المســــــجد وهو يبكي، وأدخل عليه الـبيت وهو يبكي، فقلتُ لـه: أنت دهـرك في مـأتم، فبكى ثم قــال: يحــقُ لأهل المصـائب والـذنوب أن يكونوا هكذا.

وكـان يقـول: إلى كم يا ليل يا نهـارُ تحُطَّان من أجلي وأنا غافل عما يُرادُ بي إنا لله إنا لله.

غشى على مسـروق في يـوم صـائف وهو صـائم، فقالت ابنته: أفطر، قال: ما أردت بي، قالت: الرفق، قـال: يا بُنية إنما أطلب الرفق لنفسي في يـوم كـان مقداره خمسين ألف سنة.

قـــال الحسن البصـــري: لمَّا أهبط آدم أوحى الله إليه أربعٌ فيهن جماع الأمر لك ولولدك من بعدك.

أما واحدة: فلي.

وأما الثانية: فلك.

وأما الثالثة: فبيني وبينك.

وأمَّا الرابعة: فبينك وبين الناس.

أمَّا التي لي فتعبدني ولا تشرك بي شيئًا.

وأمَّا التي لك فعملك أجزيكهُ أفقر ما تكون إليه.

وأما التي بيني وبينك فعليك الدعاء وعلي الإجابة.

وأما التي بينك وبينَ الناس فتُصاحِبُهُم بما تُحبُّ أن يُصاحبُوكَ به.

أربعٌ من حصل عليها واجتمعت عنده اجتمع له خير الدنيا والآخرة: امرأة صالحة عفيفـة، وصـديقٌ موافق على طاعة اللــــه، ومـــال من حلال واسع ينفقه في مراضي الله، وعمل صالح.

أوصى رسـول الله ﷺ رجلاً، فقـال: «هَيء جَهَـازَكَ، وقـــدِم زادك، وكُن وصي نفســك، فإنه لا خَلَــفَ من التقوى، ولا عِوَض مِن الله عَزَّ وجَلّ» اهـ.

مِن كلِ شـيءٍ إذا ضَـيَّعَتَه عَـوضٌ ... وما مِن الله إنْ ضَـيَّعْتَه عَـوَضُ

ﷺ لرجل يُوْصِيْه: «عَلَيْكَ بذِكْرِ الموت فإنه يَشغلكَ عما سواه وعليكَ بكثرة الدعاء، فإنـك لا تـدري مـتى يُسْتَجَابُ لَكَ، وأكثر من الشكر فإنه زيادة».

قال أعشى قيس:

أجــدك لم تســمعْ وصَــاةَ مُحَمَّدٍ ... نَبِّي الإله حِيْنَ أوصَى وأشْهَدَا

إذا أنْتَ لم ترحلْ بزَادٍ مِن التُقَى ... ولاقَيْتَ بَعــدَ المــوتِ مَنْ قَد تَـزَودَّا

نَــدِمْتَ على أنْ لا تَكُــونَ كَمِثْلِهِ ... فَتُرْصِدَ لِلْمَوْتِ الذي كـان أرْصَدَا

مَرَّ عَامِرُ بن عبدِ قَيْس برجل من أعوان السلطان وهو يجر ذميًا و الذمي يستغيث، فأقبل على الــذمي، فقال: أَدَّيْت جزيتك، قال: نعم، فأقبل عليه، فقال: ما تريد منــه؟ قــال: أذهبُ به يكنسُ دار الأمــير، قــال: فأقبل على الذمي، فقال: هلْ تطيْبُ نفسُكَ له بهـذا، قال: يُشغلني عن صنعتي.

قال للرجل: دَعْهُ، قال: لا أدَعُه، قال: دَعْهُ، قال: لا أدعه، فوضـعَ كسـاءهُ، فقـال: لا تُخْفَر ذمَّةُ محمد وأنا حي، ثم خلَّصَهُ منه.

قالت المـرأة الـتي نـزل عليها عـامر بن عبداللـه: مـالي أرى النـاس ينـامُون ولا أراك تنـام؟ قـال: ذكر جهنم لا يدعني أن أنام.

وقال عامر بن عبد قيس: أربع آيات في كتاب الله إذا ذكرْتُهن لا أبالي على ما أصبحت أو أمسيت:

1- ﴿**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ**﴾.

2- ﴿**وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ**﴾.

3- ﴿**سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا**﴾.

4- ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾.

وقـال: عليك بما يُرغبُك في الآخـرة، ويُزهـدُكَ في الدنيا، ويُقرَّبُك إلى الله عز وجل.

قـال: المُوصَّـى، قُلتُ: ما هـو؟ فقـال: تَقْصـرُ عن الدنيا همَّك، وتشـحذ إلى الآخـرة نيَّتـك، وتُصـدَّقُ ذلك بفعلك.

فــإن كُنْتَ كـــذلك لم يكن شـــيءٌ أحبّ إليك من الموت، ولا شيء أبغض إليك من الحياة.

فقلت: يا أبا عبدالله كُنْتُ لا أحسـبُك تُحسـنُ مثل هذا، فقـال: كم من شـيء كُنْتُ أحسـنُه ودِدْتُ أني لا أحسنُه.

وما يغـني عـني ما أحسـنُ من الخـير إذا لم أعمل به، وكـان يشـترط على رفقائه أن يُنفق عليهم بقـدر طاقته.

عن الحسن قـال: كـان عـامر بن قيس إذا صـلى الصـبح تنَحَّى في ناحية المسـجد، فقـال: من أقرئـه؟ قال: فيأتيه قوم فيقـرئهم، حـتى إذا طلعت الشـمس وأمكنته الصلاة قام يُصـلي إلى أن ينتصف النهـار، ثم يرجعُ إلى منزله فيقيْلُ.

ثم يرجعُ إلى المسـجد إذا زالت الشـمس فيصـلي حتى يصلي الظهر، ثم يصلي إلى العصر، فـإذا صـلى العصر تنحَّى في ناحية المسجد.

ثم قال: من أقرئه؟ قال: فيأتيه قوم فيُقرئهُم حتى إذا غربت الشـمس صـلى المغـرب، ثم يصـلي حـتى يصـلي العشـاء الآخـرة، ثم يرجع إلى منزله فيتنـاول أحد رغيفيه، فيأكل ثم يهجع هجعـةً خفيفـةً، ثم يقـوم فإذا أسحر تناول رغيفه الآخر فأكلـه، ثم شـرب عليه شـربة من مـاء ثم يخـرج إلى المسـجد، وكـان يأخذ عطـاءه فيجعله في طـرف ردائه فلا يلقى أحـدًا من المساكين يسأل إلا أعطاه، وكـان يتجـوز في الصـلاة النافلة إذا جاءه أحدًا خشية الرياء.

وقال بعضـهم: جلست إليه وهو يصـلي فتجـوز في صلاته (أي خففها)، وقال لمن جـاءه: أرحـني بحاجتك فإني أبادر.

قـال: قُلتُ: وما تبـادر؟ قـال: ملك المـوت رحمك الله، قال: فقمتُ عنه وقام يصلي. والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

عن أنس، عن أبي العاليـة، قـال: كُنتُ أرحـلُ إلى الرجل مسيرة أيام، فأولُ ما أتفقدهُ من أمره صلاته، فـإن وجدته يقيمهاً ويُتمها أقمتُ وسـمعتُ منـه، وإن وجدته يضيعها رجعت ولم أسمع منه، وقلتُ: هو لغير الصلاة أضيع.

عُــوتَبَ ابنُ المبــارك فيما يقــري من المــال في البلـدان ولا يفعـلُ في أهل بلـده كـذلك، فقـال: إني أعرفُ مكانَ قومٍ لهم فضلٌ وصـدقٌ طلبـوا الحـديث وأحسنوا الطلب ًفاحتاجوا.

فـإن تركنـاهُم ضـاع علمهم وإن أعنَّاهُم بثـوا العلم لأمة محمد ولا أعلم بعد النبــــــوة أفضل من بث العلم.

كان شاب يختلفُ إلى ابن المبارك ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث، فقـدم عبدالله الرَّقة مـرَّة، فلم يرى ذلك الشاب وكـان مُسـتعجلاً، فخـرج في النفـير إلى الجهـــاد، فلما قفـــلُ من غزوته ورجع إلى الرقة سأل عن الشاب، فقالوا: إنه محبوس بدين ركبه.

فقال عبدالله: وكم مبلغ دينه؟ قالوا: عشـرة آلاف درهم، فلم يـزل يسـأل عن صـاحب الـدين حـتى دُلَّ عليـــه، فـــدعا به ليلاً ووزن له عشـــرة آلاف درهم، وحلفه أن لا يُخبرا أحدًا ما دام حيًا عبدالله، وقال: إذا أصبحت فأخرج الرجل من الحبس.

قال بعضهم: لولا أني أكره أن يُعصَى الله، تمــنيتُ أن لا يبقى في هذا المصر أحد إلا وقع فيَّ واغتابني.

فــأي شــيء أهنـأ من حسـنةٍ يجـدها الرجـل في صحيفته يوم القيامة لم يعملها ولم يعلم بها.

وقال يحـيى بن معـاذ: لسـتُ آمـركم بـترك الـدُنيا آمركم بترك الذنوب، تركُ الدنيا فضيلة وتركُ الذنوب فريضة وأنتم إلى إقامة الفريضة أحـــــوج منكم إلى الحسنات.

وقال: لا تكن ممن يفضحه يـوم موته ميراثه ويـوم حشره ميزانُه.

وقــال إبــراهيم الخــواص: دواء القلب في خمسة أشـياء: قـراءة القـرآن بالتـدبر، وخلاء البطن، وقيـام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين.

وقال: على قدر إعزاز المـرء لأمر الله يُلبسُـه الله من عِزه ويقيم له العز في قلوب المؤمنين.

وقــال يوسف بن الحســين: على قــدر خوفك من الله يهابك الخلق، وعلى قدر حبك الله يحبك الخلــق، وعلى قدر شُغلك بأمر الله يُشغلُ الخلقُ بأمرك.

وقــال آخــر: وقد سُــئل عن الصــحبة مع الله عز وجل، قال: بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة.

والصحبة مع الرسـول بإتبـاع سُـنَّته ولـزوم ظـاهر الحكم.

والصحة مع أولياء الله بالاحترام والخدمة.

والصحبة مع الأهل والولد بحسن الخُلق.

والصحبة مع الإخوان بـدوام البشر لهم والانبسـاط معهم ما لم يكن إثمًا.

والصـحة مع الجهـال بالـدعاء لهم والرحمة عليهم ورؤية نعمة الله عليك إذْ عافاك مما ابتلاهم به.

جلس أحــد العلمــاء للتَّذكير حــتى طــال ســكوته فنـاداه رجـل مـا تـرى أن تقـول في سُـكوتك شـيئًا، فأنشأ يقول:

وَغَــيرُ تَقِيٍّ يَــأمُرُ النــاسَ بـــالتُّقَى ... طَبْيبٌ يُدَاوِي النـاسَ وهْـوَ مَــريضُ

سُئل بعضهم: ما علامة العـارف؟ قـال: أن لا يَفْـترُ من ذكر الله ولا يمل من حقه ولا يستأنس بغيره.

وقال أبا يزيد البسطامي: الناس كلهم يهربون من الحسـاب ويتجـافون عنـه، وأنا أسـأل الله تعـالى أن

يحاسبني، فقيل: لِمَ قـال لعله أن يقـول لي فيما بَيْنَ ذلك يا عَبْدِي، فأقولُ لَبَّيْك.

فقوله لي يا عبدي، أعجب إليَّ من الدنيا وما فيها، ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء، وقال أبو يعلى:

وَمِمَّا زادَني شَــرَفًا وَتِيْهَا   وكِـــدْتُ بأَخْمُصِـــي أطَؤ الثُرَيَّا
دُخُـــوْلِيْ تَحُتَ قَوْلِـــكَ يا عبــــــــــــــــادي   وأنْ صَيَّرتَ أحمَـدَ لِيْ نَبِيَا

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وسلم.

فصل

قــال أحد العلمــاء: لا يكن هم أحــدهم في كــثرة العمـــــــــــل؛ ولكن ليكن همه في إحكامه وإتقانه وتحسـينه، فـإن العبد قد يُصـلي وهو يعصي الله في صلاته، وقد يصوم وهو يعصي الله في صيامه.

وقيل لآخر: كيف أصـبحت، فبكى، وقـال: أصـبحت في غفلــةٍ عظيمة عن المــوت مع ذُنــوب كثــيرة قد أحاطت بي، وأجل يسرع كل يوم في عمـري، وموئل لستُ أدري علاما أهجم ثم بكى.

وقـال آخـر: لا تغتم إلا من شـيء يضـرُك غـدًا (أي في الآخـرة) ولا تفـرح بشـيء لا يسـرك غـدًا، وأنفـعُ الخوف ما حجزك عن المعاصي، وأطال الحُزْنَ مِنْـكَ على ما فاتك من الطاعـة، وألْزَمَـكَ الفِكْـرَ في بَقيـةِ عُمرك.

وقال آخر: عليك بصحبة من تُـذكرُك الله عز وجل رُؤيتُــه، وتقع هيبتُه على باطنــك، ويزيــدُ في عملك منطقُه.

ويُزهِدُكَ في الـدنيا عملـه، ولا تعصي الله ما دُمت في قُربه، يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله.

قـال إسـرافيل: حضـرت ذي النـون المصـري وهو في الحبس، وقد دخل الشرطي بطعام لـه، فقـام ذُو النون فنفض يده (أي قبضها عن الطعام).

فقيل له: إن أخـاك جـاء بـه، فقـال: إنه على يـدي ظالم، قال: وسمعت رجلاً سأله ما الذي أتعب العباد وأضعفهم؟

فقال: ذكر المقام وقلـةُ الـزاد، وخـوفُ الحسـاب، ولم لا تذوبُ أبدانُ العمال وتذهلُ عقـولهم، والعـرضُ على الله جل وعلا أمامهم، وقراءة كتبهم بين أيديهم. والملائكة وقوفٌ بين يـدي الجبـار ينتظـرون أمـرهُ في الأخيـار والأشـرار، ثم مثَّلـوا هـذا في نفوسـهم وجعلُوه نُصبَ أعْيُنِهِم.

وقال: سـقم الجسد في الأوجـاع، وسـقم القلـوب في الــذنوب، فكما لا يجد الجسد لــذة الطعــام عند سقمه، كذلك لا يجد القلب حلاوة العباد مع الذنوب.

وقال: من لم يعرف قدر النعم، سُـلبها من حيث لا يعلم.

ما خلع الله على عبد خلعة أحسن ولا أشــرف من العقل ولا قلـــده قلادة أجمل من العلم ولا زينة بزينة أفضل من الحلم وكمال ذلك التقوى.

وقـال آخـر: أدركت أقوامًا يسـتحيون من الله في سواد الله من طول الهجعة، إنما هو على الجنب فإذا تحرَّك قال لنفســه: ليس لك قـومي خُـذي حظَّك من الآخرة.

وقـــال أبو هاشم الزاهـــد: إن الله عز وجل وسم الدنيا بالوحشة، ليكن أنسُ المريدين به دونها، وليُقْبل المطيعُـون له بـالإعراض عنهـا، وأهـلُ المعرفة بالله فيها مُسْتَوْحِشُون، وإلى الآخرة مُشتاقون.

ونظر أبو هاشم إلى شريك القاضي يخرجُ من دار يحيى بن خالـد، فبكى، وقـال: أعـوذ بالله من علمٍ لا ينفع.

وقال أسود بن سـالم: ركعتـان أصـليهما أحب إلي من الجنة بما فيها، فقيل له: هذا خطأ.

فقال: دعُونا من كلامكم، رأيت الجنة رضا نفسي، وركعـتين أصـليهما رضا ربي، ورضـاء ربي أحبُّ إليَّ من رضا نفسي، تأمل يا أخي دقَّة هذا الفهم لله دره.

وقال وهيب: الإيمان قائد، والعمل سائق، والنفس بينهُما حرون، فإذا قـاد القائـدُ ولم يسُـق السـائقٌ لم يُغن ذلك شيئًا.

وإذا ســـاق الســـائق ولم يقد القائد لم يغن ذلك شيئًا، وإذا قـادَ القائـدُ وسـاقَ السـائقُ ابتعثْـهُ النفسُ طوعًا وطاب العمل.

قـال بعضـهم يـوبخ نفسه ويعظهـا: يا نفسُ بـادري بالأوقــات قبل إنصــرامها، واجتهد في حراسة ليــالي الحياة وأيامها.

فكأنك بالقبور قد تشققت، وبــالأمور وقد تحققت، وبوجوه المتقين وقد أشرقت، وبرؤوس العصــاة وقد أطــرقت، قــال تعــالى وتقــدس: ﴿**وَلَــوْ تَــرَى إِذِ الْمُجْرِمُـونَ نَاكِسـُوا رُءُوسِـهِمْ عِنـدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَـا أَبْصَــرْنَا وَسَــمِعْنَا فَارْجِعْنَــا نَعْمَــلْ صَــالِحًا إِنَّا مُوقِنُــونَ**﴾يا نفس، أما الورعُــون فقد جــدُّوا، وأما الخائفون فقد اسـتعدوا، وأما الصـالحون فقد فرحـوا وراحوا، وأما الواعظون فقد نصحوا وصاحوا.

العلم لا يحصــل إلا بالنصــب والمــال لا يجمــع إلا بـالتعب، أيهـا العبـد الحـريص على تخليص نفسـه إن عزمت فبـادر وإن هممت فثـابر، واعلم أنـه لا يُـدرك العز والمفاخر من كان في الصف الآخر.

دَبُّوا إلى المجـــــــــدِ والســــاعُونَ قد بَلغُــــوا ... جُهْدَ النُفُوسِ وشَدُّوا دُوْنَه الأُزُرَا

وسَاوَرَوْا المجدَ حَتَّى مَــلَّ أَكْثَـــــــــــــرُهُم ... وعَــانَقَ المَجْــدَ مَن وافَى ومَنْ صَـــــــــــبَرا

لا تَحْسَبِ المجدَ تَمْرًا أَنْتَ آكلُه ... لَنْ تَبْلُغَ المجـدَ حَتَّى تْلعَق الصَّــــبِرَا

والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصـــــحبه وسلم.

اعلم وفقنا الله وإيَّاك وجميع المسلمين

أن ظُلم العبد نفسـه يكـون بـترك مـا ينفعهـا وهي مُحتاجة إليه، وذلك فعل مـا أمـر اللـه بـه وبفعـل مـا يضرها، وذلك المعاصي كلها.

كما أن ظلم الغـير كـذلك إما بمنع حقه أو التعـدي عليــه، فــإن الله أمر العبــاد بما ينفعهم ونهــاهم عما يضرهم.

وجاء القرآن بـالأمر بالإصـلاح والنهي عن الفسـاد، والصلاح كله طاعة والفساد كله معصية.

وقد لا يعلم كثـــير من النـــاس ذلك على حقيقته فعلى المـؤمن أن يـأمر بكل مصـلحة وينهي عن كل مفسدة.

وكل ما أمر الله به راجع إلى العـــدل وكل ما نهى عنه راجع إلى الظلم.

والظلم الـــذي حرمه الله على نفسه أن يـــترك حسـنات ا لمُحسن فلا يجزيه بهـا، أو يُعـاقب الـبري على ما لم يفعله من السيئات.

أو يعـاقب هـذا بـذنب غـيره، أو يحكم بين النـاس بغـير العـدل ونحو ذلك مما يـنزه الله جل وعلا عنه و ذلك لكمال عدله وحمده.

من أسـباب قـوت الإيمـان ونـوره سـماع القـرآن وتدبره ومعرفة أحوال النبي ومعجزاتــه، ونظر في آيــات الله والتفكر في ملكــوت الســموات والأرض، والتأمل في أحــوال نفس الإنســان، ومثل رؤية أهل الإيمان والنظر في أحوالهم ونحو ذلك.

لله دَرُّ رِجَـــالٍ وَاصـــلُوا السَّـــــــــــهَرَا ... واسْتَعْذبُوا الوجْدَ والتَّبْريحَ والفِكَـــــــــــــرا
فَهُمْ نُجُومُ الهُـدَى واللّيْـلُ يَعْـــــــــرِفُهُم ... إذا نَظَـرْ تَهُمُـوا هُمْ سَـادَةٌ بُـــــــــــرَرَا

كُــلُّ غَــدَا وَقْتــهُ بالــذِّكْرِ مُشْـــــــــــــــتَغِلاً | عَمَّا سِـــوَاهُ ولِلَّذَاتِ قَـــدْ هَجَـــــــــــــــــرَا
يُمْسِــي ويُصْـرِحُ في وجْـدٍ وفي قَلَـــــــــــــقٍ | مِمَّا جَنــاهُ مِن العِصـــيان مُنْــــــــــــــــذَعرَا
يَقُـولُ يا سَـيِّدِي قَـدْ جِئتُ مُعْتَرِفًا | بالذَّنْبِ فاغْفِرهُ ليْ يا خَيْرَ مَن غَفَـــــــــــــرا
حَمَلْتُ ذَنبًا عَظِيْمًا لا أطِيْـــــــــقُ لَـــــــهُ | ولم أطِـعْ سَـيِّدِي في كُـلِّ مَا أمَـــــــــــــــرَا
عَصَيْتُهُ وهْوَ يُـرخي سِـتْرَهُ كَرمًا | يا طَالمَا قد عَفَا عَني وَقدْ سَـــــــــــــتَرا
وطَالَمَا كَـانَ لي في كُـلِّ نَائِبَـــــــــــــةٍ | إذا اسْتَغَثْتُ بـهِ مِنْ كُرْبَـةٍ نَصَـــــــــــــــرا
وإنَّني تَــــائِبٌ مِمَّا جَنَيْتُ وقَـــــــــــــدْ | وَافَيْتُ بَابَـــكَ يا مَـــوْلايَ مُعْتَـــــــــــــذرَا
لَعَـــلَ تَقْبَـــلَ عُـــذْرِي ثم تَجْبُـــــــــــرُني | يَوْمَ الحِسَـاب إذا قُـدَّمْتُ مُنْكسِـــــــــــــرَا
وقَدْ أتَيْتُ بذلُ رَاجيًا كَرَمًا | إليـكَ يا سَـيِّدِي قَـدْ جِئْتُ مُفْتَقِـــــــــــــرَا

اللهم أجرنا من النـــار وأدخلنا الجنة مع الأبـــرار برحمتك يا عزيز يا غفـــار، اللهم اســـتر عوراتنا وأمن روعاتنا وأقلنا من عثراتنا ولا تفضـــحنا بين يـــديك يا أرحم الـراحمين، وصل الله على محمد وآله وصـحبه أجمعين.

فصل

قـــال محمد بن مهـــدي: والله لا تجد فقد شـــيء تركتهُ ابتغاء وجه الله، كُنتُ أنا وأخي شريكين فأصبنا مـالاً كثـيرًا، فـدخل قلـبي من ذلك شـيء فتركتُه لله وخـرجتُ منـه، فما خـرجت من الـدنيا حـتى ردَّ الله

عليَّ ذلك المــال عامتــة إليَّ وإلى ولــدي، زوج أخي ثلاث بناتٍ من بنيَّ، وزوَّجت ابنتي من ابنه.

ومات أخي فورثه أبي ومات أبي فورثته أنا، فرجع ذلك كله إليَّ وإلى ولدي في الدنيا.

عن عطاء الحسن الخرساني أنه كان يقول: إني لا أوصــيكم بــدنياكم أنتم مُستوصــون بهــا، وأنتم عليها حراص.

وإنما أوصيكم بآخرتكم، فخذوا من دار الفناء لــدار البقــاء، واجعلــوا المــوت كشــيء ذقتُمــوه، فوالله لتذوقُنَّه، واجعلــوا الآخــرة كشــيء نزلتمــوه فوالله لتنزُلُنَّها، وهي دار النـاس كلهم، ليس من النـاس أحد يخرج لسفر إلا أخذ له أهبته، فمن أخذ لسفره الــذي يُصلحُهُ اغتبط.

ومن خـرج إلى سـفر لم يأخذ له أهبتـهُ نـدم، فـإذا أضحى لم يجد ظلاً، وإذا ظمئ لم يجد ماء يتروى به، وإنما سـفرُ الــدنيا منقطـع، وأكيس النــاس من قــام يتجهَّز لسفر لا ينقطعُ.

وقـــــال آخر يوصي أخًا لـــــه: اعلم أنك تلقى ما أســـلفت ولا تلقى ما خلفت فمهد لنفســـك، فإنك لا تـدري مـتى يفجـؤك أمـرُ ربـك، قـال: فأبكـاني كلامُه وهوَّن عليّ الدنيا.

قيل للقمــان الحكيم: ما بلغ بك ما نــرى (يُريــدون الفضل)، قال: صدقُ الحديث، وأداء الأمانة، وتـرك ما لا يعني.

عن جابر الجعفي، قال: قال لي محمد بن علي بن الحســين: يا جــابر، إني لمحــزون، وإني لمشــتغلُ القلب، قلت: وما حُزنُك؟ وما شُغل قلبك؟

قال: يا جابر، إنه من دخل قلبهُ صافي خـالصُ دين الله شغلهُ عمَّا سواه.

يا جــابر، ما الــدنيا ما عسى أن تكــون هل هو إلا مركبٌ ركبتهُ أو ثوبٌ لبسته أو امرأة أصبتها.

يا جابر، إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الـدنيا لبقـاءٍ فيها، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليها، ولم يصـمهُم عن ذكر ما سمعوا بآذانهم من الفتنة، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة، ففازوا بثواب الأبرار.

إن أهل التقـوى أيسر أهل الـدنيا مؤونة وأكـثرهم لك معُونة، إن نسيت ذكّروك، وإن ذكرت أعانوك.

قـوالين بحـق، قـوامين بـأمر اللـه، فـأنزل الـدنيا كمنزلٍ نـزلت به وارتحلت منـه، أو كمـال أصـبته في منامكً فاسـتيقظت وليس معك منه شــيء، واحفظ الله تعالى ما استرعاك من دينه وحكمته.

قال بعضهم: فكّر في ذنبـك، وتُب إلى ربـك، يَنْبُتُ الـــورعُ في قلبـــك، واقطع الطمع إلا من ربـــك، ذم مولانا الـدنيا فمـدحناها، وأبغضـها فأحببناهـا، وزهَّدَنا فيها فآثرْنَاهَـــا، ورغبنا في طلبهـــا، دعتكُم إلى هـــذه الغـرارة دواعيها فـأجبتم مُسـرعين مُناديها خـدعتكم بغُرورها تتمرُون في زهراتها وزخارفها، قـال الله جل وعلا: ﴿**فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا**﴾.

أتى الحسن بكـوز من مـاء ليُفطر عليه فلما أدنـاه إلى فيه بكى، وقال: ذكرت أمنية أهل النـار، قــولهم: ﴿**أَفِيضُوا عَلَيْنَـا مِنَ المَـاءِ**﴾، وذكـرت ما أجيبـوا بـه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ**﴾.

وقــال كعب الأحبــار: لأن أبكي من خشــية الله فتسـيل دمـوعي على وجنـتي أحب إلي من أتصـدق بوزني ذهبًا.

وعن إبـراهيم بن الأشـعث قـال: كنا إذا خرجنا مع الفضيل في جنـازة لا يـزال يعظ ويـذكر ويبكي حـتى لكأنه يــودع أصــحابه ذاهبٌ إلى الآخـــرة حــتى يبلغ المقابر.

فيجلس فكأنه بين المـــوتى جلس من الحـــزن والبكاء حتى يقوم وكأنه رجع من الآخرة يخبر عنها.

وكــان يقــول: الخــوف أفضل من الرجــاء ما دام الرجل صحيحًا، فـإذا نـزل به المـوت فالرجـاء أفضل من الخوف.

يقول: إذا كان في صحته محسنًا عظم رجاؤه عنـد الموت وحسن ظنه (أي بالله)، وإذا كـان في صـحته مسيئًا ساء ظنه عند الموت ولم يعظم رجاؤه.

إذا أَخْبَـــــــرَتَ عن رَجُل بـــــــــــــــريءٍ — من الآفاتِ ظَاهُره صحِيْحُ
فَسَلْهُم عَنْهُ هَلْ هُـوَ آدمِيٌ — فــإنْ قــالُوا نَعَمْ فــالقوَلُ ريْحُ
ولكن بَعْضُنَا أهْـلُ اسْـتِتَارٍ — وعند الله أجْمَعُنا جَـــريحُ
ومن إنعـــام خَالقنا عَليناً — بـأن ذُنُوبنا ليْسَـتْ تَفُـوْحُ
فَلَوْ فاحَتْ لأصْبَحْنَا هُرُوبًا — فُـــــــرادَى في الفَلا ما نسْـــــــــــتَريحُ
وضاقَ بِكُل مُنْتَحِلٍ صَلاحًا — لِنَتْنِ ذُنوبِهِ البَلَدُ الفَسَـيحُ

المعاصي تنقسم إلى قسمين: قسم ذنوب جـوارح ظاهرة، مثل القـذف، والغيبـة، والظلم، والاغتصـاب، والقتل، والزنا، واللواط، والسرقة ونحو ذلك.

والقسم الثـــاني: وهي ذنـــوب القلـــوب، وهن المهلكــات القاصـمات، ومنهــا: الشــرك، والشــك، والنفـاق، والكفـر، والاغـترار باللــه، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله.

ومنها احتقــار الــذنوب والتهــاون بها والتســويف بالتوبة والإنابة والإصرار على المعاصي والرياء والتيه والكـــبر والعجب والخيانة والغـــدر والحسد والغل والحقد والبغض.

وسوء الظن والجفاء والقطيعة والعقوق والقسـوة والشح والحــرص والشــره على ما لا ينبغي الحــرص والشره عليه.

ومنهـا: الطغيـان بالمـال والقـوة والجـاه واحتقـار النعم والاحتقار بمصائب الدين، ومنها الاسـتهانة بعلم الله ونظره وسمعه وإطلاعه.

ومنها: قلة الحيـاء من الله عز وجل وتقـدس وقلة الحيـاء ممن على اليمين وعلى الشـمال من الملائكة عند فعلك ما يكرهه الله ونحو ذلك من الذنوب الـتي لا يسلم منها إلا من عصمه الله.

موعظة

قـــال ابن الجـــوزي: يا عجبًا كيف أنس بالـــدنيا مفارقها! وأمن النـار واردهـا! كيف يغفُل من لا يُغفل عنه! كيف يفرحُ بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته وسنتُه تهدم عمُـره! كيف يلهو من يقـوده عُمُره إلى أجله وحياته إلى موته!

إخواني: الدنيا في إدبار، وأهلُها منها في اسـتكثار، والزارع فيها غير التقي لا يحصُدُ إلا الندم.

ما أفْضَـحَ المـوت لِلـدُّنْيَا وَزيْنَتِهَا ... جِـدًّا وما أفْضَـح الـدُنْيَا لأَهْلِيْهَا
لا تَـرْجِعَنَّ على الـدنيا بلائِمـةٍ ... فَعُـذْرُهَا لَـكَ بـادٍ في مَسَـاوِيْهَا
تُفْـني البَنِيْنَ وتُفْنِي الأهلَ دائِبـةً ... ونَسْـتَنِيْمُ إليها لا نُعَادِيْهَا
فَمَا يَزِيْـدُكُمُوا قَتْـلُ الـذي قَتَلَتْ ... ولا العَدَاوة إلا رَغْبـةً فيها

آخر:

لِسَـانُكَ للـدُنْيا عَـدُوٌ مُشَـاحِنٌ ... وقَلْبُكَ فيها لِلِّسَانِ مُبَاينُ
وما ضَـرَّهَا ما قُلْتَ فيها وقَـدْ صَـفَا ... لَهَا مِنْـكَ ودٌ في فُـؤادكَ كَـامِنُ

آخر:

ولم أرى كالـــدُّنْيا تُـــذَمُّ ونُوسِـــعُهَا شَـــتَمًا ونَحْنُ صُـــــــــرُوْفَها عَبْيـــــــــدُهَا

يَـــذُمُونَ دُنْيَـــاهُم وهُمْ يَجْلِبُونها ولم أرَى كالـــدُنْيَا تُـــذَمُّ وتُطْلَبُ

والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

اعلم وفَّقَنا الله وإيَّاك أن الصلاة عماد الدين وأجل مبـاني الإسـلام بعد الشـهادتين، ومحلها من الـدين محل الـرأس من الجسـد، فكما أنه لا حيـاة لمن لا رأس له فكذلك لا ديْنَ لِمَنْ لا صَلاةَ له.

جعلنا الله وإياكم من المحافظين عليها الخاشـعين فيها الـدائمين عليها المقيمين لهـا، قـال جل وعلا: **وَأَقِمِ الصَّـلاةَ إِنَّ الصَّـلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَـاءِ وَالْمُنكَرِ**، وقال عَزَّ من قائل: **الـم * ذَلِكَ الكِتَـابُ لاَ رَيْبَ فِيـهِ هُـدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُـونَ الصَّـلاةَ**، وقـال: **مُنِيبِينَ إِلَيْـهِ وَاتَّقُـوهُ وَأَقِيمُـوا الصَّـلاةَ وَلاَ تَكُونُـوا مِنَ المُشْرِكِينَ**.

فالإنابة هي الرجوع إلى الله، والتقـوى هي امتثـال أوامر الله واجتنـاب نواهيـه، والإقامة للصـلاة الإتيـان بها على الوجه الذي أمر الله به.

قال جلَّ وعلا: **قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُـونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَـلاتِهِمْ خَاشِـعُونَ** إلى قولـه: **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَـلَوَاتِهِمْ يُحَـافِظُونَ**، وقـال رسـول الله : «صلوا كما رأيتموني أصـلي» فالمصـلي على الإتبـاع والإقتداء برسول الله في صلاته على الوجه الـذي نقله عُلماء الأمة من السـلف والخلف هو المُصَـلِي المعدودُ عند الله من المقيمين للصـلاة والمحـافظين عليها.

وللصـلاة صُـورةٌ ظـاهرةٌ وحقيقـةٌ باطنة لا كمـال للصلاة ولا تمام لها إلَّا بإقامتهما جميعًا.

فأما صُــورتها الظــاهرة فهي القيــام والقــراءة والركــوع والسـجود ونحو ذلك من وظـائف الصـلاة الظاهرة.

وأما حقيقتها الباطنة فمثل الخشــوع والإخبــات وحُضور القلبِ وكمال الإخلاص.

والتدبر والتفهم لمعاني القـراءة ومعـاني التسـبيح ونحو ذلك وظائف الصلاة الباطنة.

فظـاهر الصـلاة حفظ البـدن والجـوارح وبـاطن الصلاة حفظ القلب.

ومن المحافظة على الصــلاة والإقامة لها كمــال الطهارة والاحتياط فيها في البدن والثوب والمكان.

قـال -عليه الصـلاة والسـلام-: «الطهـور شـطر الإيمان»، وفي الحديث الآخر: «الطهور مفتاح الصلاة وإسـباغِ الوضـوء وتثليثه مِن غـير وسوسة ولا إسراف».

فـإن الوسوسـةَ في الطهـارة والصـلاة من عمل الشيطان يُلبِّسُ بها على من ضعُف عقلُه وقلَّ علمه.

وقد وردت الأحـاديث الصـحيحة: «أن مَن توضأ فأحْسَنَ الوضوء خرجَتْ خطايـاه مِن أعضـائه ودَخَـلَ في الصلاة نقيًا مِن الذنوب».

ومِن المحافظة على الصلاة والإقامَة لها المبـادرة بها في أول مواقيتها، وفي ذلك فضلٌ وأجر عظيم.

وهو دليل على محبة العبد لربه وعلى المســارعة في مرضا ته ومحابه، قـال : «أول الـوقت رضـوان الله وآخره عفو الله».

وقبيح بالمؤمن العاقل أن يدخل عليه وقت الصلاة وهو على شـغل من أشـغال الـدنيا فلا يتركه ويقـوم إلى فريضة الله التي كتبها الله عليه فيؤديها.

وما يفعل ذلك إلا من عظمت غفلتــــــــه، وقلت معرفتُه بالله وعظمته وضـعُفت رغبته فيما أعـدَّ الله لأوليائه في الدار الآخرة.

وأما تأخيرها وقتها فلا يجوزُ وفيه إثم عظيم.

ومن المحافظة على الصلاة والإقامة لها الخشــوع وحُضـــــور القلب وتـــــدبُر القــــراءة وفهمُ معانيها واستشـــعارُ الخُضُـــوع والتواضُـــع لله عند الركـــوع والسجود.

وامتلاءُ القلب بتعظيم الله وإجلاله وتقديسه عند التكبير والتسبيح وجميع أجزاء الصلاة.

والحرص والاجتهاد في دفع الخـواطر والهـواجيس في شـؤون الـدنيا والإعـراض عن حـديث النفس في ذلك.

ويكـــون همه في الصــلاة وحُســنُ تأديتها كما أمر الله.

فـإن الصـلاة مع الغفلة وعـدم الخشـوع والحضـور قليلة الجدوى.

فاجتهد في تـدبُّر ما تقـول من كلام ربك واحـرص على الطمأنينة فيها.

فــإن الــذي لا يتم الركــوع والســجود في الصــلاة ســارق لها كما ورد في الحــديث وورد أن من حافظ عليها وأتمها تخـــرج بيضـــاء تقـــول: حفظك الله كما حفظني.

والذي لا يتم الصـلاة تخـرج سـوداء مظلمة تقـولُ: ضـيَّعَكَ الله كما ضـيعتني، ثم تلف كما يُلـفُ الثـوبُ الخلق فيضربُ بها وجهُهُ.

رأى رُجلٌ حاتم الأصم واقفًا يعظُ الناس، فقـال: يا حاتمُ، أراك تعـظُ النـاس أفتحسـنُ أن تُصـلي؟ قـال: نعم، قال: كيف تُصلي؟

قـــال: أقـــوم بـــالأمر، وأمشي بالســـكينة، و أدخُل بالهيبــة، وأكــبرُ بالعظمــة، واقــرأ بالترتيــل، واجلس

للتشـهد بالتمـام وأسـلم على السـنة، وأسـلمُها إلى ربي، وأحفظها أيـــام حيـــاتي، وأرجع بـــاللَّوم على نفسي، وأخافُ أن لا تُقبل مني، وأرجُو أن تُقبل مني، وأنا بين الرجا والخوف.

واشكر من علَّمني وأعلِّمُ من سـألني وأحمـدُ ربي إذ هداني.

قال له محمد بن يوسف: مثلك يصلح أن يعظ.

روي أن زين العابدين بن علي بن الحسين : كان يتغيَّر عند الوضوء ويصفر لونه، فإذا قـام إلى الصـلاة أخذتُه رعْدَةٌ.

فقيل له في ذلـك، فقـال: أتـدرُونَ بين يـدَي مَن أقُوم؟

وقال أبو بكر الوراق: ربما انصرف من الصلاة وأنا استحي من الله جلَّ وعلا ولا حياءَ رجُـلٍ انصـرفَ مِن الزِنا.

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصـــــحبه وسلم.

مواعظ

عن أبي بكر بن عيـاش قـال: قـال لي رجُـلٌ مـرَّة وأنا شـابٌّ خلِّصْ رقبتك ما اسـتطعت في الـدنيا من رقِّ الآخرة.

فإن أسير الآخرة غير مفكوك أبـدًا، قـال أبو بكـر: فما نسيتُها أبدًا.

وكـان يقـومُ الليل في قبـاء صُـوف وسـراويل وعُكـازة يضـعُها في صـدره فيتكيءُ عليها حين كـبرُ فيُحْـيي ليْلَتَـهْ ويُـذكِّرِهُ حَمْـلُ العَصَـى بالسَّـفرِ إلى الآخرة.

قال بعضهم:

حَمَلْتُ العَصَــا لا الضّـعْفَ عَليَّ ولا انِّي نَحَلْتُ مِن

أوْجَبَ حَمْلَهَا الكِبَـــــــــــــــــرْ
ولكِنَّنِي ألْـــزمْتُ نَفْسِـــيَ لأعْلِمَهَا أنَّ المُقْيِمَ عَلى حَمْلَهَا سَـــــــــــــــــفَرْ

قال بعض أصحاب وكيع بن الجـراح: كـان لا ينـام حتى يقرأ ثلث القـرآن ثم يقـوم في آخر الليل فيقـرأ المُفَصَّلَ، ثم يجلس فيأخذ في الاسـتغفار حـتى يطلع الفجر فيصلي ركعتين.

وعن عاصم قال: سمعت شـقيق بن سـلمة يقـول وهو سـاجد: رب اغفـرْ لي، رب اعـفُ عـني إن تعـفُ عــني تعف عــني تطــوُّلاً من فضــلك، وإن تعــذبني تُعـذبني غـير ظـالم لي، قـال: ثم يبكي حـتى أسـمع نحيبه من وراء المسجد.

عن خيثمة قال: كان يُعجبهم أن يمـوت الرجل عند خيرٍ يعمله إما حج، وإما عمرةٌ وإما غزاة، وإما صــيام رمضان.

قـــال الربيع بن أبي راشد وقد رأى رجلاً مريضًـــا يتصدق بصـدفة فقسـمها بين جيرانـه، فقـال: الهـدايا أمــام الزيــارة فلم يلبث الرجل إلا أيامًا حــتى مــات، فبكى عند ذلك الربيع بن أبي راشـــد، وقـــال: أحسن والله بــالموت وعلم أنه لا ينفعه من ماله إلا ما قــدم بين يديه.

قال أحمد بن عبدالله بن يونس: كـان معـروف بن واصل التيمي إمام مسجد بني عمرو بن سعد.

قيــل: إنه كـان يختم القــرآن في كل ثلاث سـفرًا وحضرًا وأنه أم قومه ستين سنة لم يسهُ في صـلاته؛ لأنها كانت تهمُّه.

وقال عبـدالملك بن أبجـر: ما من النـاس إلا مُبتلى بعافية ليُنظر كيف شُــكْرُه أو مُبْتَلى ببليَّةٍ ليُنظر كيف صبرُه.

وفي الخـبر يـأتي على النـاس زمـان يكـون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولـده يُعيرونـهُ بـالفقر ويكلفونه ما لا يطيق فيدخل في المداخل التي يذهب فيها دنه فيهلك، قلت: هذا حاصل في عصرنا فتأمل.

عن معمر مؤذن سُليمان التيمي، قـال: صـلّى إلى جنبي سُليمان التيمي العشاء الآخرة، وسـمعته يقـرأ: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**﴾.

قـال: فلما أتى على هـذه الآية ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَـةً سِيئَتْ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾جعل يُرَدِّدُهَا حتى خـفَّ أهل المسجد وانصرفوا، قال: فخرجت وتركتُه.

قال: وعدت لأذان الفجر فإذا هو في مقامه، قـال: فتسمَّعْتُ، فإذا هو لم يجزها وهو يقـول: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾.

وقيل لــه: أنت أنتَ (أي يثنـون عليه)، قـال: لا تقولـوا هكـذا لا أدري ما يبـدو لي من ربي عز وجـل، سـمعتُ الله يقـول: ﴿**وَبَـدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَـا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾.

ولمَّا حضـرهُ المـوتُ قـال لابنـه: يا مُعْتَمِـرُ حـدِّثني بـالرُّخَصِ لعلي ألقى الله عـزَّ وجل وأنا حسـنُ الظَّن به.

عن الأعمش قـال: قـال عمـرو بن عُتبة بنُ فَرْقَد سَألْتُ الله ثلاثًا فأعطاني اثنتين وانتظر الثالثة، سألته أن يُزهِّدني في الـدنيا فما أبـالي ما أقبل وما أدبـر، وسألته أن يُقوِّيْني على الصلاة فرزقني منها، وسألته الشهادة فأنا أرجوها.

كـان طلحة بن مُصـرِّف يقـول في دعائـه: اللهم اغفر لي ريائي وسُمعتي.

قال خُليد العصري: كلنا قد أيقن بالموت وما نـرى له مستعدًا، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً.

وكلنا قد أيقن بالنـار وما نـرى لها خائفًـا، فعلام تعرجون، وما عسيتم تنتظرون، الموت فهو أول وارد عليكم من الله بخير أو بشر.

إخواني، إنكم تغدون وتروحون في آجـال قد غيبت عنكم لا تدرون مـتى تهجم عليكم فالوحا الوحا والنجا النجا فالطالبُ مُسْرِع.

يَجِـدُّ بنا صَـرْفُ الزَّمَـانِ ونَهْـزُلُ	ونُوقَـظُ بالأحْـدَاثِ فيه ونَغْفُـلُ
ومَا النـاسُ إلا ظـاعِنٌ أوْ مُـوَدِّعٌ	ومُسْـتَلبٌ مُسْـتعْجَلٌ أو مُؤجَّلُ
وما هَذِهِ الأيامُ إلا مَنَـازِلٌ فَنَـاءٌ مُلحٌ مَا يُغِبُ جميْعَنَا	إذا مَا قَطَعْنَا مَنْـزلاً بَـانَ مَنْـزلُ
وكم صَـاحِبٍ لي كنْتُ أكـرهُ فَقْـدَهُ	إذا عـاشَ منَّا آخِـرٌ مَـاتَ أوَّلُ
	تَسَـلَّمَهُ منِّي الفَنَـاءُ المُعَجَّلُ

اسمعوا عظة الزمان إن كنتم تسمعون، وتـأملوا تقلُّب الأحوال إن كنتم تُبصرون.

قال يحيى بن معاذ: لو سمع الخلائق صوت النياحة على الدنيا من ألسنة الفناء لتساقطت القلـوبُ منهم حزنًا.

ولو رأت العقولُ بعينِ الإيمان نُزْهَـةَ الجنـةِ لَـذَابِتِ النُفوسُ شوقًا إليها.

ولو أدركت القلـوبُ المحبـةَ لخالقِها لتخلَّعَتْ مَفَاصِـلُهَا ولها فسـبحان من أغفل الخليقة عن كُنْـهِ هذه الأشياء وألهاهُم الوصف عن حقائق هذه الأنباء.

من نَالَ من جَوهَرِ الأشياء بُغْيَتَـهُ	يأسَى ويَحْقِرُ قَومًا حَظُهُم عَـرَضُ
إني لأعْجَبُ مِن قـومٍ يشـغُهُمُ	حُبُّ الزَّخَـارِفِ لا يـدرُونَ مَا الغـرضُ

ألا عُقُـــــــــول ألا أحْلامٌ بَلَى عُقُــــــولٌ وأحْلامٌ بها تَزْجُــــــــــــــرُهُمُ مَــــــــــــــــــرَضُ

اللهم تقبل توبتنا، واغسل حوبتنـا، وأجب دعوتنـا، وثبت حُجَّتَنَـا، واهْد قُلوبنـا، وسـدِّدْ ألسـنتنا، واسْـلُلْ سخيمةَ صُدُورنا.

واغفر لنا ولوالــدينا وجميع المســلمين برحمتك يا أرحم الـراحمين، وصل الله على محمد وآله وصـحبه أجمعين.

فوائد ومواعظ

اعلم يا أخي، أن النـاس عند المـوت ثلاثة أقسـام، **الأول**: ذو بصيرة علم أن الإنسـان وإن طـال عمـره في الــدنيا فهو كخطفة بــرق لمعت في الســماء ثم عادت للاختفاء، فلا يثقل على العاقل اللبيبي الخُـروج من الـدنيا إلا بقـدر ما يفوته من خدمة ربه عز وجـل، والازديـاد مِن ما يقربه إليـه، والإشـفاق مما يقـول أو يقال له.

كما قال بعضهم لمَّا قيل له: لِمَ تجزع؟ قــال: لأني أسـلُكُ طريقًا لم أعهـدْهُ، وأقــدم على ربي جل وعلا ولا أدري ما أقول وما يقال لي.

ومثْلُ هذا الشخص لا ينفُر من الموت، بل إذا عجزَ عن العبادة ربَّما أشتاقَ إليه.

وقال بعضُهم في مناجاته: إلهي إني سألتُكَ الحياة في دار الممـات فقد رغبتُ في البعد عنـك، وزهـدتُ في القرب منك.

فقد قــال نبيُك وصــفيُك ﷺ: «مَنِ أحَبَّ لِقــاءَ الله أحَبَّ الله لِقَاءَهُ ومَن كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ الله لقاءه».

الثـاني: رجــلٌ رديء البصــيرة مُتلطخ الســريرة مُنهمكٌ في الدنيا مُنكرٌ للبعث، قد رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها ويئس مِن الآخرة.

فهذا مصيرهُ كما ذكر اللــه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُــوا بِالْحَيَــاةِ الــدُّنْيَا وَاطْمَــأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَـا غَـافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَـأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾.

القسم الثـالث: مَن خلطـوا عملاً صـالحًا وآخر سيئًا واعـترفوا بـذنوبهم، وهـؤلاء أيضًـا مصـيرهم كما ذكر اللــه، قــال الله جـلَّ وعلا وتقــدس: ﴿**وَآخَـرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُـورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

ثم اعلم أن طول العمر محبوب ومطلوب إذا كـان في طاعة اللـــه؛ لقوله –عليه الصـــلاة والســـلام-: «خيركم من طـال عمـره وحسُـن عمله» وكلما كـان العمر أطـول في طاعة اللـه، كـانت الحسـنات أكـثر والدرجات أرفع.

وأما طوله في غـير طاعـة، أو في المعاصـي، فهو شر وبلاء، تكثر السيئات، وتضاعف الخطيئات.

ومن زعم أنه يحبُ طول البقاء في الدُنيا ليستكثر من الأعمـال الصـالحة المقربة إلى الله تعـالى، فـإن كان مع ذلك حريصًـا عليها ومُشــمرًا فيها ومجانبًا لما يشغل عنها من أمور الدنيا فهو بالصادقين أشبه.

وإن كان متكاسـلاً عنها ومُسَـوِّفًا فيها أي الأعمـال الصــالحة، فهو من الكــاذبين المتعلِّلِين بما لا يُغــني عنه.

لأن من أحب أن يبقى لأجل شيء وجدته في غاية الحرص عليه مخافةَ أن يفوتهُ ويُحال بينُه وبينَه.

ولاسيَّمَا والعمل الصالح محَلُّه الــدنيا ولا يمكن في غيرها؛ لأن الآخرة دارُ جزاء وليست بدار عمل.

فتفكر يا أخي في ذلك عسى الله أن ينفعنا وإيَّاك واستعن بالله واصـبر واجتهد وشـمِّر وبـادر بالأعمـال الصالحة قبل أن يُحال بينك وبينها فلا تجد إليها سبيلاً.

وكُنْ حـذر من مفاجـأة الأجل فإنك غـرض للآفـات وهدفٌ منصوبُ لسهام المنايا وإنما رأسُ مالَك الـذي يمكنُكَ إن وفَقَكَ الله أن تشتري به سـعادة الأبد هـذا العُمْر.

قـــال الله جل وعلا: ﴿**أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَـــذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ** ﴾الآيـة، فإيَّاك أن تنفـق أوقاتـه وأيامـهُ وساعاته وأنفاسَه فيما لا خير فيه ولا منفعـة فيطـول تحسُّركَ وندَمُك وحُزنُكَ بعد الموت.

إذا كـــــان رأسُ المـــــالِ عُمْـــــــرِكَ فــــــاحْتَرِزْ
عليه من الإنفاقِ في غَيْـرِ واجِبِ

قال محمد بن القاسم خادم محمد بن أسلم: قال محمد بن أسلم: مالي ولهذا الخلق كُنتُ في صلب أبي وحْدي.

ثم صرت في بطن أمي وحْدِي.

ثم دَخَلْتُ الدنيا وحْدِي.

ثم أدخل في قبري وحدي.

ثم يأتيني منكر ونكير فيسألاني وحدي، فإن صرت إلى خير صرت وحدي.

ثم يوضع عملي وذنوبي في الميزان وحدي.

وإن بُعثْتُ إلى الجنة بُعثتُ وحدي.

وإن بُعثتُ إلى النار بعثتُ وحدي، فما لي وللناس.

ثم تفكر ساعة فوقعت عليه الرِّعْدَةُ حـتى خشـيتُ أن يسقُط، قال: وسمعته يحلف كذا وكذا مرة يقول: لو قدرتُ أن أتطوع حيثُ لا يراني ملكاي لفعلتُ.

ولكني لا أستطيع ذلك خوفًا من الرياء.

وكان يدخل بيته ويُغلقُ بابه ويـدخل معه كُـوزًا من ماء فلم أدري ما يصنع.

حتى سمعتُ ابنًا له صغيرًا يحكي بُكاءهُ فنهتهُ أمهُ، فقلتُ لها: ما هذا البكاء؟

فقـالت: إن أبا الحسن يـدخل هـذا الـبيت فيقـرأ القرآن ويبكي فيسمعه الصبي فيحكيه (أي يقلده).

وكـــان إذا أراد أن يُخــرج غسل وجهه واكتحل لئلا يُرى عليه أثرُ البُكاءِ.

بلغ يا أخي الذين يذكرون أعمـالهم للنـاس من حج وصدقة وصيام رياءً وسمعةً.

وكان يصل قومًا ويُعْطِيهم ويكســوهم فيبعثُ إليهم ويقــول للرســول: انظر أن لا يعلمــوا من بعثه إليهم ويأتيهم هو بالليل فيذهب به إليهم ويخفى نفسه.

ولا يعلمـون من الـذي أعطـاهم ولا أعلم أنه وصل أحدًا بأقل من مائة درهم إلا أن لا يمكنه ذلك.

ودخلتُ عليه قبل موته بأربعة أيــام، فقــال: يا أبا عبدالله، أبشر بما صَنَعَ الله بأخيك من الخير قدْ نَـزَلَ بي المـوتُ وقد مَنَّ الله علي أنه ليس عنـدي درهم يُحاسبني الله عليه.

وقد علم ضَعْفِي فإني لا أطيقُ الحسابَ، فلم يـدع عنـدي شـيئًا يُحاسـبني الله عليه ثم أغلق البـاب ولا تأذن لأحدٍ علي حتى أموت.

واعلم أني أخــرجُ ن الـدنيا وليس أدعُ ميراثًا غــير كسائي، وإنائي الذي أتوضأ فيه وكتبي.

وكـانت معه صُـرةٌ فيها نحو ثلاثين درهمًـا، فقـال: هذا لابني أهداهُ إليه قريبٌ له ولا أعلم شيئًا أحَـلَّ لي منه؛ لأن النبي قال: «أنْتَ ومالُك لأبيك».

فكَفِّنُوني منها وابْسُطُوا علي جنازتي لبدي وغطـوا عليَّ بكسائِي وتصدَّقوا بإنائي أعطُـوهُ مسـكينًا يتوضأ منه ثم مات باليوم الرابع ـ رحمه الله ـ.

قيل: إنه مرض قيس أحد الكرماء فاستبطأ إخوانه في عيادتــه، فســأل عنهم، فقــالوا: إنهم يســتحيون لمالكَ عليهم من الدَّين.

فقال: أخزى الله مالاً يمنعُ الإخوان عن الزيارة.

ثم أمر مُناديًا ينادي من كان لِقَيْسٍ عليه مــال فهو منه في حِلّ.

فكُسرتْ عتبةُ داره بالعشى لكثرة عُوَّاده.

وأتى رجل صــديقًا ودقَّ عليه البــاب فلما خــرجَ، قال: لماذا جئتني؟ قال: لأربعمائة درهم دَيْنٌ عَليَّ.

فـدخل الـدار ووزن له أربعمائة درهم وسـلمها له ودخل الدار يبكي.

فقــالت امرأتــه: هلَّا تعللت واعتــذرت حين شــقَّ عليك الإجابة؟

فقـــال: إنما أبكي لأني غفلتُ عنه ولم أتفقَّدْ حَاله حَتى احتاجَ أن يُفاجئني به.

وحكي عن حُذيفة العَـــدَوي قـــال: انطلقتُ يـــوم اليرمُوك لطلب ابن عم لي ومعي شيء من مـاءٍ وأنا أقولُ إن كان به رمـقٌ سـقيته ومسـحت وجهـهُ فـإذا أنابه، فقلتُ: أسقيكَ فأشار إليَّ نَعَمْ فإذا رَجُلٌ يقول: آهْ، فقال ابنُ عمي: انطلقْ إليه.

فجئتُ إليه فــإذا هُــوَ هشــامُ بنُ العــاص، فقلتُ: اسقيكَ فسمعَ هشامُ آخر يقول: آه، فقـال: انطلق به إليه فجئت إليه فإذا هو قد مَات.

ثم رجعت إلى هشام فإذا هو أيضًا قد مات.

ثم رجعتُ إلى ابن عمِّي فإذا هو قد مات.

إلى كَمْ ذا الـــــتراخِي و التَّمَـــــــــــــــادي ... وحــادي المـوت بــالأرواحِ حَــــــــــــــــادي

فلو كُنّا جَمَــادًا لاتَّعَضْــنَا ... ولَكِنّا أشــدُّ من الجَمَــادِ

تُنَادِينا المَنيّــةُ كُـلَّ وقتَ ... وما نُصْــغِي إلى قَـــولِ المُنَــــــــــــادِي

وأنفـــاسُ النُفـــوس إلى انْتِقَــــــــــــــاصِ ... ولكنَّ الذُنَوبَ إلى ازْدَيــادِ

إذا مَا الــــزَّرْعُ قَارَنَــــهُ اصْــــــــــــــفِرَارٌ ... فليسَ دَواؤُهُ غيرَ الحَصــادِ

كأنَّك بالمشيبِ وقد تَبَدَّى ... وبـــالأخرى مُنَاديها يُنــادِي

وقالوا:

قَــدْ قَضَــى فــاقْرَوْا عليه ... سَـلامَكُمُ إلى يَـوْمِ التَّنَـادِ

فقيل له: لم تمسح وجهكَ بـدمُوعِكَ؟ قـال: بلغـني أنه لا تصيب دموع الإنسان مكانًا من جسده إلا حــرم الله عز وجل ذلك المكان على النار.

وقال: قلبُ التائب بمنزلة الزُجَاجة يُؤثِّر فيها جميعُ مَا أصـابها، فالموعظة إلى قلـوبهم سـريْعة وهُمْ إلى الرقة أقرب.

فداوُوا القلوب بالتوبة فلرُبَّ تائب دعته توبتُـهُ إلى الجنة حـتى أوفدتْـهُ عليهـا، وجالسـوا التـوابين، فـإن رحمة الله إلى التوابين أقرب.

سـمع المسـعودي رجُلاً يقـولُ: أين الزاهـدون في الدنيا الراغبون فيما عند اللـه؟ فقـال: اقلب المعـنى وضع يدك على من شئت.

عن صالح المـري، قـال: كـان عطـاء السـلمي قد أضــرَّ بنفسه حــتى ضُــعفَ قــال: قلتُ لــه: إنك قد أضْــرَرْتَ بنفســكَ وأنا مُتَكَلِــفٌ لَــكَ شَــيئًا فلا تــردّ كرامَتي، قال: أفعل.

قال: فاشتريت سويقًا من أجودِ ما وجـدتُ وسـمنًا فجعلتُ له شُريبةً ولينتُها وأرسلتُها مع ابني وكوزًا من ماءٍ، وقُلتُ له: لا تبرح حتى يشربَهَا، فرجع، فقال: قد شربهَا.

فلما كــــان من الغد جعلتُ له نحوها فرجَّعَها ولم يشربْها فأتيتُه فلمتُه، فقلتُ: سـبحان الله رددت عليَّ كرامــتي إن هــذا مما يُعيْنُــكَ، ويقويك على الصــلاة وعلى ذكر الله.

قــال: يا أبا بشر لا يسُــوْءُكَ الله قد شــربتُها أولَ مرة، فلما كـان الغـدُ راودتُ نفْسي على أن تسـيغهَا فما قَدِرْتُ ذلك.

إذا أردتُ أن أشربها ذكـرتُ هـذه الآيـة: ﴿**يَتَجَرَّعُـهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ المَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَـا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِه عَذَابٌ غَلِيظٌ**﴾.

فبكى صالح عند هذه، وقـال: قلتُ لنفسـي: أراني في وادٍ وأنت في آخر.

وقـال العلاء بن محمـد: دخلتُ على السـلمي وقد غُشي عليه، فقلت لامرأته: ما شأن عطـاء؟ فقـالت: سجَّرتْ جارتنا التنور فنظر إليه فخرَّ مُغْشيًا عليه.

وقـــال: إذا ذكـــرتُ أهل النـــار وما يـــنزل بهم من عذاب الله وعقابه تَمثَّلَتْ لي نَفْسِي بهم.

فكيف لِنَفْسٍ تغـلُّ يــدُها إلى عُنُقها وتسـحبُ في النار، ألا تصيح فتبكي!

وكيف لنفس تعذب ألا تبْكِي! وما أقل غنـاءُ البُكـاء عن أهله إن لم يرحمهم الله!

وقـال له بشر بن منصـور: ما هـذا الحـزن؟ قـال: ويحـكَ المـوت في عُنقي والقـبر بيـتي، وفي القيامة مــوقفي، وعلى جسر جهنم طــريقي، وربي ما أدري ما يصنع بي، ثم تنفَّسَ فغُشي عليه.

وقـــال عُمر بن درهم لعطـــاء: حـتى مــتى نســهو ونلعب وملك الموت في طلبنا لا يَكُـفَ فصـاح عطـاء صيحَةً خَرَّ مَغْشيًا عليه.

واجتمع الناس وقعد عمر عند رأسه فلم يزل على حاله حتى المغرب ثم أفاق فحُمل.

قيل: إن أبا عثمان المنتخب أنشد نـور الـدين أبياتًا تتضــمنُ ما هو مُتلبسٌ به نـــور الـــدين في ملكه من المكـوس والضـرائب وفيها تخويف وتحـذير شـديد له كانت هذه الأبيات سببًا لوضعها عن الناس:

مِثِّلْ وُقُوْفَكَ أيها المغْرُوْرُ	يـــوم القِيَامَـــةِ والســـماءُ تَمُــــــــــــــورُ
مـاذا تقـولُ إذا نُقِلْتَ إلى البِلِىَ	فرْدًا وجَاءَكَ مُنكَرٌ ونَكِيْـرُ
مــــاذا تقـــولُ إذا وقَفْتَ بِمَوْقِـــــــــــفٍ	فَـــرْدًا ذَلِيْلاً والحســـابُ عَسِـــــــــــــيْرُ
وتَعَلَّقَتْ فِيْــكَ الخُصُــوْمُ وأنْتَ في	يــوم الحِسَــابِ مُسَلْسَــلٌ مَجْـــــــــــرُوْرُ

وتَفَـــرَّقَتْ عَنْــكَ الجُنُــودُ وأنْتَ في ... ضِيْقِ القُبُورِ مُوَسَّدٌ مَقْبُورُ
وَوَدِدْتَ أنـــــكَ مَا وَلِيْتَ ولايَــــةً ... يَوْمًا ولا قالَ الأنامُ أ مِـيرُ
وبَقِيْتَ بَعْــدَ العِــزِّ رَهْنَ حَفِيْــــرةً ... في عَــالَم المــوتى وأنْتَ حَقِيْــــرُ
وحُشِــــرْتَ عُرْيَانًا حَزِيْنًا باكِيًا ... قَلقًا ومالــكَ في الأنــامِ مُجيْــــرُ
أرَضِــيْتَ أنْ تحْيَا وقَلْبُــكَ دَارسٌ ... عَـافي الخَـرَابِ وجْسْـمُكَ المَعْمُــــوْرُ
أرَضِيْتَ أنْ يُحْظَى سِـوَاك بقُرْبِـــــهِ ... أبدًا وأنْتَ مُعَـذَّبٌ مَهْجُـوْرُ
مَهِّدْ لِنَفْسِـــكَ حُجَّةً تَنْجُو بهَا ... يَـوْم المعـادِ وَيْـومَ تَبْـدُوْ العُـــــوْرُ

فلما سمع نور الدين هذه الأبيات بكى بكاءً شديدًا وأمر بوضع الضــرائب والمكـــوس في ســائر البلاد وكتب إلى الناس ليكـون منهم في حل مما كـان أخذ منهم، ويقول لهم: إنما صرف ذلك في قتال أعدائكم من الكفــرة والــذب عن بلادكم ونســائكم وأولادكم، وكتب ذلك إلى ســائر ممالكه وبلــدان ســلطانه وأمر الوعاظ أن يستحلوا له من التجـار، والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

قـال محمد بن واسـع: ما آسى مِن الـدنيا إلا على ثلاث: صــاحب إذا اعــوججت قومــني، وصــلاة في جماعة يُحمل عني سهوها وأفوزُ بفَّضْلِها، وقــوتٍ من الــدنيا ليس لأحد فيه منــة، ولا لله عز وجل علي فيه تبعة.

كان بالكوفة رجل قد خـرج عن دُنْيًا واسـعةً وتعبَّد، فقــال الفضــيل لعبدالله بن المبــارك: إن هاهنا رجلاً

من المُتعبدين قد خرج عن دُنيا واسعة فامض بنا إليه ننظر عقلـــه، فجـــاءوا إليه وهو عليل وعليه عبـــاءةٌ وتحت رأسه قطعةُ لبنة فسلم عليه ابن المبـارك، ثم قـال لـهُ: يا أخي، بلغنا أنه ما تـرك عبـدٌ شـيئًا لله إلا عوضُهُ الله ما هو أكثر منه فما عوَّضَكَ؟

قـــال: الرِّضَـــا بمَا أنا فيـــه، فقـــال ابنُ المبـــارك: حَسْبُكَ، وقاما على ذلك.

وأوصى بعضـهم أخًا له في اللـه، فقـال: لا يُلْهِيَنَّكَ النـــاس عن ذات نفســـك، فـــإن الأمر يخلص إليك دونهم ولم أر شـيئًا أحسن طلبًا ولا أسـرع إدراكًا من حسنة حديثة لذنب قديم.

قال خليد العصري: كلنا قد أيقن بالموت وما نـرى له مستعدًا، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نـرى لها عـاملاً، وكلنا قد أيقن بالنـــار وما نـــرى له خائفًـــا، فعلام تعرجون.

وما عسيتم تنتظرون المــوت فهو أول وارد عليكم من الله بخـير أو شـر، فيا اخوتـاه، سـيروا إلى ربكم سيرًا جميلاً.

وقـــال آخـــر: ابن آدم لو رأيت يســـيرَ ما بقي من أجلك، لزهدتَ في طـول ما ترجُو من أملك ولـرغبتَ في الزيادة من عملك، ولقصَّرْتَ مِن حِرْصِكَ وحِيَلِك.

وإنما يَلْقَاكَ نَـدَمُكَ إذا زَلَّ قـدَمُك، واسْلِمكَ أَهْلُـكَ وحَشَمُكْ، وتَبرَا منك القريب، وانْصَرفَ عنكَ الحَبيْب، فلا أنت إلى دُنْياك عَائد ولا في حسناتك زائد.

أبَـــدًا تُفهِّمُنَا الخُطُـــوبُ كُرُوْرَهَا ... ونَعُـودُ في عَمَـــهٍ كَمَنْ لا يَفْهَمُ

تَلْقَى مَسَـامِعَنا العِظـاتُ كأنما ... في الظـــلِ يَـــرْقُم وَعْظَه مَن يَـــــــــــــرقُمُ

وصَـــحَائفُ الأيـــام نحنُ سُـــــــــــطَورها ... يُقْـــرَا الأخِـــيرُ ويُـــدْرج المتقـــــــــــدِّمُ

لَحْـــدٌ على لَحْـــدٍ يُهَـــالُ ... وبأعَظُم رِمَمٌ عليها أعْظُمُ

ضَـــــــــــــرِيحُهُ عـــادٌ أطـــاحَهم الحِمَـــامُ
مَنْ ذا تَوقَّاه المنـــــــونُ وُجُـــــــــــــــرْهمُ
وقَبْلنَا والمُنْذِرَانِ ومَالِكٌ ومُتَمِّمُ
والتُّبَّعـانِ تَلاَحقَا ومُحَـرِّقٌ

رأي مالك بن دينـار رَجُلاً يُسِـيءُ في صـلاته، فقال: ما أرحمني لعياله.

فقيل له: يُسيءُ هذا صلاته وترحم عياله، قال: إنه كبيرهم ومنه يتعلمون.

وقـال سـهل بن عبداللـه: اسـتجلب حلاوة الزهد بقصر الأمـل، واقطع أسـباب الطمع بصـحة اليـأس، وتعرض لرقة القلب بمجالسة أهل الذكر.

واسـتفتح بـاب الحـزن بطـول الفكـر، وتـزيَّن لله بالصدق في كل الأحوال.

وإيـــاك والتســـويف فإنه يغـــرقُ الهلكى، وإيـــاك والغفلة فإن فيها سواد القلب، واستجلب زيادة النعم بعظيم الشكر.

كان السلف أحرص ما يكونون على أوقاتهم؛ لأنهم يعرفـون قيمة الـوقت وأنه إذا فـات لا يُسـتدرك فهو أعز شيء يُغار عليه أن ينقضي بدون عملٍ صالح.

فــالوقت ينقضي وينصـرم بنفســه، فمن غفل عن نفسه تصـــــرمت أوقاته وعظم فواته واشـــــتدَّت حسراتُه.

فكيف حالُه إذا علم عند تحقق الفـوات مقـدار ما أضاع، وطلب الرجُوع فحيل بينه وبينه، وطلب تنــاول الفائت، وكيف يُردُ الأمسُ الفائت في اليوم الجديد.

قـال الله جل وعلا: ﴿**وَقَـالُوا آمَنَّا بِـهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**﴾ ومنع مما يحبه ويرضيه.

وعلم أن ما اقتنـــــاه ليس للعاقل مما ينبغي أن يقتنيه، وحيل بينه وبين ما يشتهيه.

فيا لها من حسرة ما إلى رد مثلها من سبيل.

كـان الحسن يقـول: أصـول الشر ثلاثـة: الحـرص، والحسد، والكبر.

فــالكبر منع إبليس من الســجود لآدم، والحــرص أخرج آدم من الجنة، والحسد حمل ابن آدم على قتل أخيه.

وقال غـيره: ليس لثلاث حيلة فقر يُخالطه كسـل، وخُصومة يُداخلها حسد، ومرض يُداخله هرم.

ثلاثة ينبغي مــداراتهم: الملك المســلط، والمــرأة الحمقى، والمريض.

وقــال آخــر: لا نــوم أثقل من الغفلة ولا رق أملك من الشهوة، ولولا ثقل الغفلة لم تظفر بك الشهوة.

وقال آخر: يا ابن آدم، مالك تأسف على مفقــود لا يرده عليك الفوت، ومالك تفرح بموجـود لا يتركه في يديك الموت.

وكان يقول: ذنوبٌ مزدحمة على عاقبةٍ مبهمةٍ.

إلهي أرحمني لقدرتك علي ولحاجتي إليك.

إلهي ضيعت بالذنب نفسي فارددها بـالعفو عَليَّ يا أجود الأجودين.

يا من يغضب على من لا يســــــأل لا تمنع من قد سألك.

وقيل لآخر وهو يجود بنفسه، قل، فقال: اللهم إني نصحت خلقك ظـاهرًا، وغششت نفسي باطنًـا، فهب لي غشي لنفسي، لنُصْحِي لخَلْقِكَ ثم خرجت روحه.

وقــال آخــر: من لم يــزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسُّنة ولم يتهم خواطره فلا تعده في ديوان الرجال.

وقال: حسن أدب الظـاهر عنـوان على حسن أدب البــاطن؛ لأن النــبي قــال: «لو خشع القلب هــذا لخشعتْ جوارحُه».

وسُئل عن الرجال، فقال: القائمون بوفاء العهــود، قـال الله تعـالى: ﴿**رِجَالٌ صَـدَقُوا مَـا عَاهَـدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾.

من نظر في سير السَّـلف عـرف تقصـيره وتخلفه عن درجات الرجال.

وقيل لحمـــدون: ما بـــال كلام الســـلف أنفع من كلامنا، قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفـوس ورضا الـــرحمن، ونحن نتكلم لعز النفـــوس وطلب الدنيا ورضا الخلق.

قُلتُ: فكيف لو رأى أهل هـذا الزمـان وما أصـيبوا به مِن التكَـــالُب على الـــدنيا والافتنــــان بزخارفِها ومغرياتها فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصــــــحبه وسلم.

فصل

قــال شــيخ الإســلام: القلبُ لا يصــلح ولا يفلح ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يســــــكن ولا يطمئن إلا بعبـــادة ربه وحُبه والإنابة إليـــه، ولو حصل له كُل ما يلتذُ به من المخلوقات لم يطمئنَّ ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هُو معبـــــــودُهُ ومحبوبُه ومطلوبُـه، وذلك يحصل له الفـرح والسـرور واللــذةُ والنعمةُ والسُكونُ والطمأنينة.

وهــذا لا يحصل إلا بإعانة الله لــه، ولا يقــدر على تحصيل ذلك له إلا اللـه، فهو دائمًا مفتقـرٌ إلى حقيقة إيَّاك نعبدُ وإيَّاك نستعين.

فهو مفتقـرٌ إليه من حيث هو المطلـوب المحبـوبُ المعبودُ ومن حيثُ هو المُستعانُ به المتوكلُ عليه.

فهو إلهه لا إله لـهُ غـيرهُ وهو ربُّهُ لا ربَّ له سـواهُ ولا تتمُ عبوديتُه إلا بهذين.

وقـال: إعـراض القلب عن الطلب من الله والرجا له يوجب إنصـراف قلبه عن العبودية لله لاسـيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق.

بحيث يكون قلبه معتمدًا إما على رئاسـته وجنـوده وأتباعه وإما على أهله وأصـدقائه وإما على أمواله أو غـيرهم ممن مـات أو يمـوت، قـال تعـالى: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ**﴾.

وقـال: على كل مـؤمن أن لا يتكلم في شـيء من الـدين إلا تبعًا لما جـاء به الرسـول ﷺ ولا يتقـدم بين يديه.

بل ينظر ما قـال فيكـون قوله تبعًا لقولـه، وعمله تبعًا لأمـره، فمن قـول الله وقـول رسـوله يتعلم وبه يتكلم.

وكل من خـالف ما جـاء به الرسـول لم يكن عند علم بذلك ولا عدل، بل لا يكون عنــده إلا جهل وظلم وظن وما تهـوى الأنفس ﴿**وَلَقَـدْ جَـاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الهُدَى**﴾.

وقال ــ رحمه الله ــ: من ابتلي ببلاءٍ قلـبي أزعجه فأعظمُ دواء له قوةُ الالتجـاء إلى الله ودوامُ التضـرع والدُعاء بـأن يتعلم الأدعية المـأثورة ويتـوخى الـدُعاء في مظان الإجابة.

مثــــلُ آخر الليل وأوقــــات الأذان والإقامة وفي سجوده وأدبار الصلوات ويضُمُّ إلى ذلك الاستغفار.

وليتخذْ وردًا من الأذكار طـرفي النهـار وعند النـوم وليصبرْ على ما يعرضُ له من الموانع والصوارف.

فإنه لابُـدَّ أن يُؤيـده الله بـروح منه ويكتب الإيمـان في قلبه.

وليحــرص على إكمــال الفــرائض من الصــلوات الخمس بباطنه وظاهره فإنها عمود الدين.

وليكن هجــيراه لا حــول ولا قــوة إلا بالله العلي العظيم.

فإنه بها يحمل الأثقـال ويكابد الأهـوال وينـال رفيع الأحوال.

ولا يسأم من الدعاء والطلب، فإن العبد يُسـتجاب له ما لم يعجل.

وليعلم أن النصر مع الصبر وأن الفـرج مع الكـرب وأن مع العُسر يسرا.

وقـــال ابن القيم: مراقبة الـــرب علم العبد وتيقنه بـــإطلاع الله على ظـــاهره وباطنه فاســـتدامته لهـــذا العلم واليقين هي المراقبة.

وهي ثمرة عمله بأن الله سبحانه رقيب عليه ناظر إليه ســـــامع لقوله ومطلع على عمله كل وقت وكل لحظة.

قـال النـبي ﷺ: «ذاقَ طَعْمَ الإيمـان من رضى بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً».

وقـال: «من قـال حين يسـمع النَّداءَ رضـيتُ بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا غفرت ذنوبه».

وهذا الحديثان عليهما مدار مقامات الـــدين وإليهما يَنْتَهِي.

وقد تضَـــــمَّنَهَا الرضا بربوبيته ســـــبحانه وألوهيته والرضا برسوله والرضا بدينه والتسليم له.

ومن اجتمعت له فهو الصـديق حَقًـا، وقـال: الأدبُ اجتماعُ خصال الخير في العبد، وهي ثلاثة أنواع:

أدب مع الله بأن يَصُون قلبـهُ أن يلتفتَ إلى غـيره أو تتعلّق إرادته بما يمقتُه عليـه، ويصـون معاملته أن يشوبها بنقيصه.

وأدب مع الرسـول بكمـال الانقيـاد، وتلقى خـبره بالقبول والتصـديق وأن لا يعارضه ب غـيره بوجه من الوجوه.

وأدب مع الخلق بمعـاملتهم على اختلاف مـراتبهم بما يليق بهم ويناسب حالتهم.

وقال ـ رحمه الله ـ: المقبـول من العمل قسـمان، أحــدهما: أن يُصــلي العبد ويعمل ســائر الطاعــات، وقلبه متعلق بالله عز وجل ذاكر الله على الـــــدوام فعمله في أعلى المراتب.

الثاني: أن يعمل العبد الأعمال على العادة والغفلة وينوي بها الطاعة والتقرب إلى الله.

فأركانه مشـــغولة بالطاعة وقلبه لاه عن ذكر الله وكذلك سائر أعماله، فهذا عمله مقبُـولٌ ومُثـابٌ عليه بحسبه.

وقال العارف: لا يأمر الناس بـترك الـدنيا فـإنهم لا يقـدرون على تركها ولكن يـأمرهم بـترك الـذنوب مع إقامتهم على دنياهم.

وكيف يؤمر بفضيلة من ترك فريضـة، فـإن صـعُبَ عليهم ترك الذنوب فاجتهد أن تحبب الله إليهم بــذكر نعمه وصفات كماله.

فـإن القلـوب مفطـورة على محبتـه، فـإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والإقلال منها.

لا شيء أفْسَدَ للأعمال من العُجْبِ ورؤيَةِ النفس.

ولا شـــيء أصـــلح لها من شـــهود العبد منة الله وتوفيقه والاسـتعانة به والافتقـار إليه وإخلاص العمل له.

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصـــــحبه وسلم.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

العقبات التي يتدرج منها الشيطان لإغواء العبد:

العقبة الأولى:

عقبة الكفر بالله ولقائه وبصـــــــفات كماله وبما أخــبرت به رســله عنــه، فإنه إن ظفر به في هــذه العقبة بردت نار عداوته واستراح.

فـإن اقتحم هـذه العقبة ونجا منها ببصـيرة الهداية وسلم معه نور الإيمان طلبه على.

العقبة الثانية:

وهي عقبة البدعة إما باعتقــاد خلاف الحق الــذي أرسل الله به رسوله وأنزل به كتابـه، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله، من الأوضـاع والرسـوم المحدثة في الدِّين التي لا يقبل الله منها شيئًا.

والبــدعتان في الغــالب متلازمتــان قل أن تنفك إحداهما عن الأخرى، كما قال بعضهم: تـزوجت بدعة الأقـوال ببدعة الأعمـال، فاشـتغل الزوجـان بـالعرس فلم يفجأهم إلَّا وأولاد الزَّنا يعيشون في بلاد الإسلام، تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى.

وقـال شـيخنا: تـزوجت الحقيقة الكـافرة بالبدعة الفاجرة فتولّد بينهما خسران الدُّنيا والآخرة.

فـإن قطع هـذه العقبة وخلص منها بنـور السُّـنة واعتصم منها بحقيقة المتابعة وما مضى عليه السلف الأخيار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

وهيهـات أن تسـمح الأعصـار المتـأخرة بواحد من هـذا الضـرب، فـإن سـمحت به نصب له أهل البـدع الحبائل ويغوْه الغوائل، وقـالوا: مبتـدع محـدث، فـإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه على:

العقبة الثالثة:

وهي عقبة الكبائر، فإن ظفر فيها زينّها له وحسّنها في عينه وسوّف به وفتح له باب الإرجـاء، وقـال لـه: الإيمان هو التصديق نفسه فلا تقدح فيه الأعمـال (أي أعمال الفسوق والعصيان).

وربما أجـرى على لسـانه وأُذنه كلمـةً طالما أهلك بها الخلق وهي قولــه: «لا يضر مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشـــرك حســـنة» والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه، لمناقضـتها الـدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله.

وصـاحبها لا يتـوب منهـا، ولا يرجع عنها بل يــدعو الخلق إليها، والاجتهاد على إطفاء نور السُّنة.

وتولية من عزله الله ورسوله، وعزل من ولاه الله ورســـوله، واعتبـــار ما ردّه الله ورســـوله، ورد ما اعتبره، وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه وإثبــات ما نفاه، ونفي ما أثبته.

وتكذيب الصادق وتصديق الكاذب، ومعارضة الحق بالباطل وقلب الحقــائق بجعل الحق بــاطلاً والباطل حقًــا، والإلحـــاد في دين اللـــه، وتعميـــةُ الحق على القلوب وطلب العـوج لصـراط الله المسـتقيم، وفتح باب تبديل الدين جملة.

فـإن البـدع تسـتدرج بصـغيرها إلى كبيرهـا، حـتى ينســلخ صــاحبها من الــدين كما تنسل الشــعرة من العجين.

فمفاسد البــدع لا يقف عليها إلا أربــاب البصــائر، والعميان ضـالون في ظلمة العمى ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَـلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾.

فإن قطع هـذه العقبة بعصـمة الله أو بتوبة نصـوح تنجيه منها طلبه على:

العقبة الرابعة:

وهي عقبة الصغائر فكال له منها بالقُفزان، وقـال: ما عليك إذا اجتنب الكبـــائر ما غشـــيت اللمم أو ما علمت أنها تكفَّر باجتنــاب الكبــائر وبالحســنات، ولا يزال يهوّن عليه أمرها حتى يصر عليها.

فيكــون مــرتكب الكبــيرة الخــائف الوجل النــادم أحسن حالاً منه، فالإصــرار على الــذنب أقبح منه ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

وقد قال ﷺ: «إيَّاكم ومحقرات الذنوب» ثم ضــرب لــذلك مثلاً بقــوم نزلــوا بفلاة من الأرض فــأعوزهم الحطب، فجعل هــذا يجيء بعــود وهــذا بعــود حــتى جمعوا حطبًا كثيرًا فأوقدوا نارًا وأنضجوا خبزتهم.

فكــذلك فــإن محقــرات الــذنوب تتجمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه.

فـإن نجا من هـذه العقبة بـالتحرز والتحفظ ودوام التوبة والاستغفار وأتبع السَّيئة الحسنة طلبه على:

العقبة الخامسة:

وهي عقبة المباحـات الـتي لا حـرج على فاعلهـا، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، إلى ترك الواجبات.

وأقل ما ينـــال منـــه: تفويته الأربـــاح والمكاسب العظيمة والمنازل العالية، ولو عرف السعر ما فــوَّت على نفسه شيئًا من القربات؛ ولكنه جاهل بالسعر.

فـإن نجا من هـذه العقبة ببصـيرة تامة ونـور هـاد ومعرفة بقدر الطاعات والاسـتكثار منها وقلة المقـام على الميناء وخطر التجارة وكرم المشتري، وقـدر ما يعـــوِّض به التِّجـــار فبخل بأوقاته وضـــنَّ بأنفاسه أن تذهب في غير ربح، طلبه العدو على:

العقبة السادسة:

وهي عقبة الأعمـــــال المرجوحة المفضـــــولة من الطاعـــات فـــأمره بها وحسّـــنها في عينه وزينّها له و أراه ما فيها من الفضل والـربح، ليشـغله بما عما هو أفضل منها وأعظم كسبًا وربحًا.

لأنه لمّا عجز عن تخسـيره أصل الثـواب طمع في تخســيره كماله وفضــله، ودرجاته العاليــة، فشــغله بالمفضـــول عن الفاضل وبـــالمرجوح عن الـــراجح، وبـــــالمحبوب لله عن الأحبّ إليـــــه، وبالمرضي عن الأرضى له.

ولكن أين أصـحاب هـذه العقبـة؟ فهم الأفـراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأوَلْ.

فـإن نجا منها بفقه في الأعمـال ومراتبها عند الله ومنازلها في الفضـل، ومعرفة مقاديرها والتميـيز بين عاليها وســـافلها ومفضـــولها وفاضـــلها ورئيســـها ومرؤوسها وسيدها ومسودها.

فإن في الأعمال سيدًا ومسودًا ورئيسًـا ومرؤوسًـا وذروة وما دونــا، كما في الحــديث الصــحيح: «ســيد الاســتغفار أن يقــول العبــد: اللهم أنت رَبِّي لا إله إلا أنت» الحديث.

وفي الحديث الآخـر: «الجهـاد ذروة سـنا م الأمر» وفي الأثر الآخــر: «إن الأعمــال تفــاخرت فــذكر كل عمل منها مرتبته وفضـــله وكـــان للصـــدقة مزية في الفخر عليهنَّ».

ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصــدق من أولي العلم السائرين على جـادة التوفيـق، قد أنزلـوا الأعمال منازلها وأعطوا كل ذي حقٍّ حقّه.

فإذا نجا منها أحد لم يبق هنـاك عقبة يطلبه العـدو عليها ســوى واحــدة لابد منهــا، ولو نجا منها أحد لنجا منها رسول الله وأنبياؤه وأكرم الخلق عيه.

وهي عقبة تســليط جنــده عليه بــأنواع الأذى باليد واللســـــان والقلب على حسب مرتبته في الخــــير، فكلَّما علتْ مرتبته أجلب عليه العـــدو بخيله وظـــاهر عليه بجنده، وسلَّط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط.

وهــــذه العقبة لا حيلة له في التخلص منهـــا، فإنه كلما جدَّ في الاستقامة والــدعوة إلى الله والقيـام له بأمره جدَّ العدوُّ في إغراء السُّفهاء بــه، فهو في هـذه العقبة قد لَبِسَ لأمة الحرب، وأخذ في محاربة العــدوَّ لله وبالله.

فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين وهي تسمى عبودية المراغمة ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التَّامّــة، ولا شـــــيء أحبُّ إلى الله من مراغمة وليّه لعـــــدوّه وإغاظته له. اهـ.

فصل

كان الصدق في صـدر الإسـلام أساسًـا في القـول والعلم والمعاملـــة، وخصوصًـــا فيما يتعلق بالـــدين وحفظ الحديث.

فقد ورثت عن العلمـــاء الأوائل علـــومُ الـــدين مضبوطة كامِلةً كما أنزلت على رسول الله ﷺ وحدَّث عنها.

وكـان عُلمـاءُ الـدين وجـامعُوا أحـاديث النـبي ﷺ يتحرون صدق المحدث بشكل عجيب.

يدرسون حياته ويتحققـون من أقواله وأعماله وأنه يأكل من كسب يــده ولم يــدخل على ســلطان في صحبة أو وظيفة.

وأنه يُطبقُ تعاليم الدين كاملة ولم تعهد عليه كذبة في حَيَاته، فعندها يُؤخذُ عنه الحديث النبوي.

ومثالُ على ما ذكر عن الإمام أحمد ـ رحمه الله ــ أنه سمع بوجود حديث عند عالم بدمشق مسافر إليه من بغداد حتى وصل دمشق فمكث مُـدَّةً يسـأل عن العالم وعن أخلاقه ومُعاملته وكلامه.

حتى إذا وثق من صدقه أتاه مبكـرًا بعد أن اغتسل وتطيب ولبس أحسن ثيابه إجلالاً للحـــــــديث ولمَنْ يحمله.

ولما اقـــترب من بيته وجد العـــالم خارجًا من بيته يقود حمارهُ وقد كان حمالاً يكتسبُ رزقه.

فرفض الحمار أن يسـير معه فحـاول أن يجـره أو يسوقه بمختلف الوسائل ويأبى الحمار.

فجمع له طــرف جُبته وقدَّمــهُ للحمــار ليُوهمه أنَّ في الجبَّة شعيرًا أو نحوه فتبعه الحمار.

فنظر الإمام أحمد إلى الجبة فوجدها خالية ما فيها شيء.

فترك أحمدُ العـالم والأخذ عنه حيثُ تـبيَّنَ له كذبُه على الحمار.

فلا يُؤتَمَن على الحديث الشريف. اهـ.

وأخطر الكــذب الكــذب على الله ورســله، قــال تعـالى: ﴿**إِنَّمَـا يَفْتَـرِي الكَـذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُـونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ**﴾.

قِيْلَ: إن ربعي بن حراش لم يكذبْ كذْبةً قطْ.

وكان له ابنان عاصيان على الحجاج، فطلبهما فلم يعثر عليهما.

فقيل للحجـاج: إن أباهما لم يكـذب كذبة قـط، لو أرسلت إليه فسألته عنهمـا، فاسـتدعا أباهمـا، فقـال: أين أبناؤك؟

قال: هُما في البيت فاستغرب الحجاج.

وقال لأبيهما: ما حملك على هذا وأنا أريدُ قتلهُما.

فقال: لقد كرهتُ أن ألقى الله تعالى بكذبةٍ، فقال الحجاج: قد عفونا عنهما بصدقك.

أتى الحجاج برجُلين من أصحاب ابن الأشعث فأمر بقتلهما، فقال أحدهما: إن لي عندك يدًا.

قـال: وما هي؟ قـال: ذكر ابنُ الأشـعث يومًا أمَّك فرددتُ عليه، فقال: ومن يشهدُ لـك؟ قـال: صـاحبي هذا فسأله، فقال: نعم (أي صدق).

فقـــــال: ما منعك أن تفعل كما فعل صـــــاحبك (المعنى لِمَ لم تُدافِعْ عَنِّي مِثله).

فقال: بُغضُكَ (أي لأني أبغضُكَ) فقال: أطلقُوا هذا لصدقِهِ وهذا لفعلِهِ فأطلقوهما.

فانظر يا أخي، كيف يُنجي الله الصادقين، قال الله جل وعلا: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُـوا اللَّهَ وَكُونُـوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾**.

تنبيه: اعلم أن الصدق إنما يحسُــن إذا تعلَّق به نفع ولا يلحق ضـــررُهُ بأحـــد، ومن المعلـــوم قبحُ الغيبة والنميمة والسِّعَاية وإن كانتا صِدْقًا.

ولـذلك قيـل: كفى بالسـعاية والغيبة والنميمة ذمًا أنَّ الصدق يقبح فيها.

رحل الإمام أحمد ـ رحمه الله ـــ إلى ما وراء النهر لـيروي أحـاديث ثُلاثيـةً، قيل لـه: إن هنـاك من يرويها ويحفظها فوجد شيخًا يُطعمُ كلبًا، فسـلَّم على الشـيخ فردَّ عليه السـلام، ثم اشـتغل الشـيخ بإطعـام الكلب

فوجد الإمـام أحمد في نفسه حيثُ أقبل الشـيخُ على الكلب ولم يُقبل عليـه، فلما فـرغ الشـيخُ من إطعـام الكلب التفت إلى الإمام أحمد، وقال له: كأنك وجدت في نفسك حيث أقبلت على الكلب ولم أقبل عليــك، قـال: نعم، قـال: حـدثني أبو الزنـاد عن الأعـرج، عن أبي هريـرة: أن النـبي قـال: «من قَطَـعَ رَجَـاءَ مَن ارْتجـاهُ قَطَـعَ اللـهُ رَجَـاءَهُ منه يـوم القيامة فلم يَلج الجنة» وأرْضُنا هذه ليست بأرض كلاب، وقد قصـدني هــذا الكلب، فخفتُ أن أقطع رجــاءهُ، فقــال الإمــام أحمد: هذا الحديث يَكْفِيْني ثم رجع.

مر عبدالله بن جعفر على عبد في بُســـــتان معه ثلاثــةُ أقــراص شـعير، فأتـاه كلب فـرمى إليه بـأول قُرص، ثم رمى بالثاني، ثم بالثالث، فسأله جعفـرُ: ما هُو قُوتُ يومِـكَ؟ فقـال: هو ما رأيتَ، قـال: ما حملك على هـذا؟ قـال: آثـرتُ الكلب على نفسـي؛ لأنه أتى من بعيد جائعًا.

قال: وما تفعلُ في يومك؟ قـال: أطويه بلا طعـام، فاشـترى البُسـتان واشـترى العبد من سـيده وأعتقه ووهبَهُ البُستان.

خـــرج عبدالله بن المبــارك إلى الحج مع جماعة وبعد مسيرهم مرحلة خـرج في الصـباح من الخيمـة، فوجد صــبية آتت إلى مطــرح القمامة وأخــذت منها دجاجة مُلقاةً ميتة وذهبت بها فتبعها عبدالله فوجــدها دخلت في خيمــةٍ مُهلهلة أي خلقة وفيها ولـدٌ صـغير، فقـال لهـا: لِمَ أخـذت الدجاجة الميتـة؟ فقـالت: أنتُم رميتموها، فقال: ألا تعلمين أنه لا يحل أكلها؟ فقالت: إنها تحل لنا لشدة فقرنا، فذهب عبدالله بن المبـارك إلى وكيله، وقال له: ما الذي معكَ؟ قال: ألف دينــار، قـــال: أبق منها ما يُوصِـــلُنا إلى بلـــدنا وادفع للأنـــثى الباقي وسنحُجُّ في العام المقبل إن شاء الله.

دخل محمد بن واسع على أمير وعليه جُبَّةُ صُـوف، فقال الأمير: ما الذي دعـاك إلى لبس هـذه فسـكت، فقال الأمير: لِمَ لَمْ تُجبني؟

فقال: أكره أن أقول زُهْدًا فـأزكي نفسي أو أقـول فقرًا فأشكو ربي.

قــال ابن رجب: دخلــوا على بعض الصــحابة في مرضه ووجهه يتهلّل فسألوه عن سـبب تهلُـلُ وجهـه، فقال: ما من عَمَل أوثـقُ عنـدي من خصـلتين كُنتْ لا أتكلم فيما لا يعنيني، و كان قلبي سليمًا للمسلمين.

أتى جُنْـــدِيٌ إلى بلـــده فوجد إبـــراهيم بن أدهم، فسأله: أين العُمـران؟ فدّله على المقـبرة، فظن أنه يستهزئ به، فضربهُ حتى أدمـاهُ، فقيل للجنـدي: هـذا الأمير بن أدهم، فعاد يعتذر إليـه، فقـال إبـراهيمُ: لمَّا كُنتُ تضـربني كنتُ أسـألُ الله لك الجنـة، قـال: ولِمَ، قـال: لأنك ظلمتـني فصـبرت حين ضـربتني، فخملتُ رجاء الجنة، فكان لك فضلٌ علي فسألك لك الجنة.

ولــولا رواةُ الــدِينِ ضَــاعَ وَأصْــبَحَتْ ... مَعَالِمُه في الآخَرِيْنَ تَبْيـدُ
هُمُـوا هَـاجَرُوْا في جَمْعِهَا وتَبَــادَرُوْا ... إلى كُـلّ أُفْــقٍ والمَــرَامُ كَــؤُدُ
وقــامُوا بتَعْــدِيلِ الــرُّوَاةِ وجَــرْحِهِمْ ... فــدامَ صـحِيْحُ النَّقْـلِ وهُو جَدِيْــدُ
بتَبْلِيْغِهِمْ صَــحَّتْ شَــرَائِعُ دِيْنِنَا ... حُــدُوْدٌ تَحَــرَّوْا حِفْظَهَا وعُهُــودُ
وصَــحَّ لأهْــلِ النَّقْل مِنْهُمْ حِجَــاجُهُمْ ... فلم يَبْقَ إلا عاندٌ وحَقُــوْدُ
وحَسْــبُهُموا أنَّ الصَّــحَابَةَ بَلَّغُــوْا ... وعَنْهم رَوَوْا لا يُسْــتطاعُ جُحُــوْدُ
فَمَن حَـادَ عَن هَـذَا اليَقِيْنِ فمــارقٌ ... مُرِيْــدٌ لإظِهــارِ الشُّــكُوكِ مَرِيْــدُ
ولكنْ إذا جَــاءَ الهُــدَى ... فَلَيْسَ لِمَوْجُــودِ الضَّــلالِ وُجُــوْدُ
فكيــدهُمُو بالمُخْزَيــاتِ

ودَلْيلُـــــــــــةُ مَكيْـــــــــــــــــدُ
وإنْ رَامَ أعْـــدَاءُ الدِيانَـــةِ كَيْـــــــــــــدَهَا

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصــحبه وسلم.

فوائد وحكم ومواعظ وآداب منوعة

العلم صفة يميز المتَّصِـفُ بها تَمْيْـزًا جازمًا مُطابقًا للواقع، وله ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: علم اليقين أو خـبر اليقين، وهو انكشاف المعلوم للقلب بحيث أنه لا يشك فيه.

المرتبة الثانية: مرتبـــةُ عين اليقين، ونســـبتها للعين كنسبة الأولى للقلب.

المرتبة الثالثة: حق اليقين، وهي مباشـــــــرة المعلوم وإدراكه التام.

فالأولى: كعلمك أن في هذا البستان ماء.

والثانية: كرؤيتك إياه.

والثالثة: كالشرب منه.

ومن هـذا قـول حارثة أصـبحتُ مؤمنًا حقًـا، فقـال رســـول الله ﷺ: «إن لكل حق حقيقـــة، فما حقيقة إيمانـك؟» قـال: عـزفتْ نفسي عن الـدنيا وشـهواتها فأسْـهَرتُ ليلي واظمــأتُ نهــاري، وكــأني أنظر إلى عـــرش ربي بـــارزًا، وكـــأني أنظر إلى أهل الجنة يـتزاورون فيهـا، وإلى أهل النـار يتعـاوون فيهـا، قـال النبي ﷺ: «عَـرَفْتَ فـالزم، عَبْـدٌ نَـوَّر الله الإيمـان في قلبه».

مَـــرَّ أبو هريـــرة بســـوق المدينة فوقف عليهـــا، فقال: يا أهل السوق، ما أعجزكم؟ قـالوا: وما ذاك يا أبا هريـرة، قـال: مـيراث رسـول الله ﷺ يُقْسَـمُ وأنتمُ هاهُنا ألا تذهبون فتأخذون نصـيبكم فيـه؟ قـالوا: وأين هو يا أبا هريرة؟ قال: في المسجد، فخرجـوا سـراعًا

ووقف أبو هريــرة لهم حــتى رجعُــوا، فقــال لهم: ما لكم؟ فقـالوا: يا أبا هريـرة، قد أتينا المسـجد فـدخلنا فيه فلم نرى شيئًا يقسم.

فقال لهم أبو هريرة: وما رأيت في المسجد أحدًا؟ قالوا: بلى رأينا قومًا يصلون، وقومًا يقرؤون القـرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام.

فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فـذاك مـيراث محمد ﷺ، رواه الطبراني في «الأوسط».

وعن ابن مسـعود ﷺ، قـال: كيف بكم إذا لبسـتكم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، وتتخذ سُّنة فإن غيرت يومًا، قيل: هذا منكر!!

قال: ومتى ذلـك؟ قـال: إذا قَلَّتْ أُمنـاؤكم وكثُـرتْ أمراؤكم وقَلَّتْ فُقَهاؤكم وكَثُرتْ قُـرَّاؤكم وتُفُقِّهَ لغـير الــدين والتمســت الــدنيا بعمــل الآخــرة، قلتُ: هــذا موجود الآن بكثرة، فتأمل ودقِّق النظر!!

وروى أبو نعيم وغيره عن كميل بن زيــاد عن علي بن أبي طـالب أنه قـال: النـاس ثلاثـة: عـالم ربـاني، ومتعلم على ســبيل النجــاة، وهمج رعــاع أتبــاع كل ناعق يميلون مع كل صـائح لم يستضـيئوا بنـور العلم ولم يلجوا إلى ركن وثيق.

ثم ذكر كلامًا في فضل العلم إلى أن قال: «... إن هاهنا لعلمًا جمًا -وأشـــار إلى صـــدره- لو أصـــبتُ له حملةً، بل أصيبُ لقنًا غير مأمون مُستعملاً آلة الـدين للدنيا ومسـتظهرًا بنعم الله على عبـاده بحُجَجِـهِ على أوليائــه، أو مقلــدًا لحملة الحق لا بصــيرةَ في أحنائه ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شـبهة، ألا لاذَا ولا ذاك، أو منْهُومًا باللَّذة سـلس القيـادِ للشَّـهْوَةِ، أو مُغرمًا بــالجمع والادِّخــار، ليس من رُعــاة الــدين في شيء.

أقـربُ شـبهًا بهما الأنعـامُ السـائمةُ، كـذلك يمـوتُ العِلْمُ بموتِ حَامِليْهِ.

اللهم بلى لا تخلو الأرض من قــائم لله بحججه إمَّا ظاهرًا مشهورًا، أو خائفًا مغمورًا.

لئلا تبطل حُججُ الله وبيناتُه كم ذا وأين أولئك والله الأقلُّون عِدَدًا، الأعظمُون عند الله قدْرًا.

يحفــظُ الله بهم حُججَــهُ وبيِّنَاتــه، حــتى يُوْدِعُوْهَا نُظَراءَهُم، ويزرعُوها في قُلُوب أشباههم.

هجم بهم على حقيقة البصـــيرة، وباشـــروا روح اليقين واستلانوا ما استوعرهُ المـترفُون، وأنسُـوْا بما استوحش منه الجاهِلون.

وصـحبوا الـدنيا بأبـدان أرواحُهـا مُتعلقـة بالمحـل الأعلى، أولئـك خلفـاء اللـه في أرضـه، والـدُعاةُ إلى دينه، آه ألا شوقًا إلى رؤيتهم».

لقد نَشرَوْا العِلْمَ الحَقِيْقِيَّ في الـــــــورى
على حِيْنِ تَغْلي الحَـــرْبُ غَلْيَ المراجـــــلِ

وقَــدْ خَطَبُــوا في الأرضِ بــــالحقِ مِن عَلى
مَنَـــابِرِ عِـــزٍّ مِن مُتُـــون الصَّـــــواهِلِ

أزَالــــوا سَـــــفَاهَات الشُــــعُوب وقَــــابَلُوا
سَفَاسِــفَهم بالمكْرُمَــاتِ الجَلائِلِ

وشــــــادُوا على تلك الرسُــــوم حَضَـــارةً
أقْيِمَتْ على أسِّ التُّقَى والفَضَــــــائِلِ

كــذلكَ قَــدْ كـانتْ أوائـلُ قَوْمِنَا
ألا لَيْتَنَا نَبْـني بَنَـاءَ الأوَائِلَ

ونُحْيِيْ رُسُـــوْمًا غـــادَرُوْا لاعْتِبارِنَا
فأصَـبَح منها دَارِسًـا كُـلُ مَائِلِ

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وسلم.

فصل

قيــل: إن القاضي أبا الطيب صــعد من ســميرية (مركــوب بحــري) وهو في عشر المائة 100 ســنة، فقفز منها إلى الشط.

فقـال له بعض من حضـر: يا شـيخ، لا تفعل هـذا، فإن أعضاءك تضـعف وربما أورثت هـذه القفـزة فتقًا في بطنك، فقال: يا هـذا، إن هـذه أعضـاؤنا حفظناها عن معاصي الله فحفظها الله علينـا، في حـديث ابن عباس قال له : «احفظ الله يحفظك».

قال بعضـهم: من نقَّر على النـاس قـلَّ أصـدقاؤه، ومن نقر على ذُنُوبه طـــال بُكـــاؤُه، ومن نقر على مطعمه طال جُوعُه.

أشد الأشياء تأييدًا للعقل مُشاورة العلمـاء، والأنـاة في الأمور والاعتبار بالتجارب وأشـدها ضـررًا بالعقل الاستبداد بالرأي، والتهاون بالأمور، والعجلة ومشاورة سخفاء العقول والنساء.

العجبُ من ورثة المــــوتى كيف لا يزهـــدُونَ في الدنيا.

أوصى رجل بنيـه، فقـال: يا بـني، عليكم بالنُسـك، فإنه إذا ابتُلي أحـدُكم بالبخـل، قيـل: مقتصد لا يُحبُ الإسراف، وإن ابتلى بالعيَّ، قيـل: يكـره كـثرةَ الكلام فيما لا يعنيـه، وإن ابتُلي بـالجَبْن، قِيـل: لا يُقْـدِمُ على شبهة.

أكـثر ما يكـون الإنسـان غفلـةً عن نعم الله عليه حينما يكون مغمـورًا بتلك النعم ولا يعـرف فضـلها إلا بعد زوالها.

فالإنسـان لا يعـرف فضل هـذه النعمة العظيمة إلا عند فقـدها ومثله السـمع والكلام والشـهوة للطعـام والنكاح وسائر نعم الله التي قال عنهـا: ﴿**وَإِن تَعُـدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا**﴾ فعلى الإنسان أن يسأل الله أن يلهمه ذكره وحمده وشُكره.

والشكرُ يكون بـأمور، **منها**: أن يحمد الله بلسـانه وأن يشـــكره، **ثانيًا**: أن يعتقد أن النعم كلها من الله فضلاً وإحسانًا.

ثالثًا: أن لا يعصي الله فيهـا، **رابعًا**: أن يطيع الله فيها، **خامسًا**: أن يُقبل على طاعة الله بجدٍ واجتهادٍ.

غربةُ الصادقين بين أهل الرِّيَاءَ والنفاق.

وغربة العلماء بين أهل الجهل وسَيِّيِيْنَ الأخلاق.

وغربة علماء الآخرة بين علماء الدنيا الذين سُـلِبُوا الخشية والإشفاق وأَحَبُّوا الشُّـهْرَة و الظهـور والريـاء والسمعة.

وغربة الزاهــدين بين الراغــبين فيما ينفــذُ وليس بباق.

وغربة أهل الصــلاح بين الفُسَّــاق والمرجــةِ وأهل المنكرات، كأهل التلفـاز والفيـديو والكـورة والـدخان وحـــالقِي اللِّحـــا، والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

قـــال أحد العلمـــاء: من صـــفات العـــالم المطبق للشرع: أن يأمن شـره من خالطـه، ويأمل خـيره من صـاحبه، ولا يؤاخذ بـالعثرات، ولا يُشـيع الـذنوب عن غيره، ولا يُفشي سـرَّ من عـاداه، ولا ينتصر منه بغـير حق ويعفو ويصــفح عنــه، ذليــلٌ للحــق، عزيــزٌ في الباطـل، كـاظم للغيظ عمن آذاه، شـديد البغض لِمَنْ عَصَى مولاه.

يجيب السفيه بالصمت عنه، والعالم بالقبول منــه، لا مــداهن، ولا مشــاحن، ولا مختــال، ولا فخــور، ولا حسود، ولا جاف، ولا فـظ، ولا غليـظ، ولا طعـان، ولا لعان، ولا مغتاب، ولا سباب، خَالٍ بيتُهُ من المنكــرات والكافرين والكافرات، يخالط من الإخــوان من عاونه على طاعة ربه ونهــاه عما يكــره مــولاه، ويخــالق بالجميل من لا يـأمن شـرَّهُ، إ بقـاءً على دينـه، سـليم القلب للعبـــاد مِن الغل والحســـد، يغلب على قلبه حسنُ الظن بالمؤمنين في كل ما أمكن فيه العذر.

لا يُحبُّ زوال النعم عن أحد من العبـــاد، يـــداري جهل من عامله برفقــه، إذا تعجب من جهــلِ غــيره ذكر أنَّ جهله فيما بينه وبين ربه أكثر.

لا يتوقع له بائقة، ولا يخاف منه غائلـة، النـاس منه في راحة، ونفسه منه في جهد.

ومن صفته أيضًـا أن يكـون شـاكرًا لله وله ذاكـرًا، دائم الذكر بحلاوة حب المذكور مُنَعَمُ القلب بمُناجـاة الرحمن يَعُدُ نفسه مع شدةِ اجتهاده مذنبًا مُـوقرًا من المعاصي والآثام.

ومع الاستمرار على حسن العمل مقصـرًا لجأ إلى الله فقوى ظهره ووثق بالله فلم يخف غيره مسـتغن بالله عن كل شــيء ومفتقر إلى الله في كل شــيء أنسه بالله وحده ووحشته ممن يشغله عن ربه.

إن ازداد علمًا خـاف توكيد الحجة مشـفق على ما مضى من صــالح عمله أن لا يقبل منه همه في تلاوة كلام الله الفهم عن مــولاه، وفي سُــنن الرســول الفقه لئلا يضيع ما أمر به.

مَتأدب بـالقرآن والسُّـنة لا يُنـافِسُ أهل الـدنيا في عِزِّهَا ولا يجـــــــزعُ من ذلها يمشي على الأرض هونًا بالسَّـكينة والوقـار ومشـتغل قلبه بـالفهم والاعتبـار والتفكير فيما يقربه إلى الله.

إن فرغ قلبه عن ذكر الله فمصيبة عنـده عظيمـة، وإن أطـاع الله عز وجل بغـير حضـور فهم فخسـران عنده مبين.

يذكر الله مع الذاكرين، عالمٌ بداء نفسه ومُتَّهمٌ لها في كل حال شُغْلُه بالله مُتصلٌ وعن غيره مُنفصِل.

فـإن قـال قائـل: فهل لهـذا النعت الـذي نعت به العلماء ووصفتهُم به أصل في القرآن أو السُّنة أو أثر عمن تقدم.

قيل له: نعم، قال الله جل وعلا: **إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِـرُّونَ لِلأَذْقَـانِ**

سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَـا لَمَفْعُـولاً * وَيَخِـرُّونَ لِلأَذْقَـانِ يَبْكُـونَ وَيَزِيـدُهُمْ خُشُوعًا.

وصف العلماء بالبكـاء والخشـية والطاعة والتـذلل فيما بينه وبينهم. اهـ بتصرف واختصار.

قـال أحد العلمـاء: الحكايـات جُنْـدٌ من جنـود الله يُثبت الله بها قلــوبَ العــارفين من عبــاده، وقــال: مصـداق ذلك قـول الله جل وعلا لرسـوله : **وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُـؤَادَكَ** كـــان يقـــال: من أعطي أربعًا لم يمنع أربعًـــا: من أعطى الشــكر لم يمنع المزيــد، قــال تعــالى: **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**.

ومن أعطى التوبة لم يمنع القبــول، قــال تعــالى: **وَهُوَ الَّذِي يَقْبَـلُ التَّوْبَـةَ عَنْ عِبَـادِهِ** ومن أعطى المشـورة لم يمنع الصـواب، ومن أعطى الاسـتخارة لم يمنع الخيرة.

هذه قصـيدة لبعضـهم فيها غلو صـلحنا ما فيها من الغلط الاعتقادي وجعلنا على ما فيه تصليح أقواسًا:

تَيَقَّضْ لِنَفْسٍ عَنْ هُـــدَاهَا تَـــوَلتْ	وَبَـادِرْ فَفِي التَّاخِيرِ أعْظَمُ خَشْـــيَةِ
فَحَتَّامَ لا تَلْو ى لِرُشْـــدٍ عِنَانَهَا	وَقْــدْ بَلَغَتْ مِنْ غَيِّهَا كُــلَّ بُغْيَـــةِ
وأمَّارَةٌ بالسُّوءِ لَوَّامَةٌ لِمَنْ	نَهَاهَا فَلَيْسَـــتْ لِلْهُـــدَى مُطْمَئِنَّةِ
إذا أزْمَعَتْ أمْـــرًا فَلَيْسَ يَرُدُّهَا	عَنِ الفِعْـلِ إخْـوَانُ التُّقَى وَالمَبَـــرَّةِ
وَإنْ مَـرَّ فِعْـلُ الخَيْـرِ في بَالِهَا أنْثَنَى	أبُو مُرَّةٍ يَثْنِيهِ في كُلِّ مَرَّةِ
وَلِي قَـــدَمٌ لَـــوْ قُـــدِّمَتْ لِظُلامَـــةِ	لَطَــارَتْ وَلَــوْ أنِّي دُعِيتُ لِقُرْبَـــةِ
لَكُنْتُ كَـذِي رِجْلَيْنِ رِجْـلٌ	وَرِجْـلٌ رَمَى فِيهَا الزَّمَـانُ

صَــــــــــــــــيحَةٌ فَشــــــــــــــــلَّتِ
وَقَائَلـــــــــةٍ لَمَّا رَأَتْ مَا أصَــــــــــــــابَني ومَا أنَا فِيـــــهِ مِنْ لهِيبٍ وَزَفْـــــــــــــرَتي
رُوَيْـدَكَ لا تَقْنُـطْ وإن كَثُـرَ الخَطَا ولا تَيْأسَــنْ مِنْ نَيْــلِ رَوْحٍ ورَحْمَــــــــــــةِ
مَعَ العُسْـرِ يُسْـرٌ والتَّصَـبُّرُ نُصْـــــــــــرَةٌ ولا فَرَجٌ إلا بشِدَّةِ أزْمَةِ
«وكَمْ عَامِـلِ أعْمَـالَ أهْل جَهَنَّم فَلَمَّا دَعَى المَــوْلى أعِيــدَ لجَنَّةِ»
فَقُلْتُ لهَا جُــوزِيتِ خَيْــرًا على الـــــــــــذي مَنَحْتِ مِنَ البُشْــــــرَى وَحُسْــــنِ النَّصِــــيحَةِ
فَهَلْ مِنْ سَبيلِ لِلنَّجَاةِ مِنَ الـــــــــــرَّدَى وَمَا حِيلَــتي في أنْ تُفَــرَّجَ كُرْبَــــــــــــتي
«فَقَالَتْ فَطِبْ نَفْسًا وَقُمْ مُتَوَجِّهًا لِربِّكَ تَسْــــلَمْ مِنْ بَـــوارٍ وخَيْبَــــــــــــــةِ»
«فَكَمْ آيسٌ مِنْ رَحْمَـــــةِ فالتْجَا إليه فَحُطَّتْ عَنْــــــهُ كُل خَطِيئَةِ»
«فَــدَيْتُكَ فَأقْصِــدْهُ بــذلٍّ فَإنه يُقِيلَ بَني الزلَّاتِ مِنْ كُــلِّ عَثْــــــــــــرَةِ»
«إذا مَا أتــوهُ تَــائِبيْنَ مِن الـــــــــــذي جَنْــوهُ مِن الآثَــامِ تَوْبَــةَ مُخْبتِ»

فصل

عن أبي الـدرداء قـال: إن الـذين ألسـنتهُم رطبة بذكر الله عزَّ وجل يدخلُ أحدهم الجنة وهو يضحك.

خرج زيـدُ بنُ ثـابت يُريد الجمعة فاسـتقبلهُ النـاسُ راجعين، فـــدخل دارًا، فقيل لـــه، فقـــال: إنه من لا يستحي من الناس لا يستحي من الله.

صلى تميم الداري ليلةً حتى أصبح أو قارب الصـبح وهو يقـــرؤ آيـــةً ويُرددها ويبكي: ﴿**أَمْ حَسِـــبَ الَّذِينَ**

اجْتَرَحُــوا السَّــيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.
وقام مرة بعدَ أن صلى العشاء في المسـجد فمـرَّ بهذه الآية ﴿**وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**﴾ فما خرج منها حـتى سمع أذان الصبح.
وســأله رجل عن صــلاته بالليــل، فغضب غضــبًا شديدًا، ثم قال: والله لركعة أصـليها في جـوف الليل في سرٍ أحبُّ إليَّ من أن أُصَّلي الليل كلَّه، ثم أقُصُّــهُ على النـاس بَلِّغْ مَن يَعُـدَّكم جَجَّ مِن مَـرّةٍ وكم اعْتَمَر وحَذِره مِن الرياءِ والسمعةِ.
وقال آخر: قليل في سُنة خيرٌ من كثير في بدعــة، كيف يقلُ عمل مع تقوى، أقوى القُوة غلبتُك نفسَك.
ومن عجز عن أدب نفسه كـــان عن أدب غـــيره أعجز، ومن خاف الله خافه كلُ شيء.
وقال: إن اغتممت بما ينْقُص مِن مالكَ فابْـكِ على ما يَنْقُصُ مِن عمرك في غير طاعة الله.
ولن يكْمُلَ رجلٌ حـتى يـؤثر دينه على شـهوته ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه.
ومن علامة الاستدراج العمى عن عيُوب النفس.
كـان الربيع بن خيثم بعد ما سـقط سِـقّثه يعتمـدُ على رجلين إلى المســجد، وكــان أصــحاب عبدالله يقولون له: لقد رخَّصَ الله لك لو صليت في بيتك.
فيقولُ: إنه كما تقولون ولكني سـمعتُ الأذان حيَّ على الفلاح، فمن ســـمع منكم فليجبه ولو زحفًا ولو حبوًا.
قال بعضهم: يا أخي، إن الشفقة لم تزل بـالمؤمن حــتى أوفدته على خــير حــال، وإن الغفلة لم تــزل بالفاجر حتى أسلمتهُ إلى شرِ حال.
وما خيرُ عُمـرِ امـرئٍ لا يـدري ما عاقبة أمـره، وما خيرُ عيشٍ لا يكملُ ما حُفظ منه، ولئن كـانت الرغبــةُ

في الــدنيا هي المســتولية على قلوبنا كما اســتولت على أبداننا لقد خبنا غدًا في القيامة وخسِرْنَا.

مرض خيثمة وثقل وجاءته امرأتــه، فجلست عنـده فبكت، فقال لها: ما يبكيك؟ الموت لابد منه، فقالت: الرجالُ عليَّ حـرا، فقـال لهـا: ما كل هـذا أردتُ منك إنما كنتُ أخـــاف رجُلاً واحـــدًا وهو أخي، وهو رجل فاسق يتناول الشراب، فكرهتُ أن يشـربَ في بيـتي الشراب بعد إذ القرآن يُتلى فيه كلَّ ثلاث.

وعن الأعمش عن خيثمة، قال: تقـول الملائكـة: يا رب عبدك المـؤمن تـزوي عنه الـدنيا، وتعرضه للبلاء، قال: فيقـول للملائكـة: اكشـفوا لهم عن ثوابـه، فـإذا رأوا ثوابه، قالوا: يا رب لا يضره ما أصابه في الدنيا.

قــال: ويقولــون عبــدك الكــافر تــزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا، قال: فيقول للملائكة: اكشــفوا لهم عن عقابـه، قـال: فـإذا رأوا عقابـه، قـالوا: يا رب لا ينفعه ما أصابه من الدنيا.

ولما نزل بابن إدريس الموت بكت ابنتُه، فقــال: لا تبكي فقد ختمتُ القـرآن في هـذا الـبيت أربعـةَ آلاف ختمة.

قال عبدالله بن مسعود : ذهب صفو الـدُّنيا وبقي كدرها، فالموت اليوم تحفةٌ لكل مسلم.

وعظ الحســنُ أصــحابهُ، فقــال: والله لقد صــحبنا أقوامًا كانُوا يقولـون: ليس لنا في الـدنيا حاجـةٌ ليس لها خلقنا، فطلبوا الجنة بغُدوهم ورواحِهم.

نعم، والله حــتى أهرقــوا فيها دمــاءهم فــأفلحوا ونجحوا هنيئًا لهم لا يطوى أحدُهم ثوبًا ولا يفْترشُه ولا تلقى إلا صائمًا ذليلاً متبايسًا خائفًا إذا دخل على أهلـه إن قِرُب إليـه شـيء أكلُـه وإلا سـكت لا يسـألهُم عن شيءٍ ما هذا؟ وما هذا؟ ثم قال:

ليسَ مَن مَـات فاسْـتراحَ بِمَيْتٍ إنَّمَا الميتُ مَيِّتُ الأحْيَـــاءِ

اللهم إنَّك تعلم أني كنت أحب الفقر على الغـــنى، وأحبُّ العُزْلَـةَ على العِزِ وأحبُّ المـوت على الحيـاة حبيبٌ جاء على فاقة لا أفلحَ من ندِمِ، ثم مات .

قال بعضُهم: من عـرف ربَّهُ أحبَّهُ، ومن أحبَّهُ تـرك الدنيا إلا لما لابُدَّ له منه.

وقـال آخـر: يـا ويحَ نفسـي كيـف أغفـلُ ولا يُغفـلُ عني! أم كيف تهنُؤني معيشتي واليوم الثقيـلُ ورائي! أم كيف يشتدُ عُجبي بدار في غيرها قراري وخلدي!

وعن عون بن ذكوان قال: صـلى بنا زرارةُ بنُ أبي أوفى صلاة الصبح حتى بلغ: **فَإِذَا نُقِـرَ فِي النَّاقُورِ** فخرَّ ميتًا وكنتُ فيمن حملهُ إلى داره.

قـال الشـيخ تقي الـدين: من تمـام نعمة الله على عبـاده المؤمـنين أن يـنزل بهم من الشـدة والضر ما يلجئهم إلى توحيـــده فيدعونه مخلصـــين له الـــدين ويرجونه ولا يرجون أحدًا غيره.

فتتعلق قلوبهم به لا بغيره فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه وحلاوة الإيمـــــــــان وذوق طعمه والبراءة من الشـرك ما هو أعظم من زوال المـرض والخوف والجُدْب والضر. اهـ.

علامات الشَّقَاوَةِ أربعـة: نسـيان الـذنوب الماضـية وهي عند الله محفوظة، وذكر الحسنات الماضـية ولا يـــدري أقبلتْ أم رُدَّت، ونظــــره إلى من فوقه في الدنيا، ونظره إلى من دُونه في الدين.

وعلامـات السـعادة أربعـة: ذكر الـذنوب الماضـية، ونسيان الحسنات الماضية، ونظره إلى من فوقه في الدين، ونظره إلى من دُونه في الدنيا.

قـــال بعضـــهم: الأدبُ أدبُ الـــدين وهو داعية إلى التوفيق، وسببٌ إلى السعادة وزادٌ من التقوى.

وهو أن تعلم شـرائع الإسـلام وأداء الفـرائض وأن تأخُذ لنفسك بحظها من النافلة وتزيد ذلك بصــــحة

النية وإخلاص النفس وحُب الخير مُنافسًا فيه مُبغضًــا للشر نازعًا عنه.

ويكون طلبك للخـير رغبـةً في ثوابه ومُجانبة للشر رهبـةً من عقابه فتفـوز بـالثواب وتسـلم من العقـاب ذلك إذا اعتزلت رُكـوب المُوبقـات وآثـرت الحسـنات المنجيـــــات. والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

حكم وفوائد منوعة

ما شيء أضعفُ من عالم ترك الناس علمه لفساد طريقتــه، وما شــيء أضـعف من جاهل أخذ النــاس بجهله لنظـــرهم إلى عبادته الـــتي بناها على غـــير أساس.

كان أحد الحكماء قليل الأكل خشن اللباس، فكتب إليه بعض الفلاسفة: أنت تحسبُ أن الرحمة لكل ذي رُوح واجبة وأنت ذو روح ولا ترحمها بــترك قلة الأكل وخشن اللباس.

فكتب إليه: عاتبتني على لبس الخشن وقد يعشق الإنسان القبيحة ويـترك الحسـناء وعـاتبتني على قلة الأكل وأنا إنما أريـــــدُ أن أكل لأعيش وأنت تُريد أن تعيش لتأكل والسلام.

فكتب إليه الفيلسوف: قد عرفتُ السـبب في قلة الأكل فما السبب في قلة الكلام.

فكتب الحكيم إليـــــه: أمَّا ما احتجتُ إلى مفارقته وتركه للناس فليس لك، والشغل بما ليس لك عبث.

وقد خلق الحقُّ سـبحانه وتعـالى لك أذُنين ولسـانًا لتسـمعَ ضِـعف ما تقـول لا لتقـول أكـثر مما تسـمع والسلام.

تقدمت امرأة إلى قاضي الري فادَّعت على زوجها بصداقها خمسمائة دينـار، فـأنكر فجـاءت ببينة تشـهد لها به.

فقالوا: نُريد أن تسفر لنا عن وجهها حتى نعلم أنها الزوجة أم لا.

فلما صـمَّمُوا على ذلك قـال الـزوج: لا تفعلـوا هي صادقة فيما تدعيه.

فـــأقر بما أدعت ليصُـــونَ زوجتَـــهَ عن النظر إلى وجهها.

فقــالت المــرأة حين عــرفت ذلك منه وأنه أقــرَّ ليصُونَ وجْهَهَا عن نظر الرجال إليـه: هو في حِـلٍّ من صداقي الذي عليه في الدنيا والآخرة.

مَن خَلا قلبُه من ذكر أخطــــار أربعة فهو مُغْتَر فلا يأمن الشقاء:

الأول: خطر الميثـاق حين قـال: هـؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبـالي، فلا يعلم في أي الفريقين كان.

و**الثــاني**: حين خَلِــقَ في ظلمــات ثلاث، فنــادى الملك بالشـقاوة والسـعادة، ولا يـدري أمن الأشـقياء هو أم من السعداء.

و**الثـالث**: ذكـرُ هـول المطلـع، فلا يــدري أيبشر برضاء الله أم بسخطه.

و**الرابع**: يوم يصـدر النـاس أشـتاتًا، فلا يـدري أي الطريقين يسلك به. اهـ.

قال علي بن الموفق: كان لي جار مجوسي اسمه شـهريار، فكنتُ أعـرض عليه الإسـلام، فيقـول: نحن على الحق، فمات على المجوسية، فرأيته في النوم، فقلتُ له: ما الخبر؟ فقال: نحن في قعر جهنم، قال: قلتُ: تحتكم قوم؟ قال: نعم، قومٌ منكم، قال: قلتُ: من أي الطوائف مِنَّا، قال: الذين يقولـون إن القـرآن مخلوق. اهـ من «طبقات الحنابلة» المجلد (2).

قيل للأعمش: قد أحببت العلم بكــثرة من يأخــذه عنك؟ قال: لا تعجبوا، فإن ثلثا منهم يموتــون قبل أن يدركوا وثلثًا يلزمون السلطان فهم شرٌ من الموتى.

ومن الثلث الثـالث قليل من يفلح، وقــال: شـــرُّ الأمراء أبعدهم من العلماء، وشرُّ العلماء أقـربُهم من الأمراء.

وقال آخر: اجتنب صحبة ثلاثة أصـناف من النـاس: الجبـابرة الغـافلين، والقُـراء المُـداهنين، والمتصـوفة الجاهلين.

وقال الخليل بن أحمد: أيامي أربعة: يوم ألقى فيه من هو أعلم مـني فـأتعلم منـه، فـذاك يـومٌ فائـدتي وغنيمتي، ويوم ألقى فيه من أنا أعلم منه فذاك يــوم أجـري، ويـوم ألقى فيه من هو مثلي فـأذاكِرُهُ فـذلك يـومُ درْسـي، ويـوم ألقى فيه من هو دوني وهو يـرى أنه فوقي فلا أكلمه وأجعله يوم راحتي.

قــال ابن المســيب: لقد أتى علي ثمــانُون ســنة وذهبتْ إحــدى عيــنيَّ وأنا أعشو بــالأخرى وصــاحبي أعمى وأصم يُريدُ ذكرهُ و إني أخاف من فتنة النساء.

وقــال عبـادة بن الصـامت: ألا تـروني لا أقُــوم إلا رِفْــدًا (يعـني إنه يســاعد على القيـام) ولا آكل إلا ما لُوقَ لي (يعني ماليّن وسُخنّ) وقد مـات صـاحبي منذ زمان (يعني ذكرهُ).

وما يسرني أني خلـوتُ بـامرأة لا تحل لي وأن لي ما تطلـعُ عليه الشـمسُ مخافـةَ أن يـأتيني الشـيطان فيحركُه عليَّ؛ لأنه لا ســمع له ولا بصــر، وكــان من السلف في السوق لا ينظر إلا إلى قدمه.

وقال سعيد بن المسيب: لو أتمنتُ على بيت مــال لأديتُ الأمانــة، ولو أتمنتُ على امـرأة سـوداءَ لخفتُ أن لا أؤدي الأمانة فيها.

وكــذلك المــال لا يــؤتمن عليه أصــحاب الأنفس الحريصة على أخذه، وهذا كله يبين أن النفس تخـون أمانتها إلا من عصمهُ الله.

فَـرَاكَ مشن الأيـامِ نَـابٌ وخانَــكَ لَــونُ الــرأسِ ومِخْلَبُ والـــــرأسُ أشْــــيَبُ

فحتَّام لا تَنْفَكُ جَامِحَ هِمَّةٍ ... بَعْيد مَـــــرَامي النفسِ والمــوتُ أقْــرَبُ
تُسَـــرّث بعَيْش أنْتَ فيه مُنَغَصٌّ ... وتَسْــتَعْذِبُ الــدنيا وأنتَ مُعَـــذَّبُ
تُغَذِّيْكَ والأوْقَـاتُ جِسْـمَكَ تَغْتَـــذِي ... وتَسْـــقيْكَ والســاعَاتُ رُوْحَــكَ تَشْـــرَبُ
وتَعْجَبُ من آفاتِهَا مُتَلَفِتًا ... إليْهَا لَعَمْـــرُ الله فِعْلُـــكَ أعْجَبُ
وتحْسِـــبُهَا بالبشْـــر تُّبْطِنُ خلَّةً ... فيَظْهَـــرُ منها غَيْـــرُ ما تَتَحَسَّـــبُ
إذا رَضِــيْتْ أعْمَتْــكَ عن طُـــرُقِ الهُـــدَى ... فما ظنُّ ذيْ لُبٍّ بها حْينَ تَغْضَــبُ
وفي سَلْبَها ثوبَ الشَّـبَاب دَلالَـــةٌ ... على أنها تُعْطِي خِـــدَاعًا وتَسْـــلِبُ
أتَرْضَى بأن يَنْهَـاكَ شَـيْبُكَ والحجا ... وأنْتَ مَـــعَ الأيـــامِ تَلْهُو وتَلْعَبُ
أجــدَّكَ لا تَســمَعْ لِــدُنْيَاكَ مَوْعِـــدًا ... ولا تَتَــرجَّ الــرِّيَّ والبَــرْقُ خُلَّبُ

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: إخواني الأيـام لكم مطايـا، فـأين العُـدة قبل المنايـا؟ أين الأنفة من دار الأذايا؟ أين العزائم؟ أترضون الدنايا؟

إنَّ بلية الهوى لا تشبه البلايا وإن خطيئة الإصرار لا كالخطايـا، وإن سـريَّة المـوت لا كالسـرايا، وقضـية الأيام لا كالقضايا، وملك الموت لا يقبل الهدايا.

فيا مستورين ستطهر الخبايا، أيها المستوطن بيت غُروره، تأهب لإزعاجك، أيها المسـرور بقصـوره، تهيأ لإخراجْك.

خُــذْ عُــدَّتك وقم في قضــاء حاجتك قبل فــراق أولادك، وأزواجــك، ما الــدنيا دار مقامــك، بل محتًا لإدلاجك.

وللـدَّهْر تَـارَاتٌ تَمـرُّ على الفَتَى ... نَعِيْمٌ ويُؤْسٌ صِحَّةٌ وسَقَامُ
ومَنْ يَـكُ في الــدنيا فلا يَعْتَبنَّها ... فليسَ عليها مَعْتِبٌ وملَامُ
أجـدَّكَ ما الـدنيا ومَـاذَا مَتَاعُهَا ... ومـاذا الـذي تَبْغِيْـهِ فَهْـوَ حُطَـامُ
فَدَعْهَا ونَعْمَاهَا هَنِيْئًا لأهلها ... ولاتَكُ فيها راعِيًا وسـوَامُ
هَب إنَّ مَقَاليـدَ الأمُـور مَلكْتَهَا ... وَدَانَتْ لَـكَ الـدنيا وأنْتَ هُمَـامُ
ومُتِّعْتَ باللَّذاتِ دَهْـرًا بغِبْطَـةٍ ... ألَيْسَ بحَتْمٍ بَعد ذاكَ حِمَـامُ
فَبَيْنَ البرَايَا والخُلُوْدِ تَبَايُنٌ ... وبَيْنَ المنايا والنُفُـوسِ لِـزَامُ
قَضِيَّةٌ انْقَادَ الأنامُ لحُكْمِهَا ... وما حَادَ عنها سَيّدٌ وغُلامُ
ضَرُوْرِيَّةٌ تَقْضِي العُقولُ بصِـدْقِهَا ... وما كـان فيها مِرْيـةٌ وخِصَـامُ
سَـلِ الأرض عن حَـالِ الملـوكِ الـتي خَلَتْ ... لَهُمْ فَوْقَ مَرْقًى الفَرْقَدِيْن مَقَـامُ
بأبْوَابِهِمْ لِلْوَافِدِيْنَ تَـرَاكتمٌ ... بأعْتابِهِم لِلْعَاكِفِيْنَ زِحَامُ
تجبْكَ عن أسْرَار السُيُوفِ الـتي جَـرَتْ ... عَليهم جَوَابًا لَيْسَ فيه كَلَامُ
بأنَّ المنَايَا أقْصَدَتْهُم نِبَالُهَا ... وما طَـاشَ عَن مَـرْمىً لَهُنَّ سِهَـامُ
وسِيْقُوا مَسَاقَ الغـابرينَ إلى الـرَّدَى ... وأَقْفَرَ منهم مَنْزِلٌ وَمَقَامُ
وحَلُـوا مَحَلاً غَيْـرَ مَا يَعْهَدُوْنَـهُ ... فليس لهم حَـتى القِيـام قِيـام
ألَمَّ بهم ريْبُ المنُـونِ ... فَهُمْ بَيْنَ أطْبَـاقِ الرُغَـام رُغَـامَ

اللهم يا عظيم العفو يا واسع المغفـرة يا قـريب الرحمة يا ذا الجلال والإكرام فرغْنا لما خلقتنا لـه، ولا تشـغلنا بما تكفلت لنا بـه، وهب لنا العافية في الـدنيا والآخـــرة، واغفر لنا ولوالـــدينا وجميع المســـلمين برحمتك يا أرحم الـــــراحمين، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تـارةً يُحملُ على رجاء ثوابه، وتارة على خوف العقـاب في تركه، وتارة الغضب لله، وتارة النصـيحة للمسـلمين والرحمة لهم.

ورجـــاء إنقـــاذهم مما أوقعـــوا أنفســـهم فيه من التعـرض للعقوبة وغضـبه في الـدُّنيا والآخـرة وتـارة يحمل عليه إجلالاً لله وعظمته ومحبته وأنه أهل أن يُطاع فلا يُعْصَـى وأن يـذكر فلا ينسى وأن يشـكر فلا يكفر.

وأن يُفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال، كما قال بعض السلف: ودِدْتُ أن الخلْقَ كلهم أطاعوا الله وأن لَحْمِي قُرِض بالمقاريض.

وكان عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز يقول لأبيه: ودِدْتُ أني غلتْ بي وبكَ القدور في الله تعالى.

ومَن لحظَ هذا المقام والذي قبله هَان عليه كل ما يَلقى من الأذى في الله تعـــالى وربما دَعَا لمن آذاه كما قـال ذلك النـبي لَمَّا ضـربه قومه فجعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «اللهم اغفر لقـومي، فـإنهم لا يعلمون» اهـ.

أتت امرأة إلى عمر بن الخطاب، فقـالت: يا أمـير المؤمـنين، إن زوجي يصـوم النهـار ويقـوم الليل وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله عز وجل.

فقـال لهـا: نِعْمَ الـزوجُ زوجُك فجعلتْ تُكَـرر عليه القول وهو يكرر عليها الجواب، فجـاء كعبُ الأسـدي، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه المرأة تشكو زوجها في مُباعدته إيَّاها عن فراشــه، فقــال عمــر: كما فهمتَ كلامها، فاقض بينهما، فقـال عليَّ بزوجهـا، فـأتي بـه، فقال له: إن امرأتك هذه تشكوك، قـال: أفي طعـامٍ، أم شراب، قال: لا.

فقالت المرأة:

يا أيُّها القَاضِـــــي الحَكيمُ رُشْــــــــــــدُهُ	ألْهَى خَليلي عن فِرَاشِـــي مَسْـــــــــــــجدُهُ
زَهَّدي في مَضْجَعِي تعبُدُهُ	فـــاقْضَ القَضَـــا كعْبٌ ولا تُــــــــــــــرَددُهْ
نهـــارُهُ ولَيْلُه ما يَرْقُـــدُهْ	وَلَسْــتُ في أمْــرِ النِسـاء أحْمَـــــــــــــدُهُ

فقال زَوْجُهَا:

زَهَّدَني في فُرشِـــها وفي الحَجَـــــــــــلْ	أني امْـرؤ أذْهَلَـني مَا قَـدْ نَـــــــــــزَلْ
في سُـــوْرَةِ النَّحْــلِ وفي السَّــــــــبْعِ الطُّولْ	وفي كتــاب الله تَخْوِيْــفٌ جَلَـــــــــــلْ

فقال كعب:

إنَّ لهَا عَليْـكَ حَقًا يَا رَجُـلْ	نَصْيُبَها في أرْبَعٍ لِمَنْ عَقَلْ

فأعْطِهَا ذَاكَ وَدَعْ عَنْكَ العِلَلْ

ثم قال: إن الله عز وجل قد أحلَّ لك النساءَ مثنى وثُلاث ورُبــاع، فلك ثلاثــةُ أيــام وليــاليُهنَّ تعَبَّد فيهنَّ لربك.

فقــال عمــر: والله ما أدري من أي أمريك أعجبُ أمِن فهمك أمرهما أم من حُكمك بينهُمـــا، اذهب فقد ولَّيتُك قضاء البصرة.

قال بعض العلماء: أنا أخـاف من النسـاء أكـثر مما أخـاف من كيد الشـيطان؛ لأن الله سـبحانه وتعـالى يقـول: ﴿**إِنَّ كَيْـدَ الشَّـيْطَانِ كَـانَ ضَـعِيفًا**﴾، وقـال سبحانه في النساء: ﴿**إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**﴾.

كـــان بعض العلمـــاء يقـــول: إذا رأيت الليل مقبلاً فـــرحتُ وأقـــول أخلُو بـــربي، وإذا رأيت الصـــباح استوحشتُ كراهة لقاء من يُشغلني عن ربي.

قـــال ابن عبـــاس: غي واد في جهنم، وإن أودية جهنم لتستعيذ من حره، أعد الله ذلك الوادي للـزاني المصر على الزنـا، والشـارب الخمر المـدمن عليـه، ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه، ولأهل العقوق، ولشاهد الزور ولامرأة أدخلت على زوجها ولدًا ليس منه.

قـال عمر بن ذر: لما رأى العابـدون الليل قد هجم عليهم، ونظـــــروا إلى أهل الغفلة قد ســــكنوا إلى فرشهم ورجعوا إلى ملاذهم، قـاموا إلى الله سـبحانه وتعــالى فــرحين مُستبشــرين بما قد وهبهم الله من الســهر وطُــول التَّهجُــدِ، فاســتقبلوا الليل بأبــدانِهم وباشر ظلمتَهُ بصفاح وجـوههم، فانقضى عنهم الليـلُ وما انقضت لــذَّاتهُم مِن التلاوة ولا ملَّتْ أبــدانهم من طول العبادة، فأصبح الفريقان وقد ولى بربح وغبن.

فـاعملوا لأنفسـكم في هـذا الليـل وسـواده، فـإن المغبون من غبن خير الدنيا والآخرة.

يا رُفْقَةَ اللَّيلِ طَابَ السَّيْرُ الْمَسْرَى فَمَنْ نـامَ طُـوْلَ
فــــــــــــــاغْتَنِمُوْا لم يَصِــــــــــــــلِ

وفي رواية أنه قال: لو أحببتَ الله أحببتــني؛ ولكن نســيت الله فنســتيني، يُشــير إلى أن من أحب الله أحبَّ المســاكين من أهل العلم والحكمة لأجل محبته

لله تعـــالى، ومن غفل عن الله غفل عن أوليائه من المساكين.

وقد كـان علمـاء السـلف يأخـذون العلم عن أهله والغـالب عليهم المسـكنة وعـدم المـال والرفعة في الدنيا ويدعون أهل الرياسات والولايات إذا لم يكونـوا أهلاً.

وأما إذا كـانوا أهلاً، فـإن الرئاسة لا تمنـع، بل تزيد العالم شرفًا وحسن اعتقاد ويكون علمه أنفـذ؛ لأنه لا لطمع، كالخلفاء الأربعة .

و قـال ابن الجـوزي: إخـواني، إن الـذنوب تغطي على القلـوب، فـإذا أظلمت مـرآة القلب لم يبن فيها وجه الهدى، ومن علم ضرر الذنب استشعر الندم.

يا من أعماله إذا تُـؤمِّلتْ سـقط، كم أثبت له عمل فلما عدم الإخلاص سقط، يا حاضر الذهن في الـدنيا، فإذا جاء الـدين خلـطْ، يجعل همَّهُ في الحسـاب فـإذا صلى اختلط.

يا سـاكتًا عن الصـواب فـإذا تكلم لغـط، يا قـريب الأجل وهو يجري من الزلل على نمَطْ.

يا من لا يعظه وهنُ العظم ولا كلامُ الشَّـــــمطْ، يا من لا يرعـــوى ولا ينتهي، بل على منهـــاج الخطيئة فقطْ، ويحك بادر هذا الزمان فالصحة غنيمة والعافية لقطْ.

فكأنك بالموت قد سلَّ سـيفهُ عليك واخـترط، أين العزيز في الـــدنيا؟ أين الغـــني المغتبـــط؟ خيَّم بين القبـور، وضـرب فسـطاطه في الوسـط، وبـات في اللحد كالأسير المرتبط.

واستلبت ذخائره ففرغ الصندوق والسفط، وتمزق الجلد المستحسن وتمعط الشـــــعر فكأنه ما رجله وكأنه ما امتشط ورضي وُرَّاثُه بما أصـــابُوه وجعلُـــوا نصبه السخط.

وفرقوا ما كان يجمعه بكف البخل والقنط ووقع في قفر لا ماء فيه ولا حنط وكم حُدِّثَ أن سعد بن معاذ في القبر انضغط، وكم حُذِّر من المعاصي، وأخبر أن آدم بلقمة زل فهبط.

نادِ القُصورَ التي أقوَتْ مَعالِمُها ... أينَ الجسُوم التي طابَتْ مَطَاعمها
أيْنَ المُلُوكُ وأبناءُ الملوكِ ومَن ... ألهاه ناضِرُ دُنياهُ وناعِمُها
أينَ الأسودُ التي كانَت تُحاذِرها ... أسْدُ العَرينِ ومِن خَوفٍ تُسالِمُهَا
أينَ الجُيوشُ التي كانت لَو اعْتَرضَتْ ... لَهَا العُقَابُ لخانَتْها قَوادِمُهَا
أينَ الحِجَاب ومَن كان الحجابُ لَهُ ... وأيْنَ رُتْبتُه الكبرىَ وخادمُها
أينَ الذين لَهْوا عمَّا لَهُ خُلِقوا ... كما لَهتْ في مَراعيها سَوَائِمُها
أينَ البيُوت التي مِن عَسْجدٍ نُسجَتْ ... هَلْ الدنَانيرُ أغنَتْ أمْ دَرَاهِمُهَا
أينَ الأسِرَّةُ تَعْلوها ضراغِمها ... هَلِ الأسِرَّةُ أغْنَتْ أمْ ضَرَاغِمُهَا
هذِي المعَاقِلُ كانَت قبلُ عَاصِمَةً ... ولا يَرَى عِصَمٍ المغرورِ عاصمُهَا

اللهم أنقذنا من سنة الغفلة ووفقنا لاغتنام أيام المهلة واغفر لنا ولوالدينا وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين، وصل الله على محمد وآله وصحبه أجمعين.

فصل

قال ابن الجوزي: إنما فضل العقل على الحس بالنظر في العواقب، فإن الحس لا يرى الحاضر والعقل يلاحظ الآخرة ويعمل على ما يتصور أن يقع.

فلا ينبغي للعاقل أن يغفل عن تلمُح العواقب.

فمن ذلك أن التكاسل في طلب العلم وإيثـــــــار عاجل الراحة يُـــوجبُ حســـرات دائمة لا تفي لـــذةُ البطالة بمعشار تلك الحسرة.

ومن ذاك أن الإنســـــــــان قد يجهل بعض العلم فيستحي من السؤال والطلب لكبرَ سِنِّه.

ولئلا يُـــرى بعين الجهل فيلقى من الفضـــيحة إن سُئل عن ذلك أضعاف ما آثر من الحيا.

ومن ذلك أن الطبع يطالب بالعمل بمقتضى الحالة الحاضرة مثل جواب جاهل وقت الغضب.

ثم يقع النـدم في ثـاني الحـال على أن لـذة الحلم أوفى من الانتقـــــــام، وربما أثر الحقد من الجاهل فتمكن فبالغ في الأذى له.

ومن ذلك أن يعادي بعض النـاس ويـأمن أن يرتفع المعادى فيؤذيه وإنما ينبغي أن يضمر عداوة العدو.

ومن ذلك أن يحب شخصًا فيفشي إليه أسراره ثم يقع بينهما عداوة فيظهر ذلك عليه.

ولي رجل تبالـــةً فصـــعد المنـــبر فما حمد الله ولا أثنى عليه حتى قال: إن الأمير أعزنا الله وإيـاه ولاني بلادكم هـــذه، وإني والله ما أعــرف من الحق موضع سَـوْطِي، ولن أوتي بظـالم ولا مظلـوم إلا أوجَعْتُهُمَا ضربًا، فكانوا يتعـاملون بـالحق بينهم ويتصـالحون ولا يرتفعون إليه.

ومن ذلك أن يـرى المـال الكثـير فينفق ناسـيًا أن ذلك يفنى فيقع له في ثاني الحـال حـوائج فيلقى من الندم أضعاف ما التذَّ به في النفقة.

فينبغي لمن رزق مالاً أن يصور كـبر السن والعجز عن الكســب، ويتصـور ذهـاب الجـاه في الطلب من الناس ليحفظ ما معه.

ومن ذلك أن يتبسط ذو دولة، فإذا عُزِلَ نــدمَ على ما فعـــــل، وإنما ينبغي أن يُصـــــور العــــزل ويعمل بمقتضاه.

ومن ذلك أن يؤثر لذة مطعم فيشـبع فيفوته قيـامُ الليل، أو يـؤثر لـذة النـوم فيفوته التهجـد، أو يأكل أو يجامع بشره فيمرض.

أو يشـتهي جمـاع سـوداء وينسى أنها ربما حَمَلتْ فجـاءت بنت سـوداء، فكم من حسـرةٍ تقـعُ له على مدى الزمان، كلما رأى تلك البنتَ.

وقد كان في زمننا من جـامع سـوداء فجـاءت بولد أســـود فافتضح به منهم صـــاحب المخـــزن وقاضي القضاة الدامغاني، وكان تـاجرًا قد ولد له ابن أسـود، فلما رآه قال: لعن الله شهوتي.

ومن ذلك الاشـــتغال بصـــورة العلم، وإنما يُـــراد العمل به والإخلاص في طلبه فيـــذهب الزمـــان في حب الصـيت وطلب مـدح النـاس فيقع الخسـران إذا حُصِّلَ ما في الصـدور، قُلتُ: ما أكـثر هـذا في وقتنـا، نســـــأل الله الحي القيـــــوم أن يعصـــــمنا وإخواننا المسلمين.

ومن ذلك إقنـــاع العلم بطـــرف من العلم فـــأين مزاحمة الكاملين والنظر في عواقب أحوالهم.

ومن ذلك الإكثـــار من الجمـــاع ناســـيًا مغبته وأنه يضعف البـدن ويـؤذي، فـالطبع يـرى اللـذة الحاضـرة والعقل يتأمل.

ولقد جئت يومًا من حر شــــــــديد فتعجلتُ راحة الـبرودة فـنزعت ثـوبي فأصـابني زكـام أشـرفت منه على الموت، ولو صبرت ساعة ربحت ما لقيت فقِسْ كل لذة عاجلة ودَع العقْل يتلمح عواقبِهَا، والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

قـــال ابن رجب ـــ رحمه الله ـــ في «شـــرح الخمسين»: «فالحاصل من هذه الأحاديث كلها أن ما حرم الله الانتفاع به.

فإنه يحرم بيعه وأكل ثمنه كما جاء مصـرحًا به في الرواية المتقدمة أن الله إذا حرَّم شيئًا حرَّم ثمنه.

وهـذه كلمـةٌ عامـةٌ جامعـةٌ تطـردُ في كل ما كـان المقصـــود من الانتفـــاع به حرامًـــا، وهو قســـمان: أحــدهما: ما كـان الانتفـاع به حاصـلاً مع بقـاء عينه كالأصنام، فإن منفعتها المقصـودة منها الشـرك بالله وهو أعظم المعاصي على الإطلاق.

ويلتحق بـــذلك ما كـــانت منفعته محرمة ككتب الشـرك والسـحر والبـدع والضـلال، وكـذلك الصـور المحرمة وآلات الملاهي المحرمة كـالطنبور وكــذلك شراء الجواري للغناء.

وفي «المسند»: عن أبي أمامة عن النبي قـال: «إن الله بعثـني رحمة وهـدى للعـالمين، وأمـرني أن أمحق المزامير والكبارات» يعني البرابط والمعـازف والأوثان التي كانت تعبد في الجاهلية.

وأقسم ربي بعزته لا يشربُ عبدٌ من عبيدي جرعة من خمر إلا ســقيته مكانها من حميم جهنم مُعــذَّبًا أو مغفورًا له ولا يسقاها صـبيًا صـغيرًا إلا سـقيته مكانها من حميم جهنم معذبًا أو مغفورًا له.

ولا يـدعها عبد من عبيـدي من مخـافتي إلا سـقيته إياها في حظيرة القدس ولا يحل بيعُهُنَّ ولا شـراؤهُنَّ ولا تعليمهن ولا تجارة فيهن وأثمانهن حرام» اهـ.

ذكر ابن القيم في «الهـدي»: أنه من صح له يــومُ جمعته وسـلم سـلمت له سـائر جمعتـه، ومن صح له رمضان وسلم سلمت له سائر سنته، ومن صـحت له حجَّته وسلمت له صح له سائر عمـره، فيـوم الجمعة ميزان الأسبوع، ورمضان ميزان العام، والحج مــيزان العمر.

وصى بعضهم ابنـه، فقـال: عليك بالمشـاورة فإنك واجد في الرجــال من ينصح لك الكي ويحســمُ عنك الـدَّاء ويُخـرج لك المُسـتكن ولا يـدع لك في عـدوك فرصة إلا انتهزها ولا لعدوك فيك فرصة إلا حصَّنَها.

ولا يمنعك شـــدة رأيك في ظنـــك، ولا عُلو مكانك في نفسك من أن تجمع إلى رأيك رأي غــيرك، فــإن أحمدت أجتنيت وإنَّ ذمَمْتَ نَفَيْت.

فـــإن في ذلك خصـــالاً، **منها**: أنه إن وافق رأيك ازداد شــدةً عنــدك، وإن خــالف رأيك عرضــتهُ على نظــرك، فــإن رأيته مُعتليًا لما رأيت قبلت، وإن رأيته متضعًا عنه استغنيتَ.

و**منها**: أنه يجـدد لك النصـيحة ممن شـاروت وإن أخطأ ويمحض لك مودته وإن قصَّر.

إذا كان الـرأي عند من لا يُقبل منـه، والسـلاحُ عند من لا يســتعمله، والمـــالُ عند من لا ينفقه ضـــاعت الأمور.

وأوصى آخر ابنه، فقال: يا بني، كن على حــذر من اللئيم إذا أكرمته ومن الكريم إذا أهنته، قال الشاعر:

واخْشَ الأذَى عنـدَ إكْـرَام اللَّئِيم كما
تَخْشَـــــى الأَذَى إنْ أهَنْتَ الحُـــــــــرَّ ذَا النُبَل

وكن على حذر من الجاهل إذا صاحبته، ومن الفاجر إذا خاصمته.

ومن الرشـــد مشـــاورة الناصـــح ومـــدارة العـــدو والحاسد، قال الشاعر:

مَن يَـــــدْارِ دَارَى ومَن لم يَـــــدْر سَـــــوفَ يُـــــرَى
عَمَّا قَلِيلٍ نَدِيْمًا لِلنَّدَامَاتِ

يا بُنَي، احذر الحسد فإنه يُفسدُ الدين، ويُضعفُ النفس ويعقب الندم، والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

ومن وصــايا أبي حنيفة لأبي يوســف: لا تتكلم بين يــدي العامة إلا بما تسـأل عنـه، قلت: (أو فيما يعـود عليهم بما ينفعهم وإن لم يسألوا).

ولا تكثر الخروج إلى السـوق، ولا تكلم المـراهقين فإنهم فتنة (قلت إلا لضرورة أو حاجة).

ولا تمشِ في قارعة الطريق مع المشايخ والعامة، فإنك إن قدَّمتهم ازدري بعلمـك، وإن أخــرتهم ازدري بك من حيثُ أنهم أسَنُّ منك.

قـال النـبي : «من لم يـرحم صـغيرنا ولم يـوقر كبيرنا فليسَ مِنَّا».

ولا تقعد على قـــوارع الطريق فـــإن دعـــاك ذلك فاقعد في المسجد.

ولا تأكل في الأســــــواق والمســــــاجد، قلتُ: إلا لضرورة أو حاجة.

ولا ترض لنفسك من العبادات إلا بــأكثر مما يفعله غيرك وتعاطاها، فإن العامة إذا لم يـروا منك الإقبـال عليها أكـــثر مما يفعلـــون اعتقـــدوا فيك قلة الرغبة واعتقدوا أن علمك لا ينفعك إلا ما نفعهم الجهل الذي هم فيه.

وإذا دخلت بلـــــدة فيها أهل العلم فلا تتخـــــذها لنفسك، بل كن كواحد من أهلها ليعلموا أنك لا تقصد جـاههم ولا يخرجــون عليك بــأجمعهم ويطعنــون في مذهبك وتصير مطعونًا عندهم بلا فائدة.

وإن اســـتفتوك فلا تناقشــــهم في المنـــاظرة والمطارحات.

ولا تذكر لهم شيئًا إلا عن دليل واضح.

ولا تطعن في أساتذتهم فإنهم يطعنون فيك، قلت: إلا أن يكونوا مبتدعين كالأشاعرة والمعتزلة والجهمية والرافضة فيحذر عنهم.

وكن من الناس على حذر.

وكن لله تعالى في سرك كما أنت له في علانيتك.

ولا يصلح أمر العلم إلا بعد أن يجعل سره كعلانيته.

وإذا أولاك الســــلطان عملاً فلا تقبل ذلك منه إلا بعد أن تعلم أنه إنما يُوليك ذلك لعلمك.

وإياك أن تتكلم في مجلس النظر على خوف، فإن ذلك يُورثُ الخلل في الألفاظ، والكلل في اللسان.

وإياك أن تكثر الضحك، فإنه يميت القلب.

ولا تمش إلا على طمأنينة، قلتُ لقول الله تعـالى: **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُـونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾**.

ولا تكن عجُـــولاً في الأمـــور، قلت: إلا فيما حث الشارع على الإسراع والمبادرة فيه.

وإذا تكلمت فلا تكـثر التصـويت، ولا ترفع صـوتك، قلت: لأنه يدل على قلة العقل، قال الله تعـالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَـكَ مِن وَرَاءِ الحُجُـرَاتِ أَكْثَـرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾**.

واتخذ لنفسك السكوُن وقلة الحركـة، ليتحقَّقَ عند الناس ثباتُك، ولأنه يدل على رزانة العقل.

وأكثر من ذكر الله تعالى فيما بين الناس، ليتعلَّمُوا ذلك منـك، قلت: وليكـون له مثل أجـورهم؛ لحـديث: «من دلَ على خير فله مثل أجر فاعله».

واتخذ لنفسك وردًا خلف الصـــلوات تقـــرأ فيه القرآن، وتذكر الله تعالى وتحمده وتشكره.

واتخذ أيامًا معـدودةً من كل شـهر تصـوم فيهـا، ليقتدي بك غيرك.

ولا تطمئن إلى دُنيـاك وإلى ما أنت فيـه، فـإن الله سائلك عن جميع ذلك.

وإذا عرفت إنسانًا بالشر فلا تـذكره بـه، بل اطلب منه خـيرًا فـاذكره بـه، إلا في بـاب الـدين فإنك إن عـرفت في دينه ذلك فـاذكره للنـاس كي لا يتبعـوه وليحـذروه، قـال –عليه الصـلاة والسـلام-: «اذكـروا الفاجر بما فيه حتى يحذره الناس»، وإن كان ذا جـاه

ومنزلة فاذكر ذلك ولا تبال من جاهه، فإن الله تعالى مُعينك وناصرك وناصر الدين.
فإذا فعلت ذلك مرة هـابوك ولم يتجاسر أحد على إظهار البدعة في الدين.
ولا تجـالس أحـدًا من أهل الأهـواء إلا على سـبيل الدعوة إلى الدين ولا تشاتم.
وإذا أذن المؤذن فتأهب لدخول المسجد لئلا تتقدم عليك العامـــة، قلتُ: بل للمبـــادرة إلى أداء الفريضة وليقتدي بك غيرك.
ولا تتخذ دارك في جوار السلطان.
وما رأيت على جارك فاستره فإنه أمانة، قُلتُ: إلا أن يكون مُجاهرًا بالمعاصي.
ولا تظهر أســرار النــاس، قلتُ: إلا أن يكــون فيها ضررٌ على مسلم.
ومن استشــارك في شــيء فأشر عليه بما يقربك إلى الله تعالى.
وإيـــاك والبخل فإنه تنقص به المـــــروءة ولا تكن طماعًا ولا كـــذابًا، قلتُ: ولا جاسوسًـــا ولا غيابًا ولا نمامًا ولا غشاشًا ولا صاحب مقابلة.
وأظهر غنى القلب مظهرًا في نفسك قلة الحـرص والرغبة وأظهر من نفسك الغـــــنى، ولا تظهر الفقر وإن كنت فقيرًا.
وكن ذا هِمَةٍ فإن من ضعفت همته ضعفتْ منزلته.
وإذا مشيت مع الطريق فلا تتلفت يمينًا ولا شمالاً، بل داوم النظر في الأرض، قلتُ: إلا لضـــــــرورة أو حاجة.
ولا تماكس بالحبات والدوانق وحقر الدنيا المحقرة عند أهل العلم (أي علماء الآخرة العـاملون بعلمهم لا علماء الدنيا).
وَولِّ أمــوركَ غـــيرَكَ ليمكنك الإقبـــال على العلم، وإيــاك أن تكلم المجــانين ومن لا يعــرف المنــاظرة

والحجة من أهل العلم والـــذين يطلبـــون الجـــاه ويستغرقون بـذكر المسـائل فيما بين النـاس، فـإنهم يطلبــون تخجيلك ولا يبــالون منك وإن عرفُــوك على الحق.

وإذا دخلت على قــوم كبـار فلا ترتفع عليهم ما لم يرفعوك لئلا يلحق بك منهم أذية.

وإذا كنت في قوم فلا تتقدم عليهم في الصــلاة ما لم يقــدموك على وجه التقــدير، قلت: إلا أن يكــون أقرأهم لكتاب الله فيتقدم. اهـ.

قــال ابن عبــاس في أمر عزير ﴿**وَلِنَجْعَلَــكَ آيَــةً لِّلنَّاسِ**﴾: يعـني لبـني إسـرائيل وذلك أنه كـان يجلس مع بنيه وهم شــيوخ وهو شــاب؛ لأنه مــات وهو ابن أربعين سنة، فبعثه الله شابًا كهيئته يوم مات.

وقيل في معنى ما قاله ابن عباس:

وأسْــودُ رَاسٍ شــاب من قبْلِــــــــــــــهِ ابنُه	ومن قَبْلِـهِ ابنُ ابْنِـهِ فهْـوَ أكْبَـــــــــــــــــرُ
يَرَى ابْنَهُ شْيخًا يـدِبُّ على العَصَـــــــــــــــا	ولِحْيَتُـهُ سَـوداءُ والـرأسُ أشْـــــــــــــــقَرُ
ومَا لابِنِه حَيْـلٌ ولا فَضْـلُ قُـــــــــــــوَّةٍ	يَقُـوم كَمَا يَمْشِـي الصَّبِيُ فَيْعـــــــــــــثرُ
يَعُـــــدُّ ابنُه في النـــاسِ تِسْـــــــــعِيْنَ حجَّةٌ	وعشـــرينَ لا يَجْـــريْ ولا يَتبَخْتَـــــــــــــــرُ
وعُمْرُ أبِيْهِ أرْبَعُـوْنَ أمَرَّهَا	ولابن إبِنِه تَسْـــــعُونَ في النـــــــــاسِ عَبَّروا
فما هو في المَعْقُــولِ إنْ كُنْتَ دَارِيًا	وإنْ كُنْتَ لا تَـــــــدْرِي فبِالجَهْـــــــلِ تُعْـــــذَرُ

عن بعض أصــحاب جعفر الصــادق قـال: دخلت على جعفر وموسى بين يديه وهو يوصـــــيه بهـــــذه الوصية فكان مما حفظت منها أنه قال: يا بُني، اقبـلٍ

وصـــيتي، واحفظ مقـــالتي، فإنك إن حفظتها تعش سعيدًا وتمت حميدًا.

يا بني، إنه من قنع بما قسم الله له اسـتغنى ومن مـدَّ عينه إلى ما في يد غـيره مـات فقـيرًا، ومن لم يرضَ بما قسم الله عزَّ وجـلَّ له اتَّهم الله تعـالى في قضائه.

ومن استصغر زلّة نفسه استعظم زلة غـيره، ومن استصغر زلة غيره اسـتعظم زلة نفســه، يا بـني، من كشف حجاب غيره انكشفتْ عـوراتُ بيتـه، ومن سل سيف البغي قُتل به.

ومن احتفر لأخيه بـــئرًا ســـقط فيهـــا، ومن داخل الســفهاء حُقــر، ومن خالط العلمــاء وقِّرْ، ومن دخل مداخل السوء أتهم.

يا بني، قُل الحق لك وعليك، وإيـاك والنميمة فإنها تزرعُ الشحناء في قلـوب الرجـال، يا بـني، إذا طلبت الجـــود فعليك بمعادِنــــه. والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

ومن نصيحة والد لولده

اعمل أن من تفكر في الــــدنيا قبل أن يوجد رأى مـــدةً طويلـــةً، فـــإذا تفكر في يـــوم القيامة علم أنه خمسون ألف سنة، فإذا تفكر في اللبث في الجنة أو النار علم أنه لا نهاية لهُ.

فإذا أعاد إلى النظر في مقدار بقائه فرضنا سـتين ســنة مثلاً، فإنه يمضي منها ثلاثــون ســنة ي النــوم، ونحو من خمس عشر في الصِّبا.

فـــإذا حسب البـــاقي كـــان أكـــثر في الشـــهوات والمطاعم والمكاسب، فإذا خلص ما للآخرة وجد فيه من الرياء والغفلة كثيرًا، فماذا تشتري الحيـاة الأبدية وإنما الثمنُ هذه الساعات؟

فانتبه يا بــنيُّ لنفســك، وانــدم على ما مضى من تفريطـــك، واجتهد في لحـــاق الكـــاملين ما دام في الوقت سعة، واسق غُصنك ما دامت فيه رُطوبة.

واذكر ساعتكَ التي ضاعتْ فكفى بها عظة، ذهبتْ لذةُ الكسل فيها وفـاتت مـراتبُ الفضـائل، وقد كـان السلف الصـالح رحمهم الله يحبـون جمع كُل فضـيلة ويبكون على فوات واحدةٍ منها.

قال إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ دخلنا على عاد مـــريض، وهو ينظر إلى رجليه ويبكي، فقلنـــا: ما لك تبكي؟ فقـال: عليّ يـوم مضى ما صُـمتُه، وعليّ ليلة ذهبت ما قمتها. والله أعلم، وصل الله على محمد.

حكم وآداب ومواعظ

قـــال الحسن البصـــري في قـــول الله جل وعلا: ﴿**فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا** ﴾نزلت في الثقلاء.

وقـال السـري أحد رجـال الحـديث: ذكر الله جل وعلا الثُقلاء في القـــرآن في قوله تعـــالى: ﴿**فَـــإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا**﴾.

وكان أبو هريرة إذا استثقل رجلاً، قال: اللهم اغفر لنا وله وأرِحْنَا منه.

وكان حمـاد بن سـلمة إذا رأى من يسـتثقلُه قـال: ﴿**رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ**﴾.

قيل لأبي عمرو الشيباني: لماذا يكون الثقيل أثقل على الإنسـان من الحمل الثقيـل؟ فقـال: لأن الثقيل يقعد على القلب، والقلبُ لا يحتملُ ما يحتملهُ الرأسُ والبدنُ من الثِقَلِ.

قال حبيب بن أوس:

يا مَن تَبَـــرَّمتِ الـــدنيا بطَلْعَتِه ... كَمَا تَبَـــرَّمَتِ الأجْفَـــان بالسَّـــهَدِ

يَمشِـــــــــي على الأرضِ مِن بُغْض طَلْعَتِـــهِ يَمْشي مُخْتَـــــالاً فأحْسِــــبُهُ على كَبِـــــــــــــدِي

قيل لأبي مسلم: ما كان سبب خـروج الدولة عن بني أمية؟ قال: لأنهم أبعدوا أولياءهم ثقة بهم وأدنــوا أعــداءهم تألفًا لهم، فلم يصر العــدُوُّ صــديقًا بالــدنو وصار الصديق عدوًا بالإبعاد.

نظر عبـــدالملك بن مـــروان عند موته وهو في قصره إلى قصارٍ يضرب بالثوب في المغسـلة، قـال: يا ليتني كنتُ قصارًا ولم أتقلد الخلافة.

فبلغ كلامه أبا حاتم، فقال: الحمد لله الـذي جعلهمُ إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيـه، وإذا حضـرنا الموت لم نتمنى ما هم فيهم.

عن وهب بن منبه قال: قال الحواريون: يا عيسى، من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنـون؟ فقال: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر النـاس إلى ظاهرها، والذين نظروا إلى آجل الـدنيا حين نظر النـــاس إلى عاجلها فأمـــاتوا ما خشـــوا أن يميتهم، وتركُوا ما علموا أن سيتركهم، فصار استكثارهم منها اسـتقلالاً، وذكـرهم إياها فواتًـا، وفـرحُهم بما أصـابوا منها حُزنًا، فما عارضـهم منها رفضـوه، أو من رفعتها بغير الحق وضعوه.

خلقت الدنيا عنـدهم فلم يجـددوها، وخـربت بينهم فلم يعمروها، وماتت في صدورهم فليسوا يُحْيُوها.

يهدمُونها فيبنـون بها آخـرتهم، ويبيعونها فيشـترون بها ما يبقى لهم، رفضـوها وكـانوا برفضـها فـرحين، وباعوها وكانوا ببيعها رابحين.

نظـــروا إلى أهلها صـــرعى قد حلت بهم المثلات، فـأحيوا ذكر المـوت وأمـاتوا ذكر الحيـاة، يحبـون الله ويحبون ذكره ويستضيئون بنوره.

لهم خبر عجيب، و عندهم الخبر العجيب، بهم قـام الكتـاب وبه قـاموا، وبهم نطق الكتـاب، وبه نطقـوا، وبهم عُلم الكتاب وبه علموا فليسوا يرون نائلاً مع ما نـــــالوا ولا أمانًا دون ما يرجـــــون ولا خوفًا دُونَ ما يحذرون، رواه الإمام أحمد، والله أعلم.

قصص ومواعظ رائعة ومطالب عالية

عن عمارة بن خزيمة الأنصاري أن عمه حدثه وهو من أصـحاب النــبي : أن النـبي ابتـاع فرسًـا من أعــرابي فاســتتبعه النــبي ليقضــيه ثمن فرســه، فأســرع النـــبي المشي وأبطأ الأعـــرابي، فطفق رجـال يعترضـون الأعـرابي فيسـاومون بـالفرس ولا يشعرون أن النبي ابتاعه.

حـتى زاد بعضـهم الأعـرابي في السـوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه به النبي .

فنادى الأعرابي النبي ، فقال: إن كنتَ مبتاعًا هذا الفرس فابتعه وإلا بعته.

فقام النبي حين سمع نداء الأعرابي، فقـال: «أو ليس قد ابتعته منــك؟» قــال الأعــرابي، لا، والله ما بعتُك.

فقــــال النـــبي : «بلى قد ابتعتُه منك» فطفق الناس يلوذُون بـالنبي والأعـرابي، وهما يتراجعـان، فطفق الأعرابي يقول: هلمّ شهيدًا يشهد أني بايعتك.

فمن جاء من المسلمين قـال للأعـرابي: ويْلَـكَ إن النبي لم يكن ليقول إلا حقًا.

حـــتى جـــاء خزيمة فاســـتمع لمُراجعة النـــبي ومُراجعة الأعـــرابي، وطفق الأعـــرابي يقـــول: هلمَّ شهيدًا أني بايعتُك.

فقال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النـبي على خُزيمة، فقال: «بم تشهد؟» قال: بتصديقك يا رسـول اللـه، فجعل النـبيُ شـهادة خُزيمة شـهادة رجلين.

وقد روي في بعض طرق هذا الحديث أن النــبي قـال لخزيمـة: «بِمَ تَشْـهدُ ولم تكن مَعَنـا؟» قـال: يا رسول الله، أنا أصدقك بخبر السماءَ أفلا أصـدَّقُكَ بما تَقُولُ؟

قال الخطابي: ووجه هذا الحديث أن النبي حكم على الأعــرابي بعلمِه إذ كــان النــبي صــادقًا بــارًا وجرت شهادةُ خزيمة في ذلك مجرى التوكيــد؛ لقوله والاستظهار بها على خصمه.

فصـــارت في التقـــدير مع قـــول رســـول الله كشهادة رجلين في سائر القضايا ـ رحمه الله ـ.

قال الواقدي عن أشـياخ لـه: إن شـيبة بن عثمـان كان يُحدِّثُ عن إسلامه، فيقــول: ما رأيتُ أعجب ممَّا كُنّا فيه من لُزُوم ما مضى عليه آباؤُنا من الضّلالات.

فلما كـان عـام الفتح ودخل النـبي عُنـوةً، قلتُ: أســـيرُ مع قُـــريش إلى هـــوازن بحُـــنين فعسى إن اختلطوا أن أُصيب من محمدٍ غـرةً فأثـارُ منه فـأكون أنا الذي قمتُ بثأر قُـريش كُلِّهـا، وأقـولُ: ولو لم يبق من العرب والعجم أحدٌ إلا اتبع محمدًا ما اتبعته أبدًا.

فلما اختلط النـاس اقتحم رسـول الله عن بغلته وأصـلت السـيفَ فـدنوت أُريـدُ ما أُريـدُ منه ورفعتُ سـيفي، فرفع لي شـواظٌ من نـارٍ كـالبرق حتَّى كـاد يمحشــني، فوضـعت يـدي على بصـري خوفًا عليــه، فـالتفت إلي رسـول الله ونـاداني: «يا شـيب، ادْنُ مـني»، فـدنوت منه فمسح صـدري، وقـال: «اللهمُ أعِذهُ مِن الشيطان».

فوالله لهَـوُ كــان ســاعتئذٍ أحبَّ إليَّ من ســمعي وبصري ونفسي، وأذهب الله عز وجل ما كان بي.

ثم قـال: «ادْنُ فَقَاتِـلْ»، فتقـدَّمْتُ أمامه أضـربُ بســيفي، الله يعلمُ أني أحبُّ أن أقيـــهُ بنفسي كُـــلَّ شيء، ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حيًا لأوقعتُ به السيف.

فلما تراجع المسـلمون وكــروا كــرَّة رجــلٍ واحد قرَّبْتُ بغْلَةَ رسول الله ﷺ، فاسـتوى عليها فخـرج في أثرهم حتى تفرقُوا في كُل وجه، ورجع إلى مُعسـكره فدخل خباءهُ، فدخلتُ عليه، فقـال: «يا شـيْب، الـذي أراد الله بك خيرٌ مما أردتَ بنفسك».

ثم حدثني بكل ما أضمرت في نفسي مما لم أكُنْ أذكرُهُ لأحدٍ قط، فقلتُ: فإني أشـهدُ أن لا إله إلا الله وأنك رسـولُ اللــه، ثم قلتُ: اسـتغفر لي يا رسـول الله، فقال: «غفر الله لك».

وعن أنس بن مالك قال: قال رسـول الله ﷺ: «كم مشن ضَـعِيف مُتَضَـعّف ذِي طِمْـرَيْن لو أقْسَـمَ على الله لأبرهُ، منهم البراءُ بنُ مالك».

وإن الـــبراء لقي زحفًا من المشـــركين وقد أوجع المشـركون في المسـلمين، فقـالوا لـه: يا بـراءُ، إن رسول الله قال: «إنك لو أقْسَـمْتَ على الله لأبـركَ» فأقسم على اللــه، فقــال: أقسـمتُ عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم فمُنحوا أكتافهُم.

ثم التقـــوا على قنطــرة السُــوس فـــأوجعُوا في المسلمين، فقالوا: أقسمْ على ربكَ، فقال: أقســمت عليك يا رب لما منحتنا أكتــافهم وألحقتــني بنبيك ﷺ، فمُنحوا أكتافهم، وقُتل البراء شهيدًا. والله أعلم.

فصل

أرسل عمر إلى الكوفة من يسأل عن سعد فكـان الناس يثنون عليه خيرًا حتى سُئل عنه رجل من بــني عبس، فقال: أما إذا أنشدتمونا عن سعد فإنه كـان لا يخـــرج في الســـرية ولا يعـــدل بالرعية ولا يقسم بالسوية.

فقال سعد: اللهم إن كان كاذبًا قـام ريـاء وسـمعة فأطل عره وعظم فقره وعرضه للفتن.

فكـان يُـرى وهو شـيخ كبـير قد تـدلَّى حاجبـاه من الكــبر يتعــرض للجــواري يغمــزُهُنَّ في الطرقــات، ويقول: شيخ كبير مفتُون أصابتني دعوة سعْد.

وكذا سعيد بن زيد كـان مجـاب الـدعوة، فقد روي أن أروى بنت أوس اســتعدت مــروان على ســعيد، وقالت: سرق من أرضي وأدخله في أرضه.

فقال سعيد: اللهم إن كانت كاذبة فـأذهب بصــرها وأقتُلها في أرضها، فذهب بصرُها وماتت في أرضها.

قال إبــراهيم بن أدهم: مـرض بعضُ العُبَّاد فـدخلنا عليه نعُوده، فجعل يتنفس ويتأسـف، فقلتُ لـه: على ماذا تتأسـف؟ قـال: على ليلة نمتُهـا، ويـوم أفطرتـه، وساعةٍ غفلتُ فيها عن ذكر الله عز وجل.

وبكى بعضُ العباد عند موته، فقيل لـه: ما يبُكيـك؟ فقــال: أن يصــوم الصــائمون ولســتُ فيهم، ويــذكر الــذاكرون ولسـتُ فيهم، ويصـلي المصـلون ولسـتُ فيهم. تأمل يا أخي، هذه الأماني لله دره.

عن ابن أبي مُليكة قـال: لما كـان يـوم الفتح ركب عكرمـــةُ بن أبي جهل البحر هاربًا فخبَّ بهم البحـــرُ، فجعلت الصـــرَّارِي (أي الملاحـــون) يـــدعُون الله ويُوحِّدُونَهُ، فقـال: ما هـذا؟ قـالوا: هـذا مكـان لا ينفع فيه إلا الله، قال: هذا إلـهُ محمـدٍ الـذي يـدعونا إليـه، فارجعُوا بنا، فرجع فأسلم.

وعن مصعب بن سـعد، عن عكرمة بن أبي جهـل، قــال: قــال النــبي يــوم جئتــه: «مَرْحَبًا بــالراكبِ المُهَــاجرِ، مَرْحَبًا بــالراكبِ المهــاجرِ»، قلت: والله يا رسول الله، لا أدعُ نفقةً أنفقتُها عليكَ إلا أنفقتُ مثلها في سبيل الله.

وعن عبدالله بن أبي مليكة أن عكرمة بن أبي جهل كان إذا اجتهد في اليمين قال: لا والـذي نجّـاني يوم بدرٍ، وكان يضـعُ المُصـحف على وجهـه، ويقـول: كتابُ ربي، كتابُ ربي.

استشهد عكرمة يوم اليرمُوك في خلافة أبي بكـر، فوجـدُوا فيه بضـعًا وسـبعين من بين ضـربةٍ وطعنـةٍ ورميةٍ.

قـال الزبـير: وحـدثني عمي مصـعب بن عبدالله قـال: جـاء الإسـلام ودارُ النـدوة بيد حكيم بن حـزام، فباعها بعـــدُ مِن معاوية بن أبي ســفيان بمائة ألف درهم.

فقال له عبدالله بن الزبـير: بعتَ مكرمة قـريش؟ فقـال حكيمُ: ذهبت المكـارمُ إلا التقـوى، يا ابن أخي، إني اشـــتريت بها دارًا في الجنـــة، أشـــهدك أني قد جعلتها في سبيل الله.

وعن أبي بكر بن سليمان قال: حجّ حكيم بن حزام معه مائة بدنة قد أهـــداها وجلّلها الحـــبرة وكفّها عن أعجازها ووقَّف مائةَ وصيفٍ يـوم عرفـةَ في أعنـاقِهم أطوقةُ، الفضَّة قد نُقش في رُؤُسِها: «عُتقاء الله عـزّ وجـــلّ عن حكيم بن حـــزام»، وأعتقهم وأهـــدى ألف شاة.

وعن محمد بن سـعد يرفعـه: أن حكيم بن حـزام بكى يومًـا، فقـال هل ابنـه: ما يُبكيـك؟ قـال: خصـالٌ كلها أبكـاني: أما أولهـا: فبطءُ إسـلامي حـتى سُـبقتُ في مـواطن كلها صـالحة، ونجـوتُ يـوم بـدر واحـدٍ، فقلت: لا أخرج أبدًا من مكة ولا أوضـعُ مع قُـريش ما بقيت.

فأقمت بمكة ويأبى الله عز وجل أن يشرح صدري للإسـلام، وذلك أني أنظـرُ إلى بقايا من قـريش لهم أســـنان متمســـكين لما هم عليه من أمر الجاهلية فأقتدي بهم، ويا ليت أني لم أقتد بهم، فما أهلكنا إلا الإقتداء بآبانا وكُبرائنا.

فلما غـزا النـبي مكة جعلتُ أفكـرُ، فخـرجتُ أنا وأبو سفيان نستروح الخبر، فلقي العباسُ أبا سفيان، فذهب به إلى النبي ورجعتُ فدخلتُ بيتي، فأغلقتُه

عليَّ ودخل النـــبي مكة فـــآمن النـــاس، فجئتُه فأسلمت وخرجتُ معه إلى حنين.
وعن عُـروة أن حكيم بن حـزام أعتق في الجاهلية مائة رقبـة، وفي الإسـلام مائة رقبة وحمل على مائة بعير.
قال ابن سعد: قال محمد بن عمر: قـدم حكيم بن حـزام المدينة ونزلها وبـنى بها دارًا، ومـات بها سـنة أربع وخمسين وهو ابن مائة وعشـرين سـنة ــ رحمه الله ـ.
عن أبي بـرزة الأسـلمي أن جُلَيْبِيْبًا كـان امـرأ من الأنصار وكـان أصـحاب النـبي إذا كـان لأحـدهم أيّم (أي لا زوجَ لها) لم يزوجها حتى يُعلمَ النبي : هل لهُ فيها حاجةً أمْ لا؟
فقال رسـول الله ذات يـومٍ لرجُل من الأنصـارِ: «يا فُلَانُ، زَوَّجْني ابْنَتَكَ»، قال: نعم ونعمةُ عَيْن، قال: «إني لَسْــتُ لِنَفْسِــي أرْيــدُهَا» قــال: لِمَنْ؟ قــال: «لجُلَيْبِيْبْ»، قال: يا رسول الله، حتى أســتأمِرَها (أي أشـاورُهَا) وأمَّهـا، فأتاهـا، فقـال: إن رسـول الله يَخْطُبُ ابنتـكِ، قـالت: نَعمَ ونِعْمِـةُ عَيْن، زَوِجْ رسـولَ الله ، قـال: إنه ليس لنفسه يُريـدُها، قـالت: فلِمَنْ؟ قال: لجُلَيبيب، قالت: حَلْقَي ألجُليبيب؟ لا لعَمْرُ الله لا أزَوِجُ جُليبيًا.
فلما قـام أبوها ليـأتي النـبي ، قـالت الفتـاةُ من خدرِها لأبويْها: من خطبني إليكمـا؟ قـالا: رسـول الله ، قــالت: أفــترُدُونَ على رســول الله أمــرَهُ؟ ادْفَعُوني إلى رسول الله فإنَّهُ لَنْ يُضيِّعَني.
فــذهب أبوها إلى النــبي ، فقــال: شــأنَكَ بِهــا، فزوَّجَهَا جُليبيبًا.
قــال إســحاق بن عبدالله بن أبي طلحة لثــابت: أتــدري ما دعا لها به النــبي ؟ قــال: وما دعا لها به النبي ـ عليه السلام ـ؟

قــال: «اللهم صُـبَّ عليها الخَـيرَ صَـبًّا ولا تجْعَـلْ عَيشَهَا كَدًّا كَدًّا».

قـال ثـابتُ: فزوَّجها إيَّاهُ، فبينما رسـولُ الله ﷺ في مغزى له، قال: «هَلْ تَفْقِدُونَ مِن أحَدٍ؟» قالوا: نفقـدُ فُلانًا ونفقدُ فلانًا ونفقدُ فلانًا، ثم قال: «هَـلْ تَفْقِـدُونَ مِن أحَـدٍ؟» قـالوا: نفقد فلانًا ونفقد فلانًـا، ثم قـال: «هَلْ تَفْقِدُونَ مِن أحَدٍ؟» قالوا: لا، قال: «لكني أفقـدُ جُلَيْبِيْبًا، فطلبُـوه في القتلى»، فنظـروا فوجـدُوْهُ إلى جنب سبعةٍ قد قتلهمُ ثم قتلُوه، فقال رسـول الله ﷺ: «هذا مني وأنا منه، أَقَتَلَ سبعةً! ثم قتلـوه، هـذا مِنِّي وأنا مِنْهُ، أقتلَ سبعةً! ثم قتلـوْه هـذا مـني وأنا منه»، فوضعه رسول الله ﷺ على ساعديه، ثم حفرُوْا لــهُ ما له سريرٍ إلا سـاعدي رسـول الله ﷺ حـتى وضـعه في قبره.

لله در هــذه الأنفس فما أعزَّهــا، وهــذه الهمم ما أرفعها!

وَلَمَّا رَأوَا بَعْضَ الحيــــاةِ مَذلـــــــــــــةً ... عليهم وعِـزَّ المـوتِ غَـيرَ مُحَـــــــــــــرَّمِ

أبْـــوْا أنْ يَــذُوقُوا العَيْشَ والــــــذَمُّ واقــــــعٌ ... عليه وماتُوا مِيْتَةً لَمْ تُذَمَّمِ

ولا عَجَبٌ لِلأسْـــــــدِ إنْ ظَفِــــــــــرَتْ بها ... كِلابُ الأعـادِي مِن فَصِـيحْ وأعجَمِ

فَحَرْبــةُ وحْشِــيٍّ سـقَتْ حَمـــــزةَ الــــردَى ... وحَتْــفُ عليٍّ في حُسَـــام ابن مُلْجمِ

فصل

روى مسلم في أفـراده من حـديث أنس بن مالك قـال: انطلق رسـول الله ﷺ وأصـحابه إلى بـدر حـتى سبقوا المشـركين، وجـاء المشـركون، فقـال رسـول الله ﷺ: «قوموا إلى جنةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرضُ».

قـال عُمَيْر بن الحمـام الأنصـاري: يا رسـول اللـه، جنةٍ عَرْضُها السموات والأرض؟! قال: «نعم»، قــال: بَخٍ بَخٍ يا رسـول اللـه، فقـال: «ما يحملك على قولك بَخٍ بَخٍ؟» قــال: لا، والله يا رســول الله إلا رَجَــاءَ أن أكونَ مِن أهلها، قال: «فإنك من أهلها».

قـال: فـأخرج تمـرات من قرنه فجعل يـأكُلُهنَّ، ثم قال: إنْ حضيِيْتُ حتى آكُـلَ تَمـراتي هـذه إنها لحيـاةٌ طويلة، فرمى بما كان معهُ من التمـر، ثم قاتل حـتى قُتل.

قال الواقدي: لما أراد عمـرو بن الجمُـوح الخـروج إلى أحد، منعه بنُوه، وقالوا: قد عذرك الله، فجاء إلى النبي ، فقال: إن بـني يريـدون حبسي عن الخـروج معك وإني لأرجو أن أطأ بعرجـتي [هـذه] في الجنـة، فقال: «أمّا أنت فقد عذَرك الله»، ثم قال لبنيــه: «لا عليكم أن لا تمنعـــــــــوه لعل الله عز وجل يرزقه الشهادة» فخلوا سبيله.

قالت امرأته هند بنت عمرو بن خُزَام: كــأني انظر إليه مولِّيًا، قد أخذ درقته، وهو يقـول: اللهم لا تـردني إلى خربي، وهي منازل بني سلمة.

قـــال أبو طلحـــة: فنظـــرتُ إليه حين انكشف المسـلمون ثم ثـابوا، وهو في الرَّعيل الأول، لكـأني أنظر إلى ظلع في رجله، وهو يقول: أنا والله مشتاق إلى الجنة!

ثم انظر إلى ابنه خَلَّاد [وهو] يَعْدو [معه] في إثْـره حتى قتلا جميعًا.

وفي الحديث: أنه دُفن عمرو بن الجمُوح وعبدالله بن عُمر وأبو جـابر في قــبر واحــد، فخــرَّب السـيلُ قُبورهم، فحفر عنهم بعد ست وأربعين سـنة فوجـدوا لم يتغيروا كأنهم ماتوا بالأمس.

عن أنس بن مالك قال: كنا جُلوسًا مع رسـول الله ، فقـال: «يَطْلُـعُ الآن عليْكُمْ رجُـلٌ مِنْ أهْـلِ الجَنَّةِ»

فطلعَ رجُلٌ مِن الأنصار تنطفُ لحيتـهُ من وضُـوئه قـدْ علق نعليه بيده الشمال.
فلما كان الغدُ، قال النبي : مِثْلَ ذلك، فطلع ذلك الرجُلُ مثْلَ المرَّة الأولى.
فلما كان اليوم الثـالثُ، قـال النـبي مِثْـلَ مقالته أيضًـــا فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قـام النـبي تبعـهُ عبدالله ابنُ عمـرو، فقـال: إني لا حَيْتُ أبي، فأقسـمتُ أني لا أدخُـلُ عليه ثلاثًـا، فـإن رأيْتَ أن تؤوِيَني إليكَ حتى تَمْضي فَعَلْتَ، قال: نعم.
قال أنس: فكان عبدالله يُحدِّثُ أنهُ بـات معـهُ تلك الثلاث الليالي فلمْ يرَهُ يقُومُ من الليل شـيئًا غـير أنـهُ إذا تعارَّ تقلَّب على فراشه ذكـرَ الله عز وجـل، وكـبر حتى لصلاة الفجر.
قال عبدالله: غـيرَ أني لم أسـمعهُ يقـولُ إلا خـيرًا، فلمَّا مضت الثلاثُ الليـالي، وكِـدْتُ أنْ أحتقـرَ عملـهُ، قلتُ: يا عبداللـه، لم يكن بيـني وبين أبي غضـبٌ ولا هُجْـرَةٌ، ولكن سـمعتُ رسـول الله يقـول لك ثلاث مـــرات: «يَطلُــعُ عليكُمُ الآنَ رَجُــلٌ من أهل الجنة» فطلعتَ أنت ثلاث مـــرَّاتٍ، فـــأردتُ أن آوي إليـــك، فانظر ما عملُك، فأقتدي بـك، فلم أرَك عملتَ كبـيرَا عَمَلٍ، فما الذي بلغ بك ما قال رسـول الله ؟ قـال: ما هو إلا ما رأيْتَ، فلمَّا ولَّيْتُ دَعَاني، فقال: ما هُوَ إلا ما رأيْتَ غـــيرَ أني لا أجـــدُ في نفسي لأحَـــدٍ مِن المسلمين غِشًّا ولا أحْسُدُ أحدًا على غيرٍ أعطـاهُ الله إيَّاهُ.
فقـال عبداللـه: هـذه الـتي بلغتْ بِـكَ، رواه أحمد بإسناد على شرط البخاري ومسلم والنسائي.
عن نـــافع عن ابن عمر أن رســـول الله بعث جيشًا فيهم رجل يقال له: حُـدَيْر، وكـانت تلك السـنة قد أصـابتهم سـنة من قلة الطعـام، فـزودَهم رسـولُ الله ونَسِيَ أنْ يُزَوِّدَ حُديرًا.

فخرج حدير صابرًا محتسـبًا، وهو في آخر الـركب يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ويقول: نعْم الـزّاد هو يارَب، فهو يردّدها وهو في آخر الركب.

قال: فجاء جبريل إلى النبي ، فقـال لـه: إن ربيّ أرسلني إليك يُخبرك أنك زوَّدْتَ أصحابك ونسـيتَ أن تـزوِّدَ حُـدَيْرًا، وهو في آخر الـركب، يقـول: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله، فدعا النــبي رجلاً فــدفع إليه زاد حُــدير وأمــره إذا انتهى إليه حفظ عليه ما يُقُــول، وإذا دفع إليه الــزاد حفظ عليه ما يقول، ويقول له: إن رسول الله يُقرئك الســلام ورحمة الله، ويُخبرك أنه كـان نِسَـيَ أن يَـزُوِّدَكَ، وإن ربي تبـارك وتعـالى أرسل إليّ جبريل يـذكرّني بــك، فذكّره جبريل وأعلمه مكانك.

فـانتهى إليه وهو يقــول: لا إله إلا الله و الله أكــبر وسبحان الله والحمد لله ولا حــول ولا قــوة إلا باللــه، ويقول: نعم الزاد هذا يا رب، قال: فدنا منه، ثم قــال له: إن رسول الله يُقرئك السـلام ورحمـةَ الله وقد أرسـلني إليك بــزادٍ معي، ويقــول: إني إنما نسـيتُك، فأرسل إليّ جبريل من الســماء يُـذكِّرُني بـك، قـال: فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي .

ثم قال: الحمد لله رب العـالمين، ذكـرني ربي من فوق سبع سمواتٍ، ومن فوق عرشــه، ورحِم جُـوعي وضعفي، يا ربّ كما لم تنس حُـديرًا فاجعل حُـديرًا لا ينساك.

قـال: فحفظ ما قـال، ورجع إلى النـبي فـأخبره بما سمع منه حين أتاه، وبما قـال حين أخـبره، فقـال رسول الله : «أما إنك لو رفعت رأسك إلى السماء لـــرأيتَ لكلامه ذلك نـــورًا ســـاطعًا ما بين الســـماء والأرض».

عن محمد بن سعد قال: كـان ذو البجـادين يتيمًا لا مال له، فمات أبوه ولم يورثه شيئًا، وكفله عمه حتى أيسر، فلما قـدم النـبي المدينة جعلت نفسه تتـوق إلى الإســلام ولا يقــدرُ عليه من عمه حــتى مضــتْ الســنُون والمشــاهد، فقــال لعمــه: يا عمُّ، إني قد انتظرتُ إسلامك فلا أراك تريد محمدًا، فـأذن لي في الإسلام، فقال: والله لئن اتبعتَ محمدًا لا أترك بيـدك شيئًا كُنْتُ أعطيتُكَهُ إلا نزعْتُه منك، حتى ثوبيك.

قال: فأنا والله متبعٌ محمدًا وتـاركٌ عبـادة الحجـرِ، وهذا ما بيدي فَخُذْهُ، فأخذ ما أعطاه حـتى جـرَّدَهُ من إزاره، فأتى أمه فقطعتْ بجادًا لها باثنين فأتزر بواحدٍ وارتـدى بـالآخر، ثم أقبل إلى المدينة وكـان بورقـان فاضطجع في المسجد في السَّحَرِ.

وكان رسولُ الله يتصفحُ الناس إذا انصــرف من الصـبح فنظر إليـه، فقـال: «مَنْ أنْتَ؟» فانتسب لـه، وكـان اسـمه عبـدُالعزّى، فقـال: «أنتَ عبـدُ الله ذُوْ البجَادَين»، ثم قال: «انْزِلْ مِنيَ قَرِيْبًا»، فكـان يكـون في أضْيَافِهِ حتى قَرأ قرآنًا كثيرًا، فلما خـرج النـبي إلى تَبُـوكَ، قـال: ادْعُ لي بالشـهادة، فربـط النـبي على عضُـدِهِ لَحِي سَـمُرة، وقـال: «اللهم إني أحـرم دَمَهُ على الكفار».

فقال: ليسَ هذا أرَدْتُ.

قــال النــبي : «إنك إذا خَــرَجْتَ غازيًا فأخَــذَتْكَ الحُمَّى فَقَتَلَتْكَ فأنْتَ شهيْد، أو وَقَصَـتْكَ دَابَّتُـكَ فـأنْتَ شَهِيد» فأقامُوا بتبُوكَ أيامًا ثم تُوفَي.

قال بلالُ بنُ الحارث: حضرتُ رسـولَ الله ومَـعَ بلال المؤذنُ شُعْلةٌ من نار عند القبر واقفًا بها.

وإذا رسـول الله وهو يقـول: «أدْنيا إليَّ أخَاكُما» فلما هَيــأه لِشِــقِّهِ في اللَّحْــدِ، قــال: «اللهم إني قد أمْسَيتُ عنه راضيًا فارْضَ عنه».

فقال ابنُ مسعود: ليتني كُنتُ صاحبَ اللَّحْدِ.

وعن أبي وائل، عن عبدالله قال: والله لكأني أرى رسـول الله في غـزوة تبـوك وهو في قـبر عبدالله ذي البجــــادين، وأبُو بكر وعُمر يقـــول: «أَدْنِيَا إلي أَخَاكُمَا».

وأخذهُ من القبلةِ حتى أسـكنهُ في لَحْـدِه ثم خـرَجَ النبيُ وَوَلَّيَاهُمَا العَمَلَ، فلما فرغ من دفنه اسـتقبل القبلة رافعًا يديه يقـــول: «اللهم إني أمســـيتُ عنه راضيًا فارْضَ عنه».

وكــان ذلك ليلاً، فوالله لــوددتُ أني مكانــه، ولقد أسـلمتُ قبلـهُ بخمسَ عشـرَ سَـنَة. والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

عن محمد بن سعد قال: أتى واثلـةُ رسـول الله فصـلى معه الصـبح، وكـان رسـول الله إذا صـلى وانصـرف تصـفَّحَ أصـحابهُ، فلما دَنا من واثلـة، قـال: «من أنت؟» فأخبره.

فقال: ما جاء بكَ؟ قال: جئتُ أبـايع، فقـال رسـول الله : «فيما أحْبَبْتَ وكَــرِهْتَ؟» قـــال: نعم، قـــال: «فِيما أطَقْتَ؟» قال: نَعَمْ، فأسلم وبَايَعَهُ.

وكان رسول الله يتجهزُ يومئذٍ إلى تَبُـوكَ فَخَـرَجَ واثلـةُ إلى أهلِـهِ فَلَقِي أبَـاهُ الأسـقعَ فلما رَأى حَالــه، قال: قد فعلتها؟ قال: نعم، قال أبــوه: والله لا أكلمُك أبدًا.

فأتى عمه فسلَّم عليـه، فقـال: قَـدْ فَعَلْتَهَـا؟ قـال: نعم، قال: فلامهُ أيسر من ملامة أبيه، وقـال: لم يكُن ينبغي لك أن تسبقنا بأمرٍ.

فسمعت أخت واثلة كلامهُ فخـرجت إليه وسـلَّمَتْ عليه بتحَّية الإسلام، فقال واثلة: أنَّي لك هذا يا أخيَّةُ؟ قالت: سمعتُ كلامك وكلام عمك فأسلمتُ.

فقال: جهزِّي أخاك جهـاز غـازٍ فـإنَّ رسـول الله على جناح سفر، فجهزتـهُ فلحِـقَ برسـول الله قـدْ

تحمَّلَ إلى تبُـوكَ وبقي غُبَّرَاتٌ مِن النــاسِ وهم على الشُخُوص.

فَجَعَل يُنادي بِسوقِ بـني قينقـاع: من يحملُـني وله سهمِي؟ قال: وكُنتُ رجُلاً لا رُحلةَ بي.

قـال: فـدعاني كعبُ بنُ عجـرة، فقـال: أنا أحملُك عُقبةً بالليل وعُقْبةً بالنهار ويدُكَ أسوةُ يـدي وسـهْمُكَ لي، قال واثلة: نعم.

قــال واثلــة: جـزاهُ الله خـيرًا لقد كــان يحملُـني ويزيْدُني وآكُلُ معهُ ويرفـعُ لي حـتى إذا بعث رسـول الله خالد بن الوليد إلى أكيِدرِ بن عبدالملك بدوْمَــةِ الجَنْدَل.

خرجَ كعب في جيش خالد وخـرجتُ معـه، فأصـبنا فيئًا كثـيرًا فقسـمه خالـدُ بيننا فأصـابني سـتُ قلائص فأقبلتُ أسوقُها حتى جئتُ بها خيمة كعب بن عجــرة، فقلتُ: اخـــــرُج رحمك الله فـــــانظر إلى قلائصك فاقبضها.

فخــرج وهو يبتسم ويقــول: بـارك الله لك فيها ما حملتكَ وأنا أريدُ أن آخذ منك شيئًا.

عن بشر بن عبدالله عن واثلة بن الأسـقع قـال: كُنَّا أصحاب الصفة في مسجد رسـول الله وما فينا رجلٌ له ثوبٌ.

ولقد اتخذ العــرقُ في جُلُودنا طُرقًا من الغبــار، إذ خــرج علينا رسـول الله ، فقــال: «ليْبشِــرْ فُقــراءُ المهاجرين» ثلاثًا.

عن نعيم بن ربيعة بن كعب قـــال: كنتُ أخــــدمُ رسـول الله وأقــوم له في حوائجه نهـاري أجمـع، حتى يُصلي رسول الله العشاء الآخرة.

فــأجلسُ على بابه إذا دخل بيتــه، أقــولُ: لعلها أن تحدث لرسول الله حاجة، فما أزالُ أسمعه سبحان الله، سـبحان اللـه، سـبحان الله وبحمـده حـتى أمـلَّ فارجعُ أو تغلُبني عيني فأرقُد.

فقـــال لي يومًا لما رأى من حفّـــتي (أي العناية والخدمة) له وخـدمتي إيَّاه، يا ربيعـةُ، سَـلْني أعْطِـك، قال: فقلتُ: انظر في أمري يا رسول الله ثم أعلمُك ذلك.

فقـــال: ففكـــرتُ في نفسي فعلمتُ أن الـــدنيا مُنْقطعــةٌ وزائلــةٌ وأن لي فيها رزقًا ســيأتيني، قــال: فقلتُ: أسأل رسول الله لآخرتي، فإنه من الله عزَّ وجل بالمنزل الذي هو به، فجئتُه، فقال: «ما فَعَلْتَ يا رَبِيعَـةُ؟» فقلتُ: أسـألُكَ يا رسـولَ الله أن تشـفعَ لي إلى رَبِكَ فَيَعْتِقَني مِن النار، فقال: «مَنْ أمَرَكَ بهذا يا ربيعة؟» فقلتُ: لا والـذي بعثك بـالحق ما أمـرني به أحــدٌ ولكنك لمَّا قلتَ ســلني أعطــكَ وكُنت من الله بالمنزل الذي أنت به نظـرتُ في أمـري، فعـرفتُ أن الدنيا منقطعة وزائلةُ وأنَّ لي فيها رزقًا سيأتيني.

فقلتُ: أسأل رسول الله لآخرتي، قال: فصـمت رسول الله طويلاً، ثم قال لي: «إني فاعلٌ فــأعِنِّي على نَفْسكَ بكثرةِ السُجُود».

وأخرجا في «الصـــحيحين» من حـــديث قيس بن عبادة قال: كنت جالسًا في مسجد المدينة في نــاس فيهم بعض أصحاب النبي ، فجاء رجل في وجهه أثرُ خشوع، فقال بعضُ القوم: هذا رجـلُ من أهل الجنـة، فصلى ركعتين تجوَّزَ فيهما، ثم خـرج فابتعتُـه، فـدخل منزله فدخلتُ فأخبرتُه.

فقــــال: لا ينبغي لأحــــدٍ أن يقـــول ما لا يعلم، وسأحدثك لِمَا ذاك؟ رأيتُ رُؤيًا على عهد رسـول الله فقصصتها عليه، رأيتـني في روضـة، وسط الروضة عمـــود من حديـــد، أســـفلُه في الأرض وأعلاهُ في السماء، في أعلاه عُـروة، فقيل لي: إرقـه، فقلتُ: لا أستطيعُ، فجاءني منصفٌ يعني خادمًـا، فقـال: بثيـابي من خلفي، فأخذتُ بـالعروة، فقصصـتها على رسـول الله ، فقـال: «تلك الروضـةُ الإسـلام، وذاكَ العَمُـودُ

عَمُودُ الإسـلام، وتلك العُـروةُ، العُـروة الـوثقى، وأنْتَ على الإســلام حــتى تمــوت» والرجــلُ عبدالله بن سلام.

وعن أبي بُردة بن أبي موسى قال: قدمتُ المدينة فأتيتُ عبدالله بن سلام، فإذا رجلٌ متخشعٌ، فجلسـتُ إليـه، فقـال: يا بنَ أخي إنـكَ جَلَسْـتَ إلينا وقَـدْ حَـانَ قِيامُنـــا، أفتـــأذَنُ؟ والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

بعث عمر بن الخطاب عمير بن سـعد عـاملاً على حمص فمكث حولاً لا يأتيه خبره، فقـال عمر لكاتبـه: أكتب إلى عمير، فوالله ما أراه إلا قد خاننا، إذا جاءك كتـــابي هـــذا، فأقبل وأقبـــلْ بما جـــبيتَ من فيء المسلمين حين تنظر في كتابي هذا.

قـال: فأخذ عمـير جرابه فوضع فيه زاده وقصـعتهُ وعلق إداوته وأخذ عنزتـهُ، ثم أقبل يمشي من حمص حتى قدم المدينة.

قال: فقدم وقد شحُب لونه واغـبر وجهـهُ وطـالت شـعرتُه، فـدخل على عمـر، فقـال: السـلام عليك يا أمـير المؤمـنين ورحمة اللـه، قـال عمـر: ما شـأنك؟ قال: ما ترى من شأني ألست تراني صحيح البدن ظ اهر الدم، معي الدنيا أَجُرُّهَا بقُرونها؟

قال عمر: وما مَعَـك؟ وظنَّ عمر أنه جـاءهُ بمـال، قـال: معي جـرابي أجعل فيه زادي، وقصـعتي آكـلُ فيها، وإدواتي أحمل فيها وضـوئي وشـرابي، وعـنزتي أتوكأ عليها وأجاهد بها عـدوًا إن عـرض لي، فوالله ما الدنيا إلا تبعٌ لمتاعي.

قال عمر: فجئتَ تمشي؟ قال: نعم، قال: أما كان لك أحدٌ يتـبرعُ لك بدابـةٍ تركبُهـا؟ قـال: ما فعلـوا وما سألتهم ذلـك، فقـال عمـر: بئس المسـلمون خـرجت من عِندهم.

فقـال عُمـير: اتق الله يا عمـر، قد نهـاك الله عن الغيبة، وقد رأيتهم يصلون صـلاة الغـداة، قـال عمـر: فأين بعثتك؟ وأي شيء صنعت؟ قـال: وما سـؤالك يا أمير المؤمنين؟

قال عمر: سبحان الله، فقـال عمـير: أما إني لـولا أخشى أن أغُمك ما أخبرتُك، بعثتـني حـتى أتيت البلد فجمعتُ صُـلحاء أهلها فـوليتهم جباية فـيئهم حـتى إذا جمعُوهُ وضعْتُه مواضِـعَه ولو مالـكَ منه شـيء لأتيتُـكَ به.

قال: فما جئتنا بشيء؟ قال: لا، قال: جَدِّدُوا لعُمير عَهْـدًا، قـال: إن ذلك شـيءٌ لا أعملـهُ لك ولا لأحـدٍ بعـدك، والله ما سَـلمتُ بَـلْ لم أسْـلَم، لقـدْ قلتُ لنصراني أخزاك اللـه، فهـذا ما عرَّضْـتَني له يا عمـر، وإن أشقى أيامي يوم خُلفْتُ معك.

ثم اسـتأذنه فـأذن له فرجع إلى منزله وبينه وبين المدينة أميال، فقال عمر حين انصرف عمير: ما أراه إلا قد خاننا.

فبعث رجلاً يقال له الحـارث، وأعطـاه مائة دينـار، وقـال: انطلق إلى عمـير حـتى تـنزل به كأنَّك ضـيْف فـإن رأيت أثر شـيء فأقبـل، وإن رأيت حـالاً شـديدًا فادفع إليه هذه المائة الدينار.

فـانطلق الحـارث فـإذا هو عمـير جـالس يفلي بقميصه إلى جنب الحائـط، فقـال له عمـير: انـزل رحمك اللـه، فـنزل ثم سـألهُ، فقـال: مِن أين جئت؟ فقال: من المدينة.

فقال: كيف تركت أمير المؤمنين؟ فقـال: صـالحًا، قال: فكيف تركت المسلمين؟ قـال: صـالحين، قـال: أليْسَ يُقيم الحدود؟

قـال: بلى ضـرب ابنًا له على فاحشة فمـات من ضربه، فقال عمير: اللهم أعن عمر فإني لا أعلمه إلا شديدًا حبُّه لك.

قال: فـنزل به ثلاثة أيـام وليس لهم إلا قُرصـةٌ من شعير كانوا يخُصُّونهُ بها ويطوون حـتى أتـاهُم الجَهْـدُ، فقال له عُمـيرُ: إنـكَ قَـدْ أجعتنا فـإنْ رأيْتَ أن تتحَّول عنَّا فافْعَلْ.

قال: فأخرج الدَّنانير فـدفعها إليـه، فقـال: بعثَ بها أميرُ المؤمـنين فاسـتعن هـا، قـال: فصـاح، وقـال: لا حاجة لي فيها فرُدَّهَا.

فقالت لهُ امرأته: إن احتجت إليها وإلا فضـعها في مواضعها.

فقال عمير: والله ما لي شيءٌ أجعلُها فيه، فشقَّت المرأةُ أسفل درعها فأعطتـهُ خرقـةً فجعلها فيهـا، ثم خرج فقسَّمهَا بين أبناءِ الشُهداء والفُقراء.

ثم رجع والرسولُ يظنُ أنهُّ يُعطيه منها شيئًا، فقال له عمير: أقرئ مني أمير المؤمنين السلام.

فرجع الحـارث إلى عُمـر، فقـال: ما رأيت؟ قـال: رأيت يا أمير المؤمنين، حالاً شـديدًا، قـال: فما صـنع بالدنانير؟ قال: لا أدري.

قـال: فكتب إليه عُمَـرُ: إذا جـاءك كتـابي هـذا فلا تضعه من يدك حتى تُقبل.

فأقبل إلى عُمر، فـدخل عليـه، فقـال له عمـر: ما صنعتَ بالدنانير؟ قال: صنعتُ ما صنعت، وما سؤالك عنها؟ قال: أنشدُ عليك لتُخبرني ما صنعت بها.

قال: قدّمتُها لنفسـي، قـال: رحمك اللـه، فـأمر له بوسقٍ من طعام وثوبين، فقال: أما الطعامُ فلا حاجة لي فيه قد تركت في المنزل صاعين من شعير.

إلى أن آكل ذلك قد جـــاء الله بـــالرزق ولم يأخُذ الطَّعـام وأما الثَّوبـان فـإنَّ أمَّ فلان عاريـة، فأخـذهُمَا ورجعَ إلى منزله.

فلم يلبث أن هلك ــــ رحمه الله ــــ فبلغ ذلك عمر فشق عليه وتــــــرحم عليه وخـــــــرج يمشي ومعه المشاؤون إلى بقيع الغرقَد.

فقال لأصحابه: ليتمنَّ كل رجل منكم أمنية، فقـال رجل: يا أمير المؤمنين، وددت أن عندي مالاً فـأعتق لوجه الله كذا وكذا.

وقال آخر: وددت أن عندي مالاً فـأنفق في سـبيل الله.

وقال آخـر: وددت أن لي قـوة فـأميح بـدلو زمـزم لحجاج بيت الله.

فقـال عمـر بن الخطـاب: وددت أن لي رجلاً مِثْـلَ عمـير بن سـعدٍ أستعينُ بـه في أعمـال المسـلمين ـ رحمه الله ورضي الله عنه ـ .

ألا رُبَّ ذِي طِمْــــــــرَيْن أشْـــــعَثَ أغْبَـــــرا	يُـدَافَعُ بـالأبْوَابِ إذْ ظَـلَّ مُعْسِــــــــــــــــرًا
مُطِيْعٌ يَخَافُ الله في كُـلِّ أمـــــــــــــــرِهِ	يَكَـــادُ مِن الأحْـــزَان أنْ يَتَفَطَّرا
وَلَـــوْ أقْسَـــمَنْ يَوْمًا عليه أبَـــــــــــــرَّهُ	وكـــان حَريًا أن يُجَـــابَ ويُجْبَــــــــــــــرَا

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصــحبه وسلم.

عن ابن قمـــادين قـــال: لم يكن أحد من كُـــبراء قريش الذين تأخر إسلامهم، فأسلموا يـوم فتح مكـة، أكـثر صـلاةً ولا صـومًا ولا صـدقةً، ولا أقبل على ما يعنيه من أمر الآخرة من سـهيل بن عمـرو، حـتى إن كـان لقد شـحُبَ لونـه، وكـان كثـير البكـاء رقيقًا عند قراءة القرآن.

لقد رُئي يختلــفُ إلى مُعــاذ بن جبل حــتى يُقرئــهُ القرآن وهو بمكة، حتى خرج مُعاذُ من مكة، فقـال له ضــرارُ بنُ الخطــاب: يا أبا يزيــد، تختلــفُ إلى هــذا الخزرجي يُقرئُك القرآن؟ ألا يكون اختلافك إلى رجُلٍ من قومِكَ مِن قريش؟

فقال: يا ضرار هذا الـذي صـنع بنا ما صَـنَع (يشـير إلى الكبر والعجب) حتى سبقنا كلَّ السَبْق.

أيْ لعمـري اختلـفُ [إليـه] لقد وضـعَ الإسـلامُ أمـرَ الجاهلية ورفعَ الله بالإسلام قومًا كانوا لا يُذكرون في الجاهلية فليتنا كنَّا مَعَ أولئك فتقدَّمْنَا.

وعن الحسن قال: حَضر بـاب عُمر بن الخطـاب سُـهيلُ بن عمــرو، و الحــارثُ وبلال، وتلك المــوالي الذين شهدوا بدرًا، فخرج آذن عمر، فأذن لهم وتــرك هؤلاء.

فقال أبو سُفيان: لم أر كـاليوم قـط، يـأذنُ لهـؤلاء العبيد ونحنُ على بابه لا يلتفتْ إلينا؟

فقــال سـهيل بنُ عمــرو: وكــان رجُلاً عــاقلاً، أيها القوم إني والله لقد أرى الذي في وجوهكم، إن كُنتُم غضابًا فاغضبُوا على أنفسكم.

دُعي القومُ ودُعيتُم فأسْرعُوا وأبطـأتُم، فكيف بكم إذا دُعُوا يوم القيامة وتُركتُم؟

أما والله لما سبقوكم إليه من الفضل ممَّا لا ترون أشدُّ عليكم فوتًا من بابكم هذا الذي كنتم تنافسـونهم عليه، قال: ونفضَ ثوبهُ وانطلق.

قــال الحســن: وصــدق والله سـهيل، لا يجعل الله عبــدًا أســرع إليه كعبــدٍ أبطأ عنــه. والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

وعن أبي قدامة السرخسي قــال: قــام العمــري للخليفة على الطريق، فقال له: فعلتَ وفعلتَ، فقال له: ماذا تريد؟ قال: تعملُ بكذا وتعمل بكذا، فقـال له هارون: نعمْ يا عمّ، نعم يا عمّ.

وعن سعيد بن سليمان قال: كنت بمكة في زقــاق الشطوى وإلى جنبي عبدالله بن عبدالعزيز العمــري، وقد حج هارون الرشيد.

فقــال له إنســان: يا أبا عبــدالرحمن هو ذا أمــير المؤمنين يسعى قد أخلى له المسعى، قـال العمـري للرجل: لا جزا كَ الله عني خـيرًا، كلفتـني أمـرًا كنت عنه غنيًا، ثم تعلَّق نعليه (أي لبسهما).

وقام فتبعته وأقبل هارون الرشيد من المروة يريد الصفا، فصاح به: يا هارون، فلما نظر إليه، قال: لبيكَ يا عمّ، قال: ارْقَ الصّفا، فلما رقيه، قال: ارم بطرفك إلى البيت، قال: قد فعلتُ، قال: كم هُم؟ قــال: ومن يُحصيهم؟ قال: فكم في الناس مِثْلُهُم؟ قال: خلــقٌ لا يُحصيهم إلا الله.

قـال: اعلم أيُها الرجل أنَّ كُـلَّ واحــدٍ منهم يُسـألُ عن خاصَّـــة نفسه وأنت وحـــدك تســـألُ عنهم كلّهم فانظر كيف تكون؟ قال: فبكى هارون وجلسَ وجعلُوا يُعطُونه مِنديلاً منديلاً للدموع.

قال العُمري: وأخرى أقولها، قال: قُلْ يا عَم، قال: والله إن الرجل ليُسْـرفُ في ماله فيسـتحقُّ الحَجْـرَ عليـه، فكيف بمن يُسْـرِفُ في مـال المسـلمين؟ ثم مضى وهارون يبكي.

قـــــال محمد بن خلـــــف: ســـــمعتُ محمد بن عبدالرحمن يقول: بلغني أن هارون الرشيد قال: إني لأحبّ أن أحجّ كل سـنة ما يمنعـني إلا رجل من ولــدِ عمر ثم يُسمعني ما أكره.

وقد روي لنا من طريق آخر أنه لقيهُ في المسـعى فأخذ بلجـــام دابتّه فـــأهْوت إليه الأجنـــاد فكفّهم عنه الرشيد فكلمه فإذا دموع الرشـيد تسـيل على معرفة دابتّه.

ثم انصــرف، وأنه لقيه مــرّةً، فقــال: يا هــارون، فعلتَ وفعلتَ، فجعل يسمعُ منه، ويقول: مقبولٌ منك يا عم على الرأس والعين.

فقــال: يا أمــير المؤمــنين من حــال النــاس كيتَ وكيتَ، فقال: عن غير علمي وأمـري وخـرج العمـري

إلى الرشـــيد مــرة ليعظه فلما نـــزل الكوفة زحف العسكر حتى لو كان نزل بهم مائة ألف من العـدوّ ما زادوا على هيبته، ثم رجع ولم يصلْ إليه.

وعن أبي يحـيى الزهـري، قـال: قـال عبدالله بن عبدالعزيز العُمـري عند موتـه: بنعمة ربي أحـدّث أني لم أصبح أملك إلا سبعة دراهم مِن لحاء شـجرٍ فتلته بيدي، وبنعمة ربي أحدّث: لو أن الـدُّنيا أصـبحت تحت قدمي ما يمنعني أخـذها إلا أن أزيل قـدمي عنهـا، ما أزلتها.

استسقى مُوسى بن نُصير في الناس في سنة 93 حين أقحطُوا بإفريقية فـأمرهم بصـيام ثلاثة أيـام، ثم خرج بهم ومَيَّز أهل الذمة عن المسـلمين وفَـرَّقَ بينَ البهائِم وأولادها ثم أمَرَ بالبُكاء وارْتفَـاع الضَّـجِيْجِ وهو يَدْعُو الله تعالى حتى انتصـفَ النهـار، ثم نـزَل، فقيْل له: ألا دعوتَ لأمير المؤمنين؟ فقـال: هـذا مـوطنٌ لا يذكَر فيه إلا الله عزَّ وجل فسقاهُم الله عــزَّ وجل لما قال ذلك.

كتب زر بن حُبيش إلى عبـدالملك بن مـروان كتابًا يعظُــهُ فيه فكـــان في آخـــر: ولا يُطْمِعَـــكَ يا أمـــير المؤمنين في طول الحياة ما يَظْهَـرُ من صـحة بـدنك فأنت أعلى بنفسك واذكرْ ما تكلَّم به الأولون.

إذَا الرجَالُ وَلَـدَتْ أوْلادُهَا وبليت مِن كِبَر أجْسَــادُهَا
وَجَعَلَتْ أسْــقَامُهَا تَعْتَادُهَا فذِي زُرْوعٌ قَدْ دَنَا حَصَــادُهَا

فلما قرأ عبدالملك الكتب بكى حـتى بـلَّ طـرف ثوبه بدموعـه، ثم قـال: صـدق زرٌ ولو كتب إلينا بغـير هذا كان أرفق بنا.

آخر:

إذَا رَأيْتَ بُرُوْقَ الشَّيْبِ قَدْ بَسَمَتْ بِمَفْـرق فَمُحَيَّا العَيْشِ قَـدْ كَلَحَا
يَلْقَى المَشِــيْبَ بــإجْلالٍ مَنْ قَدْ أعَـدَّ مِن الأعمـالِ

وتَكْرِمـــــــــــــةٍ ما صَـــــــــــــــلحُا

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصــحبه وسلم.

فصل

وعن الفضل بن الربيع قــال: حج أمــير المؤمــنين الرشـيد فأتـاني، فخـرجت مسـرعًا، فقلت: يا أمـير المؤمـنين، لو أرسـلت إليّ أتيتـك، فقـال: ويحك قـدْ حَــاكَ في نفسي شــيء، فــانظر لي رجلاً أســأله، فقلت: هاهنا سفيان بن عيينة.

فقال: امض بنا إليه، فأتيناه فقرعت الباب، فقـال: من ذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فخـرج مسـرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إلي أتيتك، فقــال له: خذ لما جئناك له رحمك الله.

فحدثه سـاعة ثم قـال لـه: عليك دين؟ قـال: نعم، فقـال: أبا عبـاس اقض دينــه، فلما خرجنـا، قـال: ما أغنى عني صاحبك شيئًا، انظر لي رجلاً أسأله.

فقلت له: هاهنا عبـدالرزاق بن همـام، قـال: امض بنا إليه فأتيناه فقرعت الباب، فقال: من هــذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين.

فخرج مسرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إلي أتيتك، قال: خذ لما جئناك له.

فحادثه ساعة، ثم قال لــه: عليك دين؟ قــال: نعم، قال: أبا عباس، اقض دينه، فلما خرجنا قال: ما أغنى صاحبك شيئًا انظر لي رجلاً أسأله.

قلت: هاهنا الفُضَيْلُ بن عياض، قال: امض بنا إليه، فأتينــاه فــإذا هو قــائم يصــلي يتلو آية من القــرآن يرددها، فقال: اقرع الباب، فقرعت الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: مالي ولأمير المؤمــنين؟ فقلت: ســبحان الله أما عليك طاعــة! أليس قد روى النـبي أنه قـال: «ليس للمـؤمن أن

يُذل نفسه» فنزل ففتح البـاب، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ المصباح ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت.

فـدخلنا فجعلنا نجـول عليه بأيـدينا فسـبقت كـفَّ هارون قبلي إليـه، فقـال: يا لها من كف ما ألينها إن نجت غدًا من عذاب الله عز وجل.

فقلت في نفســـي: ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي، فقـال لـه: خذ لما جئنـاك له رحمك اللــه، فقـــال: إن عمر بن عبـــدالعزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبداللــه، ومحمد بن كعب القـرظي ورجـاء بن حيـــوة، فقـــال لهم: إني قد ابتُليت بهـــذا البلاء فأشـــيروا عليَّ، فعـــدَّ الخلافة بلاء وعـــددتها أنت وأصحابك نعمة.

فقال له سـالم بن عبداللـه: إن أردت النجـاة غـدًا من عـذاب الله فصُـم عن الـدنيا وليكن إفطـارك من الموت.

وقال له محمد بن كعب القرظي: إن أردت النجاة من عـذاب اللــه، فليكن كبـير المسـلمين عنـدك أبًا وأوسـطهم أخًا وأصـغرهم عنـدك ولـدًا فـوقر أبـاك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء بن حيـوة: إن أردت النجـاة غـدًا من عـــذاب الله عز وجل فـــأحبَّ للمســـلمين ما تُحبّ لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مُت إذا شئت.

وإني أقول لك: إني أخاف عليك أشدّ الخوف يــوم تــزل فيه الأقــدام، فهل معك رحمك الله من يشــير عليك بمثل هذا؟

فبكى هارون بكاء شديدًا حـتى غُشي عليـه، فقلت لــه: ارفق بــأمير المؤمــنين، فقــال: يا ابنْ أم الربيع تقتله أنت وأصحابك وأرفُق به أنا ثم أفاق، فقال لــه: زدْني رحمك الله.

فقال: يا أمير المؤمنين، بلغني أن عــاملاً لعمر بن عبدالعزيز شكا إليه، فكتب إليه عمر: يا أخي، أذكّرك

طول سهر أهل النار في النار مع خلـود الأبـد، وإيـاك أن يُنصـــــرف بك من عند الله فيكـــــون آخر العهد وانقطاع الرجاء.

قال: فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حـتى قـدم على عمر بن عبدالعزيز، فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبي بكتابـك، لا أعـود إلى ولاية أبـدًا حـتى ألقى الله عز وجل.

قال: فبكى هارون بكاءً شديدًا، ثم قـال لـه: زدني رحمك الله، فقال: يا أمير المؤمـنين، إن العبـاس عم المصطفى جاء إلى النبي ، فقال: يا رسول اللــه، أمـرني على إمـارة، فقـال له النـبي : «إن الإمـارة حسـرة وندامة يـوم القيامــة، فـإن اسـتطعت أن لا تكون أميرًا فافعل».

فبكى هارون بكاء شـديدًا، وقـال لـه: زدني رحمك الله، فقال: يا حَسن الوجه أنت الذي يسـألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامـة، فـإن اسـتطعت أن تقي هــذا الوجه من النــار فافعــل، وإيــاك أن تصــبح وتُمسي وفي قلبك غشٌ لأحد من رعيتك، فإن النــبي قال: «من أصبح لهم غاشًا لم يرِحْ رائحة الجنة».

فبكى هارون، وقال له: عليك دَيْن؟ قـال: نعم دَين لربي يحاسـبني عليـه، فالويل لي إن سـألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم ألهم حجـتي، قـال: إنما أعني ديْن العباد.

قال: إن ربي لم يأمرني بهـذا، أمر ربي أن أوحّـده وأطيع أمــره، فقــال عــزّ وجــل: **﴿وَمَـا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُـدُونِ * مَـا أُرِيـدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيـدُ أَن يُطْعِمُـونِ * إِنَّ اللَّهَ هُـوَ الـرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾**.

فقال له: هذه ألف دينار خـذها فأنفقها على عيالك وتقـوَّ بها على عبادتـك، فقـال: سـبحان الله أنه أدُلُّكَ

على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هـذا؟ سـلمك الله ووفقك.

ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فلما ضـربا على الباب، قـال هـارون: أبا عبـاس إذا دَلَلْتَـني على رجل فدُلّني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين.

فدخلت عليه امـرأة من نسـائه، فقـال: يا هـذا قد تـرى ما نحن فيه من ضـيق الحـال فلو قبلت هـذا المـال فتفرجنا بـه، فقـال لهـا: مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسْبه فلما كبرِ نْحَروه فأكلُوا لحمه.

فلمَا سمع هارون هـذا الكلام قـال: نـدخل فعسـى أن يقبل المـال فلمـا علم الفضـيل خـرج فجلس في السطح على باب الغرفـة، فجـاء هـارون فجلس إلى جنبـه فجعـل يكلمـه فلا يجيبـه فبينـا نحن كـذلك إذ خرجت جارية سوداء، فقالت: يا هذا قد أتعبت الشيخَ منذ الليلة فانصرف رحمك اللـه، فانصـرف، تأمـل يـا أخي، هـل يُوجَـد في زَمَنِنـا مَن يَـردُ حُطَـامَ الـدنيا إذا عُرِضَ عليه لا حـول ولا قـوة إلا باللـه العلي العظيم، بَلِّغْ يا أخي من يأكلون بـالكتُب الدينيـة باسـم تحقيـق ونشر، وقل لهم قال الله تعالى: ﴿**قُلْ مَتَـاعُ الـدُّنْيَا قَلِيلٌ**﴾.

اعْلَمْ بــأنَّ طَرِيْــقَ الحَق مُنْفَــــــــــــرِدٌ ... والسَّـالِكُونَ طَرِيْـقَ الحَق أَفْـــــــــــــرَادُ

لا يَطلبُــــــونَ ولا تُطلَبْ مَسَـــــــــــاعِيهُم ... فَهُمُ على مَهَل يمشـــوُنَ قُصَّـــــــــــــادُ

والناسُ في غَفْلــةٍ عَمَّا له قَصَـــــــــــــدُوْا ... فَجُلُهُم عن طريـقِ الحَـقِّ رُقَّادُ

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصـحبه وسلم.

فصل

دخل سليمان بن عبدالملك المدينة فأقام بها ثلاثًا، فقال: أما هاهنا رجل ممن أدرك أصحاب رسـول الله يحدثنا؟ فقيل له: هاهنا رجل، يقـال لـه: أبو حـازم، فبعث إليه فجاء، فقال سـليمان: يا أبا حـازم، ما هـذا الجفـاء؟ فقـال له أبو حـازم: وأيُ جفـاءٍ رأيت مـني؟ فقال له: أتاني وجوه المدينة كلهم ولم تأتني.

فقــال: ما جــرى بيــني وبينك معرفة آتيك عليهــا، قال: صـدق الشـيخ يا أبا حـازم ما لنا نكـره المـوت؟ قـال: لأنكم عمـرتم دنيـاكم وخـربتم آخـرتكم، فـأنتم تكرهون أن تنقلـوا من العمـران إلى الخـراب، قـال: صدقت.

يا أبا حازم، فكيف القدوم على الله تعـالى؟ قـال: أما المحسن فكالغـــــائب يقـــــدم على أهله فرحًا مسـرورًا، وأما المسـيء فكـالأبق يقـدم على مـولاه خائفًا محزونًا.

فبكى سليمان، وقـال: ليت شـعريّ ما لنا عند الله يا أبا حازم، فقال أبو حازم: اعرض نفسك على كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عند الله.

قــال: يا أبا حــازم، وأني أصــيب تلك المعرفة من كتاب الله، قال: عند قوله تعـالى: ﴿**إِنَّ الأَبْـرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾.

قال: يا أبا حازم، فأين رحمة الله، قال: قريب من المحسنين.

قال: يا أبا حازم من أعقل الناس؟ قــال: مَن تعلم الحكمة وعلمها الناس.

قال: فمن أحمق الناس؟ قـال: من حط نفسه في هوى رجل وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره.

قال: فما أسمع الدعاء؟ قال: دعاء المخبتين، قال: فما أزكا الصدقة؟ قال: جهد المقل.

قــال: يا أبا حــاتم ما تقــول فيما نحن فيــه، قــال: أعفني من هذا، قال سليمان: نصيحة تلقيها.

قال أبو حازم: إن ناسًا أخذوا هـذا الأمر عنـوة مِن غير مشاورة المسلمين ولا إجماع من رأيهم فسفكوا فيها الـدماء على طلب الـدُنيا ثم ارتحلـوا عنها فليت شعري ما قالوا وما قيل لهم.

فقال بعض جلسائهم: بئس ما قلتَ يا شيخ.

فقـال أبو حـازم: كـذبْتَ إن الله أخذ الميثـاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

قــال ســليمان: يا أبا حــازم، أصــبحنا تُصــيبُ منا ونصيبُ منكَ، قـال: أعـوذ بالله من ذلـك، قـال: ولِمَ؟ قال: أخاف أن أركن إليكم شـيئًا قليلاً فَيُـذيقني الله ضعفَ الحياة وضعفَ المماتِ.

قـال: فأشـرْ عليَّ، قـال: اتق الله أن يـراك حيثُ نهاك أو يفقدك حيثُ أمرك.

قـال: يا أبا حـازم، ادع لنا بخـير، فقـال: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره للخـير وإن كـان غـير ذلك فخُذْ إلى الخير بناصيته.

فقال: يا غلام هات مائة دينار، ثم قال: خُـذْ هـذا يا أبا حـازم، قـال: لا حاجة لي بها لي ولغـيري في هـذا المال أسوة فـإن واسـيت بيننا وإلا فلا حاجة لي فيها إني أخـاف أن يكـون لما سـمعتَ مِن كلامي أيْ ثمنًا له.

فكأن سليمان أعجبَ بأبي حـازم، فقـال الزهـري: إنه لجاري منذ ثلاثين سنة ما كلمته قط.

فقـال أبو حـازم: إنك نسـيتَ الله فنسـيتني، قـال الزهري: أتشْتُمني؟

قال سـليمان: بل أنْت شـتمت نفسـك، أما علمت أن للجار على الجار حقًا.

قـال أبو حـازم: إن بـني إسـرائيل لما كـانوا على الصـواب كـانت الأمـراء تحتـاج إلى العلمـاء وكـانت العلماء تفر بدينها من الأمراء.

فلما رأى قــوم من أراذل النــاس تعلمــوا العلم وأوتوا به الأمراء استغنت الأمراء عن العلمـاء واجتمع القوم على المعصية فسقطوا وهلكوا.

ولو كـان علماؤنا هـؤلاء يصـونون علمهم لكـانت الأمراء تهـابهم وتعظمهم، فقـال الزهـري: كأنك إيَّايَّ تريد وبي تعرض، قال: هو ما تسمع. اهـ.

أحضر الرشيد رجلاً ليوليه القضـاء، فقـال لـه: إني لا أحسن القضاء ولَسْتُ بفقيه.

قـــال الرشـــيد: فيك ثلاث خلال: لك شـــرف، والشرف يمنع صاحبه من الــدناءة، وفيك حلم يمنعك من العجلـة، ومن لم يعجل قل خطـؤه، وأنت تشـاور في أمرك، ومن شاور كـثر صـوابه، وأما الفقه فنظُمُ إليك من تتفقهُ عليه فولاه فما وجد فيه مطْعنًا.

دخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبـــــدالعزيز، فقال له: عِظْنِي يا يزيد، قال: اعلم يا أمير المؤمنين، أنك أول خليفة تموت، فبكى عمـر، ثم قـال: زدني يا يزيد، قال: يا أمـير المؤمـنين، ليس بينك وبين آدم إلا أبٌ مَيِّت فبكى عمـر، وقـال: زدني يا يزيـد، قـال: يا أمير المؤمنين، ليس بين الجنة والنار منزلة، فسـقط عمر مغشيًا عليه ـ رحمه الله ـ.

وقال الرشـيد لابن السـماك: عظـني وكـان في يد الرشـيد شـربة من مـاء، فقـال: يا أمـير المؤمـنين، أرأيْتَ لو حُبسـتْ عَنْـكَ هـذه الشَّـرْبَةَ أكُنْتَ تفـديها بملكـك؟ قـال: نعم، قـال: فلو حُبِسَ عَنْـكَ خُروجُهَا أكُنْتَ تَفْدِيها بمُلْكِكَ؟ قال: نعم.

قال: لا خير في ملك لا يُساوي شربةَ ماء ولا بَوْلَةَ، فبكى الرشيد.

وقال علي لأسْقُفٍ قد أسـلم: عِظـني، فقـال: يا أمير المؤمنين، إن كـان الله معك فمن تخـاف، قـال: أحسنت زدني.

قـال: هب إن الله غفر ذنـوب المسـيئين أليس قد فاتهم ثواب المحسنين، قال: حسبي حسبي.

وقــال سـليمان بن عبــدالملك لحميد الطويــل: عظني، قـال: يا أمـير المؤمـنين، إن كُنْتَ إذا عصـيت الله تعــالى ظننت أنه يــراك فقد إجــترأت على رب عظيم، وإن كننت تظن أنه لا يراك فقد كفـرت بـرب كريم. والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

عن أبي هريـرة، عن النـبي أنه قـال: «كل عين باكية يــوم القيامة إلا عين غضت عن محــارم اللــه، وعين سهرت في سـبيل اللـه، وعين يخـرج منها مثل رأس الذباب من خشـية الله» يعـني دمعة مثل رأس الذباب.

قـال ابن مسـعود : أفـرس النـاس ثلاثـة: عزيز مصر حين قـال لامرأتـه: ﴿**أَكْرِمِي مَثْـوَاهُ**﴾، والمـرأة التي قالت لأبيها عن موسى: ﴿**يَـا أَبَتِ اسْـتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْـــرَ مَنِ اسْـــتَأْجَرْتَ القَــوِيُّ الأَمِينُ**﴾، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنهما ـ.

قال شقيق البلخي لحاتم الأصم: قد صحبتني مـدة فماذا تعلَّمْتَ مني؟ قال: ثمان مسائل:

الأولى: نظـرت إلى الخلق فـإذا كـان لشـخصٍ محبــوبٌ، عنــدما يصل إلى القــبر يفارقــه، فجعلت محبوبي حسناتي لتكون معي في القبر.

والثانية: نظـرت إلى قــول الله تعــالى: ﴿**وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَـوَى**﴾ فاجتهـدت في دفع الهـوى عن نَفْسِي حتى استقرت على طاعة الله تعالى.

وأما الثالثة: فــإني رأيت كل من معه شــيء له قيمة عنـده يحفظـه، فنظـرت في قوله تعـالى: ﴿**مَـا**

عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ فكلما وقع معي شيء له قيمة وجّهْتُه إليه ليبقى عنده.

و**أما الرابعة**: فإني رأيت الناس يرجعون إلى المال والحسب والشرف، فنظرتُ إلى قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾.

و**أما الخامسة**: فإني رأيت الناس يتحاسدون فنظرتُ في قول الله تعالى: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ** ﴾فتركتُ الحسد.

و**أما السادسة**: فإني رأيتهم يتعادون، فنظرت في قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًا** ﴾فتركتُ عداوتهم واتخذتُ الشيطان عدوًا.

و**السابعة**: رأيتهم يذلون أنفسهم في طلب الرزق، فنظرت في قول الله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾ فاشتغلتُ بما له علي وتركت ما لي عنده.

و**أما الثامنة**: فإني رأيتهم متوكلين على تجارتهم وصنائعهم وصحة أبدانهم فتوكلتُ على الله تعالى.

فائدة

اعلم أن ذكر الله تارة يكون لعظمته فيتولد منه الهيبة فالإجلال، وتارة يكون لقدرته فيتولد منه الخوف والحزن، وتارة لنعمته فيتولد منه الحمد والشكر؛ ولذلك قيل: ذكر النعمة شكرها، وتارة لأفعاله الباهرة فيتولد منه العبر، فحق على المؤمن أن لا ينْفَكَّ أبدًا من ذكره على أحد هذه الأوجه.

سأل بعضهم وكيعًا عن مقدمه هو وابن إدريس وحفص على هارون الرشيد، فقال: كان أول مَن دَعَا به أنا.

فقال لي هارون: يا وكيع، إن أهل بلدك طلبوا مني قاضيًا وسَمُّوْكَ لي فيمن سمَّوا وقد رأيت أن أشركك في أمانتي.

فقلتُ: يا أمـير المؤمـنين، أنا شـيخ كبـير وإحـدى عيـنيَّ ذاهبة والأخـرى ضـعيفة، فقـال هـارون: اللهم غفرًا خذ عهدك أيها الرجل وامض.

فقلت: يا أمير المؤمنين، والله لئن كُنْتُ صادقًا إنه لينبغي أن لا يُقبل مـني ولئن كُنتُ كاذبًا فما ينبغي أن تولي القضاء كذَّابًا، فقال: اخرُج فخرجتُ.

ودخل ابن إدريس فسمعنا وقع ركبتيه على الأرض حين برَكَ وما سمعناه يُسلم إلا سلامًا خفيًا.

فقال له هارون: أتدري لما دعوتُك؟ قال: لا، قـال: إن أهل بلـدك طلبـوا مـني قاضـيًا وإنهم سـمُّوك لي فيمن سمَّوا.

وقد رأيت أن أشـــركك في أمـــانتي وأدخلُك في صـالح ما أدخُل فيه من أمر هـذه الأمة فخـذْ عهـدكَ وامض.

فقال له ابن إدريس: وأنا وددتُ أني لم أكُنْ رأيتُك فخرج، ثم دخل حفصُ فقبل عهـده، فـأتى خـادمٌ معه ثلاثةُ أكياس في كل كيس خمسةُ آلاف.

فقال: إن أمير المؤمـنين يُقْـرؤكَ السـلامَ، ويقـولُ لكم: قد لزمتكم في شخوصكم مؤُنةٌ فاستعينُوا بهذه في سفركم.

قال وكيـعُ، فقلت: أقـرئ أمـير المؤمـنين السـلام، وقُل له قَدْ وقعتْ مـني بحيث يحبُ أمـير المؤمـنين، وأنا مُستغن عنها.

وأما ابنُ إدريس فصـاح به مُـرَّ من هاهنا أي رُدَّهَا وقبلها حفصُ. لله در وكيع وابن إدريس من رقم (1) في «الزهد».

وخــرجَت الرقعــةُ إلى ابن إدريس من بيننا عافانا الله وإيَّاكَ سـألناك لأن تــدخل في أعمالنا فلم تفعل ووصلناك من أموالنا فلم تقبل.

فإذا جاءك ابني المأمون فحدثه إن شاء الله.

فقـال للرسـول: إذا جاءنا مع الجماعة حـدثناه إن شاء الله.,

قام صالح بن عبدالجليل بين يدي المهـدي، فقـال: إنه لما سُـهِّل علينا ما تــوعَّرَ على غيرنا ن الوصــول إليه، قُمنا مقام الأداء عنهم، وعن رسول الله .

بإظهـــار ما في أعناقنا من فريضَـــةِ الأمر والنهي، عند انقطـاع عُـذْر الكتمـان، ولاسـيَّمَا حين اتسـمت بميسم التَّواضع وَوَعَدْتَ الله وحَمَلّةَ كتابه بإيثار الحق على ما سواه.

فجمعنا وإيَّاك مشـهدٌ من مشـاهد التمحيص، ليتم مُؤدينا على موعود الأداء وقابلنا على موعود القبول، أو يزيـــــــــــدنا تمحيص الله إيانا في اختلاف السر والعلانية.

وقد كان أصحاب رسول الله يقولون: من حجب الله عنه العلم عذبه الله على الجهل وأشد منه من أقبل عليه العلم وأدبر عنه، ومن أهدى الله إليه علمًا فلم يعمل به، فقد رغب عن هدية الله وقصر بها.

فاقْبَلْ مَا أهْدَى الله إليكَ من ألسنتنا قبـول تحقيق وعمل، لا قبول سمعة ورياء، فإنه لا يعدمك منا إعلام لما تجهل أو مواطئة على ما تعمل أو تـــــذكير من غفلة.

فقد وطَّن الله عز وجل نبيه على نزولها تعزية عما فات وتمحيصًا من التمـادي ودلالـةً من المخـرج، فقال جل وعلا: ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّـيْطَانِ نَـزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**﴾.

اطلع الله على قلبك ما يُنـــوِّرُهُ على إيثـــار الحق ومنابــذة الأهــواء ولا حــول ولا قــوة إلا بالله العلي العظيم، خرج أحدُ الزهاد في يـوم عيد في هيئة رثـة، فقيل له: أتخـرج في هـذا اليـوم في مثل هـذه الهيئة والناس يتزينون، فقال له: إني أريد أن أرافقك، فقال له إبراهيم: على أن أكون أملك لشيئك منـك، فقـال:

لا، فقال إبراهيم: أعجبني صــدقك، والله أعلم، وصل الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فصل

قام عمرو بن عبيد بين يدي المنصور، فقال لــه:ن إن الله أعطاك الدنيا بأسـرها فاشـتر نفسك ببعضـها واذكر ليلةً تمخض عن يوم لا ليلة بعده.

فوحم أبو جعفر ن قوله، فقال له الربيع: يا عمرو، غَمَمْتَ أمير المؤمنين، فقال عمـرو: إن هـذا صـحبك عشرين سـنة لم ير لك عليه أن ينصـحك يومًا واحـدًا وما عمل وراء بابك بشــيء من كتــاب الله ولا سُّــنة نبيه.

قال أبو جعفر: فما أصنع قد قلتُ لك: خـاتمي في يدك فتعال وأصحابك فاكفني، قال عمـرو: أدْعُنَا بعَـدْ لِك تَسخُ أنْفُسُنَا بِعَونك.

ببابك ألف مظلمة أردُدْ منها شيئًا نعلم أنك صادق.

سُئل بعضهم: أيُّ شـيء أشد على النفس؟ فقـال: الإخلاص؛ لأنه ليس للنَّفْس فيه نصيب.

وقـــال آخـــر: أعز شـــيء في الـــدنيا الإخلاص (والإخلاص أن يكون العمل مقصودًا به وجه الله خال من الرياء وجميع المفسدات والمنقصات)، قلتُ: هذا يحتاج إلى تيقظٍ دائمٍ في كل الأعمال.

قال بعضـهم: لسـتُ أستبشـع ولا أسـتنكر مـا يـرد علي من الألم؛ لأني قـد أصـلتُ أصـلاً وهو أن الـدنيا دارُ همٍ وغمٍ وبلاءٍ وفتنـــةٍ وكـــدرٍ ومصـــائبٍ وأن كله شر، ولابد أن يلقى الإنسـان بكل ما يكـره وإن تلقـاه بما يحب فهو فضـــل، وإلا فالأصل الأول وهو كـــثرة النكد والهموم والأحزان والأذى.

تَعَـوَّدْتُ مَسَّ الضـرُ حـتى ألِفْتُه وأسْلَمني طولُ البَلاءِ إلى الصَّـــبْرِ
وَوَسَّعَ صَدْرِي للأذَى كَثْـرةُ الأذَى وكان قَـدِيمًا قد يَضِـيْقُ به صَـــدْرِي

دخل ابن السـماك على الرشـيد، فقـال لـه: اتق الله وحــده لا شــريك له واعلم أنك واقف بين يــدي ربك ثم مُنْصَرفٌ إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما جنة أو نار.

فبكى الرشيد حتى خضل لحيتـه، فأقبل الفضل بن الربيع على ابن الســماك، فقــال: ســبحان الله وهل يتخــالج شك في أن أمــير المؤمــنين مصــروف إلى الجنة إن شاء الله لقيامه بحق الله وعدله في عباده.

قال: فلم يحفل ابن السماك بقوله ولم يلتفت إليه وأقبل على الرشيد، وقال: يا أمير المؤمنين، إن هــذا يعني الفضل بن الربيع ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم، قلت: ولو كان عنده ومعه ماذا يفيــد؛ لأن الحكم لله وحده.

فاتق الله وانظر لنفسك، فبكى هارون بكاءً شديدًا حتى أشفقوا وأفحم الفضل فلم يَنْطق بحرف.

كـــان يحــيى بن يحيا النيســـابوري يحضر مجلس مالــك، فانكسر قلمه فناوله المــأمون قلمًا من ذهبٍ فامتنعَ عن قبوله.

فقال له المأمون: ما اسمُكَ؟ قال: يحيى بن يحيى النيسابُوري، فقال: تَعْرفُني؟ قال: نعم أنت المــأمون ابنُ أمير المؤمـنين، قـال: فكتب المـأمون على ظهر جزئــه: نــاولتُ يحــيى بن يحيا النيســابوري قلمًا في مجلس مالك فلم يقبلهُ.

فلما أفضت الخلافة إليه بعث إلى عامله بنيســابور وأمـره أن يـولي يحـيى بن يحـيى القضـاء فبعث إليه يستدعيه.

فقال بعض الناس: إنه يمتنع من الحضـور، فـذهب إليه الرسـول فأنفذ إليه كتـاب المـأمون فقـرئ عليه فـامتنع من القضـاء، فـردَّ إليه ثانيًـا، وقـال: إن أمـير المؤمنين يأمرك بشيء وأنتَ تمتنع عليه؟ فقـال: قُل

لأمــير المؤمــنين تــاولني قلمًا وأنا شــاب فلم أقبله فتجبرُني الآن على القضاء وأنا شيخ.

فرفع الخبر إلى المأمون، قـال: قد علمتُ امتناعه ولكن نُولي القضاء رجلاً يختـاره، فاختـار رجُلاً فـوُلي القضاء.

ودخل علي يحيى فضم يحـيى فراشًـا كـان جالسًـا عليه كراهية أن يجمعه وإيَّاه، فقــال: أيُّهُ الشــيخ ألم تخترني؟

قال: إنما قلتُ اختاره وما قُلتُ لك تقلَّدَ القضاء.

عن محمد بن عبدالكريم المـروزي، قـال: لما ولي يحيى بن أكثم القضاء كتب إليه أخوه من مـرُو وكـان زاهدًا:

ولُقَمَــــةٌ بجَــــرِيش الملح تأكلها ... ألــذُّ مِن تمــرة تُحْشَــى بزُنْبُـــــوْرِ

وَأكلـــةٌ قَــرَّبْتْ لِلْمَلْــكِ صَـــــاحِبَها ... كحَبَّةِ الفَخِّ دَقَّتْ عُنْــــقَ عُصْــــفُوْر

قــال ابن ســيرين: كنا عند أبي عُبيــدة بن أبي حذيفة في قبة له وبين يديه كــانون فيه نــار فجــاءه رجل فجلس معه فساره بشيء لا ندري ما هو.

فقال له أبو عبيدة: ضع لي أصبعك في هذه النـار، فقال: سبحان الله تأمرني أن أضع أصبعي، فقـال أبو عبيدة: أتبخل علي بأصبع من أصـابعك في نـار الـدنيا وتسألني أن أضع لك جسدي كله في نار جهنم، قال: فظننا أنه دعاه للقضاء.

بنى أحد الأغنياء دارًا وكان في جـواره بيت لعجـوز يسـاوي عشـرين دينـارًا وكـان محتاجًا إليه لملاصـقته لداره ليتوسَّع به، فبذل لها فيه مأتي دينار فلم تبعه.

فقيل لــه: إن القاضي يحجر عليك بســفهك حيثُ تركتِ مأتي دينار لما يُساوي عشـرين دينـارًا، قـالتْ:

لِمَ لَمْ يَحْجُر القاضي على من يشـــتري بمـــأتين ما يساوي عشرين دينارًا.

فــأفحَمَت القاضي ومن معه جميعًا وتــرك الــبيتَ في يدها حتى ماتت.

كــان رجل مُتَعَبِّــدٌ بالبصــرة فعُــرض عليه القضــاء فتولاه، فلقيه الجنيد يومًا، فقال: من أراد أن يستودع ســرًا لِمَنْ لا يفشــيه فعليه بفلان وســمَّاه، فإنه كتم حُبَّ الدنيا أربعين سنة حتى قدر عليه.

قال رجل لداود الطائي: أوصــني، فــدمعت عينــاه، وقال: يا أخي، إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة بعد مرحلـــــة، حـــــتى ينتهي ذلك إلى آخر سفرهم، فــإن اسـتطعت أن تُقــدِّمَ كُــلَّ يــوم زادًا لما بين يــديك فافعــل، فــإن انقطــاع السـفر عن قــريب، والأمر أعجلُ من ذلــك، فــتزود لنفسك واقض ما أنت قاض، فكأنك بالأمر قد بغتكَ، إني لأقول لك هذا، وما أعلم أحدًا أشدَّ تقصيرًا مني!! ثم قام وتركه.

يا لاهيًا بالمنايا غَرَّةُ الأملُ ... وأنْتَ عَمَّا قَليــلٍ سَــوفَ تَرْتَحِــلُ

تبغي اللُحُـــوقَ بلا زادٍ تُقَدِّمُــهُ ... إن المخفِّينَ لما شَــمَّرُوا وَصَــلُوا

لا تـــركننَّ إلى الـــدنيا وزُخرفها ... فــأنْتَ مِن عاجــلِ الــدنيا سَــتَنْتَقلُ

أَصْــبَحتَ تَرجُو غــدًا يــأتي وبعــدَ غــدٍ ... ورُبَّ ذِي أمــلٍ قَــدْ خَانَه الأمَــلُ

هـــذا شَـــبابُك قَـــدْ ولَّتْ بشاشـــتُه ... ما بَعْــدَ شَــيْبك لا لهَــوٌ ولا جَــذَلُ

مـــاذا التعلُّلُ بالـــدنيا وقد نَشَـــرَتْ ... لأهْلِهَا صِـــحَّةً في طيّها عِلَــلُ

كان محمد بن السَّمَّاك يقول: يا ابن آدم، أنت في حبس منذ كنت، أنت محبـــوس في الصُّـــلْب، ثم في

البطن، ثم في القمــاط، ثم في المكتب، ثم تصــير محبوسًــا، في الكــدِّ على العيــال، فــاطلب لنفسك الراحة بعد الموت، لا تكون في حَبْس أيضًا!

وكان أبو حـازم يقـول: اضـمنوا لي اثـنين، أضـمن لكم الجنة: عملاً بما تكرهون إذا أحبه الله، وتركًا لما تحبون إذا كرهه الله.

وقال: انظر كلَّ عمل كرهت الموت لأجله فاتركه، ولا يضـــرك مـــتى مِتَّ. والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

قيــل: إن رجلاً نــادى المــأمون باســمه فغضب المـأمُونُ، وقـال لـه: أتـدعُوني باسـمي، فقـال: نحنُ نــدعُوا الله جل جلاله باســمه، فســكت المــأمون، وقضى حاجة الرجل وأنعم عليه.

حكي أن المأمون كان يجلس للمظالم يوم الأحــد، فنهض ذات يــوم من مجلس نظــره و الشــمسُ قد زالت، فتلقته امرأةٌ في ثياب رثةٍ، وقالت:

يَا خَيْرَ مُنْتَصِـفٍ يُهْـدَى لَـهُ الرَّشَـــدُ ... ويَا إمامًا بِـهِ قَــدْ أشَــرْقَ البَلَـــدُ

تَشْـكُو غليه حَفِيْـدَ المُلْـكِ أرْمَلَـــةٌ ... عَــدَا عَلَيهَا فما تَقْـوَى بِـهِ أسَـــدُ

فــابْتَزَّ مِنها ضَــياعًا بَعْــدَ مِنْعَتِهَا ... لَمَّا تَفَـــرَّقَ عَنها الأهْـــلُ والولَـــدُ

فــأطرق المــأمون مُفكــرًا في مقالتها ثم رفع رأسه، وقال مجيبًا لها:

مِن دُوْنِ ما قُلْتِ عِيْـــلَ الصــــبْرُ والجَلَـــدُ ... وأقْرَحَ القلبَ هَـذا الحُـزْنُ والكَمَـــدُ

هــذا أوانُ صــلاةِ الظهــرِ وأحْضِـــرِي الخَصْـــمَ في

فانْصَـــــــــــــرِفي اليَــــومِ الــــذي أعِــــدُ المجلسُ الســـــــبتُ إن أنْصِــفْكِ منه وإلَّا المجْلِسُ يُقْضَـــى الجُلـــوسُ لَنَا الأحَـــــــــــــــدُ

فانصــرفت وحضــرت يــوم الأحد أوَّل النــاس، فـوقفت في مجلس المتظلمين، فقـال لها المـأمون: من خَصمُك؟ فقالت: القـائمُ على رأسك العبـاسُ بنُ أمـير المؤمـنين، فقـال: المـأمون لقاضـيه يحـيى بن أكثم: أجلســها معــه، وانظر بينهمــا، فأجلســتْ معه والمـــأمون ينظر إليها فجعل كلامها يعلُـــو، فزجرها بعضُ الحُجَّاب، فقـــال المـــأمون: دعْهَا فـــإن الحق أنطقها والباطل أخرســه، وأمر بــردِّ ضــياعها إليــه، ففعل المأمون في النظر بينهُما ما يلزم.

وردَّ النظر بمحضر منه إلى من كفـــاه محـــاورة المرأة في استيضاح الـدعوى والحُجـة، وباشر بنفسه تنفيذَ الحُكمِ، وإلزام ابنه الحقَ وسلوكَ المحجَّة.

قـــال المـــأمون لابن إدريس: يا عم، إلى جـــانب مســـجدك دار إن أذنت لنا اشـــتريناها ووســـعنا بها المسجد.

فقال: ما لي إلى هذا حاجة قد أجزأ من كان قبلي وهو يجـــزوني، فنظر إلى قرحـــة في ذراع الشـــيخ، فقال: إنَّ معنا مُتطببين وأوديـة، أتـأذن أن يجيئك من يُعالجك؟ قال: لا، قد ظهر بي مثل هذا وبرأ.

فـأمر له بمـال، فـأبى أن يقبلـه، تأمل يا أخي، هل يوجد مثل هـــذا في عصـــرنا ما أظن يوجد ولا رقم ثلاثة، ولمَّا نزل بابن إدريس الموت بكت ابنته، فقال: لا تبكي فقد ختمتُ القرآن في هذا الـبيت أربعة آلاف ختمة.

بلغ يا أخي من ضاعت أعمارهم فرطًا عند التلفــاز والمـــذياع والكـــورة والجرائد والمجلات والـــورق والملاهي، والقيل والقال.

قــال عبــدالأعلى بن حمــاد أحد رجــال الحــديث: دخلتُ على بشر بن منصــور وهو في المــوت، فرأيته مُسْتَبْشرًا، فقلت: ما هـذا السـرور؟ قـال: أخـرُجُ من بين الحاسدين والباغين والمغتـابين، وأقـدَمُ على رب العالمين ولا أفرح.

قيــل لبعض الصــالحين وهــو يجــودُ بنفســه: كيـف تجـدك؟ وكيـف حالُـك؟ فقـال: كيـف حـالُ من يريـدُ سفرًا بعيدًا بلا زاد، ويـدخل قـبرًا موحشًـا بلا مُـؤنس، وينطلق إلى رب ملك عادلٍ بلا حُجَّة!!

وكَيْــفَ تَنــامُ العَينُ وهْيَ قَرِيـــــــــرةٌ   ولَمْ تَدْرِ في أَيِّ المكَـانَيْنِ تَنْـــــــــــزِلُ

قال الله جل وعلا: ﴿**فَـاعْتَبِرُوا يَـا أُوْلِي الأَبْصَـارِ**﴾ الاعتبار: النظر في الأمور ليعرف بها شيء من غــير جنسها، والأبصار: العقول، والمعنى: تَدَبَّرُوْا.

إخـواني، الـدنيا دار عـبرة ما وقعت فيها حـبرة إلا وردفتها عبرة أين من عاشرناه كثيرًا وألفنـا؟ أين من ملنا إليه بالوداد وانعطفنا؟ أين من ذكرناه بالمحاسن ووصـفنا؟ ما نعـرفهم لو عنهم كشـفنا ما ينطقـون لو سألناهُم والحفنا.

وسنصــيرُ كما صــاروا فليتنا أنفصــفنا، كم أغمضــنا من أحبابنا على كرههم جفنا؟ كم ذكرتنا مصــارعُ من فنى من يفنى؟ كم عزيز أحببنا دفنـاهُ وانصـرفنا؟ كم مُؤنسٍ أضجعناهُ في اللحد وما وقفنا؟ كم كريم علينا إذا مررنا عليه انحرفنا؟

ما لنا نتحقَّقُ الحقَّ فإذا أيقنَّا صدفنا، أما ضـرَّ أهلـهُ التسـويف، وها نحن قد سـوَّفْنا، أما التُـرابُ مصـيرنا فلماذا منه أنفنا، إلام تغرُّنا السلامة وكأن قد تلفنا.

أين حبيبنا الذي كان وانتقل؟ أما غمسهُ التلفُ في بحره وارتحلْ أما خلا في لحده بالعمــل، أين من جــرَّ

ذيل الخيلاء غــافلاً ورفل أمّا ســافر عنا وإلى الآن ما قفلْ.

أين من تنعم في قصره وفي قبره قد نزل، فكـأن بالــدار ما كــان، وفي اللحد لم يــزل، أين الجبــابرة الأكاسرة الأول الذين كنزوا الكنوز العُتـاة الأول، ملك الأموال سواهُم والدنيا دُول.

عَجَبًا لِعَيني كَيْـفَ يَطْرقُها الكَـــــــــرى ... ولِحْيلَـتي وقد انْجلَى عنِّي المِـــــــــرَا
ألْهُوْ وأعلَمُ أنُّهُ قَدْ فُوِّقَتْ ... نَحْـوي سِـهامُ الحْتَـفِ أمْ حَيْـــني كَـــــرَى
وإذا هَمَمْتُ بتَوبَـةٍ وإنَابَـةٍ
كم قد سَمِعْتُ وقَـدْ رأيتُ مَوَاعِظًا ... عَرضَتْ ليّ الـدُنيا فعُـدْتُ القَهْقَـــــــــرَي
أيْنَ الـذين طَغَـوْا وجَـارُوا واعتَـــــــــدَوْا ... لَوْ كُنْتُ أعقلُ حِينَ أسْـمَعُ أوْ أرَى
أوَ لَيْسَ أعْطَتْهُمْ مَقَالِيد العُلا ... وعَتْـوا وطَـالُوا واسْـتَخفُّوا بـــــــــالوَرَى
وتمسَـــكُوا بحِبَالها لكِنَّهَا ... حـــتى لقد خَضَـــعَتْ لهم أسْـــــدُ الشَّـــــرَى
ما أخْلَـدَتْهم بَعـدَ سـالِفِ رِفْعَـــــــــــــةٍ ... فَصَمَتْ لهم منها وثيقات العُـــــــــــرَى
وإلى البلَى قد نُقِّلُـــــوا وتَشَـــــــــــوَّهَتْ ... بل أنْـزَلَتْهُم مِن شَـمارِيْخِ الـــــــــــذُّرَى
لَـــوْ أخْبَـــروْكَ بحـــالهم ومَـــــــــــــآلِهم ... تِلْـــكَ المحاســـنُ تَحتَ أطَبـــــــــاقِ الثَّرى
أفْنَــاهُم مَن لَيْسَ يَفْــنى مُلْكثــــــــــــــهُ ... أبْكاكَ دَهْرَكَ ما عليهم قَدْ جَــــــــــــــرَى
فاصْـــرِفْ عن الـــدنيا طِماعَـــــــــكَ إنما ... ذُو البَطْشة الكُبْـــرَى إذا أخَـــــــذَ القُــــــرَى
وصِــلِ السُّــرَى عنها فما يُنْجِيْـــــــــكَ مِنْ ... مِيْعَادُهَا أبَدًا حَدِيْثٌ يُفتَرى
آفاتِها إلا مُواصَلةُ السُّــرَى

قال يحـيى بن أكثم: كـان للمـأمون وهو أمـير إذ ذاك مجلس نظر فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة، قال: فتكلم فأحسن الكلام والعبارة.

فلما تقـوض المجلس دعـاه المـأمون، فقـال لـه: إسـرائيلي؟ قـال: نعم، قـال: أسـلم حـتى أفعل بك وأصنع ووعده، فقال: ديني ودين آبائي، وانصرف.

قال: فلما كـان بعد سـنة جـاء مُسـلمًا فتكلم على الفقــه، فأحسن الكلام فلما تقــوض المجلس دعــاه المأمون، وقال: ألستَ صـاحِبَنا بـالأمس؟ قـال: بلى، قـال: فما كـان سـببُ إسـلامك؟ قـال: انصـرفت من حضرتك، فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت تراني حسنُ الخط، فعمدتُ إلى التوراة، فكتبتُ ثلاث نُسخ، فــزدتُ فيها ونقصــتُ وأدخلتها الكنيسة فاشــتريت مـني، المعـنى: ما بـارتْ تصـرَّفت وطـافت ما حُقِّقَ فيها.

وعمــدتُ إلى الإنجيــل، فكتبتُ ثلاثَ نسخ فــزدتُ فيها ونقصــتُ وأدخلتُها البيعة فاشــتريت مــني أي كالتوراة.

وعمــدتُ إلى القــرآن، فعملتُ ثلاثَ نسخ وزِدْتُ فيها ونقَصَتُ وأدخلتُها الورَّاقين فتصفحُوها.

فلما وجـدوا فيها الزيـادة والنقصـان رمـوا بها فلم يشتروها، فعلمتُ أن هذا كتابٌ محفـوظ، فكـان هـذا سبب إسلامي.

قـال يحـيى بن أكثم، فحججتُ تلك السـنة، فلقيت سُــفيان بن عُيينــة، فــذكرت له الخــبر، فقــال لي: مصــداقُ هــذا في كتــاب اللــه، قــال: قلتُ: في أي موضع؟ قال: في قوله تعـالى في التـوراة والإنجيـل: ﴿**بِمَـا اسْـتُحْفِظُوا مِن كِتَـابِ اللَّهِ**﴾فجعل حفظــهُ إليهم، فضاع، وقال عز وجل: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الــذِّكْرَ**

وَإِنَّا لَهُ لَحَـافِظُونَ فحفظه الله جل وعلا علينا فلم يَضع. اهـ.

قلتُ: ومن الأدلة أيضًـا قوله تعـالى: **لاَ يَأْتِيـهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ**.

قيل للحسين بن الفضـل: هل تجد في القـرآن من جهل شـيئًا عـاداه؟ قـال: نعم في موضـعين: **بَـلْ كَـذَّبُوا بِمَـا لَمْ يُحِيطُـوا بِعِلْمِـهِ**، وقولـه: **وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ**.

قـال عثما ن بن مـرة الخـولاني: لما ابتـدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وجد في حائط المسجد لوحًا من حجـارة فيه كتابة باليونانيـة، فعرضه على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدروا على قراءته.

فوجه به إلى وَهْب بن مُنبـه، فقـال: مكتـوب في أيـام سـليمان ابن داود –عليهما وعلى نبينا السـلام-، فقرأه، فإذا فيه: «بسم الله الـرحمن الـرحيم. يا ابن آدم، لو عاينت م ا بقي من يسير أجلك لزهـدت فيما بقي من طـول أملـك، وقصَّـرت عن رغبتك وحيلـك، وإنما تلقى نـدمك إذا زلتْ بك قـدمك وأسـلمك أهلك وحشمك، وانصـرف عنك الحـبيب، وودعك القـريب، ثم صرْتَ تدعى فلا تجيب، فلا أنت إلى أهلك عائد ولا في عملك زائـد، فـاغتنم الحيـاة قبل المـوت والقـوة قبل الفوت، وقبل أن يُؤخذ منك بالكظم ويحـال بينك وبين العمل» وكُتبَ زمَنَ سليمان بن داود.

فـــأمر الوليد أن يكتب بالـــذهب على الأزورد في حائط المسجد: ربنا الله لا نعبد إلا الله، أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبدالله الوليد أمـير المؤمـنين، في ذي الحجة سـنة سـبع وثمـانين، وهذا الكلام مكتـوب بالـذهب في مسـجد دمشق إلى وقتنا هذا وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة. والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

وقال صالح بن أحمد بن حنبل: ورد كتـاب علي بن الجهم: أن أمـير المؤمـنين –يعـني المتوكـل- قد وجّه إليك يعقوب المعـروف بصُـرَّةٍ، ومعه جـائزة ويـأمرك بالخروج، فالله الله أن تستعفى أو ترد المال، فيتسع القولُ لمن يُبغضك.

فلما كان من الغد ورد يعقوب فدخل عليه، فقـال: يا أبا عبدالله، أمـير المؤمـنين يُرئك السـلام، ويقـول: قد أحببتُ أن آنسَ بُقربك وأن أتــبرك بــدعائك، وقد وجّهتُ إليك عشرة آلاف درهم معونةً على سفرك.

أخـرج صُـرّةً فيها بـدرة نحو مـائتي دينـار والبـاقي صحاح، فلم ينظر إليها ثم شـدّها يعقـوب، وقـال لـه: أعودُ غدًا حتى أبصر ما تعزم عليه وانصرف.

فجئت بإجّانة خضــراء فكببتُها على البــدْرة، فلما كان عند المغرب قال: يا صالح، خذ هذا صيّرة عندك، فصيرّتها عند رأسي فوق البيت، فلما كـان سـحرًا إذا هو ينادي: يا صـالح، فقمتُ فصـعدتُ إليـه، فقـال: ما نمت ليلتي هذه.

فقلت: لِمَ يا أبتِ؟ فجعل يبكي، وقال: سلمتُ من هـؤلاء حـتى إذا كـان في آخـر عمـري بُليت بهم، قـد عزمت على أن أفرّق هذا الشيء إذا أصبحتُ.

فقلت: ذاك إليك، فلما أصبح، قال: جئني يا صــالح بميزان، وقال: وجهوا إلى أبناء المهـاجرين والأنصـار، ثم قـال: وجه إلى فلان يفـرق في ناحيـة، وإلى فلان فلم يـزل حـتى فرّقا كلها ونفضت الكيس، ونحن في حالة الله تعالى بها عليم.

فجاء بُني لي، فقال: يا أبت أعطني درهمًــا، فنظر إليّ فـأخرجت قطعة فأعطيته وكتب صـاحب البريـد: إنه قد تصــدق بالــدراهم من يومه حــتى تصــدّق بالكيس.

قال علي بن الجهم: فقلت: يا أمـير المؤمـنين، قد علم الناس أنه قد قبل منك، وما يصنع أحمد بالمال؟ وإنما قُوتُه رغيف، فقال لي: صدقت يا عليّ.

عن محمد بن موسى بن حماد الزيدي، قال: حملَ الحسن بن عبــدالعزيز الحــروي من ميراثه من مصر مائة ألف دينـــــــار، فحمل إلى أحمد بن حنبل ثلاثة أكياس في كل كيس ألفُ دينـار، فقـال: يا أبا عبدالله هذه ميراث حلالٌ فخذها فاستعنْ بها على عائلتك.

وعن إسحاق بن راهويـه، قـال: لما خـرج أحمد بن حنبل إلى عبـــدالرزاق انقطعت به النفقـــة، فـــأكرى نفسه من بعض الجمالين، إلى أن وافى صــنعاء، وقد كـان أصـحابه فعرضـوا عليه المواسـاة فلم يقْبَل مِن أحد شيئًا.

وعن الرمـادي، قـال: سـمعتُ عبـدالرزاق –وذكر أحمد بن حنبل فدمعتْ عيناهُ-، فقال: بلغني أن نفقته نفدت فأخذتُ عشرةَ دنـانير وأقمتُه خلف البـاب، وما معي ومعه أحــدٌ، وقُلتُ: إنه لا تجتمع عنــدنا الــدنانير وقد وجدتُ الساعة عند النساء عشرة دنانير، فخـذها فأرجُو ألا تنفقها حتى يتهيأ عندنا شيء، فتَبسَّمَ وقــال لي: يا أبا بكر، لو قبلتُ شيئًا من الناس قبلتُ منك.

وعن صـالح بن أحمد بن حنبـل، قـال: دخلتُ على أبي في أيــــــام الواثق والله يعلم في أي حالة نحنُ وخرج لصـلاة العصـر، وكـان له جلد يجلسُ عليـه، قد أتت عليه سنون كثيرةٌ حتى قد بلى فـإذا تحته كتـاب فيــه: «بلغــني يا أبا عبدالله ما أنت فيه من الضــيق، وما عليك من الــــدين، وقد وجهتُ إليك بأربعة آلاف درهم على يـــدي فلان لتقضي بها دينك وتُوسِّـــعْ بها على عيالــك، وما هي مِن صــدقةٍ ولا زكـاةٍ، إنما هُو شيء ورثُته من أبي» .

فقـرأت الكتـاب ووضعته، فلما دخـل، قلتُ لـه: يا أبت، ما هـذا الكتـاب؟ فـاحمر وجهـه، وقـال: رفعتُه منك، ثم قال: تذهب بجوابه إلى الرجل، وكتب:

«بسم الله الـــرحمن الـــرحيم. وصَـــل كتابك إليّ ونحن في عافيــة، فأما الــدين فإنه لرجل لا يُرهقنــا، وأما عيالنا فهم بنعمة الله والحمد لله».

قـــال صـــالح: وأمر المتوكل أن تُشـــترى لنا دار، فقال: يا صالح، لئن أقررت لهمن بشـراء دار لتكـوننّ القطيعةُ بيني وبينك فلم يزل يدفع شري الـدار حـتى اندفع.

وقال الشافعي لأحمد بن حنبل وهو يـتردد إليه في جملـــــة: من يأخذ عنه العلم ألا تقبل قضـــــاء اليمن، فامتنع من ذلك امتناعًا شديدًا.

وذلك أن الرشيد قـال للشـافعي: إن اليمن يحتـاج إلى قاضي.

وبالتـالي قـال أحمد للشـافعي: إني أختلف إليك لأجل العلم المزهد في الـــــدنيا، فتـــــأمرني أن ألي القضـاء ولـولا العلم لم أكملك بعد اليـوم، فاسـتحي الشافعي منه.

وروي أنه كـــان لا يصـــلي خلف عمه إســـحاق ولا خلف بنيه ولا يكلمهم أيضًـــــا؛ لأنهم أخـــذوا جـــائزة السلطان.

ومكث مــرةً ثلاثة أيــام لا يجد ما يأكله حــتى بعث إلى بعض أصحابه فاسـتقرض منه دقيقًا فعـرف أهلُه حاجته إلى الطعام فعجلوا، وعجنوا وخبزوا له سريعًا.

فقال: ما هذه العجلة كيف خبزتُم؟ فقـالوا: وجـدنا تنُــور بيت صــالح مســجورًا فخبزنا لك فيــه، فقــال: ارفعــوا ولم يأكل وأمر بسد بابه إلى دار صــالح؛ لأن صالح أخذ جائزة السلطان وهو المتوكل على الله.

وقال ابنه عبدالله: مكث أبي بالعسكر عند الخليفة ستة عشر يومًا لم يأكل فيها إلا ربع مد سويق يفطر

بعد كل ثلاث ليالٍ على قبضة منه حـتى رجع إلى بيته ولم ترجع إليه نفسه إلا بعد ســتة أشــهر. لله دره ما أورعه وأزهده، العفاف.

قال البيهقي: وقد كـان الخليفة يَبْعث إليه المائـدة فيها أشـياء كثـيرة من الأنـواع، وكـان أحمد لا يتنـاول منها شيئًا.

قال: وبعث المأمون مرة ذهبًا يقسم على أصحاب الحـــــــديث، فما بقي منهم أحد إلا أخذ إلا أحمد بن حنبل، فإنه أبى أن يأخذ.

قال المروزي: دخلت على أحمد بن حنبـل، فقلت: كيف أصــبحت؟ فقــال: كيف أصــبح من ربه يطالبه بأداء الفرائض، ونبيه يطالبه بـأداء السُّـنة، والمالكـان يطالبانه بتصــحيح العمــل، ونفسُــه تطالبه بهواهــا، وإبليس يطالبه بالفحشـــاء، وملك المـــوت يطالبه بقبض روحـــــه، وعياله يطلبونه بنفقتهم. والله أعلم وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

حُجب رجلٌ عن باب السـلطان فكتب إليـه: «نحن نعـــوذُ بالله من المطـــاع الدَّنيَّة، والهمم القصـــيرة، وابتـــــذال الحُريَّة، فـــــإن نفسي ولله الحمد أبية ما سـقطت وراء همَّةٍ، ولا خــذلها صـبرٌ عند نازلــة، ولا استرقها طمـعٌ ولا طبعت على هلـع، وقد رأيتك وليت عرضك من لا يصُــونه، ووصــلت ببابك من يشـــينُه، وجعلت ترجُمان عقلك من يكثر من أعـدائك ويتعـدَّى أوليائك ويُسيء العبارة عنك، ويوجهُ وفدَ الـذم إليـك، ويُضغنُ قُلـوب إخوانك عليـك؛ لأنه لا يعـرف لشـريفٍ قدرًا، ولا لصديق منزلةً، ويُزيل المراتب عن جهل بها وبــدرجاتها، فيحط العليَّ إلى مرتبة الوضــيع، ويرفــعُ الــدَّنيَّ إلى مرتبة الرفيــع، ويحتقر الضــعيف لضـعفه وتنبو عينه عن ذي البــذاذة، ويميــلُ إلى ذي اللبــاس والزينة ويُقدِمُ على الهوى ويقبلُ الرُشا».

لما مات جالينوس وُجد في جيبه رقعة مكتوب فيها: «أحمق الحمقى من يملأ بطنه من كل ما يجـــد، وما أكلته فلجسمك، وما تصدقت به فلروحك، وما خلَّفْتَـهُ فلغـــــيرك، والمحسن حي وإن نقل إلى دار البلى، والمسـيء ميت وإن بقي في الـدنيا، والقناعة تسـتر الخلةَ، وبالصبر تدرك الأمور، وبالتـدبير يكـثر القليـل، ولم أرى لابن آدم شـــــيئًا أنفع له من التوكل على الله».

قيل لبعض العلماء: ما خير المكاسب؟ قـال: خـير مكاسب الـدنيا طلب الحلال لـزوال الحاجـة، والأخذ منه للقـوة على العبـادة وتقـديم فضـله الزائد ليـوم القيامة.

وأمَّا خير مكاسب الآخرة فعلمٌ معمول به نشـرته، وعملٌ صالح قدمته، وسُّنةٌ حسنةٌ أحييتهَا.

قيـل: وما شر المكاسـب؟ قـال: أمَّا شر مكاسب الدنيا فحرام جمعتـه، وفي المعاصي أنفقتـه، ولمن لا يطيع ربه خَلَّفْتَه.

وأما شر مكاسب الآخـــرة: فحق أنكرته حســدًا، ومعصية قدمتها إصرارًا، وسُّنة سيئة أحييتها عُدوانًا.

قيـل: إنه ظهر إبليس –لعنه اللـه- لعيسى ــ عليه السلام ـ، فقال له: أفلست تقول؟ لن يصـيبك إلا ما كتب الله عليـك؟ قـال: بلى، قـال: فـارم نفسك من ذروة هذا الجبـل، فـإذا قـدَّرَ الله لك السـلامة تسـلم، فقال له: ملعون، إن الله تعالى يختـبر عبـاده، وليس للعبد أن يختر ربه.

خـير الـرزق ما سـلم من خمسـة: من الإثم في الاكتسـاب، والمذلة والخضـوع في السـؤال، والغش في الصـــناعة، وأثمـــان آلات المعاصـــي، ومعاملة الظلمة.

جعل الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه الرغبة في الدنيا.

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصـــــحبه وسلم.

قصة

روى ابن عســاكر عن أبي الحســين النــوري أنه اجتاز بزورق فيه خمر مع ملاح، فقال: ما هذا؟ ولمن هذا؟ فقال: هذه خمر للمعتضـد، فصـعد أبو الحسـين إليهـا، فجعل يضـرب الـدنان بعمـود في يـده حـتى كسرها كلها إلا دنا واحدًا تركه.

واســتغاث الملاح فجــاءت الشــرطة، فأخــذوا أبا الحسين، فأوقفوه بين يدي المعتضد.

فقال له: من أنت؟ فقال: المحتسب، فقـال: ومن ولاك الحســبة؟ فقــال: الــذي ولاك الخلافة يا أمــير المؤمنين، فأطرق رأسه ثم رفعها.

فقـــال: ما الـــذي حملك على ما فعلت؟ فقـــال: شـفقةً عليك لـدفع الضـرر عنـك، فـأطرق رأسه ثم رفعهـا، فقـال: ولأي شـيء تـركت منها دنًّا واحـدًا لم تكســره؟ فقــال: لأني إنما أقــدمتُ عليها فكســرتها إجلالاً لله تعالى، فلم أبالي بأحدٍ حـتى إذا انتهيت إلى هــذا الــدَّنِ دخل نَفْسِــي إعجــاب من قبيل أني قد أقدمتُ على مثلك فتركته.

فقال له المعتضـد: اذهب فقد أطلقتُ يـدك، فغيِّرْ ما أحببتَ أن تغيره من المنكر، فقال له النوري: الآن انتقض عزمي عن التغيير.

فقال: ولِمَ؟ فقال: لأني كُنتُ أغيرهن لله وأنا الآن تغـيرت النيـة، فقـال: سل حاجتـك، فقـال: أُحُبُّ أن تخرجني من بين يديك سالمًا فأمر به فـأخرج فصـار إلى البصـرة، فأقـام بها مختفيًا خشـية أن يشق عليه أحد في حاجة عند المعتضــد، فلما تــوفي المعتضــدُ رجع إلى بغداد.

قصة

دخل المنصور يومًا إلى قصر الذهب، فقام النـاس إلا فرجُ بنُ فضالة، فقـال له وقد غضب عليـه: لِمَ لَمْ تقم؟

قـال: خفتُ أن يسـألني الله عن ذلك ويسـألك لم رَضِيْتَ بذلك، وقد كره رسول الله ﷺ القيام للناس.

قال: فبكى المنصور وقربه وقضى حوائجه.

وقــال الأصــمعي: قــال المنصــور لرجل من أهل الشـــام: احمد الله يا أعــــرابي الـــذي دفع عنكُم الطــاعون بولايتنــا، فقــال الأعــرابي: إن الله أحكم الحــاكمين لا يجمع علينا حشــفًا وسُــوء كَيل ولايتكم والطاعُون.

وقال: أتي برجل ليُعاقبه، فقال: يا أمير المؤمـنين، الانتقام عـدلٌ، والعفو فضْـل، ونعـوذْ أمـير المؤمـنين بالله أن يرضى لنفسه بـــأوكس النصـــيبين، وأدنى القسمين دُونْ أرفع الدرجتين فعفا عنه.

وقال المنصور لابنه المهدي: إن الخليفة لا يُصلـحه إلا التقوى، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعــة، والرعية لا يُصـلحُها إلا العـدل، وأولى النـاس بـالعفو أقـدرهُم على العُقوبــة، وأنقصُ النــاس عَقلاً من ظلم من هو دُونه.

وقــال: يا بُـني اسـتدم النعمة بالشــكر، والقــدرة بالعفو، والطاعة بالتـأليف، والنَّصر بالتواضع والرحمة للناس، ولا تنسَ نصيبك من الدنيا ونصـيبك من رحمة الله.

كتب سـالم بن عبدالله بن عمر بن الخطـاب إلى عمر بن العزيز لمَّا ولي عُمر الخلافـــــة: أما بعد يا عمـــر، فإنه قد ولي الخلافة والملك قبلك أقـــوام، فماتوا على ما قد رأيت ولقُوا الله فرُادًا بعد الجُمـوع والحفدة والحشم، وعالجوا نـزعَ المـوت الـذي كـانوا منه يفرُون فانفقـأت أعينهم الـتي كـانت لا تفتأ تنظر لذاتها واندفنت رقابُهم غير مُوسدين بعد لين الوسائد

وتظاهر الفُرش والمرافق والسُرُر والخـدم وانشـقت بطونهم الـتي كـانت لا تشـبع من كل نـوع ولـون من الأمـــوال والأطعمة وصـــارُوا جيفًا بعد طيب الـــروائح العطرة حتى لو كانوا إلى جانب مسـكين ممَّنْ كـانوا يحقرُونَه وهم أحياء لتأذَّى بهم ولنفر منهم بعد إنفــاق الأمـوال إلى أغراضـهم من الطيب والثيـاب الفـاخرة اللينة كـــانوا ينفقـــوا المـــال إســـرافًا في أغراضـــهم وأهــــوائهم، ويُقـــترون في حق الله وأمـــره، فــــإن استطعت أن تلقاهُم يوم القيامة وهم محبوسُـون بما عليهم وأنت غير محبـوس ولا مُـرتهنٌ بشـيء، فافعل واستعنْ بالله ولا حول ولا قوة إلا بالله سبحانه.

وما مَلكٌ عَمَّا قَليل بسَالمٍ ... ولو كَثُـــــرَتْ أحْرَاسُـــــهُ ومَوَاكِبُـــــــــــــهْ

ومَن كـان ذَا بَـابٍ شَـدِيْدٍ وحـــــــــــاجب ... فَعَمَّا قَليـلٍ يَهْجُـرُ البـابَ حَاجِبُـــــــــــــهْ

وما كان غَيرُ المـوتِ حَتَّى تَفَـــــــــــرَّقَتْ ... إلى غَيْرِه أعْوَانُهُ وحَبَائِبُـهْ

فأصْـبَحَ مَسْـرُوْرًا به كُـلُ حَاسِـــــــــــدٍ ... وأسْلَمَهُ أصْـحَابُه وحَبائبُـهْ

عن عُمر بن ذر عن مجاهد، قال: إذا أراد أحـدكم أن ينـام فليسـتقبل القبلة ولينم على يمينـه، وليـذكر الله وليكن آخر كلامه عند منامه لا إله إلا اللــه، فإنها وفاء لا يدري لعلها تكون ميتته، ثم يقـرأ: **وَهُـوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ**.

كان محمد بن طارق يطوف في البيت العـتيق في اليوم والليلة سبعين أسبوعًا، وكان كرز يختم القـرآن في كل ليلة ويوم، وفي ذلك يقول ابن شبرمة:

لو شِـئتُ كُنْتُ كَكُـرزٍ في تَعَبُّدِهِ ... أو كابْنِ طارق حَولَ البيتِ والحَـــــــــــــــرَمِ

قَدْ حَالَ دُوْنَ لَذِيْـذِ العَيْشِ وسَارَعَا في طِلاب الفَــوزِ

خوْفُهُمَا والكَـــــــــــــــرَمِ

فائدة

من أحبَّ أن يكـون للأنبيـاء وارثًـا، وفي مـزارعهم حارثًا فليتعلم العلم النافع.

وهو ما جـاء عن النـبي ﷺ وهو علمُ دين الإسـلام، ففي الحديث: «العُلماء ورثة الأنبياء».

وليحضر مجالس العُلماء فإنها رياضُ الجنة.

ومن أحبَّ أن يعلم ما نصـــــيبه من عناية الله فلينظر ما نصيبه من الفقه في دين الله.

ففي الحـديث: «مَن يُـرِد الله به خـيرًا يفقهْـهُ في الـــــدينِ» ومن أحب أن لا ينقطع عمله بعد موته فلينشرُ العِلْمَ بالتَّدْوِيْن والتَعْليم.

ففي الحديث: «إذا مـات الإنسـان انقطَع عَمَلُه إلا مِن ثلاث: صـدقة جاريـة، أو علم يُنْتَفَـعُ بِـهِ، أو ولد صالح يَدعو له».

ومن سـأل عن طريق تَبلغه الجنـة، فليمشِ إلى مجـالسِ العلم، ففي الحـديث: «مَن سَـلَكَ طَرِيْقًا يلتمس فيه عِلْمًا سَلَكَ الله به طَرِيْقًا إلى الجنةِ».

وقال عمر بن الخطاب: من حـدَّثَ بحـديْث فعُمِـلَ به فله أجر مثل ذلك العمل.

وقال الحسنُ البصري: لـولا الله ثم العُلمـاء لصَـار الناس أمثال البهائم.

ألا رُبَّ مَن قَـدْ أنْحَـلَ الزُهْـدُ جِسْـمَهُ ... كثـيرُ صَـلاةٍ دَائِم الصـوم عابـــدُ

يَرُوْمُ وِصَالاً وهْوَ بـالطُّرْقِ جَاهِـــلٌ ... إذا جُهِـلَ المَقْصُـودُ قد خـابَ قاصِـدُ

قَلِيْلٌ مِنَ الأعمالِ بـالعِلْمِ نـــافِعٌ ... كثيرٌ مِن الأعمالِ بالجَهْـلِ فاســدُ

فائدة عظيمة

أربعة أعمال قطعتْ أعناق الرجـال، فاسـتعذ بالله منها:

أولها: الكفــر، وهو قســمان: **الأول**: كفر الشك وهو كفر الظن، **والثـــاني**: كفر السَّـــخَطِ والإبـــاء والاستكبار، وهو أعظم البليتين؛ لأن الشاك قد يـؤمن إذا اتضح له اليقين، وأما السـاخط فعلى بصـيرة كفر برب العالمين.

ثانيًا: البدعــة، وهي قســمان: مكفــرة، ومُظلِّلَــة، فمن ســلم منهما فقد ســلم له إســلامهُ، ومن ابتلي بأحدهما فقد حاد عن طريق الإسلام أو تاه عن سبيل النجاة.

ثالثًا: الغفلــةُ عن ذكر اللــه، فــإن المعصــية إلى الغافل أسرعُ من انحدار الصَّخْرةِ إلى المكان النازل.

رابعًا: حُبُّ الـــدنيا إذا تمكَّن من القلْب ولو كـــان عابدًا فبدنُه مُشـتغلٌ بالعبـادة وقلبُـهُ في أودية الـدنيا فتراهُ طُولَ عُمـره يتقـربُ إلى الله بظـواهره ويبعـدُ عنه بقلبه.

أنْتَ الأَمِيْـــرُ على الـــدنيا بزُهْـــــــــــــدِكَ في حُطَامِهَا وطَرِيْـــقُ الحَـــقِّ مَسْـــــــــــــــلُوكُ
وأَنْتَ عَبْـــــدٌ لهَا ما دُمْتَ تَعشِـــــــــــــــقُهَا إنَّ المُحِبَ لمنَ يَهْـــــوَاهُ مَمْلُـــــــــــــــوْكُ

موعظة

عباد الله الثواءُ في الدنيا قليل، ولنا عليها حســابٌ طويل فتهـيئُوا للنقلة عنها قبل أن يُـزعجكم الرحيـل، ليس لكم في ســفر الآخــرة إلا ما قــدمتموه ليــوم المعاد.

اســمع يا من أحيــاه الله على الإســلام اســأله أن يتوفــاك عليــه، ويا من ســربلهُ الله قميص الإيمــان،

اجتهد أن يكون بالتقاءِ معلمًا، ويا من اســتحفظه الله القــرآن كُن به مُؤمنًــا، القــرآن يَـدُلنا على المتــاجر الرابحة ونحنُ متــأخرون، ويُزهــدنا في الــدنيا الفانية ونحن فيها راغبون.

عباد الله ينبغي للحاضر أن يكون سامعًا، وللسامع أن يكون واعيًا، وللدّاعِي أن يكون بما دعا إليه عاملاً، وللعامل في عمله أن يكون مخلصًا.

واعلم يا ابن آدم، أنك مــريض القلب من جهــتين، **إحداهما**: مخالفتك لأمر الله، و**الأخرى**: غفلتك عن ذكر الله.

ولن تجد طعم العافية حـــتى تكـــون على طاعة مُقيمًــا، ولــذكر الله مُــديمًا، فعــالجْ مــرض المخالفة بالتوبة، ومرض الغفلة بالإنابة والرجوع إلى الله.

يَا مُعْرضًـــا عن عَرْضِـــهِ وحِسَـــــــــــابِهِ ... لا يَسْــتَعدَث ليَــوْمِ نَشْــرِ كِتَابِـــــــــــهِ
مُتَعَلِّلاً بعيَالِـــهِ وبِمَالِـــهِ ... مْتَلَهيًا في أهْلِـهِ وصِـحَابِهِ
مُتَنَاسِيًا لِمَمَاتِهِ وضــرِيْحِهِ ... ونُشُــورِهِ وَوُقُوفِـهِ ومآبِـهِ
القـــولُ قَـــوْلُ مُصَـــدِّقٍ والفِعْـــــــــلُ ... فعْلُ مُكَذِّبٍ بِثوابه وعقَابِهِ
مَن قَــالَ قَــوْلاً ثم خَـالفَ قَوْلَـــــــــهُ ... بِفِعَالِــهِ فَفِعَالُه أوْلَى بِــهِ

قصة:

كان شـريك بن عبدالله القاضي الكـوفي لا يجلس للحكم بين الناس حتى يتغدى، ثم يخرج ورقـةً فينظر قبل أن يحكم بين الناس، ثم يـأمر بتقـديم الخُصُـومَة إليـه، فحـرس بعض أصـحابه على قـراءة ما في تلك الورقة التي يقرؤها قبل الحكم بين الناس، فإذا فيها: «يا شــريك بن عبداللــه، اذكر الصــراط وحِدَّتَــه، يا شريك، اذكر الموقف بين يد الله عز وجل».

تأمل يا أخي، هل يُوجَد في زمننا أمثال هؤلاء!!

قصة:

ذكر القاضي أبو الحسن محمد بن عدالواحد الهاشـمي عن شـيخ من التجـار، قـال: كـان لي على بعض الأمــراء مــال كثـير، فما طلــني ومنعــني حقي وجعل كلما جئتُ أطالبه حججـني عنـه، ويـأمر غلمانه يُؤذونَـني، فاشـتكيتُ عليه إلى الــوزير، فلم يفد ذلك شــيئًا وإلى أولي الأمر من الدولة فلم يقطعــوا منه شــيئًا، وما زاده ذلك إلا منعًا وجحـــودًا، فأيست من المـال الـذي عليه ودخلــني همٌ من جهتــه، فبينما أنا كذلك وأنا حائر إلى من أشتكي، إذ قال لي رجـل: ألا تأتي فلانًا الخياط إمام مسجد هناك؟

فقلت: وما عسى أن يصنع خياط من هـذا الظـالم وأعيـان الدولة لم يقطعـوا فيـه، فقـال: الخيـاط هو أقطع وأخــوف عنــده من جميع من اشــتكيت إليــه، فاذهب إليه لعلك أن تجد عنده فرجًا.

قال: فقصده غير محتفلٍ في أمره (يعني مسـتبعدٌ النجاح) فذكرت له حاجتي ومـالي وما لقيت من هـذا الظالم.

فقــام معي، فحين عاينه الأمــير قــام إليه وأكرمه واحترمه وبادر إلى قضـاء حقي الـذي عليه فأعطانِيْه كاملاً من غير أن يكون منه إلى الأمير كبير أمر.

غـير أنه قـال لـه: ادفع إلى هـذا الرجل حقـه، وإلا أذَّنْتُ فتغير لونُ الأمير ودَفَعَ إلي حقي.

قــال التــاجر: فعجبتُ من ذلك الخيــاط مع رثاثة حاله وضعف بنيته كيف انطاع وانقاد ذلك الأميرُ لهُ!

ثم إني عرضـتُ عليه شـيئًا من المـال فلم يقبـل، وقال: لو أدرتُ هذا لكان لي من المال ما لا يحصـى، فسـألته عن خـبره، وذكـرتُ له تعجـبي منه وألححتُ عليه.

فقــال: إن سـبب ذلك أنه كـان عنــدنا في جوارنا أمـير تـركي من أعـالي الدولة وهو شـاب حسن (أي

جميل)، فمرت به ذات يوم امرأة حسـناء قد خـرجت من الحمـام وعليها ثيـاب مرتفعة ذات قيمــة، فقـام إليها وهو ســـكران فتعلق بها يريـــدها على نفســـها ليدخلها منزله، وهي تأبى عليه وتصيح بـأعلى صـوتها تقـول: يا مُسـلمين، أنا امـرأة ذات زوج، وهـذا رجل يُريدين على نفسي ويدخلني منزله، وقد حلف زوجي بـالطلاق أن لا أبيت في غـير منزله ومـتى بت هاهنا طلقت منه ولحقني بسبب ذلك عـار لا تدحضه الأيـام ولا تغسله المدامع.

قــال الخيــاط: فقمت إليه فــأنكرت عليه وأردت خلاص المرأة من بين يديه فضربني بـدبوس في يـده فشج رأسي وغلب المرأة على نفسها فأدخلها منزله قهرًا.

فــرجعت وغســلت الــدم عــني وعصــبتُ رأسي وصليت بالناس صلاة العشـاء، ثم قلت للجماعـة: إن هــذا قد فعل ما قد علمتم فقومــوا معي إليه لِنُنْكِــرَ عليه ونخلص المرأة منه.

فقام النـاس معي، فهجمنا عليه في دار فثـار إلينا في جماعة من غلمانه بأيـــديهم العصى والـــدبابيس يضــربون النـاس، وقصــدني هو من بينهم فضــربني ضربًا شـديدًا مُبَرِّحًا حـتى أدمـاني وأخرجنا من منزله ونحن في غاية الإهانة والذل.

فرجعتُ إلى منزلي وأنا لا أهتدي إلى الطريق من شـدة الوجع وكـثرة الـدماء، فنمتُ على فراشي فلم يأخذني النوم، وتحيرت ماذا أصـنع حـتى أنقذ المـرأة من يـده في الليل لـترجع فتـبيت في منزلها حـتى لا يقع عليها من زوجها الطلاق، فألهِمْتُ أن أذن للصــبح في أثناء الليل لكي يظن أن الصـبح قد طلع فيخرجها من منزله فتذهب إلى منزل زوجها، فصعدت المنارة وجعلت انظر إلى بــاب داره وأنا أتكلم على عــادتي قبل الأذان هل أرى المـــرأة خـــرجت، ثم أذنتُ فلم

تخرج، ثم صمَّمْتُ على أنه إن لم تخرج أقمت الصلاة حتى يتحقق الصباح، فبينما أنا أنظر هل تخرج المرأة أم لا؟ إذ امتلأت الطريق فرسانًا ورجالة.

وهم يقولون: أين الذي أذَّن هـذه السـاعة؟ فقلتُ: أنا ذا وأنا أريد أن يعينــوني عليــه، فقـــالوا: انـــزل، فنزلت، فقالوا: أجب أمير المؤمنين.

فأخذوني وذهبوا بي إليه ولا أملك مِنْ نفسي شيئًا حــتى أدخلــوني عليــه، فلما رأيته جالسًــا في مقــام الخلافة ارتعدت من الخوف وفزعت فزعًا شديدًا.

فقــال: ادن، فــدنوت، فقــال لي: ليســكن روعك وليهدأ قَلبك، وما زال يلاطفني حتى اطمــأننت وذهب خوفي.

فقـال لي: أنت الـذي أذَّنْت هـذه السـاعة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، فقـال: ما حملك على أن أذنت هذه الساعة، وقد بقي من الليل أكـثر مما مضى منه فتغر بذلك الصائم والمسافر والمصلي و غيرهم.

فقلت: يؤمنــني أمــير المؤمــنين حــتى أقص عليه خبري؟ فقال: أنت آمنٌ، فذكرتُ له القصَّة.

قــال: فغضب غضــبًا شــديدًا، وأمر بإحضــار ذلك الأمير والمرأة من ساعته على أي حالة كانا فأحضـرا سريعًا، فبعث بالمرأة إلى زوجها مع نســوة من جهته ثقات ومعهن ثقة من جهته.

وأمـــره أن يـــأمر زوجها بـــالعفو والصـــفح عنها والإحسان إليها، فإنها مكرهة ومعذورة.

ثم أقبل على ذلك الشاب الأمير، فقال له: كم لك من الـرزق؟ وكم عنـدك من المـال؟ وكم عنـدك من الجواري والزوجات؟ فذكر له شيئًا كثيرًا.

فقـال لـه: ويحـك، أما كفـاك ما أنعم الله به عليك حــتى انتهكت حرمة الله وتعــديت حــدوده، وتجــرأت على السلطان، وما كفاك ذلك حتى عمدت إلى رجل أمـرك بـالمعروف ونهـاك عن المنكر فضـربته وأهنته

وأدميته فلم يكن له جواب، فـأمر به فجعل في رجله قيد وفي عنقه غل، ثم أمر به فأدخِلَ في جوالـق، ثم أمر به فضرب بالدبابيس ضربًا شديدًا حتى خفت.

ثم أمر به فـألقي في دجلة فكــان ذلك آخر العهد ثم أمر بدرًا صاحب الشــرطة أن يحتـاط على ما في داره من الحواصل والأمــوال الــتي كــان يتناولها من بيت المال.

ثم قال لذلك الرجل الصـالح الخيـاط: كل ما رأيت منكرًا صغيرًا كان أو كبيرًا، ولو على هــذا وأشــار إلى صاحب الشرطة فأعلمني.

فــإن اتفق اجتماعك بي وإلا، فعلى ما بيــني وبينك الأذان فأذن في أي وقت كان أو في مثل وقتك هذا.

قال: فلهذا لا آمرُ أحدًا من هؤلاء الدولة بشــيء إلا امتثلــوه ولا أنهــاهم عن شــيء إلا تركــوه خوفًا من المعتضد، وما احتجت أن أؤذن في مثل تلك الســاعة إلا الآن.

قال بعضهم مُوَبِّخًا نَفْسَهُ:

دَع التَّشَـــاغُلَ بـــالْغِزْلاَنِ والغَـــــــزَلِ ... يَكْفِيكَ مَا ضَاعَ مِنْ أيَّامِـكَ الأوَلِ
ضَـــيَّعْتَ عُمْـــرَكَ لا دُنْيَا ظَفِـــــــرْتَ بهَا ... وَكُنْتَ عَنْ صَالحِ الأعمَــالِ في شُــــــغُلِ
تَـــرَكْتَ طُـــرْقَ الهُـــدَى كالشــــمسِ واضِـــحَةٍ ... وَمِلْتَ عنها لِمُعْـــوَجٍّ مِنَ السُّــــــبُلِ
ولم تَكُنْ نَـــاظِرًا في أمْرِ عَاقِبَـــــــةٍ ... أأنْتَ في غَفْلَـــةٍ أم أنْتَ في خَبَـــــــلِ
يَا عَـــاجِزًا يَتَمَـــادَى في مُتَابَعَـــــــةِ النَّفْسِ ... اللجُوجِ ويَرْجُو أكْرَمَ النُّزلِ
هلا تَشَــبَّهْتَ بالأكيــاسِ إذْ فَطِنُــــــــوا ... فَقَدَّمُوا خَيْرَ مَا يُرْجَى مِنَ العَمَـــــــلِ
فَرَّطْتَ يَا صَاحِ فَاسْـتَدْرِكْ ... إن المَنِيَّةَ لا تَــــأتي على مَهَـــــــلِ

عَلَى عَجَـــــلٍ   أوْ بَشَّــــرَتْكَ بعُمْر غَيْر
هـــلْ أنْـــذَرَتْكَ يَقِينًا وَقْتَ   مُنْفَصِــــــلِ
زَوْرَتِهَا   ولا الزَّمَــانُ بمَا أمَّلْتَ فيه
هَيْهَـات هَيْهَـاتَ مَا الـدُّنْيَا   مَلي
ببَاقِيــــــةٍ   صَـــفْوًا فَمَا سَـــالَمَتْ إلا
لا تَحْسَبَنَ اللَيالي سَالَمَتَ   على دَخَــــــلِ
أحَــــــــدًا   فَهَـــلْ رَأيْتَ نَعِيمًا غَيْـــرَ
ولا يَغُرَّنْـــكَ مَا أولِيتَ مِنْ   مُنْتَقِــــــلِ
نِعَمٍ   فَقَابَلَتْهُ بِجُرْحٍ غَيْرِ مُنْدَمِلِ
كَمْ مِنْ فَـتىً جَبَرتْـهُ بَعْـدَ   بِسَــاطِ لَهْــوكَ بين التِّيــهِ
كَسْـــــــرَتِهِ   والجَــــــذَلِ
إلاَمَ تَرْفُـــــلُ في ثَـــوْبِ   فَمَا بِهِ كُنْتَ إلا غَيْرَ مُهْتَبِلِ
الغُـــــــرُورِ على
والشَّيْبُ وَافَاكَ مِنْهُ نَاصِحٌ   إنِّي أتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّــيْبِ
حَــــــــذِرٌ   في عَــــــذَلِ
ولَمْ تُرَعْ مِنْهُ بَـلْ أصْـبَحْتَ   فَبَهْجَةُ العُمْرِ قِدْ وَلَّتْ ولَمْ
تَنْشُــــــــدُهُ   تَصِـــــــــلِ
وَسِــــرْتَ تَطْلُبُ حَـــظَّ   وَحَالةٌ عَنْ طَرِيقِ الغَيِّ لَمْ
النَّفْسِ مِنْ سَـــــفَهٍ   تَحُـــــــــلِ
وَمَالَ عَصْرُ التَّصَابي مِنْـكَ   تَرَكْتَهَا باكْتِســابِ الــوِزْرِ
مُـــــــرْتَحِلاً   في ثِقَــــــلِ
أقْسَـمْتُ بالله لو أنْصَـفْتَ   على الضَّــمَائِرِ والأسْــرَارِ
نَفْسَـــــــكَ مَا   والحِيــــــلِ
أمَا عَلِمْتَ بأنَّ الله مُطَّلِعٌ   يُحْصَـــــى ولو كُنْتَ في
وكُلُّ خَيْرٍ وشَرٍّ أنْتَ فَاعِلُهُ   الأسْــــتَارِ والكِلَـــلِ
هَـذي الخَليقَـةِ في سَـهْلٍ
أمَا اعْتَبَـــرْتَ بِتَرْدَاتـــدِ   وفي جَبَــــــلِ
المَنُـــــــونِ إلى   أخَّرْتَ عَمَّنْ مَضَى إلا إلى
وسَوْفَ تأتي بلا شَكٍّ إليك   أجَــــــــلِ
فَمَا   بـــالحزْم وانْهَضْ بِعَـــزْمٍ
لكِنَّهُ غَيْــرُ مَعْلُــومٍ لَـدَيْكَ   مِنْـــكَ مُكْتَمِـــلِ

فَخُـــــذْ   شَرْخِ الشَّـبَابِ الـذي وَلَّى
دَع البطَالَـــةَ والتَّفْريـــطَ   ولَمْ يَطُل
وَابْــــكِ على   يُنْجِيــكَ مِنْ هَــوْلِ يَــوْمِ
ولَمْ تُحَصِّــلْ بِــهِ عِلْمًا ولا   الحَــــادِثِ الجَلَــــلِ
عَملاً   ولضوْ تَعَاظَمَ واحْـذَرْ بَيْعَـةَ
وابْخَل بـــدِينَكَ لا تَبْغِي به   السِّـــــــفَلِ
عِوَضًــــــا   عَمّا نَهَى وتَدَبَّرْهُ بِلا مَلَـلِ
واتْـلُ الكِتَـابَ كِتِـابَ الله   فَهْـــوَ النَّجَّاةُ لتَاليـــهِ مِنَ
مُنْتَهِيًا   الظُلَـــــلِ
وكُلَّ مَا فِيه مِنْ أمْر عَلَيْكَ   وَعَـدِّ عَنْ طُـرُقِ الأهْـوَاءِ
بِـــــهِ   واعْتَـــــزِلِ
ولازِمِ السُّنَّةَ الغَرَّاءَ تَحْـظَ   واحْفَـظْ لِسَـانَكَ واحْـذَرْ
بهَا   فِتْنَـــــةَ الجَـــــدَلِ
وَجَــانِبِ الخَـــوْضَ فِيمَا   حَمَّلْتَ نَفْسَـــكَ فيه غَيْـــرَ
لَسْـــــتَ تَعْلَمُـــــهُ   مُحْتَمَـــــلِ
وكُنْ حَريصًـا على كَسْـب   فَفِي القَنَاعـةِ عِـزٌّ غَيْــرُ
الحَلالِ ولَــــوْ   مُرْتَحِــــلِ
واقنَعْ تَجـدْ غُنْيَـةً عن كُـلِّ   مَا تَبْتَغِيـهِ بِلَا مَنٍّ ولا بَـدَلِ
مَسْــــألَةٍ   يَوْمًا ولَـوْ نِلْتَ مِنْـهُ غَايَـةَ
واطْلُبْ مِنَ الله واتْـــرُكْ   الأمَـــــلِ
مَنْ سِـــوَاهُ تَجـــدْ   وانْشُرهُ تَسْعَدْ بِذِكْرٍ غَيْـرِ
ولا تُـدَاهِنْ فَـتىً مِنْ أجْـلِ   مُنْخَــــذِلِ
نِعْمَتِــــهِ   تَحْقِدْ عَلَيْـهِ وفي عُتْبَـاهُ لا
واعْمَـلْ بعِلْمِـكَ لا تَهْجُـرْهُ   تطُـــــلِ
تَشْـــقَ بِـــهِ   صَـحَائفٌ لَـكَ مِنْهَا صِـرْتَ
ومَنْ أتَى لَـكَ ذَنْبًا فَـاعْفُ   في خَجَـــلِ
عَنْـــــهُ ولا   فَـــذَاكَ يَقْبحُ بَيْنَ النَّاسِ
عَسَـاكَ بـالعَفْوِ أنْ تُجْـزَى   بالرَّجُل
إذَا نُشِـــــرَتْ   أسْلَفْتَ مِنْ زَلَّةٍ لكِنْ على
ولا تَكُنْ مُضِمرًا مَا لَسْـتَ   وَجَـــــلِ
تُظْهِـــــرُهُ   تَجْـزِمْ بِتَسْـكينِ مَا في

ولا تَكُنْ آيسًا وارْجُ الكَرِيمَ   النَّفْسِ مِنْ عِلَـلِ
لما   جُنَّ الظَّلامُ بِقَلْبٍ غَيْـرِ
وَقِـفْ على بَابِـهِ المَفْتُـوحِ   مُشْـتغِلِ
مُنْكَسِـرًا   واخْضَـعْ لَـهُ وتَـذَلَّلْ وادْعُ
وارْفَعْ لَـهُ قِصَّـةَ الشَّـكوَى   وابْتَهِـلِ
وَسَـلْهُ إذا   عَسَـاكَ بِـالعَفْوِ والغُفْـرَانِ
ولازِمِ البَـابَ واصْـبِرْ لا   تَسْـمَحُ لي
تَكُنْ عَجِلاً   وضَـيَّعَ العُمْـرَ بَيْنَ النَّوْمِ
ونَـادِ يَا مَـالِكِي قَـدْ جِئْتُ   والكَسَـلِ
مُعْتَـذِرًا   حَتَّى غَـدَا في المَعَاصِـي
فَإِنَّني عَبْدُ سَوْءٍ قَدْ جَنَى   غَايَـةَ المُثُـلِ
سَـفَهًا   رَدَدْتَـني فَشَـقَاءٌ كَـانَ في
وغَـرَّهُ الحِلْمُ والإمْهَـالُ   الأزَلِ
مِنْـكَ لَـهُ   والعَفْـوُ أوْسَـعُ يَا مُـوْلاي
ولَيْسَ لي غَيْـرُ حُسْـنِ   مِنْ زَلَلي
الظَّنِّ فِيـكَ فَـإنْ   دين سِوَى دِيْنِكَ الإسْـلامِ
حَاشَـاكَ مِنْ رَدِّ مَثْلي   لَمْ أَمـلِ
خَائِبًا جَزِعًا   ولَيْسَ ذَاك بِسَـعْيٍ كَـانَ
ولَمْ أكُنْ بِكَ يَومًا مُشْـركًا   مِنْ قِبَلِي
وإلى
وكَـانَ ذَلِـكَ فَضْـلاً مِنْـكَ
جُـدْتَ بِـهِ

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وسلم.

فصل في ذكر قصص من نوادر الأذكياء والملوك

من ذلك ما حكي أنه قـدم رجل إلى بغـداد ومعه عقد يساوي ألف دينـار، فـأراد بيعه فلم يتفـق، فجـاء إلى عطّـار موصـوف بـالخير والدِّيانـة، فـأودع العقد عنده، وحجَّ، وأتى بهديَّة للعطار، وسـلم عليـه، فقـال له: من أنت ومن يعرفـك؟ فقـال: أنا صـاحبُ العقـد،

فلما كلمه رفسه وألقـاه عن دكانـه، فـاجتمع النـاسُ، وقالوا: ويلك! هذا رجل صالح، فما وجدت من تكـذب عليه إلا هذا! فتحيَّر الحـاج، وتـردد عليـه، فما زاده إلا شـتمًا وضـربًا، فقيل لـه: لو ذهبت إلى عضُـد الدولة لحصل لك من فراسته خيْر.

فكتب قصـــته، وجعلها على قصـــبةٍ ورفعها إليـــه، فقـال: ما شـأنُك؟ فقصَّ عليه القصـة، فقـال: اذهب غـدًا واجلس على دُكـان العطَّار ثلاثة أيَّام حتَّى أمــرَّ عليك في اليوم الرابـع، فـأقف وأسـلم عليك فلا تـرُدَّ عليَّ إلا السلام.

فإذا انصـرفتُ فأعِـدْ عليه ذكر العقـد، ثم أعلمـني بما يقولُ لك، ففعل الحاجُ ذلك، فلما كـان في اليـوم الرابع، جاء عضدُ الدولة في موكبه العظيم، فلما رأى الحاجَّ وقفَ، وقال: سـلامٌ عليكم، فقـال الحـاجُّ –ولم يتحرك-: وعليكم السلام.

فقـــال: يا أخي، تقـــدمُ من العـــراق ولا تأتينـــا، ولا تعرضْ علينا حوائجـك! فقـال لـه: ما اتَفَـقَ هـذا، ولم يــزد على ذلك شـيئًا، هـذا والعسـكرُ واقف بكمالـه، فانذهل العطارُ، وأيقنَ بالموت.

فلما انصــرف عضــدُ الدولــة، التفت العطــار إلى الحاجِّ، وقال له: يا أخي، مـتى أودعْتـني هـذا العقـد؟ وفي أيِّ شــيءٍ هُو ملفــوفٌ؟ فــذكرِّني لعلِّي أتــذكَّر، فقــال: من صـفته كـذا وكـذا، فقـام وفتَّش، ثم فتح جرابًا وأخـرج منه العقـد، وقـال: الله أعلم أنَّني كُنتُ ناسيًا، ولو لم تذكرني ما تذكَّرتُ.

فأخذ الحـــاج عقـــده ومضى إلى عضد الدولـــة، فأعلمــهُ [فبعث به مع الحــاجب إلى دكـان العطّـار] فعلّقه في عنقه، وصله على بابُ دكانِهِ ونُودِيَ عليــه: هـذا جـزاء من اسـتودع فجحـد! ثم أخذ الحـاج العقد ومضى إلى بلاده.

ومثله ما نُقل عن ذكاء إيــاس الــذي ســارت به الرُّكبــان، قيــل: إن رجلاً اســتودع أمين إيــاس مــالاً، وخـرج المـودعُ إلى الحجـاز، فلما رجع طلبه فجحـدهُ فأتى إياسًا فـأخبرهُ، فقـال إيـاس: أعلم أنَّك أتيتـني؟ قـال: لا، قـال: أفنازعته عند غـيري؟ قـال: لا، قـال: فانصرف واكتُم سرك، ثم عُدْ إليَّ بعد يومين.

فمضى الرجل، ودعا إيـاسٌ أمين، فقـال: قد حضر عنـدنا مـالٌ كثـير أريـدُ أن أسـلمهُ إليـك، أفحصـينٌ منزلُكَ؟ قال: نعم, قـال: فأعد موضـعًا للمـال، وقومًا يحملونه، وعاد الرجل إلى إيـاس، فقـال: انطلـقْ إلى صاحبك، فإن أعطاكَ المال فذَاكَ، وإن جحد فقُل له: إني أخبرُ القاضي بالقصَّة.

فـأتى الرجـلُ صـاحبه، فقـال: تُعطيـني الوديعة أو أشـكوك إلى القاضـي، وأخـبره بالحـال، فـدفع إليه المـال، فرجع الرجُـلُ وأخـبرَ إياسًـا، وقـال: أعطـاني الوديعة ثم جـــاء الأمين إلى إيـــاس ليأخذ المـــال الموعود به، فزجرهُ، وقال لـه: لا تَقْرَبْـني بعد هـذا يا خائن.

ومن لطائف المنقول من كتاب الأذكياء: أن يحـيى بن أكثم القاضي ولي القضاء بالبصرة وسنه عشرون سنة، فاستصغره أهل البصرة، فقال أحدُهم: كم سِنُّ القاضي؟ فَعَلِمَ يحيى أنه استصغرَ.

فقال: أنا أكبر من عتَّاب بن أسيد حين بعثه رسول الله قاضـيًا على أهل مكة يـوم الفتح، وأنا أكـبرُ من مُعـاذ بن جبل حين وجهـهُ رسـول الله قاضـيًا على أهل اليمن، وأنا أكـــبرُ من كعُبِ بن سُـــور حين ولاه عُمر بن الخطــاب قاضــيًا على أهل البصــرة، قــال: فعظُمَ في أعينُ أهل البصرة وهابُوه.

ومن المنقــول من كتــاب «الأذكيـــاء»: أن بعض اللصـوص دخل بيتًا ومعه جماعة تت أمـره ونهيه في القتل والسـرقة، فظفـرُوا بصـاحب الـبيت، وأوْقفـوه

للقتــلِ فــدخل عليهم في إبقــاءِ رُوحــه، وأخذ ما في البيت بكماله، فقال كبيرهم: حَلِّفُـوه بـالطلاق الثلاث، وعلى المصحف [الشريف ألا يذكرنا إلا بخــير، فحلف لهم بـــالطلاق الثلاث وعلى المصـــحف] ألا يعلمَ بهم أحدًا.

فأصـبح الرجل يـرى اللصُـوصَ يـبيعون متاعـهُ، ولا يقــدر أن يتكلمَ لأجل اليمين، فجــاء إلى الإمــام أبي حنيفة وأعلمــهُ حالــه، فقــال لــه: أحضر أكــابر حيِّكَ، وأعيان جيرانك، وإمـام جماعتـك، فلما حضـروا، قـال لهم أبو حنيفــة: هــلْ تُحبّــون أن يَـرُدَّ الله على هــذا الرجل متاعهُ؟ قالوا: نعم.

فقــال: أجمعُــوا كــلَّ ذي عــرقٍ منهم، فـأدخلوهم الجامِعَ، ثم أخرجوهم واحدًا واحـدًا، وكلَّمَّا خـرجَ منهم واحدٌ قُولوا: هذا لصكَ، فإن كان ليس بلصٍّ، قـال: لا، وإن كان لصَّهُ فيسكتُ، فـإذا سـكت فاقبضـوا عليـه، ففعلوا، فردَّ الله عليه جميع ما سُرق له.

ومنه أنَّ الربيع صــاحبُ المنصــور كــان يعــادي أبا حنيفة، فحضر يومًا عند أمير المؤمنين، فقال الربيــعُ: يا أمــير المؤمــنين، إن أبا حنيفة يُخــالف جــدك ابن عبــاس، وك ان جــدُّك يقــول: إذا حلف الرجل على شيء يمينًا ثم اسـتثنى بعد ذلك بيـوم أو يـومين كـان ذلك جـائزًا، وقــال أبو حنيفــة: لا يجُــوزُ الاســتثناء إلا مُتصلاً باليمين، فقال أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين، إن الربيع يزعُمُ أن ليس لك لي رقاب جُندكَ عهدٌ، قــال: كيف [ذلك]؟

قـــال: يحلفـــون لك ثم يرجعـــون إلى منـــازلهم فيستثنون، فتبطلُ أيمانُهم، فضحك المنصـورُ، وقـال: يا ربيع، لا تتعرضْ لأبي حنيفة.

ومنه أن الإمـــام أبا حنيفة قـــال: دخلتُ البادية فــاحتجتُ إلى المــاء، فجــاءني أعــرابيٌّ ومعه قربــةٌ

ملآنة، فأبى أن يبيعها إلا بخمسة دراهم فدفعتُها إليـه، ثم أخذت القربة.

فقلتُ: ما رأيك يا أعــرابي في الســويق؟ فقــال: هات، فأعطيته سويقًا ملتوتًا بزيت، فجعل يأكل حـتى امتلأ، ثم عطش، فقـــال عليَّ بشـــربة، فقلتُ لـــه: بخمسة دراهم على قـــدحٍ من مـــاءٍ، فاســـترددتُ الخمسة، وبقي الماء.

ومنه أن رجلاً اســتودع رجلاً مــالاً، وحجَّ ورجـــع، فطلبه فجحده وجعل يحلف لـه، فـانطلق الرجُل إلى أبي حنيفة، فخلا به وأخبرهُ بأمره، فقال له الإمـام: لا تُعلِمْ أحدًا بجحـوده، وكـان الرجل يُجـالسُ أبا حنيفـة، فقـــال له وقد خلا لهُما المكـــان: إن هـــؤلاء بعثـــوا يستشيرونني في رجُل يصـلحُ للقضـاء، وقد اخترتُـكَ، فانصرف من عند الإمام وقد طمع بذلك.

ثم جاء صاحب الوديعة، فقال له الإمام: ارجـعْ إلى صاحبك وذكرهُ لاحتمال أن يكون ناسـيًا فـذهب إليـه، وسأله فلم يحتج معه إلى علامة، بل دفع إليه متاعـه، وتوجه بعد ذلك إلى أبي حنيفـة، فقـال له أبو حنيفـة: إني نظـرتُ في أمـرك، فـأردتُ أن أرفع قـدرك، ولا أسميَّكَ حتى يحضر ما هُو أنفسُ مِن هذا.

ومنه أنه كـــان بجـــوار أبي حنيفة شـــابٌّ يغشى مجلسه، فقال له يومًا من الأيـام: يا إمـام، إني أريـدُ الــتزويج إلى فلان من أهل الكوفــة، وقد خطبتها من وليِّها فطلب مـني من المهر فـوق وسـعي وطـاقتي، فقـال أبو حنيفــة: فاســتخر الله تعـالى، وأعطِهِمْ ما طلبُوه مِنْكَ.

فأجابهم إلى ما طلبوا، فلما عقدوا النكاح جاء إلى أبي حنيفـــة، فقـــال: إني ســألتهم أن يأخــذوا مــني البعض، ويدعوا البعض عند الدخول، فأبوا، فما ترى؟ قال: احتل، واقـترض حـتى تـدخل بأهلـك، فـإن الأمر يكون أسهل عليك من تعقيدهم، ففعل ذلك.

فلما زُفَّتْ إليـه، ودخل بهـا، قـال له أبو حنيفـة: ما عليك أن تُظْهِر الخـــروج بأهلك عن هـــذا البلد إلى موضع بعيـــد، فـــاكترى الرجل جملين وأحضر آلات السَّفر وما يحتـاجُ إليـه، وأظهر أنَّهُ يُريـدُ الخـروج من البلد في طلب المعاش، وأن يصحبَ أهلهُ معهُ.

فاشـــتدَّ ذلك على أهل المـــرأة وجـــاءوا إلى أبي حنيفة يستشـــيرونَهُ، فقـــال لهم أبو حنيفـــة: له أن يخُرجها إلى حيث شاء، فقـالوا: لم نصـبر على ذلـك، قال: فارضوه بأن ترُدّثوا عليه ما أخذتُم منه، فأجابُوه إلى ذلك.

فقــال أبــوُ حنيفة للفــتى: إن القــوم قد ســمعوا، وأجابوا إلى أن يرُدوا عليك ما أخذوا منك من المهــر، ويـبرئوك منـه، فقـال الفـتى: لابُـدَّ من زيـادة آخـذُها منهم، فقال أبو حنيفة: أيُّما أحبُّ إليك، أن ترضى بما بذلوا لك.

وإلا أقــرت المــرأة لرَجُـلٍ بــدين عليها يزيـدُ على المهر، ولا يُمكنك حملُهـا، ولاً السَّـفرُ بها حـتى تقضي ما عليها من الـدَّين؟ قـال: فقـال الفـتى: الله الله يا إمـام! لا يسـمعُ أحـدٌ منهم بـذلك، ثم أجـاب وأخذ ما بذلوه من المهر.

ومنه أن رجلاً جاء إلى أبي حنيفة، وقـال: يا إمـام، دفنتُ مالاً من مـدة طويلـة، ونسـيتُ الموضـعَ الـذي دفنته فيه، فقال الإمـام: ليس في هـذا فقـهٌ فأحتـال لـــك، ولكن اذهب فصـــلِّ الليلة إلى الغـــداةِ، فإنك ستذكره إن شاء الله تعالى.

ففعـــلَ، فلمْ يَمْض إلا أقل من رُبع الليل حَتَّى ذكر الموضع الــذي فيــه، فجــاء إلى أبي حنيفة فــأخبره، فقال: قد علمتُ أن الشيطان لا يـدعُكَ تصـلِّي الليـلَ كُلَّه، فهلا أتممت ليلتك كُلَّها شُكرًا لله تعالى.

ومنه أن بعضهم كانت له زوجةٌ جميلة، وكان يحبُّها حبًّا شديدًا، وتبغضه بغضًا شـديدًا، ولم تـزُل المُنـافرة

بينهما البتة، فأضجره ذلك، وطـالت مُـدة تجرُّئها عليه في تغليظ الكلام، فقال لها يومًا: أنت طالق ثلاثًا بتاتًا إن خــاطبتني بشــيء، ولم أخاطبك بشــيء مثلــه، فقالت له في الحال: أنت طالق ثلاثًا بتاتًا.

فــأبلسَ الرجــلُ، ولم يــدر ما يُجيبُ! وخــاف في جوابها من وقُــــــــوع الطلاق، فأرشد إلى أبي جعفر الطــبري، فــأخبره بما جــرى، فقــال لــهُ: إذا طالبتك بــالجواب، فقُــلْ لهــا: أنت طــالق ثلاثًا بتاتًا إن أنا طلّقْتــك، فتكــون قد خاطبتها ووفيت بيمينــك، والله أعلم.

فصل

ومن المنقول عن أذكياء الصـبيان أنـهُ وقف إيـاس بنُ مُعاوية وهو صـبيٌّ إلى قاضي دمشق ومعه شـيخ، فقــال: أصْـلَحَ الله القاضــي! هــذا الشــيخُ ظلمــني، [واعتــدى عليَّ]، وأكل مــالي، فقــال القاضــي: ارفَق بالشيخ: ولا تستقبله بمثل هذا الكلام.

فقال إياس: [أصلح الله القاضي!] إن الحــقَّ أكــبرُ مني ومنه ومنك، قال: أسكت، قال: فإن سكت فمن يقــوم بحُجَّتي! قــال: فتكلّم، فوالله لا تتكلم بخــير، فقــال: لا إله إلا الله وحــدهُ لا شــريك لــه، فبلغ ذلك الخليفة، فعزل القاضي.

ومنه أن المتوكل قــــال يومًا لجلســــائه: نقم المسلمون على عثمان أشياء، منها: أن الإمام أبا بكر لما تسنَّم المنبر هبط عن مقام النبي مبرقــاة، ثم قـام عُمـرُ دون مقـام أبي بكـر، وصـعد عثمـانُ ذروة المنبر.

فقال عباد: ما أحـدٌ أعظم منه عليك من عثمـان يا أمـير المؤمـنين، وكيف ويلـك! قـال: لأنه صـعد ذورة المنـبر، ولو أنه كُلما قـام خليفة نـزل مرقــاةً، ونــزل عُثمــان عمن تقدمــه، كنت أنت تخطبنا من بــئر! فضحك المتوكل ومن حوله.

ومن دهــاء المنصــور أنه كــان جالسًــا في بعض الليـالي، وكـانت ليلة شـديدة الـبرد والـريح والمطـر، فـدعا بأحد الفرسـان، وقـال لـه: انهض الآن إلى فج طليارش وأقم فيـه، فـأول خـاطر يخطر عليك سـقه إلي.

قــال: فنهض الفــارس وبقي في الفج في الــبرد والــــريح والمطر واقفًا على فرســـــه، إذ وقف عليه قـــرب الفجر شـــيخ هـــرم على حمـــار له ومعه آلة الحطب، فقــال له الفــارس: إلى أين تريد يا شـــيخ؟ فقال: وراء حطب.

فقال الفارس في نفسه: هذا شـيخ مسـكين نهض إلى الجبل يسوق حطبًا، فما عسى أن يريد المنصـور منـه؟ قـال: فتركته فسـار عـني قليلاً، ثم فكـرت في قول المنصور، وخفت سـطوته، فنهضت إلى الشـيخ، وقلت له: ارجع إلى مولانا المنصور.

فقال: وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلي، سـألتك بالله أن تتركـني لطلب معيشـتي؟ فقـال له الفـارس: لا أفعـل، ثم قــدم به على المنصــور ومثله بين يديه، وهو جالس لم ينم ليلته تلك.

فقــال المنصــور للصــقالبة: فتشــوه، ففتش فلم يوجد عنــده شــيء، فقــال: فتشُــوا برذعة حمــاره، فوجدوا داخلها كتابًا من نصارى كانوا قد نزوعُــوا إلى المنصور يخدمون عنده إلى أصـحابهم من النصـارى، ليُقبلـوا ويضـروا في إحـدى النـواحي المعلومـة، فلما انبلج الصــبح، أمر بــإخراج أولئك النصـارى إلى بــاب الزاهـرة، فضُـربت أعنـاقهم، وضـربتْ رقبـةُ الشـيخ معهم.

ومن ذلك قصة الجـــوهري التـــاجر، وذلك أن رجلاً جوهريًا من تجـار المشـرق قصد المنصـور من مدينة عدن بجوهر كثير وأحجار نفيسـة، فأخذ المنصـور من ذلك ما استحسنه ودفع إلى التاجر الجـوهري صـرته،

وكانت قطعة يمانية، فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شط النهر.

فلما توسطها –واليـوم قائظ وعرقه منصـب- دعته نفسه إلى التـبرد ي النهـر، فوضع ثيابه وتلك الصـرة على الشط، فمرت حدأة فاختطفت الصـرة تحسـبها لحمًـــا، وصـــاعدت في الأفق ذاهبـــة، فقطعت الأفق التي تنظر إليه عين التاجر، فقامت قيامتـه، وعلم أنه لا يقــدر أن يســتدفع ذلك بحيلــة، فأسر الحــزن في نفسه، ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها.

وحضر الـــدفع إلى التجـــار، فحضر الرجل لـــذلك بنفســـه، فاســـتبان للمنصـــور ما بالرجل من المهانة والكآبة وفقد ما كـــان عنـــده من النشـــاط وشـــدة العارضة، فسأله المنصور عن شأنه، فأعلمه بقصته.

فقـال لـه: هلا أتيت إلينا بحـدثان وقـوع الأمر فكنا نسـتظهر على الحيلـة، فهل هـديت إلى الناحية الـتي أخذ الطائر إليها؟ قال: مر مشرقًا على سـمعت هـذا الجبل الـــذي يلي قصـــرك –يعـــني الرملـــة- فـــدعا المنصور شرطيه الخاص به، فقال له: جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة.

فمضى وجاء بهم سريعًا، فأمرهم بـالبحث عن من غـير حـال الإقلال منهم سـريعًا، وانتقل عن الإضـافة دون تدريج، فتناظروا في ذلك، ثم قالوا: يا مولانا، ما نعلم إلا رجلاً من ضـــــعفائنا كـــــان يعمل هو وأولاده بأيديهم ويتناولون السبق بأقـدامهم عجـزًا عن شـراء دابـة، فابتـاع اليـوم دابـة، واكتسى هو وولـده كسـوة متوســطة، فــأمر بإحضــاره من الغــد، وأمر التــاجر بالغدو إلى الباب.

فحضر الرجل بعينه بين يـدي المنصـور، فاسـتدناه والتاجر حاضر، وقال له: سبب ضاع منا وسـقط إليك ما فعلت به؟ قال: هو ذا يا مولاي، وضـرب بيـده إلى حجزة سراويله فأخرج الصرة بعينها.

فصاح التاجر طربًا وكاد يطير فرحًا، فقال له المنصور: صف لي حديثها، فقال: بينما أنا أعمل في جناني تحت نخلة إذ سقطت أمامي فأخذتها وراقني منظرها، فقلت: إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار، فاحترزت بها ودعتني فاقتي إلى أخذ عشرة مثاقيل عيونًا كانت معها مصرورة، وقلت: أقل ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها.

فأعجب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر: خذ صرتك وانظرها واصدقني عن عددها، ففعل، وقال: ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها وقد وهبتها له، فقال له المنصور: نحن أولى بذلك منك، ولا نُنَغِّصُ عليك فرحك، ولولا جمعه بين الإصرار والإقرار لكان ثوابه موفورًا عليه، ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضًا عن دنانيره، وللجنان بعشرة دنانير ثوابًا لتأنيه عن فساد ما وقع بيده.

و قال: لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاء، قال: فأخذ التاجر في الثناء على المنصور وقد عاوده نشاطه.

الدْهرُ يُعب ما يَضُرُّ وينفعُ	والصبرُ أحمدُ ما إليه يُرْجَعُ
والمَرْءُ فيما منه كان مَصِيرهُ	حينًا، وليس عن المنيةِ مَدْفعُ
فاحذر مفَاجأة المَنون فإنه	لا يُلْتِجَى منها ولا يُسْتَشْفعُ
أيْنَ الذين تجمَّعُوا وتحَصَّنُوا	وتوثَّقُوا وتجيَّشُوا وتمنَّعُوا
وتَعظَّمُوا وتحَشَّمُوا وتَجَبَّرْوا	وتَكَبَّرُوا وتمَوَّلُوا وتَرفَّعُوا
صاحَتْ بهم نُوَبُ الزمان فأسْرَعُوا	وحَدَا بهم حَادِي البِلىَ فتقطَّعُوا
ألا احْتَمَوْا عنه بِعَضْبٍ بَاتِرٍ	أو مَانَعُوهُ بالذي قد جَمَّعُوا
	فَتفرَّقَتْ أوْصَالهُم

كـــــانَتْ مَنَــــازِلُهم بهمْ   وتَضَعْضَـــــــــــــعُوا
مأنُوسَــــــــــــــةً   وسَــفَتْ على الآثـــارِ ريحٌ
واسْتَوْطَنُوا الأجْـدَاثَ بَعْـدَ   زَعْـــــــــــــزَعُ
قُصُـــــــــــــورهم   أنْ غَرَّهُم فيه وماذَا يُصْنَعُ
مـاذا أعَـدّثوا في الجـواب   بجَمِيـــلِ طاعَتِـــهِ وَوَجْـــهٌ
لِمُنْكَـــــــــــــــرٍ   أسْـــــــــــــفَعُ
وجَدُوا الذي عَملُوا، فَوَجْهٌ   ما دُمْتَ حَيًا فالنصـــيحةُ
أبْيَضُ   تنفــــــــــــعُ
أبُنَيّ كُن مُتَمَسِّـــــــكًا   بِخلافِ ما في نفسِــــهِ
بنَصِـــــــــــيْحَتي   يَتَـــــــــــذَرَّعُ
واحْـذَرْ مُجَـاوَرةَ الحَسـوُدِ   مِن كُل شــيءٍ يُقْتَنَى لــكَ
فإنَه   أنْفَــــــــــــعُ
وعَلَيْـــكَ بـــالحقِّ الجميل   فـــالحرُّ يَرْضَـــى بالقليـــلِ
فإنه   ويَقْنَــــــــــــعُ
وتَجَنَّب الدُنيا وكُن مُتَعَفَّفًا   أمَرَ المهيمنُ فهو حقٌّ يُتْبَعُ

وخُذ الكتابَ بقُوَّةٍ واعْمَـلْ   تَنْجُو به فهو الطَّرِيـــــقُ
بما   المهْيَــــــــــــعُ
واسْــلَكْ سَــبيلَ رَسُــولِهِ   شـــيءٌ، إليه مَصِـــيرُنَا
في أمْـــــــــرِهِ   والمرْجــــــــعُ
واعْلَمْ بـــــأنَّ الله لَيْسَ   صَـمَدٌ تَــذِلُّ له الرقــابُ
كمِثْلِـــــــــهِ   وتَخْضَــــــــعُ
حَيٌّ قَـدِيرٌ واحـدٌ مُتَنَـزِّهٌ   بالقِسْطِ يُعْطِي من يشـاء
مُتَكلِّمٌ عَـدْلٌ جَـوَادٌ مُنْعِمٌ   ويمْنَــــــــعُ
ذُو العَرْش لا تخفى عليه   منَّا ويَعْلَمُ ما نَقُـــــولُ
سَـــــــــــريرَة   ويَسْـــــــمَعُ
في الحشـرِ يَظْهَـرُ لِلْعِبـاد   كُلٌّ يَذِلُّ لَهُ وَكُـلٌّ يَضْـرَعُ
بلُطْفِــــــــهِ   ونَبِيُنَا فِينَا إليه يشـــفَعُ
العَـدْلِ يحكمُ في القيامـةِ   هو في الخلافـــةِ سَـــابقٌ
بِيْنَنَا   مُسْــــــــتَتَبِعُ
خَيْرُ البريَّةِ بَعْدَهُ صِـدِّيقُه   مِن بَعدِهِ حَبْرٌ جَوَادٌ سَلفَعُ

وكَــذَلِكَ الفــاروقُ أكْــرِمْ صَـــاحبٍ مُسْتَسْـلِمًا في الـدارِ وهو يُبَضَّـــعُ
ومُجَهِّز الجيشِ العظيم، ومن ثـــوَى وحُسَــــامُهُ ذاكَ البَطينُ الأنْـــزَعُ
وحَسِيْبُهُ ونِسـيْبُهُ وصَـفِيُّهُ وهُمُ الصَّـواحبُ والنجُـومُ الطُّلَّـــعُ
لَهُم المنَـاقِبُ والمـواهِبُ والعُلا يومَ المعَادِ وكُلُّ ذُخْرٍ يَنْفَعُ
وهم الـــذين بهِم يَفُـــوزُ مُحِبُّهُمْ

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصـــحبه وسلم.

فصل

قـال بعضُ العلمـاء: تـأملتُ التحاسُـد بين العُلمـاء، فـرأيتُ منشـأةُ من حُب الـدنيا، فـإن علمـاء الآخـرة، يتــوادون ولا يتحاســدون، كما قــال عز وجــل: ﴿**وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَـةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُـؤْثِرُونَ عَلَى أنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾.

وقـــال جل وعلا: ﴿**وَالَّذِينَ جَــاءُوا مِنْ بَعْــدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَـا وَلإِخْوَانِنَـا الَّذِينَ سَـبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا**﴾.

وقد كــان أبو الــدرداء يــدعو كل ليلة لجماعة من إخوانه.

وقال الإمام أحمد لولد الشافعي: أبُوكَ من الســتة الذين أدعُو لهُم كل ليلة وقتَ السَّحَر.

والأمرُ الفارقُ بين الفئتين أن علماء الدنيا ينظرُون إلى الرياسة فيها ويحبون كثرة الجمع والثناء، وعلماء الآخــرة بمعــزلٍ من إيثــار ذلــك، وكــانوا يتخوفونــهُ، ويرحمون من بُلَي به.

وقال علقمة: أكره أن يُوطأ عقبي.

وكـانوا يتـدافعون الفتـوى، ويحبـون الخُمـول، وهو عكس الشُهرة فهم لا يطلبُون جاهًا ولا منصبًا.

فمثل القـــوم كمثل راكب البحر إذا خبَّ أي هـــاجَ واضـطربَتْ الأمــواج، فعنــده شُــغْلٌ إلى أن يُــوقِنَ بالنجاة.

وإنمـا كـان عُلمَـاء السَّـلفِ يَـدْعُو بعضـهم لبعض؛ لأنهم ركبٌ تصـاحبُوا وتحـابوا في طاعـة اللـه فالأيـام والليالي مراحلُهم إلى سفر الجنة.

مــاتوا وغيّبَ في التُــراب شخوصُــــــــــهم
فالنشـرُ مِسْـكٌ والعِظـامُ رَمِيْمُ

وقـــال: رأيت جماعـــة من العُلمـــاء يتعشّــون (أي يتوسعون في أمرهم ويترخصون) ويظنون أن العلم يدفع عنهم.

وما يـــدرون أن العلم خصـــمهم وأنه يغفر للجاهل ســـبعون ذنبًا قبل أن يغفر للعـــالم ذنب؛ وذلك لأن الجاهل لم يتعرض بالحق والعالم لم يتأدب معه.

ووجه الأدب مع الله أن يعمل العــــــــالم بعلمه فيســتفيْد ويفيد ويخشى اللـــه، قـــال الله جل وعلا: ﴿**إِنَّمَـا يَخْشَـــى اللَّهَ مِنْ عِبَـادِهِ العُلَمَـاءُ**﴾، قـال: فتفكرت.

فـــإذا العلم الـــذي هو معرفة الحب وما يجب له ومعرفة الحقـائق والنظر في سـير القـدماء والتـأدب بآداب القوم ليس عندهم.

وإنما عندهم صور ألفـاظ يعرفـون بها ما يحل وما يحرم وليس كذلك العلم النافع، إنما العلم النافع فهم الأصول، ومعرفة المعبود.

والنظــر في ســيرة الرســول ﷺ وســير صــحابته والتــأدب بــآدابهم وفهم ما نقل عنهم هــذا هو العلم النافع الذي يـدعُ أعظمَ العلمـاءِ عند نفسه أحقـرَ مِن أجْهَلِ الجُهَال.

يا مَنْ بغَــــير رضَــــاهُ لا أتــرى بقُــربي مِن جَنَابِـكَ

أسْتَبْشِـــــــــــــــرُ أظْفُـــــــــــــــــرُ
حُـــزْني على مَا فــاتَ لْم أعْمَل بِــــــــــــــهِ عَمَلاً به ترضى عَليَّ وتَغْفِـــــــــــــــــرُ
وإذا اغتــــذى قَلْبٌ بطيب مَطَـــــــــــــــاعِم فَغِذَاءُ قلبي أنّهُ لَكَ يَذكرُ
وإذا تَقَرَّبَ ناسكٌ بِضَـحِيَّة فضَـــحِيَّتي أني لِنَفْسِــــي أنْحَـــــــــــــــــرُ
يا مَن خَــزَائِنُ جُــوده في قـــــــــــــــول كُنْ أمْنُنْ فـإنَّ الفضِـلَ عنـدك أغـــــــــــــــــزرُ
إن كُنْتَ تُعطِي الســائِلينَ لِفَقْـــــــــــــــرهم فأنا إلى جَــــــدْوَاكَ منهم أفْقَــــــــــــــــرُ
إن كــان بــالجُرْمِ الكبــير خَطِيْئَتي فأنا الشـهيدُ بـأن عَفـوَك أكْبَــــــــــــــــرُ
هَبْنِي أتَيْتُكَ بـالجَرَائِمِ كُلِهَا أنْتَ الــذي كُــلَّ الجَــرَائمِ تَغْفِــــــــــــــــرُ

وقــال: من أحب تصــفية الأحــوال، فليجتهد في تصفية الأعمال.

قــال الله عز وجــل: ﴿**وَأَن لَّوِ اسْــتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا**﴾.

وقال تبارك وتعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُـرَى آمَنُـوا وَاتَّقَــوْا لَفَتَحْنَــا عَلَيْهِم بَرَكَــاتٍ مِّنَ السَّــمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾.

وقـال النـبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبـارك وتعـالى: «لو أنَّ عبــادي أطــاعوني لَسَــقَيْتُهُمُ المطر بالليــل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أسمعهم صـوت الرعد».

وقال ﷺ: «البر لا يَبْلىَ، والإثم لا يُنْسَى، والــديان لا ينـام، وكما تـدين تُـدان». والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

موعظة

عبــاد اللــه، يجب على من لا يــدري مــتى يبغته الموت أن يكون مُستعدًا لهُ ولا يغترَّ بشـبابه وصـحته، فإن أقل من يموتُ الشيوخُ الطاعنين في السن.

وأكثرُ من يموت الشُبانُ خُصوصًـا في زمننـا الـذي كثُرتْ فيه الحوادث؛ ولهذا ينذرُ من يكبرُ وقد أنشدوا:

يُعَمَّرُ واحــدٌ فَيَغُــرُّ قَوْمًا ... ويُنْسَــى مَن يَمُــوتُ من الشَّـــبَابِ

آخر:

لا تَغْتَــرِرْ بِشَــبَابٍ نــاعِمٍ خَظِــلٍ ... فَكَمْ تَقَـدَّمَ قَبْـلَ الشَّـيْبَ شُــبَّانُ

وتصــور عظم ثــواب الســابقين الكــاملين وأنت نـاقص، والمجتهـدين وأنت متكاسـل، واجعـلْ نصب عينيكَ ما يلي:

قوله تعالى: ﴿**هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْـلَفَتْ**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ**﴾.

وقولـه تعـالى: ﴿**وَأَنـذِرْهُمْ يَـوْمَ الْحَسْـرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُـونَ**﴾ فتصــور الحســرة والندامة والحُــزن عنــدما تــرى الفائزين.

إذا أنْتَ لم تَرْحَلْ بِزادٍ مِن التُقى ... وأبْصَرْتَ بَعْـدَ المـوتِ مَن قد تــزوَّدَا

نَــدِمْتَ على أنْ لا تَكُــونَ كمِثْلِــهِ ... وأنَّكَ لم تُرْصِـدْ كَمَا كَـانَ أرْصَــدَا

فالبـــدارَ البـــدارَ والحَـــذر والحَـــذر من الغفلة والتسـويف وطـول الأمـل، فإنَّهُ لـولا طـولُ الأمل ما وقع إهمالٌ أصْلاً.

وإنما يُقْـدِمُ على المعاصي ويُـؤخر التوبـةَ لِطُـول الأمل وتبادر الشهوات.

وتنسى التوبة والإنابـةُ لطُـول الأمل وتفقد أوقاتك وما عملتَ فيها من الذنوب.

وتنسى التوبة والإناة لطول الأمل فيا أيُّها المُهْمِـلُ وكُلُّنا كـذلك انتهز فرصة الإمكــان وتفقد أوقاتك وما عملت فيها من الذنوب.

فبادر في محوها بالتوبة النصوح وأكـثر من الـدعاء والاستغفار كل وقت خصوصًا في أوقات الإجابة.

ومن أوقات الإجابة ثُلثُ الليل الآخـر، قـال تعـالى: ﴿**وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾.

ويوم الجمعة عند صعود الإمام المنبر للخطبة.

وفي آخر ســاعة من يــوم الجمعة وعند دخـــول الإمام للخطبة.

وعندما تسمع الأذان إلى أن يفرغ.

وبين الأذان والإقامة.

وبعد الصلاة الفريضة وبعد النافلة.

وعند الفطر للصائم وفي أيام رمضان ولياليه.

وعند نُزُول الغيث.

عشية عرفة.

وفي السجود.

وعند ختم القرآن وفي ليلة القدر.

وعند البكاء والخشية من الله.

فعلى الإنسان أن يُكـثر من الـدعاء والإلحـاح فيـه، فـإن الـدعاء له أثـرٌ عظيم، وموقـعٌ جسـيم، وهو مخُ العبادة.

لاسيما مع حضور قلب، وإخبـاتٍ، و خشـوع، وذلٍ، وانكسار، ورقةٍ، وتضـرعٍ، وخشـيةٍ، واسـتقبال القبلة

حال دُعائه، وعلى طهارة، ويجـدد التوبـة، ويكـثر من الاســتغفار، ويبـــدأ بحمد الله وتنزيهـــه، وتمجيـــده، وتقديسه، والثناء عليه، وشكره، ثم يصلي على النبي بعد الثناء على الله.

ويــدعو بالــدعاء المشــروع باسم من أســماء الله الحســنى، مناسب لمطلوبــه، فــإن كــان يُريد عِلمًــا، قال: يا عليم علمني، وإن كـان يطلب رحمـةً قـال: يا رحمنُ ارحمني، وإن كان يسـأل رزقًـا، قـال: يا رزاق أرزقني ونحو ذك، ويُوقنُ بالإجابة، فـإن الله جل وعلا أصدقُ القائلين، وقد قال سبحانه وتعـالى: ﴿**ادْعُـونِي أَسْـتَجِبْ لَكُمْ**﴾، وقــال لرســوله ﷺ: ﴿**وَإِذَا سَــأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَـرِيبٌ أُجِيبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾، وقـال عَـزَّ من قائـل: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَـرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾، وقـال: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْـطَرَّ إِذَا دَعَـاهُ**﴾، وهو سبحانه أوفى الواعدين، قال تعـالى: ﴿**وَعْـدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ**﴾، وقال جل وعلا: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً**﴾، ﴿**وَمَنْ أَصْـــدَقُ مِنَ اللَّهِ حَـــدِيثًا**﴾، وقال أهل الجنة: ﴿**الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ**﴾.

وإذا وقعت في محنة يصعب الخلاص منهــا، فليس لك إلا الدعاء واللجوء إلى اللــه، بعد أن تقـدم التوبة من الذنوب، فإن الزَّلل يُوجبُ العقوبة، قـال الله جل وعلا: ﴿**وَمَـا أَصَـابَكُم مِّن مُّصِـيبَةٍ فَبِمَـا كَسَـبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾.

فـإذا زال الـذنبُ بالتوبة الصـادقة النصـوح، ارتفع السَّبَب، فإذا أثبت ودعوتَ ولم تر لإجابة الدُعاء أثـرًا، فتفقدْ نفسك فربما كانت التوبة ما صحَّت فصحِّحْها.

ثم ادعُ ولا تضجر ولا تمل من الـدعاء فإنه عبـادة، وربما كـانت المصـلحة في تـأخير الإجابــة، وربما لم تكن المصلحة في الإجابة، قال تعـالى: ﴿**وَعَسَـى أَن تَكْرَهُـوا شَـيْئًا وَهُـوَ خَيْـرٌ لَّكُمْ وَعَسَـى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ**﴾.

فأنت تثاب وتُجـابُ إلى منافعـك، ومن منافعك أن لا تعطى ما طلبت بل تعوض غيره.

فإذا جـاءك الشـيطان، فقـال: إلى مـتى تـدعو ولا تجاب، فقل: أنا أتعبد بالدعاء، الدعاء مخ العبادة، وأنا واثق كل الثقة بالإجابة؛ لأن الله أصدق القائلين.

وقد قال جل وعلا وتقـدس لنبيه : **وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَـرِيبٌ أُجِيبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**، وقال تبارك وتعالى: **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** .

وعلم أنه ربما كــان التــأخير لبعض المصــالح فهو يجيءُ في وقت مناســب، وإذا ســألت شــيئًا فاقرنه بسؤال الخيرة فربما كان المطلوبُ سببًا للهلاك.

وإذا كُنتَ قد أمــرت بالمشــاورة في أمــور الــدنيا ليُبين لك صـاحبُك في بعض الآراء ما يعجـزُ رأيك عنه ثم ترى أن ما وقع لك لا يصلح فكيف لا تسـأل الخـير ربَّك الـذي أحـاط بكل شـيء علمًـا، والاسـتخارة من حسن المشاورة.

كُـلُ الوُجُـوْدِ لِعِـزِّ قَهْـركَ خَاضِـعُ ... والكُلُ في صَدقاتِ جُودكَ طَـامعُ

يا مَعْشَر الفُقَراءِ أمُّوْا بَابَهُ ... فَهُنَاكَ فَضْلٌ لِلْبَرِيَّةِ وَاسِعُ

يُعْطِي العَطَـاءَ فلا يُمَـانِعُ مَـانِعٌ ... يَقْضِـي القَضَـاءَ فلا يُـدَافِعُ دَافِـعُ

ما لِلْعِبَادِ عَليه حَقٌ واجِبُ ... كَلَّا ولا سَعْيٌ لَدَيْـهِ ضَـائِعُ

إن عُــذِّبُوا فبعَــدْ له أو نُعِّمُـوْا ... فبِفَضْــلِهِ وهْــوَ الكــريْمُ الواسِـعُ

إلزَمْ طَرِيْقَ الذِكْرِ عُمْـركَ دَائِبًا ... فالـذِكْرُ في القَلْبِ المحَبَّةَ زَارِعُ

قال أحدُ الوعاظ: هذا نذير الموت قد غـدا يقـول الرحيل غدًا، كـأنكم بـالأمر وقد قـرُب ودنـا، فطـوبى لعبدٍ استيقظ من غفلته ووعا.

كيف بكم إذا صاح إسرافيل ونفخ في الصور، قـال جل وعلا: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّـــــورِ فَـــــإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ**﴾.

فتصـور خروجك مـذعورًا تسـعى من تحت المـدر، وقد رُجت الأرض وبُست الجبـال، وشخصت الأبصـار لتلك العظــائم والأهــوال والمزعجــات ﴿**وَخَشَــعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا**﴾.

ففلق الخـائفُ، وشـاب الصـغيرُ، وزفـرت النـارُ، وأحـاطت الأوزار، ونُصب الصـراط، وُوُضع المـيزان، وحضر الحساب.

وجيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سـبعون ألف ملك يجرونهـا، قـال تعـالى: ﴿**وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَــذَكَّرُ الإِنسَــانُ وَأَنَّى لَــهُ الذِّكْرَى**﴾.

وشـهد الكتـاب وتقطعت الأسـباب، فكم من كبـير يقول: واشـيبتاه، وكم من كهل يُنـادي بـأعلى صـوته: واخيبتاهْ، وكم من شاب يصيح: واشباباه.

وبرزت النار، قال الله جل وعلا وتقدس: ﴿**وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ**﴾، وقال جل وعلا وتقدس: ﴿**وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِمَن يَرَى**﴾.

وسمع الخلائقُ حسيسها إلا من سبقت له الحُسنى من اللـه، قال تعـالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَـبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الحُسْـنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَـا مُبْعَـدُونَ * لاَ يَسْـمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِـدُونَ * لاَ يَحْـزُنُهُمُ الفَـزَعُ الأَكْبَـرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلائِكَـةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾.

وأيقن بـالردى والهلاك كل فـاجر، قـال تعـالى: ﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَـةِ إِذِ القُلُـوبُ لَـدَى الحَنَـاجِرِ**﴾وقامت ضوضاءُ الجدَل، وأحاط بصاحبه العملْ، قـال

جل وعلا وتقـدس: ﴿**وَرَأَى الْمُجْرِمُـونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا**﴾.

وحالت الألوان، وتوالت المحنُ على الإنسان، فأين عُدَّتُك، يا غافل عن هـذا الزمـان، أين تصـحيح اليقين والإيمان.

أترضى بالخســران والهــوان، أما علمت أنك كما تدين تُدان، أما تخـاف أن تقـول: ﴿**يَا حَسْـرَتَى عَلَى مَـــا فَـــرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ** ﴾أما علمت أعظم الخسران.

قال جل وعلا وتقدس: ﴿**قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَـةِ أَلاَ ذَلِـكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ**﴾.

كم في كتابك من خطأ وزلـل! وكم في عملك من سـهو وخلـل! هـذا وشـمس عُمـرك على أطـراف الذوائب وقد قرُب الأجل! كم ضـيَّعْتَ واجبًا وفرضًـا! وكم نقضت عهـــدًا محكمًا نقضًـــا! وكم أتيت حرامًا صريحًا محضًا! يا أجسادًا صحاحًا فيها قلوبٌ مرضى.

عبـاد الله أطـول النـاس حُزْنًا في الـدنيا أكـثرهم فرحًا في الآخـــرة، وأشد النـــاس خوفًا في الـــدنيا أكثرهم أمنًا في الآخرة.

إخـواني، المـؤمن يتقلب في الـدنيا على جمـرات الحـذر من نـيران الخـوف، يـرهب العاقبـة، ويحـذرُ المُعاقبةَ، فالخوفُ من النار مُتمكنٌ من سويداء قلبه.

فإن هفا بـأن حصل منه زلـةٌ توقـدت في قلبه نـارُ النَّدم، وإن تذكر ذنبًا اضطرمت نارُ الحُزْنِ في باطنه، وإن تفكر في مصيره ومُنقلبه التهبتْ نـارُ الحـذرِ في قلبِهِ، وصار لا يهنؤهُ طعامٌ ولا شراب.

خُـذْ ما صَـفَا لَـكَ فالحَيَـاةُ غُـــــــــــــرورُ
والموتُ آتٍ واللَّبيْبُ خَبِيْرُ

لا تَعْتِبَنَّ على الزمانِ فإنَّهُ
فَلَـــكٌ على قُطْب الهلاكِ يَـــــــــــــدورُ

تَعْفُو السُطوْرُ إذا تَقَـادَمَ عَهْـدُهَا
والخَلْــقُ في رِقَ الحَيَــاةِ سُطُوْرُ

كلٌ يَفرُ من الرَّدَى لِيَفُوْتَـهُ
وله إلى مَا فر منهُ مَصِيْرُ

فانظُرْ لنَفْسِكَ فالسّلامة نُهْـزَةٌ
وزَمَانُها ضَـافي الجَنَـاحِ يَطِيْرُ

مِـرْآةُ عَيْشِـكَ بالشَّـبَابِ صَقِيْلَةٌ
وجَنَـاحُ عُمْـرَكَ بالمشِيْبِ كسِيْرُ

بَـادِرْ فـإنَّ الـوَقْتَ سَيْفٌ قَاطِعٌ
والعُمْـرُ جَيْشٌ والشَبابُ أمِيْرُ

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فائدة عظيمة النفع

قال بعض العلمـاء: ذكر الله تعالى في ابتداء الأقوال والأفعال أنسةٌ من الوحشة وهداية من الضلال.

وحمدُه جل وعلا فرضٌ لازمًا لكُلِّ أحد على كُلِّ حال؛ لأنه أهلٌ أن يُحمد إن ابتلى، وإن منع، وإن أنال.

ففضلُه جل وعلا عمَّ النساء والرجال والكهُولَ والأطفال.

ولطف في قدره وقضائه بأهل أرضه وسمائه، فلم يخْلُ من لُطْفِهِ سافلٌ ولا عال.

اللهم يا من لا تُمدُّ الأيدي بالرغبة والمسألة إلا إليه، ولا يُعول في كشف الشدائد والكروب في الدنيا والآخرة إلا عليه.

يا مَن كُلُ الرغائب والمطالب لديه، وجميع المواهب لديه، ليس لضُرنا سواك كاشف، ولا على ضعفنا سواك عاطف.

المعافى من عافيتـه، فعافنا يا مولانا من مُوجبـات سخطِك وعقابك، والمهديُ من هديتـه، فاهـدنا يا ربنا سُبُل الواصلين إلى مرْضاتك.

بذكر الله تحيا القُلوُب من موت غفلتهـا، فالله الله بالمداومة على ذكر الله سرًا وجهارًا ليلاً ونهارًا قيامًا وقُعودًا ماشين ومُضطجعين.

ذاكر الله لا يســـتطيع الشـــيطان في ظلَّه مقيلاً، ذاكر الله لا يجد الشـــيطان إلى إغوائه ســـبيلاً، ذاكر الله لا يزال شيطانُهُ مدحُورًا ذليلاً، ذاكر الله قد تكفل الله بحفظه، وكيف يضيعُ من كان الله به كفيلا! بذكر الله تطمئن القلوب وتحيا، قال الله تعالى: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ القُلُـوبُ**﴾، وقـال تعـالى: ﴿**فَـاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾.

ذِكْـــرُ إله الـــزَمْ هُـــدِيْتَ فيه	القلــــــــــوبُ تَطِيْبُ لِـــــــــــــــــذِكِرِهِ والأفْـــــــــــــــوَاهُ
والذكرُ فيه حَيَـاةٌ لِلْقُلُـوبِ كما	تحيا البِلادُ إذا ما جَاءَهَا المَطـــــــــــــــرُ

ـ رحمه الله ـ: أعظمُ عـذاب أهل النـار حجـابُهُمْ عن الله عـزَّ وجـلَّ، وإبعـادهم عنـه، وإعراضُـه عنهم، وسخطُه عليهم، كما أن رضـوان الله على أهل الجنة أفضلُ من كل نعيم الجنة، وتجليه لهُم، ورؤيتهم إيـاهُ، أعظمُ من جميع أنـواع نعيم الجنـة، قـال الله تعـالى: **كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُــونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَــالُوا الجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَـالُ هَـذَا الَّذِي كُنتُم بِـهِ تُكَذِّبُونَ**.

فذكر تعالى لهُم ثلاثة أنـواع من العـذاب، حجـابُهم عنه، ثم صليهُم الجحيم، ثم توبيخهِّم بتكـذيبهم به في الـدنيا، ووصـفهم بـالرَّان على قُلُـوبهم، وهو صـدأ الذنوب الذي أسودَّتْ به قُلُوبهم، فلمْ يصلْ إليها بَعْــدَ

ذلك في الدُنْيَا شيءٌ من معرفَــةِ اللــه، ولا من إجلاله ومهابته، وخشيته ومحبته.

فكما حُجِبَتْ قُلُوبُهُمْ في الدنيا عن الله، حُجِبُوا في الآخرة عن رُؤيته، وهذا بخلاف حال أهل الجنــة، قــال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وَجُـوهَهُمْ قَتَـرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾والــذين أحســنُوا هُمْ أهــلُ الإحسانِ، والإحســانُ «أنْ تَعْبُـدَ الله كأنَّكَ تَـراه» كما فسره النبي ﷺ لمَّا سَألَهُ عنه جِبْرِيْلُ ـ عليه السلام ــ، فجعل جزاءَ الإحسان الحُسْنَى، وهو الجنــة، والزيــادةُ وهي النظرُ إلى وجه الله عز وجل، كما فسَّرَهُ بــذلك رسول الله ﷺ في حديث صهيبٍ وغيره، انتهى.

وقال ابن القيم –رحمه الله تعالى-:

أوَ مَا سَــــمِعْتَ مُنَـــادِيَ الإيْمَـــانِ ... يُخْــبرُ عن مُنَــادِي جَنّــةِ الحَيَـــوانِ

يا أهْلَها لَكُمُ لدى الرحمن وَعْـــــدُ ... هَو مُنْجِــزُهُ لكُمْ بضَــمَانِ

ثالوا أمَا بَيَّضْتَ أوْجُهَنَا كَذَا ... أعْمَالنَا ثَقَّلْتَ في المِيْزَانِ

وكَذَاكَ قَدْ أدْخَلْتَنَا الجَنـاتِ حِيْنَ ... أجَرْتَنَا مِنْ مَدْخَلِ النِيرانِ أعْطِيْكُمُـــوهُ بِرَحْمَـــتيْ وحَنَـــانيْ

فيقولُ عِنْـدِي مَوْعِـدٌ قَـدْ آنَ أنْ ... جَهْرًا رَوَى ذَ مُسْلِم بِبَيَـانِ

فَيَرَوْنَــهُ مِن بَعْــدِ كَشْــفِ حِجَابِــــهِ ... هُمَا أصَحُّ الكُتْبِ بعد قُرآنِ

ولقَدْ أتَانا في الصَّــحِيْحَيْن اللــــذين ... البجليِّ عَمَّن جَاء بـالقُرْآنِ

بِروَايَــةِ الثِّقــةِ الصُــدُوْقِ جَريـــــر ... رُؤْيا العِيَـــانَ كَمَا يُـــرَى القَمَـــــرَانِ

أنَّ العِبَادَ يَروْنَـهُ سُـبْحَانَهُ ... البَـرْدَيْنِ ما عِشْـتُم مَـدَى الأزمـــــانِ

فـإنْ اسْـتَطَعْتُمْ كُـلَّ وَقْتٍ فـــــاحْفَظُوا ... مِن صَـحْب أحْمَـدِ خِيْـرةِ الـــــرّحْمَنِ

بالوَحْي تَفْصِيْلاً بلا كِتْمَـانِ

ولقد رَوَى بِضْعٌ وعشـرُونَ	مَـــعْ أمْثَالِهَا هي بَهْجَة
امْـــرُوءٌ	الإيْمَـــانِ
أخْبَارَ هـذا البـاب عَمَّنْ قَد	مَا طَـابَت لـذِي العِرْفَـانِ
أتَى	وخِطَابُه في جَنَّةِ الحَيَوانِ
وَألَذُّ شَيءٍ لِلْقُلُـوَبِ فَهَـذِهِ	سُـــبْحَانَه عن سَـــاكِني
الأخبــــارُ	النِيْـــرَانِ
والله لَـولا رُؤْيَـةُ الـرَّحْمَن	هُمْ فيه مِمَّا نَالَت العَيْنَـانِ
في الجَنَّاتِ	لَذَاتِهم مِن سَائِرِ الألْـوَانِ
أعْلَى النَّعِيْمِ نَعِيْمُ رُؤْيَـــةِ	هذا النَّعِيْمِ فَحَبَذا الأمْـرَانِ
وجْهِــــهِ	
وأشـدُ شـيءٍ في العَـذَابِ	بِجَلَالِهِ المَبْعُوثِ بـالقُرْآنِ
حِجَابُــــهُ	بجَلَالِ وَجْـــهِ الـــربِ ذِي
وإذا رَآهُ المُؤمِنُـونَ نَسُـوْا	السُـــلْطَانِ
الــــذِيْ	وَيَـــوْمَ قِيَامَـــهِ الأبْـــدَانِ
فــإذا تَــوَارَى عَنْهُم عَــادُوا	دُوْنَ الجَوارحِ هَذِهِ العَيْنَانِ
إلى	
فَلَهُم نَعِيْمٌ عند رُؤْيَتِـــــهِ	مِن اشَتيَاقِ العَبْدِ لِلرَّحْمَنِ
سِــــوَى	هي أكْمَلُ اللذَّاتِ للإنْسَانِ
أو مَا سَـــمِعْتَ سُـــؤَالَ	
أعْـــرفِ خَلْقِه	
شَــوقًا إليه وَلَـذَةِ النَّظَــرِ	
الــــذِي	
فالشَّـوْقُ لَـذَةٌ رُوُحه في	
هـــذه الــدُّنْيَا	
تَلْتَذُ بالنَّظَرِ الذي فَازَتْ به	
والله مَا في هــذه الــدُنْيَا	
ألَــذُ	
وَكَـــذَاكَ رُؤْيَـــةُ وَجْهِـــهِ	
سُـــبْحَانَهُ	

اللهم انفعنا بما علمتنـا، وعلمنا ما ينفعُنـا، ووفقنا للعمل بما فهمتنــا، اللهُمَّ إن كُنَّا مُقَصِّــرِيْنَ في حفظ حقك، والوفاء بعهـدكَ، فـأَنْتَ تَعْلَمُ صِـدْقَنَا في رجـاء رِفْدِكَ، وخالص ودِّكَ، اللهُمَّ أنت أعلمُ بنا منَّا، فبكمال جُـــوْدَكَ تجـــاوز عَنَّا، واغفر لنا ولوالــــدينا ولجميع المسلمين، الأحيـاء منهم والميـتين، برحمتـكَ يا أرحمَ الــراحمين، وصل الله على محمد وعلى آله وصــحبه أجمعين.

فصل

قـال بعضـهم: بينما أنا سـائر في بعض جبـال بيت المقدس إذْ هبطت إلى وادٍ هناك وإذا أنا بصوت عالٍ ولتلكَ الجبالِ دَوِيٌ منه فاتَّبَعْتُ الصوت.

فإذا أنا بروضــةٍ فيها شـجر مُلْتَـفٌ وإذا برجل قـائم يُرددُ هـذه الآيـة: ﴿**يَوْمَ تَجِـدُ كُـلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُـوءٍ تَـوَدُّ لَـوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَــهُ أَمَــدًا بَعِيــدًا وَيُحَــذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ**﴾.

قال: فوقفت وهو يُردد هـذه الآية ثم صـاحَ صَـيْحةً خَرَّ مغشيًا عليه فانتظرتُ إفاقته، فأفـاق بعد سـاعة، وهو يقول: أعوذَ بكَ مِن أعمـال البطـالين وأعـوذُ بك من إعراض الغافلين.

لك خشــعت قلــوبُ الخــائفين وفــزعتْ أعمــال المقصرين، وذلَّتْ قلوبُ العارفين ثم نفضَ يديه، وهو يقــول: مــالي وللــدُّنْيَا وما للــدُنْيَا ولي أيْنَ القــرونُ الماضـية وأهـلُ الـدُهور السَّـالِفة في الـتراب يبْلَـوْن وعلى مر الدهُور يفنون.

فناديتُـهُ: يا عبداللــه، أنا مُنْـذُ اليــوم خلفك انتظـرُ فراغك، قال: وكيف يفرغُ من يبادر الأوقـات وتبـادرُه كيف يفرغَ من ذهبت أيامُه وبقيتْ آثامُه.

ثم قال: أنت لها ولكل شــدة أتوقع يُرددُها ثم لهى عــني ســاعة، وقــرأ: ﴿**وَبَــدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَــا لَمْ**

يَكُونُوا يَحْتَسِـبُونَ ثم صـاح صِـيحةً أشد من الأولى وخَر مغشيًا عليه، فقلتُ: قد خرَجت نَفْسُه.

فدنوت منه، فإذا هُو يَضْطَرب ثم أفاقَ وهو يقـولُ: مَن أنا مَا خطــري هبْ لي إســاءتي بفضك وجللــني بسترِكَ واعْفُ عني بكرم وجِهْكَ إذا وقفتُ بَيْن يَدَيَك.

فقلتُ له: يا سيدي بالذي ترجوه لِنَفْسِـكَ وتثـقُ به إلا كلمتين، فقال: عليك بكلام من ينفعكَ كلامُـه، ودع كلام من أوبقتهُ ذُنُوبه أنا في هذا الموضع ما شاء الله أجاهـــــدُ إبليسَ ويجاهــــــدني، فلم يجد عونًا علي ليُخرجني مما أنا فيه غـيرك فإليك عـني، فقد عطَّلْتَ لساني، ومَالتْ إلى حديثك شُعْبَةٌ من قلبي فأنا أعـوذ من شرك بمن أرجو أن يعيذني من سخطه.

فقلت في نفسي: هـذا ولي من أوليـاء الله أخـاف أن أشغلُه عن ربه، ثم تركته ومضيتُ لوجهتي، انتهى.

وصَــى رجــلٌ رجُلاً وأعطــاه عشــرة آلاف درهم، وقال له: إذا قـدمتَ المدينـة، فـانظر أفقـرَ أهل بيت بالمدينة فـأعطهم إيَّاها فـدُلَّ على أهل بيت، فطـرق الباب، فأجابتهُ امرأةٌ قائلةً من أنْتَ؟

فقــال: أنا رجــلٌ من أهل بغــداد أودعتُ عشــرة آلاف، وأمرتُ أن أسَلَّمهَا إلى أفقر أهل بالمدينة وقَـدْ وصفهُم لي.

فقالت: يا عبدالله، إن صـاحبك اشـترط أفقر أهل بيتٍ وهــؤلاء الــذين بإزائنا أفقر منا فــتركتهم وأتيت أولئك فطرقتُ الباب، فأجابتني امرأة، فقلت لها مثل الــذي قُلتُ لتلك المــرأة، فقــالت: يا عبداللــه، نحنُ وجيرانُنَا في الفقر سواء، فاقسمها بيننا وبينهم.

أيا رَاضِعَ الدُنيا انْفَطِمْ عن فَطَامِهَا	فقد آن تَنْهَـــــــاكَ عَنْهَا الشـــــــــــوائِبُ
ألا عَاملٌ فيها لِينْقِذَ نَفْسَه	إلا مُخْلصٌ في طاعة الله رَاغِبُ
ألا آسِفٌ ذُوْ لَوْعَةٍ وتَخرُّقٍ	ألا نَـائِحٌ في مَـأتَمِ الحُـزْنِ

ألا مُــذْنِبُ مُسْـتغفِرٌ من ذُنُوبِـــــــــــــــــــهِ | ألا خـائِفٌ مِن خَشْـيَةِ الله نـــــــــــــــــــادِب
ألا خَاشِـعٌ مِن خَشْـيَةِ الله خَاضِـــــــــــــــعٌ | ألا ناحِـلٌ شَـوْقًا إلى الله رَاهِبُ
سَتَلْقون ما قـدَّمْتُم اليـومَ في غَـــــــــــــدٍ | وكُلُ امْرئٍ يُجْـزَى بما هُـوَ ذَائبُ
كَاسِـــــــــــــبُ

قال القرطبي في «تفسيره» في سـورة النمـل: عند قول الله تعـالى: **وَقَالَ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ عُلِّمْنَـا مَنطِـقَ الطَّيْـرِ**، قــال مقاتل بن ســليمان: بينما ســليمان بن داود جـالس ذات يــوم إذ مَــرَّ به طـائرٌ يطوف.

فقال لجلسائه: أتدرون ما يقول هـذا الطـائر؟ إنها قالت لي: السلام عليك أيها الملك المُسَـلَّط، والنـبي لبني إسرائيل، أعطـاك الله الكرامـة، وأظهـرك على عــدوك، إني منطلق إلى أفــراخي، ثم أمر بك ثانية و إنه سيرجع إلينا الثانية.

ثم رجع، فقال: إنه يقـول السـلام عليك أيها الملك المسـلط إن شـئت أن تـأذن لي كيما اكتسـبُ على أفــراخي حــتى يشــبوا ثم آتيك فافعل بي ما شـئت، فأخبرهم سليمان بما قال وأذن له فانطلق.

وقال فرقد السبخي: مَرَّ سُليمان على بُلبـلٍ فـوق شـجرة يُحـركُ رأسه ويُميـلُ ذنبـهُ، فقـال لأصـحابه: أتدرون ما يقـول هـذا البلبـل؟ قـالوا: لا يا نـبي اللـه، قال: إنه يقول: أكلتُ نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء.

ومرَّ بهدهد فوق شـجرة وقد نصب له صـبي فخًـا، فقال له سليمان: احذَرْ يا هُدْهُدُ، فقـال: يا نـبي اللـه، هذا صبي لا عقْلَ لَهُ فأنا أسْخَر به.

ثم رجع سليمان فوجده قد وقع في حبالـةِ الصـبي وهو في يـده، فقـال هُدهـد: ما هـذا؟ قـال: ما رأيتُها

حتى وقعتُ فيها يا نبي الله، قال: ويحـكَ فـأنْتَ تـرى الماء تحت الأرض أما ترى الفخَّ؟ قال: يا نبي الله إذا نزل القضاء عَمِيَ البصرُ.

وقـال كعب: صـاح ورشـان عند سـليمان بن داود، فقال: أتـدرون ما يقـول؟, قـالوا: لا، قـال: إنه يقـول لدُوا للموت وابنوا للخراب.

وصاحت فاختةٌ، فقال: أتدرون ما تقول؟ قـالوا: لا، قال: إنها تقـول ليْتَ هـذا الخلق لم يُخلقُـوا وليتهُم إذ خلقوا علمُوا لما خُلِقُوا له.

وصـاح عنـده طـاوس، فقـال: أتـدرون ما يقـول؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول كما تدين تدان.

وصاح عنده هدهد، فقال: أتدرون ما يقول؟ قـالوا: لا، قال: إنه يقول مَن لا يرحم لا يرحم.

وصاح صُرَد عنده، فقال: أتدرون ما يقـول؟ قـالوا: لا، قال: إنه يقول اسـتغفروا الله يا مـذنبين، فمن ثم نهى رسول الله عن قتله.

وقيــل: إن الصــرد هو الــذي دل آدم على مكــان البيت وهو أول من صام، ولذلك يقال للصرد الصوام.

روي عن أبي هريــرة، وصــاحت عنــده طيطــوي، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: إنها تقول كلُ حَي مَيِّت وكلُ جديد بَالٍ.

وصاحت خَطَّافة عنـده، فقـال: أتـدرون ما تقـول؟ قالوا: لا، قال: إنها تقول قدِّمُوا خيْرًا تجـدُوه، فمنْ ثم نهى رسولُ الله عن قَتْلِها.

وقيــل: أن آدم خــرج من الجنة فاشــتكى إلى الله الوحشة فآنسه الله تعالى بالخطاف والزمها الـبيوت، فهي لا تفارق بني آدم أنسًا لهم.

قال: ومعها أربع آيات من كتاب الله عز وجل: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُـرْآنَ عَلَى جَبَـلٍ لَّرَأَيْتَـهُ**﴾ إلى آخرها وتمد صوتها بقوله العزيز الحكيم.

وهـدرت حمامة عند سـليمان، فقـال: أتـدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: إنها تقول: سـبحان ربي الأعلى عدد ما في سمواته وأرضه.

وصـاح قمـري عند سـليمان، فقـال: أتـدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال، إنه يقـول سـبحان ربي العظيم المهيمن.

وقـال كعب: وحـدثهم سـليمان، فقـال: الغـراب يقول: اللهم الْعَن العَشار، والحدأة تقـول: كل شـيء هالك إلا وجهه، والقطاة تقول: من سَكَتَ سَلِمْ.

والببغـاءُ تقـول: ويل لِمَن الـدنيا همُّه، و الضـفدعُ يقول: سبحان المذكور بكل لسان في كل مكان.

وقـال مكحـول: صـاح دراج عند سـليمان، فقـال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول: «الرحمن على العرش استوى»، وقال الحسـن: قـال النـبي : «إذا صاح الديك: قال اذكروا يا غافلين».

وقال الحسن بن علي ابن أبي طالب: قـال النـبي : «النسر إذا صـاح قـال: يا ابن آدم عِش ما شـئتَ فآخِركَ الموت».

وإذا صـاح العقـاب، قـال: في البعد عن النـاس الراحة.

وإذا صـاح الخطـاف، قـرأ الحمد لله رب العـالمين إلى آخرها، فيقول: ولا الضـالين ويمد بها صـوته، كما يمد القارئ، قال قتادة والشـعبي: إنما هـذا الأمر في الطير خاصة؛ لقوله: ﴿**عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ**﴾، والنملة طـائر إذ قد يوجد له أجنحـة، قـال الشـعبي: وكـذلك كانت هذه النحلة ذات جناحين.

وقال: فرقة، بل كان في جميع الحيـوان وإنما ذكر الطـير؛ لأنه كـان جنـدًا من جند سـليمان يحتاجه في التظليل عن الشمس، وفي البعث في الأمور، فخص بالذكر لكثرة مداخلته، ولأن أمر سـائر الحيـوان نـادر وغير متردد ترداد أمر الطير.

وقــال أبو جعفر النحــاس: والمنطق يقع لما يفهم بغـــير كلام، والله جل وعز أعلم بما أراد، قـــال ابنُ العـــربي: مَن قـــال: إنه لا يعلم إلا منطق الطـــير، فنقصان عظيم.

إلهي إني شاكِرٌ لَكَ حَامِدٌ وإني لَسَـــاعٍ في رضَـــاكَ وَجَاهِـــدُ
وأنَّكَ مَهْمَا زَلَّتِ النَّعْـــلُ بـــالفَتَى على العَائِدِ التَّوبِ بــالعفوِ عائِد
تَبَاعَـــدْتَ مَجْــدًا وانَّيْتَ تَعَطُفًا وحِلْمًا فـــأنْتَ المُـــدَّني المُتَبَاعِـــدُ
وما لي على شيءٍ سِوَاكَ مُعَـــوَّلٌ إذا دَهَمَتْــني المُعْضِــلاتُ الشـــدائدُ
أغَيْـــرَكَ أدْعُو لي إلهًا وخَالِقًا وقد أوضــحَ البُرْهَــانُ أنَّكَ واحِـــدُ
وقِـدْمًا دَعَى قـومٌ سِـوَاكَ فَلم يَقُمْ على ذَاكَ بُرْهـــانٌ ولا لاحَ شـــاهِدُ
وكم لَكَ في خَلْـقِ الـوَرى مِن دَلائِلِ يَرَاها الفَتَى في نفسه ويُشَـــاهِدُ
كَفَى مُكْـــذِبًا لِلْجَاحِـــدِيْكَ نُفُوسُـــهُمْ تُخَاصِـــمُهُمْ إنْ أنْكَـــرُوْا وتُعَانِـــدُ

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصــحبه وسلم.

موعظة

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ:

اســـتمعْ يا رهين الآفـــات والمصـــائب، يا أســـير الطارقـات النـوائب، إيـاك وإيـاك الآمـال الكـواذب، فالـــدنيا دارٌ وليست بصـــاحب أما أرتْـــكَ في فعلها العجائب.

فيمن مشى في المشـــارق والمغـــارب، ثم أرتك فيك شيب الذوائبْ.

أما علمتَ أنَّ ســهامَ المــوت صَــوَائِبْ، لا يَرُدُّهَا مُحَــارِبْ، ولا يفوتُها هــاربْ، تــدبُّ إلينا دبيب الحيَّات والعَقارِبْ، بينما أنْتَ تسمعُ صوتَ مزْهِر صـار صَـوْت نادِبْ.

يا أسير حُبِّ الدنيا إن قتلتك من نطـالب كـأني بك قدْ بتَّ فرحًا مسرورًا، فأصبحت ترحًا مثبورًا، وتركتَ مالك لِغَيَركَ مَوْفُورًا.

وخـرج من يـدك فصار للكُـلِّ شُـوْرَى، وعَـايَنْتَ ما فَعْلَتَ في الكتاب مَسْطُورًا.

وعَلِمْتَ أنك كنتَ في الهـوى مَغْـرُورًا، واسـتحالتْ صَبَا الصَّبَا فعـادتْ دَبُـورًا، وأسـكنتَ لحـدًا تصـيرُ فيـه مأسورًا، ونزلت جـدثًا خربًـا وتـركتَ قصـرًا معمـورًا، ودخلت في خــبر كــان ﴿**وَكَــانَ أَمْــرُ اللَّهِ قَــدَرًا مَّقْدُورًا**﴾.

وما هذه الدُنْيَا بَدارِ إقَامَة هي الدَّارُ إلا أنَّهَا كَمَفَـازَةٍ	فَيَحـــزَنُ فيها القــــاطنُ المترحِّلُ
وإنَّا لمنْ مَـرِّ الجـدِ يْـدين في الــــــــــــوغَى	أنَـــــــاخَ بها رَكْبٌ ورَكْبٌ تَحَمَّلُـــــــــــــوا
تُجَـــرِّدُ نَصْـــلاً والخَلائِقُ مِفْصَـــــــــــــــلٌ	إذا مَــرَّ منها جَحْفَــلٌ كَــرَّ جَحْفَـــــــــــــلُ
وما خَلْفَنَا منها مَفَـــرٌ لها رب	وتُنْبِضُ سَــــــهْمًا والبَرِيَّة مَقْتَـــــــــــــــلُ
وكُـــلٌ وإنْ طَـــالَ الثَّوَاءُ مَصِـــــــــــيْرهُ	فكيَف لمن رام النجـــــاة التخيل
	إلى مَــوْرِدٍ ما عنه للخلق مَعْـــــــــــــدِلُ

أين الوالدان وعما ولدوا؟ أين الجبارون؟ وأين ما قصـدوا؟ أين أربـاب المعاصي على مـاذا وردوا؟ أمَا جَنــوا ثمــرات ما جنــوا وحصــدوا، أما قــدموا على

أعمـالهم في مـآلهم ووفـدوا، أما خلـوا في ظلمـات القبور.

بكوا والله على تفريطهم وانفـردوا أما ذَلُّوا وقلـوا بعد أن عتـــوا ومـــردوا أما طلبو ا زادًا يكفي في طريقهم ففقدوا.

عاينوا والله كـلَّ ما قـدَّموا ووجـدُوا، فمنهم أقـوام شقوا، ومنهم أقوام سعدوا.

كـان ابنُ السـماك يقـول: ألا منتبـه من رقـدة؟ ألا مستيقظ من غفلة؟ ألا مفيق من سـكرته؟ ألا خـائف من صرعته؟

أقسم بالله لو رأيت القيامة تخفق بــزلازل أهوالها وقد عَلت النـارِ مشـرفة على أهلها وجيء بـالنبيين والشهداء لسرَّكَ أن يكـون لك في ذلك الجمع منزلة وزلفى. اهـ.

سَـبَقَ القَضَـاءُ بكل ما هُو كـــائِنُ ... والله يا هَذَا لِرِزْقِكَ ضَامِنُ

تَعْنِي بما تُكْفَي وتَتْـركُ ما بِـــهِ ... تُعْنَي كأنَّكَ لِلْحَـوَادِثِ آمِنُ

أو مَا تَرىَ الـدُنيَا ومَصْـرعَ أهلِهَا ... فاعْمَــلْ لِيَــومِ فِرَاقِها يَا آمِنُ

واعْلَمْ بأنَّكَ لا أبالَكَ الذي ... أصْـبَحْتَ تجمَعُـهُ لِغَيْـركَ خَـــازنُ

يا عَامِرَ الدنيا أتِعْمُرُ مَنْزلاً ... لم يَبْـقَ فيــهِ مِن المنيــةِ سَـــاكِنُ

المــوتُ شــيءٌ أنْتَ تَعْلَمُ أنّـــهُ ... حَقٌ وأنْتَ بِذِكْرِهِ مُتَهَـاوِنُ

إنَّ المِنيَّةَ لا تُـــؤامِر مِن أتَت ... في نَفْسِـــهِ يَومًا ولا تَسْـــتَأذِنُ

فصل في ذكر طرف مما حدث في بعض السنين من الأوبية والأمراض

أجدبت الأرض في سنة ثماني عشرة فكانت الريح تسـفي ترابًا كالرمـاد فسـمي عـام الرمـادة، وجعلت الوحوش تأوي إلى الإنس، فآلى عمر ألا يذوق سـمنًا ولا لبنًا ولا لحمًا حـتى يحـيى النـاس، واستسـقى العباس، فسقوا.

وفيها كـان طـاعون عمـواس مـات فيه أبو عبيـدة ومعـاذ وأنس، وفي سـنة أربع وسـتين وقع طـاعون بالبصرة وماتت أم أميرهم فما وجدوا من يحملها.

وفي سنة ست وتسعين كان طاعون الجارف هلك في ثلاث أيام سبعون أ لفًا ومـات فيه لأنس ثمـانون ولدًا وكان يموت أهل الدار فيطين الباب عليهم.

وفي سنة إحـدى وثلاثين ومائة مـات أول يـوم في الطاعونة سـبعون ألفًـا، وفي الثـاني نيِّفٌ وسـبعون ألفًا، وفي اليوم الثالث خمد الناس.

وفي سـنة أربع وثلاثين وثلاث مائة ذُبِحَ الأطفـال وأكلت الجيف وبيع العقـار برغفـان واشـترى لمِعـزِ الدولة كر دقيق بعشرين ألف درهم.

وفي سـنة أربع وأربعين وثلاثمائة أصـاب أهل البصرة حَرٌ فكانوا يتساقطون موتى في الطرقات.

وفي سـنة ثمـان وأربعين وأربعمائة عم القحط فـأكلت الميتة وبلغ المكـوك من بـزر البقلة سـبع دنـانير، والسـفرجلة والرمانة دينـارًا والخيـارة واللينوفرة دينارًا، وورد الخبر من مصر بـأن ثلاثة من اللصوص نقبوا دارًا فوجدوا عند الصباح موتى أحدهم على باب النقب، والثاني على رأس الدرجة، والثـالث على الثياب المكورة.

وفي السنة الـتي تليها وقع وبـاء، فكـان تحفر زبية لعشـرين وثلاثين فيلقـون فيهـا، وتـاب النـاس كلهم وأراقوا الخمور ولزموا المساجد.

وفي سـنة ست وخمسـين وأربعمائة وقع الوبـاء وبلغ الرطل من التمر الهندي أربعة دنانير، وفي سنة

اثنتين وستين وأربعمائة اشتد الجوع والوباء بمصر حتى أكل الناس بعضهم بعضًا وبيع اللوز والسكر بوزن الدراهم والبيضة بعشرة قراريط، وخرج وزير صاح مصر إليه فنزل عن بغلته فأخذها ثلاثة فأكلوها فصلبوا فأصبح الناس لا يرون إلا عظامهم تحت خشبهم وقد أكلوا، وفي سنة أربع وستين وأربعمائة وقع الموت في الدواب حتى إن راعيًا قام إلى الغنم وقت الصباح ليسوقها فوجدوها كلها موتى. انتهى.

وقال ابن كثير ــ رحمه الله ــ: وفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وقع غلاء شديد ببغداد حتى أكلوا الميتة والسنانير والكلاب، وكان من الناس من يسرق الأولاد فيشويهم ويأكلهم.

وكثر الوباء في الناس حتى كان لا يدفن أحدٌ أحدًا، بل يُتركون على الطرق فيأكل كثيرًا منهم الكلاب.

وبيعت الدور بالخبز وانتجع الناسُ إلى البصْرة فكان منهم من مات في الطريق.

وذكر ــ رحمه الله ــ أن في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة في جماد الأولى غلت الأسعار ببغداد جدًا وكثُرت الأمطار حتى تهدم البناء، و مات كثير من الناس تحت الهدم وتعطَّلت أكثر المساجد من قلة الناس.

ونقصت قيمة العقار حتى بيع منه بالدرهم ما يُساوي الدينار وخلت الدُور وكان الدَّلالُون يُعطُون من يسكنُها أجرة ليحفظها من الداخلين إليها ليُخربُوْها.

وكثرت الكبساتُ من اللصوص بالليل حتى كان الناس يتحارسُون وكثُرت الفتنُ من كل جهة ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾. اهـ.

وفي سنة ثلاثٍ وثلاثين وخمسمائة كانت زلزلة عظيمة بمدينة جبرت فمات بسببها مائتا ألف وثلاثون ألفًا وصار مكانها ماء أسود عشرة فراسخ في مثلها.

وزلــزل أهل حلب في ليلة واحــدة ثمــانين مــرة، فوضع السـلطان محمـود مكوسًـا كثـيرة عن النـاس وكثُرت الأدعية له.

قال: وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسـمائة كـانت زلزلة عظيمة بالشـــام هلك بســـببها خلق كثـــير لا يعلمهم إلا الله.

وتهــدَّم أكــثرُ حلب وحمــاة وشــيرز وحمص وكفر طـــاب وحصن الأكـــراد والمعـــرَّة وقامية واللاذقية وأنطاكية وطرابُلس.

قــال: وقــال ابنُ الجــوزي: وأما قامية فســاخت قلعتها وتل حــران انقسم قســمين فأبــدى نــواويس وبيوت كثيرة في وسطه.

وتهدَّمت أسـوار أكـثر مـدن الشـام حـتى أن مكتبًا من مدينة حمـــاة انهـــدم على من فيه من الصـــغار فهلكوا عن آخرهم.

وفي سـنة أربع وعشـرين ومـائتين زلـزلت فرغانة فمات فيها خمسة عشر ألفًا.

وفي الســنة الـتي تليها رجفت الأهـواز وتصـعدت الجبـال وهـرب أهل البلد إلى البحر والسـفن ودامت ستة عشر يومًا.

وفي السنة التي تليها مطر أهل تيما مطـرًا وبــردًا كالبيض، فقتل به 370 إنسانًا.

وسمع في ذلك صـوت يقـول: ارحم عبـادك، اعف عن عبادك.

ونظـــروا إلى أثر قـــدم طولها ذراع بلا أصــــابع وعرضها شبرٌ وبين الخطوتين خمس أذرع أو ستة.

فاتبعوا الصوت فجعلـوا يسـمعون صـوتًا ولا يـرون شخصًا.

وفي سـنة 233 رجفت دمشق رجفة انقضت منها البيوت وسقطت على من فيها فمات خلق كثير.

وانكفـــــأت قرية في الغوطة على أهلها فلم ينج منهم إلا رجل واحد.

وزلزلَت أنطاكية فمات منها عشرون ألفًا.

وفي الســنة الــتي تليها هبت ريح شــديدة لم يعهد مثلها فاتصلت نيفًا وخمسين يومًا.

وشملت بغداد والبصرة والكوفة وواسط وعبــادان وهوازن.

ثم ذهبت إلى همدان فأحرقت الزرع.

ثم ذهبت إلى الموصل فمنعت الناس من الســعي وتعطلت الأسواق.

وزلزلت هراة فوقعت الدور.

وذكــروا أشــياء كثــيرة غريبة عجيبة يطــول ذكرها اقتصــرنا منها على هــذا الطــرف اليســير الــذي ربما يكون سببًا للاعتبار والتيقظ والرجوع إلى الله.

نســـأل الله الحي القيـــوم العلي العظيم الواحد الأحد الفرد الصمد الــذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

أن يوقظ قلوبنا ويســـتر عيوبنا ويغفر ذنوبنا ويثبتنا على قوله الثابت في الحياة الدنيا والآخرة، إنه سميع قريب على كل شيء قدير.

صَــرَفْتُ إلى رِبّ الأنــامِ مَطَـــــــــــالبي ... وَوَجَّهْتُ وَجْهِي نَحْـــــــوَهُ وَمَــــــــــــآربي

إلى المَلِــكِ الأعْلَى الــذّي ليسَ فَوقَــــــــهُ ... مَلِيْــكٌ يُــرَجَّى سَــيْبُهُ في المْتَـــــــــاعِبِ

إلى الصَّــمَدِ البَــرِّ الــذي فَـــــاضَ جُـــــوْدُهُ ... وعَمَّ الــوَرَى طُــرًا بجَــزْلِ المَــــــــــوَاهِبِ

مُقِيْليْ إذا زَلَّتْ بيَ النَّعْــلُ عَـــــــــــاثِرًا ... وأسْـــمَحَ غَفَّارٍ وأكْـــرمَ وَاهِبِ

فَمَا زَالَ يُوْلِيْــني الجَمِيْــلَ تَلَطُّفًا ... ويَـــدْفَعُ عَنِّي في صُـــدُورِ النَّوائِبِ

ويَرْزُقُـــــني طِفْلاً وكهلاً ... جَنِيْنًا ويحْمِيْـــــــني وَبيَّ

وقَبْلَهَا المكاسِـــــــــــــــــبِ

إذا أغْلَـــــقَ الأمْلَاكُ دُوْني قُصُــــــــــــــــورَهُمْ ... ونَهْنَه عن غِشْـيانِهِمْ زَجْـرُ حَـــــــــــــــاجِبِ

فِزعْتُ إلى بَـاب المُهَيْمِن طارقًا ... مُـدِلاً أُنـادِي بإسْـمِهِ غـير هـــــــــــــــائِبِ

فلم أَلْف حُجَّابًا وَلم أخْشَ مِنْعَـــــــــــــــةً ... ولو كَان سُؤْلِيْ فَوْقَ هَـامِ الكَـــــــــــــوَاكِبِ

كَــرِيْمٌ يُلَبْي عَبْــدَهُ كُلَّمَا دَعَا ... نَهَــارًا ولَيْلاً في الــدُجَى والغَيـــــــــــــاهِبِ

سَأسْـــألهُ مَا شِـــئتُ إنَّ يَمِيْنَـــــــــــــــهُ ... تَسِـــحُّ دِفَاقًا بـــاللُّهَى والرَّغَـــــــــــــائِبِ

فَحَسْبِيَ رَبيْ في الهَرَّاهِزِ مَلْجًا ... وحِــرْزًا إذا خِيْفَتْ سِــهِامُ النَّوائِبِ

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصــحبه وسلم.

فوائد نافعة حول الإفتاء والاستفتاء

اعلم وفقنا الله وإيـاك وجميع المسـلمين لما يحبه ويرضـاه أن الفُتْيَا أمرها عظيم، ولقد كـان السـلف –رحمهم الله- يأبون الفُتيا، ويُشددون فيها، ويتـدافعون عكس ما عليه علماء هذا العصر.

فعن عبـــدالرحمن بن أبي ليلى قـــال: أدركت عشــرين ومائة من أصــحاب رســول الله ﷺ يُســئلُ أحدهم عن المسألة فيرُدَّهَا هـذا إلى هـذا، وهـذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول.

وفي رواية ما منهم من يُحــدث بحــديث إلا ود أن أخاه كفاه إياه، ولا يُستفتى عن شيء إلا ودَّ أن أخـاه كفاه الفُتيا، وأنكر الإمام أحمد وغــيره على من يهجمُ على الجــواب؛ لخــبر: «أجـرؤكم على الفُتيا أجـرؤكم على النار».

وقـال الإمـام أحمـد: لا ينبغي أن يجيب في كل ما يُستفتى فيه، وقال: لا ينبغي للرجل أن يُعـرض نفسه للفُتيا حتى يكون فيه خمس خصال:

أحدها: أن تكون له نية، وهي أن يخلص لله تعالى، ولا يقصد رياسـةً ولا نحوهـا، فـإن لم يكن له نية لم يكن عليه نور، ولا على كلامه نور.

الثانيـة: أن يكـون له حلم ووقـار وسـكينة، وإلا لم يتمكن من فعل ما تصـدَّى له من بيـان الأحكـام الشرعية.

الثالثـة: أن يكـون قويًا على ما هو فيه وعلى معرفته، وإلا فقد عرَّض نفسه لخطر عظيم.

الرابعة: الكفَّاية، وإلا أبغضهُ الناس؛ لأنه احتاج إلى الناس وإلى الأخذ مما في أيديهم، فيتضررون منه.

الخامسة: معرفة الناس بأن يكون بصيرًا بمكـرهم وخـداعهم، ليكـون حـذرًا منهم لئلاً يوقعـوه في المكروه.

وإليك ما ورد في ذلـك، نقل الميمـوني عن الإمـام أحمد أنه سُـئل عن حـديث، فقـال: سـلوا أصـحاب الغريب فإني أخاف أن أتكلم في قول رسـول الله بالظن فأخطئ.

وقـال أبو داود الطيالسـي: سـمعتُ شُـعبة قـال: سألتُ الأصمعي عن حديث النبي : «إنه لَيُغَانُ على قلبي» ما معنى يُغَان؟

قـال: فقـال لي هـذا الحـديث عن رسـول الله ، فقلتُ: نعم، فقال: لو كان عن غير النـبي لفسَّـرْتُ ذلك، ولكن عن النبي لا أجترئ عليه.

وعن الأصـمعي عن مُعتمر بن سُـليمان عن أبيه قال: كانوا يتقون حـديث النـبي كما يتقـون تفسـير القرآن.

وكان الإمـام أحمد يجيء إلى أبي عبيد يسـأله في الغريب روى ذلك الخلال.

وقال ابن عباس: إذا تـرك العـالم لا أدري أصـيبت مقالتـه، وقـال: كـان رسـول الله ﷺ إمـام المسـلمين وسيد العالمين يسأل عن الشيء فلا يجيب حتى يأتيه الوحي من السماء.

وقال الشعبي: لا أدري نصف العلم.

وقال أحمد في رواية المـروذي: كـان مالك يَسْـئلُ عن الشـيء فيقـدِّم ويـؤخر يتثبت، وهـؤلاء يقيسـون على قوله، ويقولون: قال مالك.

وعن علي بن أبي طـالب ﷺ قـال: من عِلْم الرجل أن يقـــــول لما لا يعلم: الله أعلم؛ لأن الله عز وجل قال لرسوله ﷺ: ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**﴾.

وصح عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: العلم ثلاثة: كتاب ناطقٌ، وسُّنة ماضية، ولا أدري.

وقـــال أحمد في رواية المـــروذي: ليس في كل شيء ينبغي أن يُتكلم فيه، وذكر أحاديث النبي ﷺ كان يُسأل فيقول لا أدري حتى أسأل جبريل.

وقال عبدالله: سـمعتُ أبي يقـول: كـان سـفيان لا يكـاد يفـتي في الطلاق، ويقــول: مَنْ يُحســنُ ذا من يُحسنُ ذا.

وقال في رواية الحارث: وددتُ أنه لا يسـألني أحد عن مسـألة أو ما شـيء أشد علي من أن أسـألِ عن هذه المسائل البلاء يُخرجُه الرجلُ عن عُنُقِه ويُقَلِّدك.

وخاصَّة مسائل الطلاق والفُروج، ونقل الأثـرم عنه أنه سـأله عن شـيء، فقلتُ: كيف هو عنـدك، فقـال: وما عندي أنا.

وســمعتُه يقــول: إنما هو يعــني العلمَ ما جــاء من فوق، وقـال سـفيان: من فتنة الرجل إذا كـان فقيهًا أن يكون الكلام أحبَّ إليه من السكوت.

وقـــال المـــروذي: قُلتُ لأبي عبدالله إن العـــالم يظنون عنده علمُ كل شيء، فقال: قـال ابن مسـعود

: إن الـــذي يُفـــتي النـــاس في كل ما يســـتفتُونه لمجنُـــــــون، وأنكر أبو عبدالله على من يتهجَّم في المسائل والجوابات.

قـال: وسـمعتُ أبا عبدالله يقـول: ليتَّقِ الله عبـدٌ ولينظر ما يقول وما يتكلم، فإنه مسئول.

وقـال: من أفـتى النـاس ليس ينبغي له أن يُحيل الناسَ على مذهبه، ويُشدِّد عليهم.

وقـــال في رواية القاســـم: إنما ينبغي أن يُـــؤمر الناسُ بالأمر البين الـذي لا شك فيه وليت النـاس إذا أمروا بالشيء الصحيح أن لا يجاوزوه.

ونقل محمد بن أبي طـــــاهر عنه أنه سُـــــئل عن مسـألة في الطلاق، فقـال: سـلْ غـيري ليس لي أن أفتي بالطلاق بشيء.

وقال في رواية ابن منصور: لا ينبغي أن تُجيبَ في كل ما يُسـتفتى، وصح عن مالك أنه قـال: ذلٌ وإهانـةٌ للعالم أن تجيب كُلَّ من سألَكَ.

وقال أيضًا: كلُ مَن أخبرَ الناسَ بكل ما يسمعُ فهُو مجنُـون، وقـال أحمد في رواية أحمد بن علي الأبـار، وقال له رجل: حَلَفْتُ بيمينْ لا أدري أيش هي؟ قـال: ليتَ أنك إذا دَرَيْتَ دَرَيْتُ أنا.

وقـال في رواية الأثـرم: إذا هـاب الرجل شـيئًا فلا ينبغي أن يحمل على أن يقول.

وقال في رواية المـروذي: إن الـذي يُفـتي النـاس يتقلدُ أمرًا عظيمًا، وقال: يُقدم على أمر عظيم ينبغي لمن أفـتى أن يكـون عالمًا بقـول من تقـدم وإلا فلا يُفتي.

وقـــال في رواية الميمـــوني: من تكلم في شـــيء ليس له فيه إمام أخاف عليه الخطأ.

وقال الثوري: لا نـزال نتعلم ما وجـدنا من يعلمنـا، وقال أحمـد: نحن السـاعة نتعلم، وسـأله إسـحاق بن

إبراهيم عن الحديث الذي جاء: «أجــرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار» ما معناه.

قال أبو عبدالله: يُفتي بما لم يســمع، وقـال محمد بن أبي حرب: سمعت أبا عبدالله، وسُـئل عن الرجل يفتي بغـير علم، قـال: يـروى عن أبي موسـى، قـال: يمرق من دينه.

ونقل المــروذي: أن رجلاً تكلم بكلام أنكــره عليه أبو عبداللــه، قــال: هــذا من حبه الــدنيا يُســئلُ عن الشيء الذي لا يحسن فيحمل نفسه على الجواب.

ونحو هـذا عن حمـاد، وقـال: كنت أسـائل إبـراهيم عن الشيء، فيعـرف في وجهي أني لم أفهم فيعيـده حتى أفهم، روى ذلك الخلال وغيره.

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصــــحبه وسلم.

فصل

قال ابن وهب عن يـونس عن الزهـري: أن أبا بكر الصـديق حـدث رجلاً بحـديث فاسـتفهمهُ الرجـل، فقـال الصـديق: هو كما حـدَّثتُك، أي أرْضٍ تُقِلُـني إذا قلتُ بما لا أعلم.

وروى نحوه من غير وجه عن أبي هريرة مرفوعًــا: «من أفتي بفتيا غَيْر ثِبْتٍ فيهـا، فإنما إثمه على الـذي أفتاه»، وفي لفظ: «من أفتي بفتيا بغير علم كان إثم ذلك على الذي أفتاه» رواهما أحمد، وروى الثاني أبو داود، والأول ابن ماجــه، وهو حــديث جيد له طــرق مذكورة في حواشي «المنتقى».

وقـال الثـوري عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود، قال: من أفـتى النـاس في كل ما يسـتفتونه فهو مجنون، وقال مالك: عن يحيى بن سعيد عن ابن عباس مثله.

وقـال الزهـري عن خالد بن أسـلم، قـال: كنا مع ابن عمـر، فسـأله أعـرابي أتـرثُ العمـة؟ فقـال: لا

أدري، قـــال: أنت لا تـــدري، قـــال: نعم إذهب إلى العلمـــاء، فاســـألهم، فلما أدبر الرجل قَبَّلَ ابنُ عمر يدهُ، فقال: نعم ما قال أبو عبـدالرحمن، سُـئل عما لا يدري، فقال: لا أدري.

وقــال ســفيان بن عيينة والثــوري عن عطــاء بن السـائب عن عبـدالرحمن بن أبي ليلى، قـال: أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسـول الله ما منم من أحد يحـدث بحـديث إلا ود أن أخـاه كفـاه إياه.

ولا يُستفتى عن شيء إلا ودَّ أن أخاه كفاه الفتوى، هــذا لفظ رواية الثــوري، ولفظ ابن عيينة إذا سُــئل أحدهم عن المسألة ردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هـذا حتى ترجع إلى الأول.

وقــال أبو حُصَــين عثمــان بن عاصم التــابعي: إن أحدكم يُفتي في المسـألة ولو وردتْ على عمر لجمع لها أهْلَ بَدْرٍ.

وقـــال القاسم وابن ســيرين: لأن يمـــوت الرجل جـاهلاً خـير له من أن يقـول ما لا يعلم، وقـال مالك عن القاسم بن محمد: إنَّ مِن إكرام المرء لنفسه أن لا يقول إلا ما أحاط به علمه.

وقال سـعيد بن جبـير: ويل لمن يقـول لما لا يعلم إني أعلم، وقـال مالـك: من فقه العـالم أن يقـول لا أعلم، فإنه عسى أن يهيأ له الخير.

وقـال أحمد بن حنبـل: سـمعتُ الشـافعي ــ رضي الله عنهما ـ سمعت مالكـًا، سـمعت محمد بن عجلان يقول: إذا ترك العالم لا أدري أصـيبت مقاتلـه، ورواه إســـــحاق بن راهويه عن ابن عيينة عن داود بن أبي الزُبَـير الزبـيري عن مالك بن عجلان، قـال: قـال ابن عباس، فذكره وقد سبق.

وقال عبدالرزاق عن معمر، قال: سأل رجل عَمْرَو بنَ دينار عن مسألة فلم يجبه، فقـال الرجـل: إن في نفسي منها شيئًا فأجبني.

فقـــال: إن يكن في نفسك منها مثل أبي قُـــبيس أحب إليَّ أن يكون في نفسي منها مثل الشعرة.

وقــال ابن مهــدي: ســأل رجل مالك بن أنس عن مسألة فطـال تـرداده إليه فيه وألح عليـه، فقـال: ما شـاء الله يا هـذا، إني لم أتكلم إلا فيما احتســبُ فيه الخير ولستُ أحسنُ مُسألتَكَ هذه.

وقـال ابنُ وهب: سـمعتُ مالكًا يقـول: العجلة في الفتوى نوعٌ من الجهل والخُرق.

وقال يحيى بن سـعيد: كـان سـعيد بن المسـيب لا يكاد يفتي فُتيًا ولا يقول شـيئًا إلا قـال: اللهم سـلِّمْني وسَلِّمْ مني، ذكره البيهقي وغيره.

ولاسيما إن كان من يُفتي يعلم من نفسه أنه ليس أهلاً للفتـوى لفـوات شـرط أو وجـود مـانع ولا يعلم الناس ذلك منه.

فإنه يحـرم عليه إفتـاء النـاس في هـذه الحـال بلا إشــكال فهو يســارع إلى ما يحــرم لاســيما إن كــان الحامل على ذلك عرض الدنيا.

وأما السف فكانوا يتركون ذلك خوفًـا، ولعل غـيره يكفيه وقد يكون أدنى لوجود مَن هو أولى منه.

قـال ابن معين: الـذي يحـدث بالبلـدة وبها من هو أولى منه بالحديث فهو أحمق.

وقال مالك: ما أفتيتُ حـتى شـهد لي سـبعون أني أهلٌ لذلك.

وقال ابن عُيينة وسحنون: أجسر الناس على الفتيا أقلهم علمًـا، وقـال سـحنون: أشـقى النـاس من بـاعَ آخرتَهُ بدنيا غيره.

وقال: فتنةُ الجواب بالصواب أشدُ من فِتنة المال.

وقـال سـفيان: أدركت الفقهـاء وهم يكرهـون أن يجيبوا في المسائل والفُتيا حتى لا يجـدوا بُـدًّا من أن يُفتُـوا، وقــال: أعلمُ النــاس بالفُتيا أســكتُهم عنها وأجهلهم بها أنطقهم فيها.

وبكى ربيعة، فقيلَ: ما يُبكيك؟ فقال: اسـتُفْتِي مَن لا عِلْمَ لــه، وقــال: ولبعض من يُفــتى هاهنا أحــقُّ بالسَّجْن من السُّراق.

وقال بعض العلماء لبعض المفتين: إذا سُـئِلْتَ عن مســألة فلا يكن همك تخليص الســائل؛ ولكن ليكن همُّكَ تخليص نفسك، وقال عمرو بن دينار: لما جلس قتــادة للفتيا تــدري في أي عمل وقعت؟ وقعت يا قتادة بين الله وبين خلقه، وقلتُ: هذا يصلح، وهـذا لا يصلح.

وقـال بعضـهم: إن العـالم داخـل بين اللـه وبين خلقه، فلينظر كيف يدخل بينهم!

وكان ابن سيرين إذا سُئل عن الشـيء من الحلال والحرام تغيَّر لونه وتبدل حتى كأنه ليس بالذي كان.

وكان النخعي يسأل فتظهر عليه الكراهة، ويقـول: ما وجدت أحدًا تسأله غيري؟

وقـال آخـر: إذا سُـئلت عن مسـألة فتفكـر، فـإن وجدت لنفسك مخرجًا فتكلم، وإلا فاسكت.

وعن مالـك: أنه كـان إذا سُـئل عن المسـألة كأنه واقف بين الجنة والنار.

وقــال النخعي: قد تكلمتُ ولو وجـــدتُ بُـــدًا ما تكلمت، وإن زمانًا أكون فيه فقيه أهل الكوفة لزمـان سوء.

وقال ابن عيينة: ليس هذا الأمر لمن ود أن النـاس احتــاجوا إليــه، إنما هــذا الأمر لمن ود أن وجد من يكفيه.

وسُئل عمر بن عبدالعزيز عن مسألة، فقال: ما أنا على الفتيا بجريء، انتهى.

ضَـــوُوْا العلم في الـــدنيا نجـــــومُ هِدَايَـــــةً إذا غــــاب نَجْمٌ لاحَ بَعْـــدُ جَدِيْـــــــــــــــدُ
بِهِمْ عَـــزَّ دِيْنُ الله طُـــرًا وهُمْ لـــــــــــــــهُ مَعَاقِلُ من أعْدَائه وجُنُـودُ
ولو لم يَقُمْ أهـلُ الحـديثِ بنقِلـــــــــــــــهِ فَمَنْ ك ان يَـرْوِي عِلْمَـهُ ويُفِيْـــــــــــــــدُ
هُمُــوا وَرِثــوا عِلْمَ النُّبــوةِ واحْتَـــــــــــــــووْا مِن الفضـلِ ما عنه الأنـامُ رُقُـــــــــــــــوْدُ
وهُمْ كَمَصَـــابِيْحِ الـــدُّجَى يُهْتَـــــــــــــدَى بِهِمْ وَمَا لهمُـوْا بَعْـدَ الممـات خُمُـــــــــــــــوْدُ

آخر:

ألا رُبَّ مِنْ قَـــدْ أنْحَـــلَ الزُّهـــــدُ جِسْـــــمَهُ كَثِيْـرُ صَـلاةٍ دَائِمِ الصـومِ عابِـــــــــــــــدُ
يَرُومِ وِصَالاً وهو بالطُرْقِ جَاهِـــــــــــــــلٌ إذا جُهِـــلَ المَقْصُـــودُ قد خَـــــاب قاصِـــــدُ
قليلٌ من الأعمالِ بــالعلمِ نَـــــــــــــافِعٌ كَثيرٌ من الأعمالِ بالجَهْـلِ فاسِـــــــــــــــدُ

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصــحبه وسلم.

فصل

أســــئلة وأجوبة الله أعلم بالســـــائل عنها والمسئول:

السؤال الأول عن واحد لا ثاني له.
وعن دين لا يقبل الله غيره.
وعن مفتاح الصلاة وبم تختم.
وعن غراس الجنة وعن صلاة كل شيء.

وعن أربعــة فيهم الــروح ولم يكونــوا في أصــلاب الرجال ولا أرحام النساء.
وعن رجل لا أب له.
وعن رجل لا أم له ولا أب.
وعن حيوان جرى بصاحبه.
وعن بقعة من الأرض طلعت عليها الشــمس مــرة واحدة ولم تطلع عليها قبل ذلك ولا بعده.
وعن ظاعِن ظعن مرَّةً ولم يظعن قبلها ولا بعدها.
وعن شجرة نبتت على إنسان.
وعن شيء يتنفس ولا روح له.
وعن الحكمة في المحو الذي في القمر.
وعن ميت مات ألف شهر ومائتي شهر.
وعن جبل ارتفع ثم رجع.
وعن اثنان لا ثالث لهما.
وخمسة لا سادس لها.
وستة ليس سابع.
وسبعة ليس لها ثامن.
وثمانية لا تاسع لها.
وتسعة لا عاشر لها.
وعشرة ليس لهم حادي عشر.
واثنا عشر لا ثالث عشر لها.
وثلاثة عشر لا رابع لها.
وعن أحب كلمة إلى الله.
وما الموضع الذي ليس له قبلة.
وعن شيء حل بعضه وحرم بعضه.
وعن نـــبي نهى الله النـــبي أن يعمل مثل عمل عمله.
وعن مَنْ بعثه الله وليس من بـــــــني آدم ولا من الجن ولا من الملائكة.
وعن نفس ماتت وضُـرب ببعضـها ميت فحيا بـإذن الله.

وعن كافر لم تأكل الأرض لحمه.
وعن نفسٍ خرجت من نفسٍ ولا نسبة بينهما.
وعن اثـنينٍ تكلما في الـدهرِ مـرةً واحـدة فقط ثم هما سكوت إلى يوم القيامة.
وعن أنفع كلمة وأرفع كلمة وأحسن كلمة وأزكى.
وعن جماعة شهدوا بالحق وهمُ كاذبون.
وعن جماعة شــهدوا بــالحق فــأدخلوا النــار ومن شهدوا عليه.
وعن شيء في الأرض من الجنة.
وعن صيدين صادهما رجل فحل أحدهما له وحــرم عليه الآخر.
وعن امرأة أوحى الله إليها.
وعن خمسة مشوا على وجه الأرض ولم يولدوا.
وعن أم لم تلد.
وعن أم لم تولد.
و7عن مــاء لم يــذكر أنه نبع من الأرض ولم يــذكر أنه نزل من السماء.

الجواب:

الواحد الــذي لا ثــاني له فالله جل جلاله وتقدست أسماؤه، وأما الدين الذي لا يقبل غيره فدين الإسلام، قــال تعــالى: ﴿**وَمَن يَبْتَـغِ غَيْـرَ الإِسْـلامِ دِينًـا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾.

وأما مفتاح الصلاة فالتكبير وتختتم بالتسليم.

وأما غرس الجنة فســبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وأما صلاة كل شيء سبحان الله وبحمده.

وأما الــذي فيهم الــروح ولم يكونــوا في أصــلاب الرجال ولا في أرحام النساء، فهم: آدم وحواء، وناقة صـالح ــ عليه السـلام ــ، وعصا موسى لما قلبها الله

حية، والكبش الـذي فـدى به إبـراهيم ابنـه، قـال الله تعالى: ﴿**وَفَدَيْنَاهُ بِـذِبْحٍ عَظِيمٍ**﴾، وأما الموضع الـذي ليس له قبلة فظهر بيت الله (أي سطح الكعبة).

وأما الرجل الــــذي لا أب له فعيسى –عليه وعلى نبينا السلام-.

وأما الرجل الــذي لا أم له ولا أب فــآدم ــــ عليه السلام ـ.

وأما الحيوان الذي جـرى بصـاحبه، فـالحوت الـذي سار بيونس في البحر.

وأما البقعة التي طلعت عليه الشمس مرةً واحدة فــأرض البحر الــذي فلقه الله لموسى ومن معه من بني إسرائيل.

وأما الاثنان اللذان ليس لهما ثالث فالليل والنهار.

وأما الثلاث التي ليس لها رابع فالطلاق الثلاث.

وأما الخمس الـــتي لا ســـادس لها فالصــــلوات الخمس المفروضة.

وأما الستة الـذين لا سـابع لهم فالأيـام الـتي خلق الله فيها السموات والأرض.

وأما السبعة التي لا ثامن لها فأيام الأسبوع.

وأما الثمانية الذين ليس لهم تاسع فحملة العــرش يــوم القيامــة، قــال الله جل وعلا: ﴿**وَيَحْمِـلُ عَـرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾.

وأما التسعة الـذين لا عاشر لهم، فالتسـعة الرهط الـذين ذكـرهم الله في سـورة النمـل، قـال تعـالى: ﴿**وَكَانَ فِي المَدِينَـةِ تِسْـعَةُ رَهْـطٍ يُفْسِـدُونَ فِي الأَرْضِ**﴾.

وأما العشر الــتي ليس لها حــادي عشــرة، فقوله تعالى: ﴿**وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ**﴾.

وأما الأحد عشر فإخوة يوسف.

وأما الاثنا عشر فشهور السنة.

وأما الثلاثة عشر فإخوة يوسف وأبوه وأمه.

و ما أحب كلمة إلى الله فكلمة الإخلاص «لا إله إلا الله».

وأما الشيء الذي أحِلَّ بعضُه وحُرِّمَ بعضُه فهو نهر طالوت، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَـرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْـهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْـهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ**﴾.

وأما الـــــــذي بعثه الله ولسي من الإنس ولا من الملائكة ولا من الجن، فهو الغراب، قـال الله تعـالى: ﴿**فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ**﴾.

وأما النفس الـتي مـاتت وضـرب ببعضـها ميتًا آخر فحيا بإذن اللـه، فهي بقـرة بـني إسـرائيل، قـال الله جل وعلا: ﴿**فَقُلْنَـا اضْـرِبُوهُ بِبَعْضِـهَا كَـذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ المَوْتَى**﴾.

وأما الشجرة الـتي نبتت على إنسـان فـالتي أنبتها الله على يونس بن مَتَّى، قال تعالى: ﴿**وَأَنْبَتْنَـا عَلَيْـهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ**﴾.

وأما النفس التي دخلت في نفس أخرى وخــرجت وليس بينهما مناســبة فهو يــونس بن مــتى ـــ عليه السلام ـ دخل في بطن الحـوت وخـرج، قـال تعـالى: ﴿**فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ**﴾.

وأما الكــنز من كنــوز الجنة فلا حــول ولا قــوة إلا بالله، كما في الحديث.

وأما المــاء الــذي لم يــذكر أنه نبع من الأرض ولم يــذكر أنه نــزول من الســماء، فالمــاء الــذي نبع بين أصابع النبي ﷺ.

وأما الحكمة الـتي في محو آية الليل القمـر، فالله أعلم أنه لأجل تمييز الليل من النهار، ولمنـافع أخـرى تتعلق بالنبات والزروع والأشجار.

وأما أنفع كلمة وأرفع كلمة وأحسن كلمـــة، فكلمة الإخلاص: «لا إله إلا الله».

وأما النــبي الــذي نهى الله النــبي ﷺ أن يعمل مثل عمل عمله، فهو يــونس، قـال الله جلا وعلا وتقــدس: ﴿**فَاصْـبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحُـوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ**﴾.

وأما الشهود الـذين شـهدوا حقًا وهم كـاذبون فهم المنافقون، قال الله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَكَ المُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُــولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾.

وأما الشهود الـذين شـهدوا بـالحق وأدخلـوا النـار، ومن شـــهدوا عليه فـــالجوارح، قـــال الله جل وعلا وتقدس: ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْـدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾، وقال تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَــــهِدَ عَلَيْهِمْ سَــــمْعُهُمْ وَأَبْصَــارُهُمْ وَجُلُــودُهُمْ بِمَا كَــانُوا يَعْمَلُــونَ**﴾ الآيات.

وأما الجبل الذي ارتفع وعـاد فجبل الطـور، أعـاده الله، قال الله جل وعلا: ﴿**وَإِذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ**﴾.

وأما الكافر الذي لم تأكل الأرض لحمه فقارون.

وأما الــــذي في الأرض وهو من الجنة فـــالحجر الأسود.

و أما الصــيدان اللــذان صــادهما رجــل، فأحِل له أحدهما وحرم عليه الآخـر، فمحـرم صـاد صـيدين من الـبر واحد ومن البحر واحـد، فالـذي من الـبر حـرام، والذي من البحر حلال.

وأما الذي مات ألف شهر ومـائتي شـهر ثم أحيـاه اللـه، فـالعزيز ــ عليه السـلام ــ، قـال الله جل وعلا وتقدس: ﴿**فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ**﴾.

وأما المرأة التي أوحى الله إليها فأم موسى، قـال الله جل وعلا: ﴿**وَأَوْحَيْنَـــا إِلَى أُمِّ مُوسَـــى أَنْ أَرْضِعِيهِ**﴾.

وأما الأم التي لم تولد فحواء -عليها السلام-.

وأما الأم الــتي لم تلد فمكة المكرمة أم القــرى، قال الله جل وعلا: ﴿لِّتُنذِرُ أُمَّ القُرَى﴾. اهـ.

سُــئل الشــافعي عن رجلين خطبا امــرأة فحلت لأحدهما ولم تحل للآخر، فقال: إن الذي لم تحل لــه، له أربع زوجات فحرمت عليه الخامسة.

فقال: ما تقول في رجلين شربا خمرًا فوجب على أحـدهما الحـد، ولم يجب على الآخر وكانا مسـلمين؟

فقال: إن أحدهما كـان حـرًا بالغًا فـوجب عليه الحـد، والآخر صغير لم يبلغ.

قـال: فما تقــول في خمسة زنـوا بـامرأة فـوجب على أحدهم القتلُ، وعلى الآخر الرجمُ، وعلى الثـالث الحـــدُ، وعلى الرابع نصف الحـــدِ، ولم يجب على الخامس حَدٌّ.

فقــال: أمَّا الأول فمشــرك زنى بمُســلمة فــوجب عليه القتل، وأما الثاني فمســلم مُحصن زنى فــوجب عليه الرجم، وأما الــذي وجب عليه الحد فمسـلمٌ بكر زنَى، وأما الرابع فمملــوكَ زنى فــوجب عليه نصــفُ الحـــد، وأما الـــذي لم يجب عليه شـــيء فالصـــبيُّ والمجنون.

قـــال: فما تقـــول في رجل أخذ كأسًـــا من مـــاء فشرب بعضه وحرُم عليه الباقي؟

قال: هذا لما شرب بعضه وقع على الباقي نجاسة فحرم عليه.

قــال: فما تقــول في رجل دفع إلى امرأته كيْسًـــا مختومًـــا، وقـــال لهـــا: أنتِ طـــالقٌ إن لم تُفرغيه ولا تفتحيه ولا تقطعيه ولا تفتقيـــــــه، ففرغته على ذلك الحكم ولم يلحقها طلاق؟

فقال: إن الكيس مملـوءًا سـكرًا أو ملحًا فوضـعته في الماء فذاب وتفرَّغَ.

قـال: فما تقـول في جماعة صـلحاء سـجدوا لغـير الله تعـالى وهم في فعلهم مُطيعـون؟ قـال: الملائكة سجدوا لآدم.

قال: فما تقول في رجل لقي جارية فقبَّلها، وقال: فـديتُ من أبي جـدُّها وأخي عمها وأنا زوج أمهـا، فما تكون منه؟ قال: هي ابنته.

قـال: فما تقـول في امـرأة لقيت غُلامًـا، فقبلتـه، قالت: فـديتُ من أمي ولـدت أمـهُ وأخُـوْ زوْجِي عمُّهُ وأبُوه ابن حماتي وأنا امرأة أبيه؟ قال: هي أُمُّهُ.

وقال: ما تقـول في رجل تـزوَّج امـرأةً وزوَّج ابنـهُ أمَّهـا، فجـاءت الأم والبنتُ بولـدين، فما يكـون الولـدُ من ذلك وذلك؟ فقال: ابنُ الأم خالُ لابن البنت، وابنُ البنت عمٌّ لابن الأم.

وقــال: ما تقــول في رجل مــات وخلَّف ســتَّمائة درهم وله من الورثة أختٌ فأصابها درهمٌ واحد.

فقال: هذا شخص مات وخلف ستَّمائة درهم وترك بنــتين أصــابهُما الثُلُثــان أربعمائة درهم وخلَّفَ والدته أصابها السُدُسُ مائة درهم وخلَّفَ زوجة أصابها الثمنُ وهو خمس وســبعون درهمًــا، وله اثنا عشر أخًا لكل واحد منهم درهمان، ففضل للأخت درهم.

وقال آخر مُلغزًا:

تَـزَوَّجَ شَـخْصٌ أمَّ شَـخْصٍ وأخُتَه ... كـذا أخْتَـهُ الأخـرى وليسَ بِبَاطِـــــــــــــــلِ
وشَـخْصٌ أتَى أيضًـا بِفِعْـلٍ مُحَـــــــــــــــرَّمٍ ... وقـالوا له أجْـرٌ لـدى كُـلِّ فاضل

وقال آخر:

ألا فاسْـــــألُوا مَن كـــــان بــــــــــــالعلمِ بَارِعًا ... وفي الفقــهِ أفْتَى عُمْــرَهُ بابْتِذَالــــــــــــــــهِ
عن المرءِ يُوْصِـي قاصِـدًا لِزَيْـدٍ كما سَـمَّاهُ مِن ثلث مَالِــــــــــــــــهِ

وَجْـــــــــــــــــه رَبِّهِ   دَفَعْنَا له الموصى له
فـــــإنْ يَكُنْ الموصى له   بكمالـــــــــــــــــــهِ
مُتَمَـــــــــــــــــــوِّلاً   حَرَمْنَاهُ ذَاكَ المالَ فـارْث
وإن كـــان ذا فَقْـــرٍ وقِـــلٍّ   لَحِالِـــــــــــــــــــهِ
وفَاقَـــــــــــــــــــةٍ   لَعَمْـــرُكَ ما رِزْقُ الفـــتى
أيُحْرَمُ ذُوْ فَقْرٍ ويُعْطَاهُ ذُو   باحْتيالِـــــــــــــــــــهِ
الغـــــــــــــــــــنى   ولا تسْـتَنِدْ إلا لِعِـزِّ جَلالِـهِ
فلا تعْتَمِـــــدْ إلا على الله
وَحْـــــــــــــــــدِهُ

وحلها موجــود في الأســئلة والأجوبة الفقهية في الجزء السابع.

وقال آخر: هل ينوب الماء عن التراب؟ فقيل: نعم إذا مــاتَ ميتٌ في البحــر ولم يتسَّــرْ دفْنُــه في الــبر، يُجعل فيه مُثقِل ويُلْقَى في البحــر، ويَنُـوبُ المــاءُ عن التراب.,

ومَن مَــاتَ لي بَحْــرٍ وقد   فَفِي البَحـــــــرِ يُلْقَى وهو
عَـــــــــزَّ دَفْنُـــــــــهُ   بـــــــــالتُرْبِ بُـــــــــدِّلَا

موعظة

عن الزهـــري قـــال: ســـمعتُ علي بن الحســـين يُحاسبُ نفْسَه ويُناجي ربَّهُ.

يا نفسُ حتَّامَ إلى الـــدنيا سُـــكوتك، وإلى عمارتها رُكُونــكِ، أما اعتــبرت بمن مضى من أســلافك، ومن وارتهُ الأرض من الأفك، ومن فُجعت به مِن إخوانك.

ونُقل إلى الـــثرى من أقرابـــك، فهم في بُطُـــون الأرضِ بعد ظهورها، محاسنهم فيها بوالٍ دواثر.

خَلَتْ دُوْرُهم منهم وأقْوَتْ   وسَــــاقَهُم نَحْـــوَ المنايَا
عراصُـــــــــــــــهُم   المَقَـــــــــــــــادِرُ
وخَلَّوْا عن الـــــدنيا وما   وضـــمَّتْهُمُ تحت الـــتراب
جَمَعُـــــــــــــوْا لَهَا   الحَفَـــــــــــــائرُ

كم خـرَّبت أيـدي المُنـون من قُـرون بعد قُـرون! وكم غبَّرَت الأرض! وغيبتْ في تُرابها ممَّنْ عاشـــرتَ من صُــنوف وشــيَّعتهُم إلى المهَالِك ثم رجعت عنهم إلى أهل الأفلاس!

وأنْتَ على الـــدُنيا مُكِبٌّ مُنَـــــــــافِسٌ لخُطَّابها فيها حَـــــريْصٌ مُكَـــــــــــاثِرُ
على خَطَرٍ تَمْشِي وتُصْـبِحُ لاهِيًا أتــدْرِي بِمَــاذَا لَــوْ عَقَلْتَ تُخَـــــــــــاطِرُ
وإنَّ امْـرءًا يسْـعَى لِـدُنْيَاهُ دَائبًا ويَذْهَلُ عن أخُرَاهُ لا شَــكَ خَاسِـــــــــــرُ

فحَتَّام على الدنيا إقبالُك وبشهواتها اشتغالك، وقد وخطك الشيب وأتاك النذير وأنت عما يُـرادُ بك سـاهٍ وبلــــذة يومك وغـــــدِك ولاهٍ وقد رأيت انقلابَ أهل الشهوات وعايَنْتَ ما حَلَّ بهم مِن المُصيبات.

أبعد اقْتَـــــــراب الأربَعِيْنَ تَـــــــــــــربصٌ وشيب قَذَالٍ مُنْذِر للأكَـابرِ
كأنَّك مَعْنيَّ بما هُو ضَـائرٌ لِنفْسِـــكَ عَمْــدًا أو عن الرشــــــدِ حـــــائر

انظر إلى الأمم الماضــية والملــوك الفانية كيف اختطفتهم عُقْبَانُ الأيام ووافاهم الحمامُ فانمحتْ من الدنيا آثارهُم وبقيت فيها أخبـارهم وأضـحوا رممًا في التراب إلى يوم الحشرِ والمآب والحساب.

فأمْسَوْا رَمِيْمًا في الترابِ وعُطِّلَتْ مَجَالسَـــهُم منهم وأخْلى المَقَاصِـــــــــــرُ
وحَلُوا بدَار لا تزاور بَيْنَهُمْ وأنَّى لسُـــكَّان القُبُـــورِ التَّزَاوُرُ
فما أن تَرى إلا قُبُورًا ثَوَوْا بِهَا مُسَـــطَّحَةً تسْــفِي عليها الأعاصِـــــــــرُ

كم مِن ذي منعةٍ وسُلطانٍ وجنُـود وأعـوان تمكن من دُنيـاه ونـال فيها ما تمنـاه، وبـنى فيها القُصُـورَ والدسَـــاكِرُ، وجمع فيها الأمـــوال والـــذخائر، ومُلَحَ السَّرِاري والحَرائِر.

فما صَـــــرَفَتْ عنه المَنِيَّةَ إذا أتَتْ | مُبَادَرَة تهوى إليها الذَخَائِرُ
ولا دَفَعَتْ عنه الحُصُـــونُ الـــــــــتي بَنَى | وحَفَّ بها أنهارُهُ والدَّسَاكِرُ
ولا قـــــارَعَتْ عنه المَنِيَّةَ حِيْلـــــــــــــــــةٌ | ولا طَمِعَتْ في الـــــذَّب عنه العَسَــــــــــــاكِرُ

أتاهُ من الله ما لا يُـردّ ونـزَلَ به من قضـائه ما لا يُصدّ فتعالى الله الملك الجبار المتكـبر العزيز القهـار قاصم الجبارين ومُبيْدِ المتكبرين الـذي ذلَّ لعِـزِه كـلُ سلطان وأبادَ بقُوتِه كُلَّ ديَّان.

مَلِيْكٌ عَزيْزٌ لا يُرَدُّ قَضَاؤُهُ | حكيمٌ عليمٌ نافــذُ الأمْـــرِ قــــــــــــــــــــاهرُ
عَنَى كـــلُ ذِي عِز لِعِـــزِة وجْهه | فَكَمْ مِن عَزِيْـــزٍ لِلْمُهَيْمن صــــــــــــــــــاغرُ
لَقَدْ خَضَـعَتْ واسْتَسْـلَمَتْ وتضَـــــــــــــأَلَتْ | لِعِزِة ذِي العرشِ الملـوكُ الجَبَـــــــــــابِرُ

فالبدارَ البدارَ والحِذارَ الحِذارَ من الدنيا ومكائدها، وما نصـبتْ لك من مصـائدها، وتحلّتْ لك من زينتهـا، وأبـــرزتْ لــكَ مِن شــهواتِها وأخفتْ عنك من قواتِلِها وهَلَكَاتِهَا.

وفي دُوْن مَا عَـــايَنْت من فَجَعَاتها | إلى دَفْعهَا دَاعٍ وبالزُهْــــدِ أمِـــــــــــــــــــرُ
فَجُـــــدَّ ولا تَغْفُـــــلْ وكن مُتَيِقظًا | فعَمَّا قليــلٍ يَــتركُ الــدارَ عَــــــــــــــــامِرُ

فَشـمِّرْ ولا تفْتُـرْ فعُمْـرُكَ زَائِلٌ وأنْتَ إلى دار الإقامـــــةِ صَـــــــــــائِرُ
ولا تَطْلُبَ الـــدنيا فـــإنَّ نعِيْمَهَا وإنْ نِلْتَ منه غِبُّةُ لَــــكَ ضَــــــــــائرُ

فهل يحرصُ على الدنيا لـبيب، أو يُسـرُّ بها أريب، وهو على ثقةٍ في فنائها، وغـيرُ طـامع في بقائهـا! أم كيف تنـــام عينُ من يخشي البيـــات! وكيف تســـكُنُ نفسُ من توقَّعَ فلي جميع أموره الممات!

ألا لا ولَكِنَّا نَغُــرُّ نُفوسَــنَا وتَشْـــــغَلُنَا اللَّذَاتُ عَمَّا نُحَــــــــاذِرُ
وكيف يَلَــذُ العَيْشَ مَن هُو مُـــــــــوقِنٌ بِمَوْقِف عَــرْضٍ يَـومَ تُبُلى السَّــــــرائرُ
كأنا نَرَى أنْ لا نُشُورَ وأننا سُدًّى ما لنا بَعْـدِ الممـات مَصَــــــــادرُ

وما عسى أن ينال صاحبُ الـدنيا لـذتها ويتمتع به من بهجتها مع صُنوف عجائبها وقوارع فجائعها وكـثرة عذابهِ في مصائبها وفي طلبها وما يُكابدُ من أسقامها وأوصابها وآلامها.

أمّا قَدْ نَرى في كُـلِّ يـومٍ ولَيْلَــــــــــــةٍ يَرُوْحُ علينا صَرْفُها ويُبَـاكرُ
تُعَاوِرُنَا آفَاتُهَا وهُمُومُها وكم قَـــدْ نَـــرى يَبْقى لَهَا المُتَعَـــــــــــاورُ
فَلا هُوَ مَغْبُوطٌ بـدُنْيَاهُ آمِنٌ ولا هُــــــوَ مِن تطْلا بها النَفْسَ قاصِــــــــرُ

كم غــرَّت الــدنيا من مُخْلد إليهــا، وصــرعتْ مِنَ مُكبٍ عليهـا، فلم تنعَشْـهُ مِن عثْرَتِـه، ولم تُنْقِـذْهُ من صَرْعَتِهِ، ولم تشـفهِ مِن ألمِـهِ، ولم تُبْـرهِ من سَـقَمِهِ، ولم تُخَلِّصْهُ مِن وصَمِه.

بَلَى أوْرَدَتْــهُ بَعــدَ عــزٍ مَـــوَارِدَ سُـــوْءٍ ما لهُنَّ

ومِنْعَـــــــــــــــــةٍ مَصَـــــــــــــــــــادرُ
فلما رأى أنْ لا نَجَاةَ وأنَّهُ هُـوَ المـوتُ لا يُنْجِيْـهِ مِنـهُ التَّحَـــــــــــــــــاذُرُ
تَنَدَّمَ إذ لم تُغْنِ عنه نَدَامَةٌ عليه وأبكَتْـــهُ الـــذُنُوبُ الكَبَـــــــــــــــائِرُ

إذا بكى على ما سلف من خطاياه، وتحسَّر على ما خلَّف من دُنْيَاه، واستغفر حتى لا ينفعهُ الاستغفار، ولا يُنجيه الاعتذار عند هول المنية ونزُول البلِيَّة.

أحَـــاطَتْ به أحْزَانُــــهُ وهُمُومُه وأبْلَسَ لمَّا أعْجَزَتْه المَقَـــــــــــــــادِرُ
فليسَ له مِن كُرْبَـــــــةِ المــــــوتِ فــــــارِجٌ وليسَ لَهُ مِمَّا يُحَاذِرُ ناصِرُ
وقد جَشَأتْ خَـوفَ المنِيَّةِ نفْسُـــــــــــــــه تُرَدِّدُهَا مِنْهُ اللَّهَا والحَنَاجِرُ

هُنَالِكَ خلَّفَ عُوَّادَهُ وأسلمهُ أهلُه وأولاده وارتفعت البريَّة بالعويل وقد أيسُـــوا مِن العليـــل، فغمَّضُـــوا بأيديهم عينيه ومَدَّ عند خروج رُوْحه رجليه وتخلىَ عنه الصِّديق والصاحب الشفيق.

فَكَمْ مُوْجَـــعٌ يَبْكِي عليه مُفَجَّعٌ ومُسْـتَنْجِدٌ صَـبْرًا ومَا هُـوَ صَـــــــــــــــابِرُ
ومُسَــــــتْرِجعٌ دَاعٍ له الله مُخْلصًـــــــــــــــا يُعَدِّدُ منه كُلَّ ما هو ذَاكِـرُ
وكم شَـــامِتٌ مُسْتَبْشِـــرٌ بوَفَاتِــــــــــــــهِ وعما قَليل للَّذي صَـــــارَ صَـــــــــــــــائِرُ

فشقَّتْ جُيُوبَها نسـاؤه، ولَطَمَتْ خُـدُوْدَهَا إمَـاؤه، وأعْوَلَ لِفقده جيرانُه، وتوجَّعَ لرزيَّتِهِ إخوانه، ثم أقبلُوا على جهــازه وشـــمروا لإبـــرازه كـــأن لم يكُنْ بينهم العَزيز المُفَدَّى ولا الحبيب المُبَدَّى!

وحَــلَّ أحَبُّ القــوم كــان بَقُرْبه يَحُثُ على تَجْهِيْزه ويُبَادِرُ
وشــمَّرَ مَن قَـدْ أحْضَـرُوهُ لِغَسْـــــــــــــــــلِهِ وَوجَّه لمَّا فَـــاضَ لِلْقَبْـــرِ حَــــــــــــــــــافِرُ
وكُفِّنَ في ثَوبَيْنِ واجتَمَعُوا لَــــــــــــــــهُ مُشَيِّعُهُ إخْوَانُهُ والعَشـائِرُ

فلو رأيت الأصْـغَر من أولاده، وقد غلب الحُــزْنُ على فــؤاده، ويُخشى من الجــزع عليه وقد خضــبت الـــدموع عينيه وهو ينـــدُبُ أبـــاه، ويقـــول: يا ويلاه واحرْبَاه.

لَعَـــايَنْتَ مِن قُبْحِ المنيـــةِ مَنْظـــــــــــــــرًا يُهَالُ لَمِرْآهُ ويَرْتَاعُ نــاظِرُ
أكابرُ أوْلادٍ يَهِيج اكتئـابهم إذا ما تَنَاسَـــــاهُ البَنُـــونُ الأصـــــــــــــــــاغِرُ
ورَنَّةُ نسوانٍ عليه جوازع مَــدَامِعُهُم فَــوقَ الخــدود غـــــــــــــــوازِرُ

ثم أخرج من سعة قصـره إلى مضـيق قـبره، فلما استقرَّ في اللحد، وهـيئ عليه اللَّبن احتوشـتهُ أعمالُه وأحاطتْ به خطاياه وأوزاره، وضاقَ ذرعًا بما رآه، ثم حثــوا بأيــديهم عليه الــتراب، وأكــثرُوا عليه البُكــاء والانْتِحَـابَ، ثم وقَفُـوا سـاعة عليه وأيسُـوا من النظر إليه، وتركُوهُ رهْنًا بما كسب وطلبَ.

فَوَلَّوا عليه مُعْوِلِيْنَ وكُلُّهُم لِمِثْل الــذي لاقَى أخُـــوْهُ مُحَـــــــــــــــــاذِرُ
كَشَاءٍ رعَـاءٍ آمِنِيْنَ بَـدَالها بِمُدْيِتِه بـــادِي الـــذِّرَاعَين حَاسِـــــــــــــــــرُ
فَــرِيْعَتْ ولم تَـرْعَى قَلِيْلاً واجْفَلَتْ فَلَمَّا نـــأى عنها الــذي هو جـــــــــــــــــازرُ

عادت إلى مرعاها، ونسـيتْ ما في أختها دهاهـا، أفا بأفعال الأنعـام اقْتَـدَيْنَا أم على عادتها جرينـا، عُـدْ إلى ذكر المنقُـول إلى دار البلَى، واعتــبره بموضــعه تحتَ الثرى، المدفُوع إلى هول ما ترى.

ثـــوى مُفْــرَدًا فَي لحْـــدِهِ وَتَـــــــــــــــــوَزَّعَتْ | مَوَارِيْثَهُ أَولادُهُ و الأصَــاهِرُ
وأحْنَـــــوا على أمْوَالِـــــهِ يَقْسِـــــــــــــــــمُونَهَا | فلا حَامــــــــدٌ منهم عليها وشـــــــــــــــاكِرُ
فيا عامِرَ الدنيا ويَا سـاعيًا لها | ويا آمنًا مِن أن تـــــــدُورَ الـــــــــــــــدَّوَائِرُ

كيف آمنتَ هـــذه الحالـــة، وأنت صـــائر إليها لا محالـــة؟ أمْ كيف ضـيَّعْتَ حياتَـكَ، وهي مَطيَّتُـكَ إلى مماتـكِ؟ أمْ كيـفَ تشـبع مِن طَعَامِـك، وأنْتَ مُنتظِـرَ حِمَامَكْ؟ أم كيف تهنأ بالشهوات وهي مطيَّة الآفات؟

ولم تتَــزَوَّدْ لِلرَّحِيل وَقَـــدْ دنا | وأنْتَ على حَــالٍ وشِـــيْكٌ مُسَــــــــــــــافِرُ
فَيَالَهْف قلـبي كم أسـوِّفُ توبــــــــــــــــتي | وعُمْرِيَ فـانٍ والـرَّدَى ليَ نـــــــــــــــاظِرُ
وكل الـــذي أسْــلفْتُ في الصُــــــــحْفِ مُثْبَتٌ | يجَازي عليه عـادِلُ الحكم قـــــــــــــادِرُ

فكم تُرتـعْ بآخرتك دُنيـاك، وتـركب غيَّك وهـواك، أراك ضعيف اليقين، يا مُؤثر الدنيا على الـدين، أبهـذا أمرك الرحمن؟ أم على هذا نـزل القـرآن؟ أما تـذكرُ ما أمامك من شـدّة لحسـاب وشر المـآب، أما تـذكرُ حـال من جمع وثمَّر، ورفع البنـاء وزخْـرَفَ وعمَّرْ، أما صار جمعُهُم بُورًا ومساكنُهم قبورًا.

تُخَـــرِّبُ ما يَبْقَى وتَعْمُـــرُ فَانِيًا | فلا ذَاكَ مَوْفُـــــورٌ ولا ذَاكَ عَــــــــــــــــامِرُ
وهَلْ لَكَ إنْ وَافَاكَ حَتْفُـكَ | ولم تَكْتَسِــبْ خَيْــرًا لَــدَى

يَغْتَـــــــــــــــــةُ الله عَـــــــــــــــــــاذِرُ
أتَرْضَـى بـأنْ تَفْنَى الحَيَـاةُ ودِيْنُـكَ مَنْقُـوصٌ ومَالُـكَ وتَنْقضِـــــــــــــي وافِـــــــــــــرُ

وقال ـ رحمه الله ـ: اللهم إني أعوذ بك أن تُحسِّنَ في لَوَامِعِ العُيُون علانيـتي وتُقَبِّحَ في خفيَّات الغُيـوب سريرتي.

اللهم كما أسـأت وأحسـنت إليَّ فـإذا عُـدْتُ فعُـدْ إليَّ، اللهم ارزقني مُواساة من قترت عليه رزقك بما وسعت عليَّ من فضلك.

وقـال يومًا لمن كـان معـه: إني اتكـأت على هـذا الحائط وأنا حـزين فـإذا رجـلٌ حسـنُ الوجه حسـنُ الثيـاب ينظـرُ في تجـاه وجهي، ثم قـال: يا عليُ بنُ الحســين، ما لي أراك كئيبًا حزينًا على الـــدنيا، فهي رزق حاضر يأخذ منه الــبر والفــاجر، فقلت: ما عليها أحزن؛ لأنها كما تقول.

فقــال: على الآخــرة فهي وعد صــادق يحكم فيها ملك قادر، فقلت: ما على هذا أحزن؛ لأنه كما تقول.

فقال: فعَلامَ حُزنك؟ فقلت: ما أتخوف من الفتنـة، يعني فتنة ابن الزبير.

فقـال لي: يا علي، هل رأيت أحـدًا سـأل الله فلم يعطه؟ قلت: لا، قال: ويخـاف الله فلم يكفـه؟ قلت: لا ثم غاب عني.

وقيل: إنه لمَّا مات ـ رحمه الله ـ فغسَّـلُوه، جعلـوا ينظرون إلى آثار سوادٍ في ظهـره، فقـالوا: ما هـذا؟ فقيل: كان يحملُ جُرا الدقيق ليلاً على ظهـره يعطيه فُقراء المدينة.

وقال ابنُ عائشة: سمعتُ أهل المدينة يقولون: ما فقدنا الصَّدقة حتى مات علي بن الحسين.

وروى الطـبراني عنـه، قـال: إذا كـان يـوم القيامة نادى مُنادٍ ليُقمْ أهلُ الفضْل فيقومُ ناسٌ من الناس.

فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة، فتتلقاهُم الملائكـة، فيقولــون: إلى أين؟ فيقولــون: إلى الجنة فيقوُلُــون قبل الحساب، قالوا: نعم.

قالوا: ما أنتمُ؟ قالوا: نحن أهل الفضل، قـالوا: وما كـان فضـلكم؟ قـالوا: كنا إذا جُهل علينا حملنـا، وإذا ظُلمِنا صــبرنا، وإذا أُسـيئ إلينا غفرنــا، قــالوا لهم: أدخُلُوا الجنة، فنِعْمَ أجْرُ العاملين.

ثم يُنـاد مُنـادٍ ليقُمْ أهل الصـبر، فيقُـوم نـاسٌ من النـاس، فيقـال لهم: انطلقـوا إلى الجنـة، فتتلقـاهُم الملائكة، فيقولون لهم مثلَ ذلك.

فيقولـــون: نحن أهل الصـــبر، قـــالوا: فما كـــان صــبركم؟ قــالوا: صــبرنا أنفســنا على طاعة اللــه، وصبرناها عن معصية الله، وصبرنا على البلاء، فقالوا لهم: أدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين.

ثم يُنــاد منــاد ليُقم جــيرانُ الله في داره، فيقــوم ناس من الناس وهم قليل، فيقـال لهم: انطلقـوا إلى الجنة فتتلقاهُم الملائكة، فيقولون لهم: مثل ذلك.

فيقولون: بم استحقَقْتُم مجـاورة الله عز وجل في داره، فيقولـــون: كُنَّا نـــتزاورُ في الله ونتجـــالسُ في الله، ونتبـادلُ في الله عز وجـل، فيقـال لهم: أدخلـوا الجنة فنِعم أجر العاملين.

يُسَرَّ الفـتى بـالعَيْشِ وهو مُبِيْـــــــــــدُهُ ... ويَغْتَرُّ بالدنيا وما هيَ دَارُهُ

وفي عِبَر الأيـــامِ لِلْمَـــرءِ واعـــــــــــظٌ ... إذَا صَـــــحَّ فيها فِكْـــــرهُ واعْتِبـــــــــــارُهُ

فلا تَحْسَبنْ يا غافلُ الدَّهْرَ صَـــــــــــامِتًا ... فأفْصَحُ شيءٍ لَيْلُه ونَهَارُهُ

أصَخْ لُمِنَاجَاةِ الزمانِ فإنَّهُ ... سَيُغْنِيْكَ عن جَهْر المقــالِ سِـــــــــــــرَارُهُ

أدَارَ على الماضِـينَ كأسًـا فَكُلُّهُمْ ... أبُيْحَتْ مَغَانِيْـــهِ وأَقْـــوَتْ دِيَـــــــــــــارُهُ

تَنَـــاوُشُ أطْـــرافِ القَنَا

ولم يَحْمِهم من أن يُسَــــقَّوْا بكأسِـــــهمْ واشْــــــــــــتِجَارُهُ

اســمع يا مُضــيعَ الزَّمَــانَ فيما ينقصُ الإيمــان، مُعْرضًــا عن الأربــاح ومُتعـرضٌ للخســران، لقد سُــرَّ بفعلكَ الشامتْ.

يا من يفرحُ العيد لتحسين لباسه، ويُـوقِنُ بـالموت وما اســتعدَّ لباسه ويغــتر بإخوانه وأقرانه وجُلَّاسِــه، وكأنه قد أمن سُرْعَةَ اختلاسِهْ.

يا غـافلاً قد طُلِبْ، ويا مُخاصـمًا قد غُلِبْ، ويا واثقًا قد سُلِبْ، إيَّاك والـدنيا فما الـدنيا بدائمـة، لقد أبـانت للنواظرِ عُيُوبْهَـا، وكشـفتْ للبصـائر غيُوبهـا، وعـدَّدَتْ على المســامع ذُنُوبهـــا، وما مــرَّتْ حــتى أمـــرَّت مشرُوبها.

فلذاتها مثلُ لمعانِ البرقْ ومُصيبتُها واسعةُ الخرقْ، سوَّتْ عواقبُها بين سُلطان الغرب والشــرق، فما نجا منها ذو عدَدْ، ولا سلم فيها صاحبُ عُدَدْ، مزَّقَت الكُـلَّ بكفِّ البُدَدْ ثم ولَّتْ فما الْوَت على أحدْ.

قــال ﷺ: «سـبعة يُظللُّهُم الله في ظِلِّه، منهم رجل دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنْصِـبٍ وجمـال، فقـال: إنِّي أخـافُ الله».

اسمع يا مَنْ أجابَ عَجُـوزًا هتْمَـا عَمْيَـا صَـمًّا جَرْبَـا سوداءَ شَوْهَاء مُقْعَدة على مَزْبَلَـة ولكن غَلَبَتْ عليـكَ مَحَبَّتُهَا عُرِضَتْ على النـبي ﷺ بطحـاء مكة ذَهَبًا فـأبَى أن يَقْبَلهَا.

مَا هذه الدنيا بدَارِ مَسَرةٍ فَتَخَوَّفي مَكْرًا لَها وخِدَاعَا

لَيْنَا الفَـــتى فيْهَا يُســـرُّ بنفْسِـــــــــــه وبمالِهِ يَسْتَمْتِعُ اسْـتِمْتَاعَا

حَتَّى سَـــقَتْهُ مِن المنِّيـــةِ شــــــــــــــــرْبةً وحَمتْه فيه بعـــــــدَ ذَاكَ رَضَـــــــــــــــاعَا

فَغَـــدًا بمَا كسَـــبَتْ يَــداهُ لا يَسْتَطِيْعُ لما عَرَتْهُ دِفَاعَا

رَهِيْنَـــــــــــــــــةٌ فلْيُحْسِن العمَــلَ الفَتَى مَا
لو كــان يَنْطِــقُ قــال مَنْ اسْـــــــــــــــــطَاعَا
تحْتَ الـــــــــــــــــثرى

فائدة عظيمة النفع

اعلم أن من كان داؤُهُ المعصية، فشفاؤهُ الطاعة، ومن كـان داؤُه الغفلـة، فشـفاؤه اليقظـة، ومن كـان داؤه كثرةُ الأشغال، فشفاؤه في تفريغ المال.

فمن تفرَّغ من هموم الدنيا قلبُه، قلَّ تعبُـه، وتـوفَّر من العبـادة نصـيبه، واتصل إلى الله مسـيره، وارتفع في الجنة مصـيره، وتمكن من الـذكر والفكر والـورع والزهد والاحـتراس من وسـاوس الشـيطان، وغوائل النفس.

ومن كـثر في الـدنيا همــه، أظلم طريقُــه، ونصب بدنُـه، وضـاع وقتـه، وتشـتت شـمله، وطـاش عقلُـه، وانعقد لســانُه عن الــذكر، لكــثرة هُمومه وغمُومــه، وصار مُقيَّدَ الجوارح عن الطاعة من قلبهِ في كل وادٍ شُعْبَة، ومن عُمرهِ لكلِ شغل حصَّة.

فاستعذ بالله من فضـول الأعمـال والهمـوم، فكل ما شــغل العبد عن الــرب فهو مشــئومن ومن فاته رضا مـــولاه فهو محـــروم، كل العافية في الـــذكر والطاعــــة، وكل البلاء في الغفلة والمخالفــــة، وكل الشفاء في الإنابة والتوبة، وانظر لو أن طبيبًا نصرانيًا نهاك عن شرب الماء البارد لأجل مرض في جســدك لأطعته في ترك ما نهاك عنه، وأنت تعلم أن الطـبيب قد يصــدُق وقد يكــذب، وقد يصـيبُ وقد يُخطئ وقد ينصحُ وقد يغشُ، فما بالك لا تترك ما نهاك عنه أنصحُ الناصـحين وأصـدق القـائلين وأولى الواعـدين لأجل مرض القلب الذي إذا لم تشـفَ منه فـأنت من أهلك الهالكين.

تَبْغِي الوُصُــولَ بسَــيْرَ فيه لا شَــــــكَّ أنَّكَ فيما رُمْتَ

تَقْصِـــيْرُ قَــدْ سَــارَ مَغْـــرُوْرُ
بْلَـكَ أبْطَـالٌ فما وَصِـلُوا هَـذا وفي سَـيْرهم وجـدٌ وتشْــمِيْرُ
يا مُدَّعِي الحُبَّ في شَـرْعِ الغَـرامِ وقَد أقَـامَ بَيِّنَـةً لَكِنَّهَا زُوْرُ
أفْنَيْتَ عُمَـركَ في لَهْو وفي لِعبٍ هَـذا وأنْتَ بَعْيِـدُ الـدارِ مَهْجُـوْرُ
لو كانَ قَلْبُكَ حَيًا ذُبْتَ مِن كَمَـدٍ ما لِلْجِـرَاحِ جِسْـمِ المَيْتِ تـأثِيْرُ

اللهم إنا نسـألك نفسًـا مطمئنة تـؤمنُ بلقائك وترضى بقضـائك، اللهم إنا نسـألك باسـمك الطـاهر الطيب المُبارك الأحبِّ إليك الذي إذا دُعيت به أجبت، وإذا سُـئلت به أعطيتَ، وإذا اسـتُرحمتَ به رحمت، وإذا استفرجت به فرَّجتْ أن تغفر سيئاتنا وتبـدلها لنا بحسـنات يا أرحم الـراحمين، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

وختامًا فـالواجب على الإنسـان المبـادرة إلى الأعمـال الصـالحة، وأنْ ينتهز فرصة الإمكـان قبل هجوم هادم اللذات.

وأن يستعين بالله ويتوكل عليه ويسأله العـون في تسيير الأعمال الصـالحة وصـرف الموانع الحائلة بينه وبينها.

وليحـرص على حفظ القـرآن، وتـدبره، وتفهمـه، والعمل به، وكذلك السُّنة، ويحـرص على أداء الصـلاة في جماعة.

ويحرص على مجـالس الـذكر، ويحفظ لسـانه عن الغيبة والنميمة والسـعاية والكـذب وجميع الأعمـال والأخلاق السيئة.

ويتهيأ للرحيل، ويتفقد نفسه بما عليه، وما له فـإن كـان عنـده حُقُـوقٌ لله كزكـاة، أو لخلقه كأمانـات أو

عــواري أو وصــايا أداها بسُــرْعَةٍ خشــية أن يفجَــاءَهُ الموتُ وهي عنده.

فإذا لم تُؤدها أنت في حياتك، فمن بعدك من أولاد أو إخـــوان يَبْعُـــدُ اهتمِـــامُهم بـــذلك؛ لأنهم يهتمـــون ويشتغلون بما خلَّفْتَهُ لهم وضيَّعْتَ بسببه نفسك.

فالله الله البدارَ بالتفتيش على النفس، والمبــاردة بالتوبة والإكثار من الاستغفار.

ومما يحثُك على ذلك ذكــرُ مــرارة المــوت الــذي سماه رسول الله ﷺ هادم اللذات، وتذكر شـدة الـنزع والتفكر في المــوتى الــذي حُبسُــوا على أعمــالهم ليُجـازوا بها فليس فيهم من يقـدرُ على محو خطيئـةٍ، ولا على زيادة حسنة.

وعاد بعضهم مريضًا، فقال له: كيف تجدُك؟

قـــال: هو المـــوت، قـــال لـــه: وكيف علمت أنه الموت؟ قال: أجدُني أجْتذَب اجتـذابًا، وكـأن الخنـاجر في جوفي، وكأن جوفي تنوُرٌ مُحْمىً يتلهَّب.

قال له: فاعهد (أي أوصي)، قال: أرى الأمر أعجل من ذلك فدعا بـدواة وصـحيفة، وقـال: فوالله ما أتى بها حتى شخص بصرُهُ فمات.

وقال إبراهيم بن يزيد العبدي: أتاني رياح القيسي، فقال: يا أبا إسحاق انطلق بنا إلى أهل الآخرة نُحْدِثُ بقربهم عَهْدًا.

فـانطلقت معـه، فـأتى المقـابر فجلسـنا إلى بعض تلك القبور، فقال: يا أبا إسـحاق، ما تـرى هـذا مُتمنيًا لو مُنِّيء، قلت: أن يُرَدَّ والله إلى الـدنيا فيسـتمتع من طاعة الله ويُصلح.

قال: فها نحنُ، ثم نهض فجدَّ واجتَهَد، فلم يلبث إلا يسرًا حتى مات.

ومما يَحُثُكَ على التأهب والاستعداد لهـادم اللـذات أن تُصَــوِّر لنفسك عرضَــهَا على رَبِـكَ وتخجيله إيــاك

بمضيضِ العتـاب على فعلِ ما نهـاكَ عنـه، قـال جـلَ وعلا: ﴿**وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا**﴾.

وقـــــال رســـــول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيُكلمُهُ ربه تبارك وتعالى يس بينه وبينه ترجمان».

وعن صـفوان بن محـرر قـال: كنتُ آخـذًا بيد ابن عمر إذ عرض له رجُل، فقـال: كيف سـمعتَ رسـول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟

فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يُدْني المــؤمن فَيَضَــعُ عليه كَنَفَــه، ويَسْــتُره من النــاس، ويُقَرّرُهُ بذُنُوبه، ويقُولُ له: أتَعْـرفُ ذَنْبَ كـذا، أتعـرف ذنب كــذا، حَتَّى إذا قــرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فـإني قد سَـتَرْتها عليك في الـدنيا وأنا أغفرها لك اليوم».

ومما يحثُك على الاسـتعداد للمـوت والابتعــاد عن المعاصي أن تتخايل وتتصـوَّر شـهادة المكـان الـذي تعصي فيه عليك يوم القيامة.

فعن أبي هريـرة قـال: قـرأ رسـول الله ﷺ ﴿**يَوْمَئِذٍ تُحَـدِّثُ أَخْبَارَهَا**﴾، فقـال: «أتـدرون ما أخبارهـا! أن تشهَدَ على كل عبد بما عمل على ظهرهـا، أن تقـول عَمِلَ كذا وكذا في يوم كذا وكذا، فهو أخبارها».

ومما يحثك على التـــأهب والاســـتعداد للمـــوت والابتعــاد عن المعاصي أنْ تُمَثِــلَ نَفْسَــكَ عند بعض زَلَلِكَ كأنه يُؤمَرُ بك إلى النار الـتي لا طاقـةَ لمخلـوق بها.

وتصور نفاذ اللذة وذهابَهَا وبَقَاءَ العار والعذاب.

تَفــنى اللَّذَاذَةُ مِمَّنْ نَــالَ شَهْوَتَهُ ... مِن الحَــرَامِ ويَبْقى الإثم والعَارُ

تَبْقَى عَــوَاقِبُ سُــوْءِ في مَغَبَّتِهَا ... لا خَيْرَ في لَذَّةٍ مِن بَعْـدِهَا النَارُ

عن أبي هريـرة، عن النـبي أنه قـال: «نـاركم هذه ما يُوقِدُ بَنُوا آدَمَ جُزْءٌ واحدٌ مِن سَبْعِيْنَ جزءًا من حر جَهَنَمَّ»، قالوا: والله إن كانت لكافية.

وقــــال بعض الســـلف: ربما مُثِّلَ لي رأسي بين جبلين من نــار وربما رأيتــني أهــوى فيها حــتى أبلغ قعرها فكيف تهنا الدنيا من كانت هذه صفته.

وكان عمر ربما توقد له النار ثم يدني يديه منها، ثم يقول: يا ابن الخطاب، هل لك على هذا صَبر!

ومما يحثك على الاستعداد وتفقد شـؤونك وأمـرك ذكر أحـوال كثـير من السـلف الصـالح الـذي أقلقهم خوفُ الحساب والعذاب في البرزخ والنار.

لما أهـديت مُعـاذة العدويـةو إلى زوجها صـلة بن أشيم أدخله ابن أخيه الحمـام، ثم أدخله بيتًا مُطيبًـان فقام يصلي حتى أصـبح، وفعلتْ زوجتُه معـاذة مثلـه، فلما أصـــبح عاتبـــهُ ابنُ أخيه على فعله ليلة الـــزواج، فقـال لـه: أدخلتـني الأمس بيتًا ذكَّرتـني به النـار، ثم أدخلتــني بيتًا ذكرتــني به الجنـــة، فما زالت فكــرتي فيهما حتى أصبحت.

ونظر عمر بن عبــدالعزيز إلى رجل عنــده مُتغــيرُّ اللــون، فقـال لـه: ما الـذي بـك؟ فقـال: إني ذُقْتُ حلاوة الـــدنيا فصـــغُر في عيـــني زهرتها وملاعبُهـــا، واستوى عنـدي حجارتُها وذهبُهـا، ورأيتُ كـأن النـاس يُساقون إلى الجنـة، وأنا أُسـاقُ إلى النـار، فأسـهرتُ لذلك ليلي، واظمأتُ نهـاري، وكـلُ ذلك صـغيرٌ حقـيرٌ في جنبِ عفو الله، وثوابه عز وجل وجنْب عقابه.

وقال إبراهيم الـتيمي: مثلتُ نفسي في النـار آكل من زقُومِها، وأشْـربُ من صـديدها وأعـالجُ سلاسـلها وأغلالها.

فقلتُ لنفسي: أيُّ شيءٍ تُريـدين، قـالت: أريـدُ أن أردَّ إلى الـدنيا فأعمل صـالحًا، قـال: فقلت: أنت في الأمنيَّةِ فاعملي.

وســمع عُمر بن الخطــاب رجلاً يتهجــدُ في الليل ويقرأ سورة الطور، فلما لغ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ عَـذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ**﴾.

قال عمر: قسم ورب الكعبة حق، ثم رجعَ إلى يته فمـرض شـهرًا يعُـوده النـاس، ولا يـدرُونَ ما سـببُ مرضه.

وكــان جماعة من الســلف مَرِضــوا مِن الخــوف ولزِمُوا مَنَازِلهم وبعضُهم وصار صاحب فراش.

وكان الحسنُ يقول في وصف الخائفين: قد براهُم الخوفُ فَهم أمثالُ القداح ينظر إليهم الناظر، فيقول: مَرْضَــي وما بهم مَــرَضٌ، ويقــولُ: قد خُولِطُــوا وقد خَالَطَ القومَ من ذِكر الآخرةِ أمرٌ عظيم.

هذه القصيدة عدَّلنا فيها بعض الأبيات:

وحَقِّك يا ذَا الجُــودِ مَــالي مَلْجَـــــــــــــؤٌ … ولا لي إلى أبْوابِ غَــيرِكَ مَطْلَبُ

إذا لم تَكُنْ لي عِندَ غَيْـرِكَ حَاجَـــــــــــــةٌ … فَكَيْـفَ إلى أبْـوَابِ غَيْـرَكَ أذْهَبُ

إذ لم يَكن مُعْــطٍ سِــوَاكَ بِمَطْلَبِي … فكيــفَ سِــوَى مَعْــرُوْفِ جُــــــــــوْدِكَ أطْلُبُ

عَـذُوْ لي فيــهِ مَا يَـرَى مَا رَأيْتُـــــــــــهُ … فَيُكْثِــرُ مِن لَــوْمِي عَلَيه ويُطْنِبُ

سَـلَكْتُ سَـبيْلاً ما اهْتَـدى لسُــــــــــلُوْكِهَا … فــأعْجَبُ مِنْـهُ وَهْــوَ مِنِّيَ يَعْجَبُ

وَكَيْـفَ سُــلُّوٌ عن جَمَــالٍ مُحَجَّبٍ … أيَادِيْه عن كُلِ الوَرَى ليس تُحْجَبُ

إذ اسْــــتَأنَسَ الحَــــادُوْنَ لِلــــرَّكْبِ باسْـــمِهِ … فكُلُّهُمُــوْا حــتى الركــائبِ تَطْــــــــــــرَبُ

يَطِيْبُ ويَحْلُـــــو لِلْمُحِبِّيْن ذِكْـــــــــــــــرُهُ	فَلا طَيِّبٌ إلا وذكْــــــرُكَ أطْيَبُ
فإنْ قُلْتُ شَهْدًا فهو أحْلَى مَذَاقَـــــــــــــةً	وإنْ قُلْتُ ماءً فهو أصْـفَى وأعْـــــــــــــذَبُ
سَألْتُكَ يَا حَـادِي الرَكَـائِب حَاجَـــــــــــــةً	إذا مَا بَــدَتْ يومًا لِعَيْنَيْــكَ يَثْــــــــــــــرِبُ
فَسَلِّم على مَنْ قَدْ حَوَتْــهُ قِبَابُهَا	وشِرْعَتُه في الكَونِ تُمْلَى وتُكْتَبُ
مُحَمَّدٌ المُخْتَــارُ والماجِــدُ الــــــــــــذي	إلى فَخرْهِ كُـلُ المناسِـبِ تُنْسَــــــــــــــبُ
هو الصــادِقُ الــدَّاعِي إلى الله وَحْــــــــــــدَهُ	فَمَنْ لم يُجِبْــهُ فَهْـــوَ في الحَشْــــــرِ يُنْــــــدَبُ
فَصَــــــــلوا عليه دائمًا فَصَــــــــــــــلاتكم	ثَوابُكُمُــــــواْ فيها مِن الله يُطْلَبُ

وختامًـــا: فـــالواجب على العاقل المبـــادرة إلى الأعمــال الصــالحة ما دام في قيد الحيــاة وخصوصًــا الصــلاة الــتي فرضــها الله جل وعلا على عبــاده آكد أركان الإسلام بعد الشهادتين ومحلها من الدين محل الرأس من الجسد.

فكما أن لا حيـــاة لمن لا رأس له فكـــذلك لا دين لمن لا صلاةَ له وهي خاتمــةُ وصــيَّةِ النـبي عند آخر عهدهِ من الدنيا.

فعن أنس قال: كانت عامةُ وصيَّة رسـول الله حين حضرتْهُ الوفاةُ وهُو يُغرغر بنفسـه: «الصـلاة وما ملكت أيمانكم» رواه أحمد وأبو داود.

وهي أول ما يُحاسب به العبد يـــوم القيامـــة، كما ورد بـذلك الحـديث عن أبي هريـرة قـال: سـمعت رســـول الله يقـــول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة مِن عمله صـلاته، فـإن صـلحت فقد أفلح

وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر» الحـديث رواه الترمذي.

والصلاة أكبر عون للعبد على مصـالح دينه ودنيـاه، قال الله تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ** ﴾الآية.

فالصـلاة سـعادة وسـرور للمـؤمن الخاشع المحب لربـه، فقد قـال رسـول الله ﷺ: «وجعلت قـرة عيـني في الصـلاة» وكـان إذا حز به أمر فـزع إلى الصـلاة، فالصلاة جسدٌ وروْح.

أما جسـدها فهو كلام اللسـان وحركـات الأعضـاء، وأما روحها فهو الخشــوع، قــال الله جل وعلا: ﴿**قَــدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُــــونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَـــــلاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾.

والخشوع حضور الذهن وأن يتصوَّر الإنسانُ أن ره أمامهُ يسمعه ويناجيـه، فلا يشـغل فكـره بشـيء من الــدنيا ما دام في صــلاته ويجمع فكــره إلى تأمل ما يتلو وما يسمع من الإمام ويحـرص كل الحـرص على طرد الهواجيس.

قــال أحد العلمــاء: إن من المعلــوم أن المنتصب لخطاب ملك من مُلوك الدنيا يجمعُ قلبهُ للإقبال عليه ويُحسن التــودد إليه ويتحــرزُ التحــرز الكلي عن أن تفرط منه كلمةُ مستهجنةً أو التفاتـهُ غـير مُستحسـنةٍ أو ذهُول عمَّا يُخاطبه به أو يتلقاهُ من خطابِــهِ وإن كـ ان لا يخاف نقمتهُ ولا يرجُو نعمته.

فيا عجبًا من منتصــبٍ لمُناجــات ملك الســموات والأرض وهو يعلمُ أنه حاضـــرٌ لديه ورقيب عليه وأنه مُحتــاجٌ في كُل لحظــةٍ إليه غــير مُســتغنٍ عنه وإن إحسانهُ إليه فوق كُل إحسان.

وعاقبة عصـيانه إنه الخلـودُ في قعر النـيران وإن عظمتــهُ لا تُـدانيها عظمة سُـلطان، ومع ذلك يــتركُ الإقبال عليه ويعرض له الذهولُ عنهُ لخــواطر دنيويــةٍ ووساوس غير نافعة ولا مرضيَّة حتى لا يشعر بمعاني

ما يتلوه في صلاته ولا يعقل ما المطلوبُ بها ويسـهو عن أركانها وأذكارها هذا مما تحارُ فيه العقول.

ولعل السـبيل إلى ذلك هو التحفظ عن تلك الشـواغل في حالة الصـلاة الـتي هي عمـاد الـدين والفارقـةُ بين الكفـرة والمؤمـنين الـتي فرضـها الله ليتطهَّر بها عبـادُهُ عمَّا اقـترفوه فيما بين أوقاتها من الـذنوب ويغسـلُوا بها أبـدانهم وأرواحهم عن درَنِ الحُوْب.

كما يشِـعرُ به قوله ﷺ: «مَثَـلُ الصـلواتِ الخمسَ كَمَثَلِ نَهْرٍ جارٍ يَمُرُ على باب أحـدكم يَغتسل منه كُـلَّ يومٍ خمسَ مراتٍ»، وفي رواية: «فماذا تِـرَوْنَ أيَبْقَى عليه من الدَرَنِ بعد ذلك».

والمهم أن يصـرف العبـدُ ذهنـهُ إلى أن قيامَـهُ للوضـوء والصـلاة إنما هو لخطـاب ملك المُلُـوكِ والاعتذار إليه من التقصير في الحيَـاءِ مِنه في أحْواله السـابقة، وليطلب منه العفو والمسـامحة والإحسـان ولأداءِ ما كلَّفَهُ مِن العبادة.

فصل

ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ: أن أحد العلمـاء حَضـرَ مجلسَ مُبتدع وهو يتكلم على الناس فلما نـام، قـال: رأيتُ ربَّ العِـزة والجلال في الليلـة، وهو يقـول لي: وقفتَ على مُبتـدع وسـمعتَ كلامه لأحْرمَّنَـكَ النظر في الـدنيا، فأصْـبَحَ لا يُبْصر وعَيْنـاهُ مفتوحتـان كأنه بصير. اهـ.

قطاع الطريق على أرباب السـلوك أربعـة: مُبْتـدِعٌ يُزِيْغُكَ عن سُنة رسول اللـه ﷺ، وفاسق يُجَـرؤكَ على مَعَاصي الله، غافـلٌ يُنسـيك صُـحبة ذكر اللـه، وكـافر يَصُدَّكَ عن دِيْن الإسلام.

إذا ما عَـزَمْتَ السَّـيرَ في نَيْل مَتْجَـر ... يكوُنُ له مِن صَفْقَةِ الـرَبحِ حَاصِـلُ
فأرْبَعَةٌ لا تَسلُكَنَّ سَبْيلَهُمْ ... كَفُـورٌ وبِـدْعِيٌ وعَـاص

وغَافِــــــــــــــلُ

آخر:

إذا أثقَلَتْـــــكَ السِّـــيئاتُ بِحِمْلِهَا ... وَاوْقَعَــكَ الشَــيْطانُ فيها بِجُهْــــــــــــدِهِ

ولحَّتْ عَليــكَ النفسُ في شَــــــــــهوَاتِها ... وصـرْتَ لها شـبْه الأسـيْر بقَيْـــــــــــدِهِ

وضَـاقَ عَلِيـكَ الـرزقُ في كـــــلِّ مَـــــدْخَلٍ ... ولم تَلْــقَ ذَا رِفْــدٍ يَجُــودُ بِرِفْـــــــــــدِهِ

وأمْسَــيْتَ ذَا دَيْن وفَقْــرٍ وغُرْبَـــــــــــةٍ ... وهَمٍ وغَم قـــــدْ أحَاطَا بجُنْـــــــــدِهِ

وأحْضَــرْتَ ذِكْــرَ المــوتِ والقَبْـــــــــرِ والبلىَ ... بِقَلْبِكَ حَتَّى ضِـقْتَ صَـدْرًا بِـــــــــــرَدِّهِ

وفَكَّرْتُ في يوم الحِسَابِ ومَا حْتِـــــــــوى ... عليه مِن الهَــوْلِ الشَّــدِيْدِ وادِّهِ

وخِفْتَ مِن النارِ الـتي مَن تَـــــــــوى بها ... فَـذَاكَ مِن الخَيْـراتِ آخِـرُ عَهْـــــــــــدِهِ

هُنَالِكَ فارْفَعْ قِصَّـةَ الحَـالِ ثُم قِـــــــــفْ ... على بــاب مَــوْلى سَــامعٍ صَـــــوْتَ عَبْـــــدِهِ

وقُــلْ يا كَـرِيْمُ أنْظُـرْ إلى حَـــــالِ عَـــــاجِزٍ ... فَقِيْر عَمىً لا يَهْتَدِي طُرْقَ رُشْـــــــــدِهِ

خَزِائِنُهُ فيها المَطَالِبُ كُلُّهَا ... تَوكَّلْ عليه ثُم سَـــــبِحْ بِحَمْـــــــدِهِ

وصــلى على خــير البرية أحْمَد ... وأصحابِهِ والمهتدِيْنَ بَهَدْيِهِ

فصل

قيـل: إنه زر حـاتمُ الأصـمُ محمد بن مقاتل قاضي الري فلما وصل إلى الباب، فإذا بـابٌ مُشـرف فبقي حاتم مُتفكرًا يقولُ: عالمٌ على هذا الحال.

ثم أذن لهم فدخلوا فـإذا دارٌ قـوراء (أي مزخرفة) وإذا بزَّة وسعةٌ وستورٌ وبذخٌ فبقي حاتم مُتفكرًا.

ثم دخلــوا إلى المجلس الــذي فيه القاضي فــإذا لفُـرش وطيئـةٍ (أي لينـةٍ جميلـةٍ) وإذا هو راقد عليها وعند رأسه غُلامُه بيده مذَبَّةٌ.

فتقدم التـاجر الـذي عند القاضي يسـأله عن حاله وحـــاتم واقـــف، فأومأ القاضي محمد بن مقاتل إلى حاتم أن أقعد، وقال له: لعَلَّ لك حاجة!

قـال حـاتم: نعم، قـال القاضـي: وما هي؟, قـال: مسألةٌ في العلم أسألك عنها، قال: سلني، قال: فقم واستوى جالسًا حتى أسألُكها فأمر غلمانهُ فأسندُوه.

فقـال حـاتم: علمُـكَ هـذا من أين جئت بـه؟ قـال الثقـاة: حـدثوني، قـال: عن مَن؟ قـال: عن أصـحاب رسول الله .

قال: وأصحاب رسول الله عَمَّنْ؟

قال: عن رسول الله ، قـال: ورسـول الله من أينَ جَاء به؟

قال: من عند الله بإملاء جبريل ـ عليه السلام ـ.

قال: أفيما آتاه جبريل عن الله وأدَّاه رسول الله إلى أصحابه وأداه الصحابة الثقاة إليكَ.

فهل سـمعتَ في العلم المـؤدى إليك أن من كـان في داره كأنَّهُ أمـــــيرًا في إمارته وحوله الأثـــــاث والرياض تكون له المنزلة عند الله أكثر؟ قال: لا.

قـال حـاتم: فكيف سـمعتَ؟ قـال: من زهـدِ في الدنيا ورغِبَ في الآخـرة وأحَبَّ المسـاكين وقـدَّم من دُنياه لآخرَته كان له عند الله من المنزلة أكثر.

قال: نعَمْ، قـال حـاتم الأصـم: فـأنْتَ بمن اقتـديتَ في ذلك أبي النبي وأصحابه أو بصالحي تلك الأمة، أم بفرعــون والنمــرود؟ فقــال: رجعْنا إلى الله وتُبْنَا إليه.

فقال حاتم: غفر الله لي ولك وعفا عني وعنك.

فبلغ أهل الــري ما جــرى بين حــاتم الأصم وابن مقاتــل، وقــالوا: بقــزوين أكــثر من هــذا الإســراف، وأشاروا به إلى الطنافُسي، فسار إليه حـاتم، فـدخل عليــه، فقــال: رحمك الله أنا رجل أعجمي أحب أن تُعلِّمَني أوَّل مبدأ ديـني، ومفتـاح صـلاتي، كيف أتوضأ للصلاة؟

قــال: نعَمْ يا غلامُ هــاتِ مــاءً، فقعد الطنافُسي وتوضأ ثلاثًا ثم قال: هكذا توضأ.

قال حـاتم: مكانك حـتى أتوضأ بين يـديك، فيكـون أؤكدَ لما أريـدُ فتوضأ حـاتم ثم غَسَـل الـذراعَين أربع مرات.

قال له الطنافسي: أسرفت يا هذا، قـال له حـاتم: في أي شيء أسرفت؟ قال: غسلت ذراعك أربعًا.

قــال حــاتم: ســبحان الله أنا في كــفٍ من مــاءٍ أســرفتُ وأنت يا هـذا في بـذْخِك في هـذا الجمع لم تسرف.

فعــرف الطنافُسي أنه أراده بــذلك ولم يُــرِدْ منه التَّعَلُم، فـدخل الـبيتَ ولم يخـرجْ إلى النـاس أربعين يومًا.

فالعالمُ إذا خـالف علمُه عملـهُ وكـذَّب قولُـهُ فِعْلَـهُ كـان ممْقُوْتًا في الأرض والســماء يُضــلُ من أراد أن يقتدي به.

وإذا أمر بغــير ما يعمل مجَّت الأســماعُ كلامــهُ، وقلَّتْ عند الناس مهابتُه وزَلَتْ من القلـوبِ مَوْعِظَتُـهُ ومكَانتُه.

كما قــال مالك بن دينــار: إن العــالم إذا لم يعمل بعلمه تَزِلُ موعظته مِن القُلوبِ كما يــزلُ القَطْر عن الصفاةِ.

وحكى الأوزاعي عن بلال بن سعد أنه كـان يقـول: ينظر أحدكم إلى الشرطي فيستعيذ بالله منه.

وينظر إلى علمـــاء الـــدنيا المتصـــنعين للخَلْق المتشوقين إلى الرياسة فلا يمْقُتُهمْ هذا أحَقُ بالمَقْتِ من هذا الشُرطي.

قيـل: إنه أصـاب النـاس قُحْـطٌ في بعض السـنين، فـأمر الملك عبـدالرحمن الأمـوي القاضي منـذر البلوطي ـ رحمه الله ـ أن يَسْتَسْقى للناس.

فلما جاءته الرسالة مع البريد، قال للرسول: كيف تـركتَ الملـك؟ فقـال: تركته أخشـعَ ما يكـون وأكـثر دعاء وتضرعًا.

فقال القاضي: سُقِيتم والله إذا خشع جبـار الأرض رَحِمَ جبَّار السـماء، ثم قـال لغلامـه: نَـادِ في النـاس الصـلاة، فجـاء النـاس إلى محل الاستسـقاء، وجـاء القاضي مُنـذِر، فصـعد المنـبر والنـاس ينظـرون إليه ويسـمعون ما يقـول، فلما أقبل عليهم كـان أول ما خـاطبهم بـه، قـال: ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُمْ كتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُـوءًا بِجَهَالَـةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

ثم أعادها مـرارًا فأخذ النـاس في البكـاء والنحيب والـدُعاء والتضـرع والتَّوبة والإنابة والاسـتغفار، فلم يزالـوا كـذلك حـتى سُـقُوا ورجعـوا يَخُوضُـون المـاء بأرجلهم.

اللهم هب لنا ما وهبته لعبادك الأخيار، وأنظمنا في سلك المقربين والأبـرار، وآتنا في الـدنيا حسـنة وفي الآخـرة حسـنة وقنا عـذاب النـار، واغفر لنا ولوالـدينا وجميع المسـلمين برحمتك يا أرحم الـراحمين، وصل الله على محمد وآله وصحبه أجمعين.

فصل

قـال العلمـاء –رحمهم اللـه-: أمهـاتُ المعاملـة: التوبـة، والعبوديـة، والزهـد، والاسـتقامة، تمـامُ هـذه الأربـع بأربعـة: إقلال الطعـام، وإقلال الكلام إلا بـذكر الله وما ولاه، وإقلال النوم؛ لأن الأعمـال تَنْقَطـعُ بـه،

والعُزلة عن الناس إلا لما لابُدَّ منه؛ فإنه أصوَن لدينــه وعرضه.

الأولى: مُعاملـــــــــةُ النفس وذلك بمنعها هواها وإذلالهـــا، ورد جماحها بالطاعة وكســـرها، فإنها في الحقيقة أكبر الأعداء.

وذلك بـــأن ينظر في القلب فيطهـــره من الأخلاق المذمومة كالريـــاء، والسُــمعة، والحســـد، والكـــبر، والعُجب، والبُخـــل، والحَـــرِص، والطَّمـــعِ، والمكـــر، والخديعة، والنفاق، والغش، وحُبِّ المدح، والثناء.

ويُطهِر لِسَانَه وجميع أعضائِهِ عن الغِيْبَةِ، والنميمة، والسِعَايَة، والسُخرية، والاستهزاء، والكــذب، والبهت، والولوع بالشهوات، ومحبة الدنيا والغفلة عن الآخرة، وغير ذلك من غرائزه المذمُوْمَةِ.

ويغـــــرس في قلبه الإخلاص للــــه، والتواضـــع، والنصيحة، والحلم، والشفقة، وحُسْنَ الخُلق، والصـبر واعتمــاد الشــكر، والسَّــخاء، ومحبة الــدار الآخــرة والدعوة إليها.

والإعراض عن الدنيا وشهواتها الحـرام، وينظر في حل مطعمه وملبسه ومشـــربِه ومســـكنه وســـائر تصرُفه.

ولا يطيع نفسه في شيء من هواها، قـال الله جل وعلا وتقــدس: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَـافَ مَقَـامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى * فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى**﴾.

الثانية: معاملة الله جل وعلا، وهي الالتجـــاء إليه والتوكل عليه ورؤية أن لا ســـواه وأن العمل خالصًـــا له.

وليحذر أن يفقده أمره أو يراه حيث نهـــاه ويثق به غاية الثقة لا بغـــيره، فمن عامله جل وعلا ربح وأفلح ورشد ونجح وأصلح.

الثالثة: معاملة عدو الله الشيطان الـرجيم، وذلك بـــأن يبـــني على أنه عـــدوه اللـــدود فلا يطيعه أبـــدًا

ويستشـعر أنه يأتيه من طـرق كثـيرة، فعليه أن يتنبه له ويحذره أشد الحذر، فـإن له حيلاً ومكـرًا وخـداعًا، قل من يسْـلم منهـا، فـإذا خطر بقلبه ما لم يعلم أنه منه عرضه على الشـريعة المطهـرة، ثم تثبت وتـأنى واستخار الله سـبحانه وتعـالى وتعـوذ بالله من كيـده ومكره وسأل الله أن يكشف له ما لتبس عليه.

وذكر ابن القيم ـــ رحمه الله ـــ: أن من كيـــده العجيب أنه يُشَام النفس حتى يعلم أيَّ القُوَّتينْ تغلبُ عليه قــوة الإقــدام والشــجاعة أم قــوة الانكفــاف والإحجام والمهانة.

فــإن رأى الغــالب على النفس المهانة والإحجــام أخذ في تثبيطه وإضـعاف همته وإرادته عن المـأمور به وثقله عليه فهــون عليه تركه جملــةً أو يقصر فيه ويتهاون به.

وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة أخذ يُقَلِّلُ عنـده المـأمورَ ويُوهمُه أنه لا يكفيه وأنه يحتـاجُ معه إلى مُبالغةٍ وزيادة ينقص بالأول ويتجاوز بالثاني.

كما قال بعض السلف: ما أمر الله تعـالى بـأمر إلا وللشيطان فيه نزعتَان، إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وعلو، ولا يُبالي بأيِّهما ظفر.

وقد اقْتَطَعَ أكـثر النـاس إلا أقـلَّ القليل في هـذين الوَاديَيِنْ، وادي التقصير ووادي المجاوزة والتعدي.

والقليل منهم جدًّا الثابت على الصراط المسـتقيم الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

فقومٌ قصَّرَ بهم عن واجبات الطهارة.

وقومٌ تجاوز بهم إلى مُجاوزة الحد بالوسواس.

وقومٌ قصَّرَ بهم عن إخراج الواجب من المال.

وقومٌ تجاوزَ بهم حتى أخرجوا جميع ما بأيديهم.

وقومٌ قصَّـر بهم حـتى عن تنـاول ما يحتـاجُونَ إليه مِن الطعام والشراب واللباس حـتى أضـروا بأبْـدَانهم وقُلوبهم.

وقومٌ تجاوزَ بهم حتى أخذوا فـوق الحاجة فأضـروا بقلوبهم وأبدانهم.

وقصَّرَ بقوم في حق الأنبياء وورثتهم حتى قتلوهم.

وتجاوز بآخرين حتى عبدُوهم.

وقصَّرَ بقوم في خُلْطَةِ الناس حـتى اعـتزلُوهُم في الطاعات كالجمعة والجماعات والجهاد وتعلُّم العِلْم.

وتجاوز بقوم حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام.

وقصَّرَ بقوم حتى امتنعُوا من ذبح عُصْـفُورٍ أو شـاةٍ ليأكلهُ.

وتجـــاوز بـــآخرين حـــتى جـــرأهُم على الـــدماءِ المعْصُومَةِ.

وقصَّــرَ بقــوم حــتى منَعَهُم مِن الاشــتغال بــالعلم النافع.

وتجاوزَ بآخريْنَ حتى جعَلوا العِلْمَ وحْدَهُ هُوَ غـايتُهم دُونَ العَملَ به.

وقصَّــرَ بقــومٍ حــتى أطعمهم مِن العُشب ونبَـاتِ البرية دونَ غذَاءِ بني آدم.

وتجاوزَ بآخرين حتى أطعمهم الحرامَ الخالصَ.

وقصَّرَ بقوم حتى زين لهم تـرك سُّـنة النـبي من النكاح فرغبوا عنه بالكلية.

وتجـاوز بـآخرين حـتى ارتكبـوا ما وصـلوا إليه من الحرام.

وقصَّـرَ بقـوم حـتى جفـوا الشـيوخ من أهل الـدِين والصلاح وأعرضوا عنهم ولم يقوموا بحقهم.

وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله.

وقصَّرَ بقوم حتى منعهم قبول أقوال أهل العلم.

وتجــاوز بــآخرين حــتى جعلــوا الحلال ما حلَّلُــوه والحــرام ما حرمــوه، وقــدموا أقــوالهم على سُّــنة رسول الله الصحيحة الصريحة.

وعد ــ رحمه الله ــ أشـياء كثـيرة يطـول ذكرها اقتصرنا على ذكر بعضها.

الرابعة: معاملة الدنيا والضابط لذلك أن كل ما لا نفع فيه في الآخـــــرة فهو دنيـــــوي وما فيه نفع في الآخرة فأخروي.

ومعاملة الدنيا أن يعـرف الإنسـان أن لا راحة فيها فلا يطلبها ولا يتعلق قلبه بـــــالتنعم والترفه والرياسة فيها وليس له منها كفاية.

فليطلب منها ما يطلب المســـــافر وهو ما يبلغه منزله ولا يتم إلا بالبنـــاء على قُــرْبِ الأجل وتـــرقُبِ هادم اللذات، فإنه من أطال الأمل أساءَ العمل.

ما زُخْـرُفُ الـدنيا وزُبْـرُجُ أهْلِهَا إلّا غُـــرُوْرٌ كُلُّهُ وَحُطَـــامُ
ولَـــرُبَّ أقْـــوَامٍ مَضَـــوْا لِسَبِيْلِهِمْ ولَتَمْضِـــيَنَّ كَمَا مَضَـــى الأقْـــوَامُ
ولَـرُبَّ ذِي فـرشٍ مُمَهَـدَةٍ لَـهُ أمسى عليه مِن التُـــرابِ رُكَـــامُ
والمـوتُ يَعْمَـلُ والعُيـونُ قَرِيْرَةٌ تَلْهُوْا وتَلْعَبُ بالمنى وتَنَـامُ
كُـــلٌ يَـــدُوْرُ على البَقَـــاءِ مُؤمِلاً وعلى الفَنَاءِ تُـديْرُهُ الأيَـامُ
والـدَّائِمُ الملكـوتُ رَبٌ لَمْ يَزَلْ مَلِكًا تَقَطَّعُ دُوْنَـهُ الأوْهَـامُ
فالحمدُ لله الذي هُـوَ دَائِمٌ أبدًا وليس لمَا سِوَاهُ دَوَامُ

الخامسة: معاملة الخلـــق، وقد عظمت البلـــوى بهم، فــإن لهم حقوقًــا، ومنهم وبســببهم تنشأ أكــثر الشــرور، فليقم بحقــوقهم ويتســامح عن حقوقه ما أمكن.

وليبتعد عنهم ما أمكن إن صـلحت له العزلـة، وإن لم تصلح فليجالس من فيه خير وصلاح.

فجليس الخير خير من الوحدة، والوحـدة خـير من جليس السوء.

ويحب لإخوانه المسلمين ما يحب لنفسه.

ويكره لهم ما يكـره لنفسه وتكـون محبته في الله وموالاته ومعاداته كذلك.

ويـأمر بـالمعروف وينهى عن المنكر بقـدر طاقته ويملك نفسه عند الشهوة والغضب.

ولا يعجل في شـــيء من الأمـــور فيخطي إلا ما يستحسن فيه المبادرة ولا يتوانى فتبطل.

ولا يداهن على المعصية ولا يخل بالمداراة الجائزة عند خوف الضرر.

وليحسن الظن بهم ما أمكنه وينظر إلى من فوقه في الدين فيقتدي به.

وينظر إلى من دونه في الـــدنيا فيـــأمن الازدراء والاحتقار لِنعم الله عليه.,

ويكـثر من حمد الله وشـكره على أن فضـله على غيره.

وبالجملة فما عرف رشده اتبعـه، وما عـرف قبحه اجتنبـــه، وما أشـــكل عليه والتبس توقف فيه واجتهد في معرفتـه، وسـأل الله تعـالى أن يدله على ما فيه الخير والصلاح.

فوائد وقصص ومواعظ مُنوَّعَة

قـال بعضـهم: ما زاولت شـيئًا أيسر من الـورع إذا رابني شيء تركتُه.

أوصى أنس بن مالك أن يغسله محمد بن سيرين، فلما مـــات أنس قيل لمحمد بن ســيرين، فقـــال: أنا محبوس في السجن، قالوا: استأذنا الأمير فأذن لـــك، قال: إن الأمير لم يحبسني إنما حبسني الذي له عليِّ الحق.

عن إبراهيم عن علقمة قال: خرجنا ومعنا مسروق وعمرو بنُ عُتبة ومعضد غازين فلما بلغنا ماء سـندان وأميرها عتبة بن فرْقَد، قـال لنا ابنه عمـرو بن عُتْبَـة: إنكم إنْ نـزلتم عليه صـنع لكم نُـزلاً ولعلـهُ يظلم فيه أحدًا ولكن إن شئتم قلْنَا في ظِلِّ هذه الشجرة فأكلنا كسرَنا (أي كِسَر خُبز يابس) ثم رجعنا ففعلنا.

عن الحسن قـال: كـان عطـاء سـلمان الفارسي خمسة آلاف وكـان أمـيرًا على زُهـاء ثلاثين ألفًا من المسـلمين وكـان يخطب النـاس في عبـاءةٍ يفـترش بعضها ويلبس بعضها، فإذا خـرج عطـاؤه أمضـاه (أي تصدق به) ويأكل مِن شُـغْل يديْـه. لله دره من رقم (1) في الورع والزهد.

عن وهب بن كيسان قـال: مر رجل برجل يتصـدق على المساكين، فقال أبو همام: شريك درهم أصـيبُه بكدٍ يعرقُ به جبيني أحبُ إلى من صـدقة هـؤلاء مائة ألف ومائة ألف.

قيل لأبي عبداللــه: ما تقــول فيمن بــنى سُــوقًا وحشر النـاس إليها غصْـبًا ليكـون الـبيعُ والشـراء بها ترى أن يشتري منها، فقال: يجدُ موضعًا غـيره وكـره الشراء منها، تأمل يا أخي هـذا الـورع لله درُّهُم على هذا التدقيق ما أكثر هذه المواضع المشتبهة.

عَجِبْتُ لِلْمَــرْءٍ في دُنْيَــاهُ تُطْعِمُــــــــــــهُ ... في العَيْشِ والأجــــــــلُ المحتُـــــوم يَقْطَعُــــهُ
يُمْسِي ويُصْبِحُ في عَشْواء يَخْبِطُهَا ... أعْمَى البَصِــيْرة والآمــالُ تَخْدَعُـــــــــــــهُ
يَغْتَــرُّ بالــدُنْيَا مَسْــرُوْرًا بِصُــــــــــحْبِتِهَا ... وقَـــدْ تَيَقَّنَ إنَّ المــــوتَ يَصْـــــــــــرَعُهُ
ويَجْمَــعُ المــال حِرْصًــا لا يُفَارِقُــــــــــــهُ ... وقَدْ دَرَى أنه لِلْغَيْرِ يَجْمَعُهُ
تَــرَاهُ يَشْــفَقُ مِنْ تَضْــيِيْعِ دِرْهَمِــــــــــــهِ ... وليسَ يَشْــــفَقُ مِن دِيْنَ يُضَــــــــــيعُهُ

وأسْـــوَأ النـــاسِ تَـــدْبِيرًا مَنْ أنْفَقَ العُمْرَ فيمَا ليس لِعَاقِبَــــــــــــــةٍ يَنْفَعُـــــــــــــــــــهُ

والله أعلم، وصل الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ذكر نموذج من أكاذيب القصاص للتحذير

ذكر ابن الجوزي في كتاب «الموضـوعات»، قـال: صـــلى الإمـــام أحمد ويحـــيى بن معين في مســـجد الرصافة، فقام بين أيديهم قاصٌّ، فقـال: حـدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بنُ معين قالا: حـدثنا عبـدالرزاق عن معمر، عن قتادة، عن أنس قال: قال رســول الله : «من قـــال لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة منها طيرًا منقـاره من ذهب وريشه من مرجـان وأخذ في قصه نحوًا من عشرين ورقة».

فجعل أحمد بن حنبل ينظر إلى يحـــيى بن معين، ويحيى ينظر إلى أحمد، فقـال لـه: أنت حدَّثْتَـهُ بهـذا؟ فقـال: والله ما سـمعت بهـذا إلا هـذه السـاعة، فلمَّا فرغ من قصصه، قال له يحيى بن معين بيـده: تعـال، فجاء مُتوَّهِمًا لنوال (أي يظنُ أنه يُعطيه شيئًا)، فقـال له يحيى بن معين: من حـدَّثَك بهـذا الحـديث؟ فقـال: أحمد بن حنبل ويحـيى بن معين، فقـال: أنا يحـيى بن معين، وهذا أحمد بن حنبـل، ما سـمعنا بهـذا قط في حديث رسـول الله ، فـإن كـان لابُـدَّ والكـذب فعلى غيرنا.

فقال له: أنت يحيى بن معين، قال: نعم، قــال: لم أزلْ أســمعْ أنَّ يحــيى بن معين أحمق ما تحققتُه إلا الساعة، فقال يحيى: كيف علمت أني أحمق؟

قـال: كـأن ليس في الـدنيا يحـيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما، قد كتبتُ عن ســبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين.

فوضع أحمد كمّهُ على وجهــه، وقــال: دعه يقُــوم، فقام كالمُستهزئ بهما.

وفي الحــوادث والبــدع للطُرطُوشــي لمــا دخــل سليمان بن مهران الأعمش البصـرة نظـر إلى قـاصٍّ يقصُّ في المســجد، فقــال: حــدثنا الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي وائل فتوسَّط الأعمشُ الحلقة وجعل ينتـفُ شـعرَ إبْطِـهِ، فقـال لـه القـاصُّ: يـا شـيخ، ألا تستحي نحنُ في علمٍ وأنت تفعلُ مثل هذا؟

فقـال الأعمش: الـذي أنا فيه خـير من الـذي أنت فيه.

قال: كيف؟ قـال: لأني في سُـنَّةٍ وأنتَ في كـذبٍ، أنا الأعمشُ وما حدثتُكَ مما تقول شيئًا.

موعظة

قـال ابن القيم ــ رحمه الله ــ: الفـرحُ بالمعصـيةِ دليلٌ على شدةِ الرغْبَةِ فيها والجهل بقدر من عصـاه، وهو الله جل جلاله.

ثانيًا: الجهل بسوء عاقبتها وعظم خطَرها.

ففرحُـــــهُ بها غطى عليه ذلك كلَّه وفرحُه بها أشد ضررًا عليه من مُواقعتها.

والمؤمن لا تتم له لذةٌ بمعصـية أبـدًا ولا يكمـلُ بها فرحُهُ، بل لا يُباشرُها إلا والحُزْنُ مخالط لقلبِهِ.

ولكن سُكْرُ الشهوة يحجبُـهُ عن الشـعور به ومـتى خلي قلبه من هذا الحُـزْن واشـتدت غبطته وسـرُوْرُهُ فليتهم إيمانهُ وليبكِ على موْتِ قلبه، فإنه لو كـان حيًا لأحزنَهُ ارتكابُ الذنْب وغاضَـهُ وصَعُبَ عليه ولا يُحسُّ القلبُ بـــذلك فحيثُ لم يحُسَّ به فما لجُـــرْح بميِّت إيلام.

وهذه النكتة في الذنب قلَّ مَنْ يهتدي إليها أو يتنَبَّه لها وهي موضعٌ مخُوفٌ جدًا مُــترام إلى الهلاك إن لم يتــدرك بثلاثة أشـياء: خــوف من الموافــاةً عليه قبل

التوبــة، ونــدمٍ على ما فاته من الله بمُخالفته أمــره، وتشمير للجد في استدراكه.

خليليَّ ودَّعْتُ التَّصَــابيْ وقَوَّضَــتْ ... مــآربُ ليْ في رَبْعِــهِ ومَوَاقِــفُ
وأذَّنَ صُــبْحُ الشَّــيْبِ في لَيْل لمتِّيْ ... فَفِئْتُ ولكــني على الليل آسِــفُ
وبَاعَدَ مَنْ كنَّا نُسَرُّ بِقُرْبِهِ ... وآخــرُ مَطْــويٌ عليه اللفَــائِفُ
رِجَــالٌ وأوقــاتٌ وشــرْخُ شَــبيبةٍ ... مَضَــوا وزَمَــانٌ بــالحَبيْبِ مُسَــاعِفُ
فَقُلْ مَا تَشَا في مُهْجَةٍ قَدْ تصَــدَّعَتْ ... بلوْعَة مَوْتُــوْرٍ بمَا أنا واصِــفُ
جَعَلْتُ سَــمِيْريْ حِيْنَ عَــزَّ مُسَــامِري ... دَفَــاتِرَ أمْلَتْهَا القُــرُوْنُ السَّــوَالِفُ
فَطَــورًا أنــاجي كُــلَّ حَبْــرٍ مُوَفــقٍ ... إذا ما دَعَا لبَّتْ دُعَــاهُ المَعَــارِفُ

مجالسة العــارف الزاهد تــدعو من ست إلى ست:

من الشك إلى اليقين.
ومن الرياء إلى الإخلاص.
ومن الغفلة إلى الذكر.
ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة.
ومن الكبر إلى التواضع.
ومن سوء الطوية إلى النصيحة.

الأفضل في أوقــات الســحر الاشــتغال بقــراءة القرآن والصلاة والاستغفار.

وفي وقت الأذان إجابة المؤذن والدعاء.

وفي وقت الصلوات الخمس الاستعداد لها والجد والاجتهـاد والحـرص على طـرد الأفكـار الصـادة عن تأمل معاني الآيات والتسبيح.

والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبــادرة إلى تأديتها في أول وقتها والخــروج إلى الجــامع وإنْ بَعُدَ كان أفضل لكثرة الخُطَا.

والأفضل في أوقـــات ضـــرورة المحتـــاج إلى المســاعدة بالمــال أو الجــاه أو البــدن، الاشــتغالُ بمساعدته وإغاثته.

والأفضل في وقت قــراءة القُــرآن الحــرص على تدبره وتفهمه حتى كأنَّ الله يخاطبه بـه، ويعـزم على تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه.

و الأفضل في عشر ذو الحجة الاجتهــاد والحــرص على الإكثار من الأعمال الصـالحة والـدعاء والتضـرع والإكثار من قراءة القرآن وذكر الله.

والأفضل في الوقـوف بعرفة الاجتهـاد في الـدعاء والتضرع والإكثار من قول لا إله إلا الله.

والأفضل في العشر الأخــير من رمضـــان لـــزوم المساجد والخلوة والاعتكاف وتلاوة القرآن.

والإكثــار من الباقيـات الصـالحات والحـرص على إخــراج الزكــاة في هــذا الشــهر المبــارك وإفطــار الصوام.

والأفضل في وقت مــرض أخيك المســلم أو موته عيادته وحضــور جنازته وتشــييعه، وتقــديم ذلك على خلواتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نـزول النـوازل وأذاة النـاس له أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم دون الهرب منهم.

فإن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخــــير فهي خــــير من اعتزالِهم فيه، واعتزالهم في الشر أفضـل، فـإن علم أنه إذا خالطهم أزالهُ أو قلَّلَـهُ فخلطتهم حينئذ أفضــلُ من اعتزَالِهم.

قلتُ: وفي زمننا هـــــذا تـــــترجح العزلة لفُشو المنكرات وكثرتها، ومـوت الغـيرة الدينية عند الكثـير هــذا فيما يــترجح عنــدي، والله أعلم؛ لأنه كما قــال العلمـــاء: من اتصل الخلق ولم يخـــالقهم بـــأخلاقهم مقتوهُ واستثْقَلُوهُ واغتَابُوه ويذهبُ دينهم فيه، ويذهبُ دينُه ودُنيــاه في الانتقــام منهم ومُســارقةُ الطَّبْع من أخلاقِهم الرَّدِيْئــةِ، وهُو داءٌ دَفين قلما ينتبه لــهُ العُقلاء فضلاً عن الغافلين.

وذلك أنه قلَّ أن يُجالس الإنسـانُ فاسـقًا مـدة مع كونه مُنكــرًا عليه في باطنه إلا ولو قــاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لوجد فرقًا في النُفـور عن الفسـاد؛ لأن الفســاد يصـير بكـثرة المُباشـرة هيِّنًا على الطبع ويسقط وقعُهُ واستعظامُهُ.

ومهما طـــالت مُـــدَّةُ الإنســـان إذا لاحظ أحـــوال الســـلف في الزهد والتعبد احتقر نفسه واستصـــغر عبادته.

فيكـون ذلك داعية إلى التشـمير والجـدِّ والاجتهـادِ في الطاعات والابتعادِ عن المنكرات.

ومما يدُلُ على سُقوط وقع الشيء بسـبب تكـرره ومشاهدته أن أكـثر النـاس إذا رأوا مسـلمًا قد أفطر في رمضان استعظموا ذلك حتى يكـادُ أن يُفضي إلى اعتقادهم فيه الكفرَ.

وقد يشــاهدون من يُــؤخر الصــلاة عن أوقاتها فلا ينفرون عنه نفورهم عن تأخير الصوم ولا سبب لذلك إلا أنَّ الصلاة تتكرر والتساهل فيها يكثر.

وكــذلك لو لبس الفقيه ثوبًا من حرير أو خاتمًا من ذهب لاشْتَدَّ إنكار الناس لذلك.

وقد يشاهدونه يغتابُ فلا يستعظمونَ ذلك والغيبــةُ أشدُ من لبسِ الحرير.

ولكن لكثرة سـماعها ومُشـاهدةُ المُغْتَـابين سـقطَ عن القلوب وقعُها.

إذا أَلِـفَ الشـيءَ اسْـتهانَ بِـــــــــــهِ الفَتَى | فَلَمْ يَـرَهُ بُؤسًـا يُعَـدُّ ولا نُعْمَا
كإنفاقِـــــهِ مِن عُمْـــــرهِ وَمَسَـــــــــــــاغِهِ | مِن الرِيْـقِ عَـذْبًا لا يُحسُّ له طَعْمَا

فالحذر الحذر من الاتصال بالنـاس ومجالسـتهم إلا فيما ينفعكَ في الآخرة، فإنك لا تكادُ ترى منهم إلا ما يزيد في حرصك على الـــــــدنيا وفي غفلتك عن الآخـرة، وتهـون عليك المعاصي وتضـعف رغبتُك في الطاعات؛ لأن مخالطة الكثير اليوم ضرر وإن وجـدْتَ أناسًا يذكرون الله فلا تفارقهم.

لِقَــاءُ النــاسِ ليسَ يُفِيْــدُ شَـــــــــــــــيْئًا | سـوى الهَـذَيانِ مِن قِيْـلٍ وقَـــــــــــــــــالِ
فأقْلِلْ مِنْ لقاءِ الناسِ إلا | لأَخْذِ العِلْم أوْ إصلاحِ حَـالِ

قـال ابن القيم ــ رحمه الله ــ: مُفْسـداتُ القلب خمسةٌ: الخُلْطَةُ والتَّمِنيْ، والتَّعَلُقُ غير اللـه، والشِّـبعُ، والنَّومُ.

والضابطُ النافعُ في أمر الخُلطـةِ أن يخالط النـاس في الخــير، كالجُمُعَــةِ، والجماعــة، والأعيــاد، والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة، ويعتزلُهم ي الشر.

قلت: ومن الشر مجـــامع الكـــورة، والتلفزيـــون، والفيــديو، والتمثيليــات، واللعب بــالورق، ومجــالس شرب الخمر، والدخان، والحفلات الـتي تحتـوي على التصوير، والإسراف، والاختلاط بالنساء الأجانب.

قال –رحمه الله تعالى-: وفضـول المباحـات، فـإذا دعت الحاجـــــــــةُ إلى خلطتهم في الشر ولم يمكنه اعتزالهم.

فالحــذر الحــذر أن يــوافقهم، وليصــبر على أذاهم، فإنهم لابُدَّ أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر.

ولكن أذى يَعقِبُهُ عِزٌ ومحبـةٌ له وتعظيم وثنـاء عليه منهم، ومن المؤمــنين، ومن رب العــالمين، فالصــبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة وأحمد مآلاً.

وإن دعت الحاجـــــةُ إلى خُلطتهم في فضـــــول المباحـات، فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله إن أمكنه، ويُشجِّعُ نفسه ويُقوي قلبه.

ولا يلتفت إلى الــوارد الشــيطان القــاطع له عن ذلك، بـأن هـذا ريـاء، ومحبة لإظهـار علمـك، وحالِـك، ونحو ذلك.

فليُحاربْهُ وليستعنْ بالله، ويُؤثر فيهم من الخــير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقاديرُ عن ذلـك، فليسُـلَّ قلبـهُ من بينهم، وليكن فيهم حاضــرًا غائبًا بعيــدًا نائمًا يقظــان ينظر إليهم ولا يُبْصِرهُم، ويسمع كلامهم ولا يعيه؛ لأنه قد أخذ قلبــــــهُ من بينهم ورَقى به إلى الملأ الأعلى يُســبحُ حــولَ العــرشِ مع الأرواح العلويَّةِ الزّكية وما أصعب هذا وأشقهُ على النفوس وإنه ليسيرٌ على من يسَّرهُ الله عليه.

فــبين العبد وبينه أن يصــدق الله تبــارك وتعــالى ويُدِيْمَ اللجَاءَ إليه ويُلْقِي نفسه على بابه طريحًا ذليلاً.

ولا يُعين على هـذا إلا محبـةٌ صـادقةٌ الـذكر الـدائمُ بالقلب واللسان وتجنُّبُ المُفْسداتِ.

وقال: كُـلُ علمٍ صـحبةُ عمـلٌ يُرضي الله فهو منَّةٌ وإلا فهو حُجَّةٌ.

وكل قوةٍ ظاهرة وباطنـةٌ صـحبها تنفيـذٌ لمرضـات الله وأوامره، فهي منَّة وإلا فهي حُجَّةٌ.

وكلُ ما اقترن به إنفـاقٌ في سـبيل الله وطاعته لا لطلب الجــزاء ولا الشــكر فهو منَّةٌ من الله وإلا فهو حجةٌ.

وكل قبول في النـاس وتعظيم ومحبَّة لـهُ اتصل به خُضُــوعٌ للــرب وذل وانكســار ومعرفة بعيب النفس

والعمــل، وبــذل النصــيحة للخلق فهو منــة، وإلا فهو حجة.,

وكل بصـــيرة، وموعظـــة، وتـــذكير، وتعريف من تعريفــات الحق إلى العبد اتصل به عــبرة ومزيد في العقل ومعرفة في الإيمان فهي منة، وإلا فهي حجة.

وكل حال مع الله تعـالى أو مقـام اتصل به السـير إلى الله، وإيثـار مـراده على مـراد العبد فهو منة من الله.

وإن صحبه الوقوف عنده والرضا به وإيثار مقتضاه من لـــذة النفس به وطمأنينتها إليه وركونها إليه فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هـــذا الموضـــوع العظيم الخطـــير، ويميز به مواقع المِنَن والمِحَن والحُجج والنِعم.

فما أكثر ما يلبس ذلك على خواص الناس وأربـاب السـلوك ﴿**وَاللَّهُ يَهْـدِي مَن يَشَــاءُ إِلَى صِــرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾.

وقال: وحاصل هذا كله أن الله سـبحانه أمر العبـاد أن يكونـــوا مع مـــراده الـــديني منهم، لا مع مـــراد أنفســـهم، فأهل طاعته آثـــروا الله ومـــراده على مُرَادِهم فاستحقوا كرامته.

وأهل معصـيتِه آثـروا مُـرادهم على مُـراده وعلم ســبحانه منهم أنهم لا يـــؤثرون مـــراده البتة وإنما يؤثرون أهـواءهم ومـرادهم، فـأمرهم ونهـاهم، فظهر بأمره ونهيه من القدر الـذي قـدَّرَ عليهم من إيثـارهم هوى نفوسهم ومـرادهم على مرضـاة ربهم ومـراده، فقامت عليهم حُجَّةُ عدله فعاقبهم بظلمهم.

قـال: سـمعت شـيخ الإسـلام ابن تيمية يقـول في قــول النــبي ﷺ: «لا تــدخل الملائكة بيتًا فيه كلبٌ ولا صورةٌ» إذا كـانت الملائكة المخلوقـون يمنعها الكلبُ والصورة عن دخول البيت.

فكيف تلج معرفة الله عز وجل ومحبتُه وحلاوةُ ذكره والأنس بقربه في قلب مُمَتلئٍ بكلاب الشهوات وصُورها! فهذا من إشارة اللفظ الصحيح.

ومن هذا أن طهارة الثوب والبدن إذا كانت شرطًا في صحة الصلاة والاعتداد بها، فإذا أخل بها كانت فاسدة.

فكيف إذا كان القلب نجسًا ولم يطهره صاحبه! فكيف يعتد له بصلاة وإن أسقطت القضاء!

وهل الطهارة الظاهرة إلا تكميل لطهارة الباطن! ومن هذا أن استقبال في الصلاة شرط لصحتها وهي بيت الرب.

فتوجه المصلي إليها ببدنه وقالبه شرط، فكيف تصح صلاة من لم يتوجه بقلبه إلى رب القبلة والبدن، بل وجَّهَ بَدَنَه إلى البيت ووجَّهِ قلبهُ إلى غير رب البيت.

وأمثال ذلك من الإشارات التي لا تنال إلا بصفاء الباطن وصحة البصيرة وحسن التأمل، والله أعلم.

عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مصل إلا وملك عن يمينه وملك عن يساره، فإن أتمها عرجا بها، وإن لم يتمها ضربا بها وجْهَهُ».

تُصلي بلا قلب صلاة بمثلها ... يكون الفتى مستوجبًا للعقوبة
تظل وقد أتْمَمْتَهَا غير عالم ... تَزِيد احْتِيَاطًا رَكْعَةً بعد رَكْعةِ
فويلك تَدْريْ مَن تناجيه مُعْرِضًا ... وبينَ يَدي مَن تنحَني غير مخبتَ
تخاطبه إيَّاكَ نَعْبُدُ مُقْبلاً ... على غيره فيها لِغَير ضَرُوْرَةِ
ولو رَدَّ مَن ناجَاكَ للغير طرفَهَ ... تَمَيَّزْتَ مِن غَيْظٍ عيه وغَيْرَةِ
أما تَسْتَحِي مِن مالك الملك أنْ يرى ... صُدُودَك عنه يا قليلَ

إلهيْ اهْــدِنَا فيمن هَــدَيْتَ	المُـــــــــــــــرُوْءَةِ
وخُـــــــــــــذْ بنا	إلى الحقِ نَهْجًا في طريقِ السَّـــــــــــويَّةِ

وقـال ابن القيم ــ رحمه الله ــ: فَضِـيحةُ البهـرج تــبينُ عند المحــك، لو أبصــرت طلائع الصــديقين في أوائل الركب، أو سمعت استغاثة المحــبين في وسط الــركب، أو شــاهدت ســاقة المُســتغفرين في آخر الـــرَّكْب، لعلمتَ أنك قد انقطعت تحتَ شـــجرة أم غَيْلَان.

واحسرتَاه لمُنقطعٍ دُوْن الـرَّكْبِ يَعُـدُّ المنـازلَ إلى الرواح في الهوى والتفليس وحتَّامَ السعُي في صُحْبَةِ إبليْسِ.

وكم بهرجــةٍ في العمــلِ وتـدليس أينَ أقرانُـكَ هل تســمعُ لهم من حسِــيْس أعلمتَ أنُهمْ اشــتد نــدمُهم وحسرتهم على إيثار الخسِيس.

تالله لقد ودُوا أن لو كـــانوا طلَّقُـــوا الـــدنيا قبل المَسِيْس.

أتلهُــوا بَيْنَ باطِيَــةٍ وزِيْــرِ	وأنتَ مِنَ الهلاكِ على شَـــــــــــــفِيْرِ
فيَا مَن غَرَّهُ أمَــلٌ طَوِيــلٌ	به يُرْدى إلى أجَلٍ قَصِــيْرِ
أتَفْــرَحُ والمَنِيَّةُ كُــلَّ يَـوم	تُرِيْــكَ مكــانَ قَبْــرِكَ في القُبُـــــــــــوْرِ
هي الـــدُنْيَا وإنْ سَـــرَّتْكَ يَوْمًا	فإنَّ الحُزْنَ عَاقِبةُ السُرُورِ
سَتَسْــلِبُ كُــلَّ ما جَمَّعْت فيها	كَعَارِيــةٍ تُــرَدُّ إلى مُعِيْــرِ
وتَعْتَـــــــــاضُ اليَقيْنَ مِن التَظَنِي	ودَارَ الحَقِّ مِن دَار الغُرُوْرِ

قيـــل: إنه دخل أعـــرابيٌ على ســـليمان بن عبدالملك، فقال: يا أمير المؤمنين، إني مُكلِّمُكَ بكلام فاحتمله وإن كرهتهُ، فإن وراءهُ ما تُحِبُ إن قبلتهُ.

قال: قُلْ، قـال: يا أمـير المؤمـنين، إنَّه قد اكتنفك رجـال ابتـاعوا دُنيـاك بـدينهم ورضـاك بسـخط ربهم خافوك في الله ولم يخافُوهُ فيك.

خربـوا الآخـرة وعمَّروا الـدنيا فهم حـربٌ للآخـرة، سِلمٌ للدنيا فلا تأمنهم على ائتمنك الله عليه، فـإنهمن لم يألوا الأمانة تضييعًا والأمة خسفًا.

وأنت مسؤولٌ عما اجترحُوا وليسوا بمسئولين عمَّا اجترحت، فلا تُصلحْ دُنياهم بفساد آخِرَتِـكَ فـإنَّ أعظمَ الناسِ غبنًا بائع آخرته بدنيا غيره.

فقـال سـليمان: أما أنت فقد سـللت لسـانك وهو أقطعُ من سيفك.

فقال: أجل يا أمير المؤمنين، لك لا عليك.

قـال: فهل مِن حاجـةٍ في ذات نفسـك، قـال: أما خاصَّة دون عامة فلا ثم قام فخـرج، لله دره هـذا من رقم (2) في «الزهد».

فقـال سـليمان: لله دره، ما أشـرف أصـله وأذرب لِســانه وأصــدق نيتَّه وأروع نفســه، هكــذا فليكن الشرفُ والعقلُ.

ولمَّا رَأيْتُ الشَــيْبَ حَــلَّ بعَارضي ... نــذِيْرًا بَتْرحَــال الشَّــبَابِ المُفَــارقِ

رَجَعْتُ إلى نَفْسِــي فَقُلْتُ لهَا انظــري ... إلى ما أتى هـــذا ابتـــداءُ الحقَــائِقِ

دَعى لهـــواتِ اللهو قد فَــاتَ وَقْتُهَا ... كما قَــدْ أزالَ الليــلُ نــورَ المَشَــارقِ

دعِي مَنْزِلَ اللـذَاتِ يـنزلُ أهلُــهُ ... وجُــدِّي لمَا تُــدْعَيْ إليْــهِ وســابقي

دخل عطاء بن أبي رباح على هشام، فرحب بــه، وقال: ما حاجتك يا أبا محمـد، وكـان أشـرافُ النـاس يتحدثون فسكتوا.

فـذكره عطـاء بـأرزاق أهل الحـرمين وعطيـاتهم، فقــــال: نعم يا غلام، اكتبْ لأهل المدينة وأهل مكة بعطاءِ أرْزَاقِهم.

ثم قال: يا أبا محمد، هل من حاجة غيرهـا، فقـال: نعم فـــذكَّرهُ بأهل الحجـــاز وأهل نجد وأهل الثغـــور ففعل مثل ذلك، حتى ذكـره بأهل الذمَّة أن لا يكلفُـوا ما لا يُطيقُون.

فأجابه إلى ذلك، ثم قال له في آخر ذلك: هَـلْ من حاجة غيرها؟

قال: نعم يا أمـير المؤمـنين، اتق الله في نفسـك، فإن خُلقْتَ وحـدك، وتمـوتُ وحـدك، وتُحشر وحـدك، وتحاسبُ وحدك، لا والله ما معك ممَّن ترى أحدًا.

قال: فأكب هشـامٌ يبكي، وقـام عطـاء، فلما كـان عند البـاب إذا رجـلٌ قد تبعه بكيس، ما نـدري ما فيه أدراهم أم دنانير؟

وقال: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بهـذا، فقـال: ﴿**مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْـرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ ثم خرج ولا والله ما شرب عندهم حَسْـوَة مَاء، لله دره سلك طريقة الرسل عليهم السلام، هذا من رقم (1) في «الزهد».

ولما رجع الرشـيد قيل لـه: يا أمـير المؤمـنين، قد حج شـيبان، قـال: اطلبُـوه لي فـأتوه بـه، فقـال: يا شَيْبانُ، عظني!

قـال: يا أمـير المؤمـنين، أنا رجـلٌ ألكنٌ لا أفصـحُ بالعربية، فجئني بمنْ يفهم كلامي حتى أكلمـه، فـأتي برجُل يفهم كلامهُ.

فقال له: قُلْ له يا أمير المؤمنين، إن الذي يُخَوِّفُكَ قبْل أن تبلُغَ المأمن أنصـحُ لك من الـذي يُؤمِّنُـكَ قبل أن تبلغ الخوف.

قال له: أي شيء تفسير هذا؟ قال: قُـلْ لـهُ الـذي يقولُ لك: اتَّق الله فإنك رجلٌ مسئول عن هـذه الأمة الــــتي اســــترعاك الله عليها وقلَّدكَ أمورها وأنت مسئولٌ عنها.

فاعــــدل في الرعية واقسم بالســـوية وانفذ في السرية، واتق الله في نفسك هذا الـذي يخوفك فـإذا بلعتَ المأمَنَ أمنْتَ.

هـذا أنصحُ لك ممَّنْ يقـول: أنتُم أهـلُ بيتٍ مغفـورٌ لكم وأنت قرابةُ نبيكم، وفي شفاعته فلا يزال يُؤمِّنُكَ حتى إذا بلغتَ الخوفَ عطِبْتَ.

قال: فبكى هارون حتى رحمه من حَوْلَه، ثم قــال: زدني، قال: حسبك.

رُوي أن عـوف بن مالك أسر المشـركون ابنًا لــه، فـأتى رسـول الله ، فقـال: أُسِـرَ ابـني وشَـكَا إليه الفَاقَة.

فقـال رسـول لله : «ما أمسْـى عند آل محمد إلا مُدٌّ، فـاتق اللـه، واصـبر وأكـثر من قـول: لا حـول ولا قـوة إلا بالله العلي العظيم»، فعـاد إلى بيتـه، وقـال لامرأته: إن رسول الله أمرني أن تستكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فقالت: نعم ما أمر به رسول الله ، فأخذا يقولان ذلك فبينما هو في بيته إذْ قرعَ ابنُه الباب، ومعهُ مائـةٌ من الإبل تغَفَّلَ عنها العــدُوَّ، فاســتاقها وأتى بها إلى والديـه، فـنزلت هـذه الآيـة: **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**.

قيل لبعض العُقلاء: لِمَ اعــتزلت النــاس؟ فقــال: خشـيتُ أنْ أسـلبَ ديْـني ولا أشـعُر، وهـذا دليل على

مســـارقَة الطبع كما هو مشـــاهد، ودليل على ذكـــاء العاقل ودقة نظره وزهده.

قال الحسن البصري: إنما الفقيه الزاهدُ في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبـادة ربه.

الورع الكاف من أعـراض المسـلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لهم.

لكل شـيء آفة تفسـده فآفة العبـادة الريـاء، وآفة الحلم الظلم، وآفة الحيـــــاء الضــــعف، وآفة العلم النسـيان، وآفة العقل العجب بـالنفس، وآفة الحكمة الفُحشُ، وآفةُ القَصْدِ الشُحُ، وآفـةُ العُمُر الكبَـرُ, وآفة الجودِ التبذير.

سُـــئل علي بن أبي طـــالب: كم بين الإيمــــان واليقين؟ قال: أربعُ أصـابع، قيـل: وكيف ذلـك؟ قـال: الإيمانُ كُلُ ما سمعتهُ أذنَـاكَ وصـدَّقهُ قلبُـك، واليقينُ ما رأتـــهُ عينـــاك، فـــأيقن به قلبُك وليْسَ بين العين والأذُن إلا أربـــعُ أصـــابع. والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

قال شيخُ الإسلام بن تيمية، وفي الآثـار يقـول الله تعـالى: أنا الله لا إله إلا أنا ملك الملــوك ونواصــيها بيدي.

فمن أطــاعني جعلت قلــوب الملــوك عليه رحمة ومن عصاني جعلتُهم عليه نقمة.

فلا تشغلوا أنفسك بسب الملوك، ولكن توبـوا إليَّ وأطيعون أعطفهم عليكم.

وقـال ابن القيم: لأهل الـذنوب ثلاثة أنهـار عظـام، يتطهَّرون بها في الدنيا، فإن لم تَفِ بطهــرهم طُهِّرُوْا في نهر الجحِيْم يوم القيامَةِ.

نهر التوبة النصـوح، ونهر الحسـنات المسـتغرقة للأوزار المحيطة بهـــا، ونهر المصـــائب العظيمة المكفرة.

فإذا أراد الله بعبده خـيرًا أدخلـهُ أحد هـذه الأنهـار الثلاثـــة، فـــورد القيامة طيبًا طـــاهر، فلم يحتج إلى التطهير الرابع.

من غلب عليه حُبُّ الجـاه صـار مقصـور الهم على مُراعاة الخلق مونعًا بالتردد عليهم والمـرآت لهم، ولا يـــزال في أقواله وأفعاله ملتفتًا إلى ما يُعظّمُ منزلته عندهم وذلك بذرُ النفاق.

وأصل الفســـاد؛ لأن كل من طلب المنزلة في قلوب الناس اضـطر أن ينـافقهم بإظهـار ما هو خـال عنه.

ويجـرُّ ذلك إلى المـراآت في العبـادات، واقتحـام المحظورات والتوصل إلى اقتناص القلوب.

تَفَكَّرُ في نُقْصَـانِ مَالِـكَ دَائِمًا ... وتَغْفُل عن نُقُصَـانِ دِيْنِـكَ والعُمْـرِ

ويَثْنِيْـكَ خـوفُ الفَقْر عن كُـلِ طَاعَـةٍ ... و خِيْفَةُ حَال الفَقْرِ شَـرٌ مِن الفَقْـرِ

كان السلف –رحمهم الله- ومن سار على نهجهم من الخلف أحرص الناس على حفظ الـوقت، وتعبيته بالأعمـال الصـالحة سـواء في ذلك العـالم، وطـالب العلم، والعابد.

وكانوا يقتدي بعضـهم ببعض ويوصي أحـدهم الآخر على صيانته وملئه بالخير وكانوا يسابقون السـاعات، ويبادرون اللحظات، حرصًا منهم على الـوقت، وأن لا يـذهب هـدرًا، لَعِلْمِهم أنه يمُر مـرَّ السـحاب ويجـري جريَ الريح.

قيــــل: إن نوحًا –عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسـلام- جـاء ملك المـوت ليقبض روحه بعد

ألف ســنة أو أقل أو أكــثر، الله أعلم، فســأله ملك الموت، قال له: يا أطول الأنبيـاء عُمْـرًا كيف وجـدتَ الــدنيا؟ فقــال: كــدارٍ لها بابــان دخلتُ مع أحــدهما وخرجتُ من الآخر.

قال الله جل وعلا وتقـدس: ﴿كَأَنَّهُمْ يَـوْمَ يَـرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾.

وقال تبارك وتعـالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَـوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُـوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾.

وقال تبارك وتعالى وتقدس: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَـأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾.

ومن خصــائص الــوقت أن كل ســاعة أو يــوم أو لحظة تمر ليس يمكن استرجاعها.

وقال الحسن البصري: ما مِن يوم ينشق فجره إلا وينادي يا ابن آدم، أنا خلقٌ جديد وعلى عملك شـهيد، فتزوَّدْ مني فإني إذا مضيتُ لا أعود.

وما المـرءُ إلَّا رَاكِبٌ ظَهْـرَ عُمْـــــــــــــــــــــره	على سَــفَرٍ يُفْنِيْه بــاليومِ والشــــــــــــــــهرِ
يَبِيْتُ ويُضْــحى كل يَــومٍ ولَيْلَـــــــــــــــــــةٍ	بَعِيْدًا عن الــدنيا قَرَيْبًا إلى القَبْـــــــــــــــرِ

آخر:

وما نَفَسٌ إلا يُبَاعِد مَوْلِدًا	ويُـــدْنِي المَنَايَا للنُّفُـــوسِ فَتَقْـــــــــــــرُبُ

فالذي ينبغي للإنسان أن يحافظ على وقته أعظم من محافظته على ماله، وأن يحرص على الاستفادة منه في كل لحظة فيما ينفعه في دينه وفي دنياه، مما هو وسيلة إلى الدار الآخرة.

قـال عمر بن عبـدالعزيز: إن الليل والنهـار يعملان فيك فاعمل فيهما.

وقــال حكيم: من أمضى يومًا من عُمـره في غـير حق قضـــاه، أو فـــرض أداه، أو مجد أثلــه، أو حمد حصـله، أو خـير أسَّسَـه، أو اعلم اقتبســه، فقد عــقَّ يومهُ وظلمَ نفْسَه.

والـــذي يعين على اغتنـــام الزمـــان، العزلة مهما أمكن، إلا لضـرورة، أو حاجَـةً لمن يلقـاهُ، أو يـزُورهُ، وقلَّةُ الأكـل؛ لأن كثرته تُكسلُ البـدنَ، وسـببٌ للنَّومِ الطَّوِيْـل، وضـيَاعِ الليـل، وفـوات التجهـد، أو تقليلـه، وعمـــارةُ القلبَ في أربعـــة: في العلم، والتقـــوى، وطاعة الله وذكـــره، وخرابُه من الجهل والمعصـــية والاغترار والغفلــةْ. والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

ولقد كـانت هممُ السـلف عالية يـدل عليها كـثرة مُصنفاتِهِمْ التي هي خلاصة أعمارهم.

وقد أمر الله سـبحانه وتعـالى باسـتباق الخـيرات والمسـارعة إليها قبل أن تشـغل عنها الشـواغل أو تعوق العوائق.

قال الله جل وعلا: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ**﴾.

وقال عز من قائل: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾.

وقـال جل وعلا: ﴿**سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ**﴾.

ومدح الصالحين من أهل الكتاب بـأنهم ﴿**يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾.

وقد حث النبي ﷺ على المبادرة بالعمل قبل حلـول العوائق والفتن، فقال: «هَلْ تَنْتَظِرُوْنَ إلا غنًى مُطْغِيًا أو فقرًا مُنْسِيًا أو مرضًا مفسدًا أو هَرَمًا مفندًا أو موتًا مجْهِـزًا أو الـدَّجَالَ فشر غَـائِبٍ ينتظر أو السـاعة، فالساعة أدهى وأمر» رواه الترمذي.

وقـال ابن القيم ــ رحمة الله ــ: وعمـارة الـوقت الاشْتِغَالُ في جميع آنَائهِ بما يُقَرِّبُ إلى الله تعـالى أو يُعينُ على ذلك من مأكل ومشــرَبٍ أو منكح أو منــام أو راحة.

فإنَّهُ مــتى أخــذها بنية القـــوة على ما يحبه الله وتجنُّب ما يسخطه كانتْ من عمارة الوقت.

وإن كان له فيها أتمَّ لذَّةٍ فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات المباحة.

قـال بعض العلمـاء: أُغلق بـابُ التَّوفيق عن الخلق من ستةِ أشياء:

انشغالُهم بالنعمة عن شكرها.

ورغبتُهم في العلم وتركهم العمل.

وإقبال الآخرة وهم معرضون عنها.

والاغترارُ بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم.

وإدبار الدنيا عنهم وهُمْ يتبعُونها.

والمسارعة إلى المعاصي والذنوب وتأخير التوبة.

وكَمْ ذِيْ مَعَاصٍ نَالَ مِنْهُنَّ لَــــــذَّةً ... ومَــــــاتَ وخَلَّاهَا وذَاقَ الــــــدَّوَاهِيَا
تَصَــرَّمُ لــذَّاتُ المعَاصِــي وتَنْقَضِــي ... وتَبْقَي تبَاعَــاتُ الْمَعَاصِــي كَمَا هَيَا
فَيَا سَــوْءَتَا واللـــهُ رَاءٍ وَسَــــامِعٌ ... لِعَبْــدٍ بعَيْنِ اللــهِ يَغْشَــى المعَاصِــيَا

آخر:

تَوَارَى بِجُدْرَانِ البُيوتِ عَنِ الـــورى ... وأنْتَ بعَيْنْ الله لا شك تُنْظــرُ

لاً بينَ أعينهم وقطعُـوا الأسـباب المتصـلة بقلـوبهم من علائق الـدنيا فهم أنضَـاءُ عبادته خُلفـاءُ طاعته.

قد أنضــجُوا خُــدُودهم بوابل دُمُــوعِهم وافترشُــوا جبـاههُمْ في محـاريبهم يُنـاجُون ذا الكبريـاء والعظمة في فكاك رقابهم.

ومرَّ إبـراهيم بنُ أدهم بجـرل يتحـدَّثُ فيما لا يَعْنِيْه فوقف عليه، فقال: كلامُكَ هذا ترجو به الثواب؟ قال: لا، فقال: أفتأمنُ عليه العقاب؟ قال: لا.

قـال: فما تصـنعُ بكلام لا ترجُو عليه ثوابًا وتخـاف منه عقابًا.

قـال بعضـهم: لو بعت لحظـةً من إقبالك على الله بمقـدار عمر نـوح في ملك قـارون لكُنْتَ مغبونًا في العقد.

قـال سـفيان الثـوري: دخلت على جعفر الصـادق، فقلتُ لـــه: ما لي أراك ســـكنت دارك ولا تُخالـــطُ الناس؟ قال: نعم يا ابن سعيد، في العُزلة دعة، وفي الدعة القناعة، وما قُدّرَ لك يأتيك.

يا سُـــفيان، فسد أهل الزمـــان وتغيَّر الأصـــدقاء فرأيتُ الانفراد أسكن للفؤاد.

تَغَيَّرَ إخْـوَانُ هـذا الزَّمَـانْ   وكُلُ صَـدِيق عَـراه خَلَـلْ
قَضَيْتُ التَّعَجُّبَ مِن بَابِهِم   فَصِـرْتُ مُنْتَظِـرًا لِبَـاب البَـدَلْ

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصــحبه وسلم.

فصل

كتب العمري العابد إلى مالك يحضُهُ على الانفـراد والعمل ويرغبه عن الاجتماع إليه في العلم.

فكتب إليه مالك إن الله قسَّم الأعمـال كما قسَّـم الأرزاق فرُبَّ رجُلٍ فُتح عليه في الصـلاة ولم يُفتح له في الصوم.

وآخر فُتح له في الصدقةِ ولم يُفتح له في الصوم.

وآخر فُتح له في الجهاد ولم يُفتح لهُ في الصلاة.

ونشرُ العلم وتعليمه من أشرف أعمال البر.

وقد رضـيتُ بما فتح الله عــزَّ وجــلَّ عليَّ فيه من ذلك.

وما أظنُ ما أنا فيه بدُوْن مِنْ مَا أنت فيه.

وأرجو أن يكونَ كلانا على خيرٍ وبرٍ ويجبُ على كُلٍ منَّا أن يرضى بما قسِم له، والسلام.

قيـل: أصـاب عبـدالرحمن بن مـدين مـالاً عظيمًا وكان رجل صدقٍ، وصاحب دين فجهَّزَ سبعين مملوكًا بأسلحتهم إلى هشام بن عبـدالملك ثم أصـبحُوا معـهُ يوم الرَّحِيْل.

فلما اســتوى بهم في الطريق نظر إليهم، وقــال في نفسه: ما ينبغي لرجُل أن يتقرَّب هـؤلاء إلى غـير الله عزَّ وجلَّ، ثم قـال لهم: اذهبُـوا فـأنتم أحـرار وما معكم لكم.

وقـال ابن القيم ــ رحمه الله ــ: إن الـذي يحسـمُ مادة رجاءِ المخلوقين من قلْبِـكَ هو الرضا بحكْم الله عز وجل وقسمهِ لك.

فمن رضي بحُكْمِ الله وقسْــــمِهِ لم يبق لرجــــاء الخلقِ في قلبه موضِع.

والذي يحسمُ مادة الخـوف هو التسـليمُ للـه، فـإنَّ من سلَّمَ لله واستسلم لهُ وعلم أنَّ ما أصابهُ لم يكنْ ليخطئــه، وما أخطــأه لم يكن ليصــيبه، وعلم أنه لن يُصـيبه إلا ما كتب الله له لم يبق لخـوف المخلـوقين في قلبه موضع أيضًا.

فإن نفسه الـتي يخـاف عليها قد سـلمّها إلى وليّها ومولاها وعلم أنه لا يصـــيبها إلا ما كتب لهــا، وأن ما كتب لها لابد أن يصـيبها فلا معـنى للخـوف من غـير الله.

والــذي يحســمُ مــادة المبــالات بالنــاس شــهود الحقيقة، وهو رؤية الأشياء كلها من اللــه، وبالله وفي قبضته وتحت قهره وسُلطانه لا يتحرك منها شـيء إلا

بحوله وقوتـــــه، ولا ينفع ولا يضر شـــــيءٌ إلا بإذنه ومشيئته، فما وجه المبالات بالخلق!

شعرًا:

إن كُنْتَ تَعْلَمُ أنَّ الله يا عُمَـــــــــــــــرُ يَرَى ويَسْـمَعُ مَا تـأتِي وما تَـــــــــــــــذَرَ
وأنتَ في غَفْلـــةٍ عَن ذَاكَ تـــــــــــــــركبُ ما نَهَــاكِ عنه فـأيْنَ الخَـوفُ والحَـــــــــــــذَرُ
تُجَـاهِرُ اللــهَ إقْـدامًا عليه ومِنْ حُثَالَــةِ النــاسِ تسْــتَحِيْي وتَعْتَـــــــــــــذِرُ

اشترى عبدالله بن عـامر من خالد بن عُقبة دارهُ التي في السوق بتسعين ألف درهم، فملا كــان الليل سمع بكاء أهل خالد مُتأسفين على بيع الـدار، فقـال: ما لهـؤلاء يبكــون، قــالوا: يبكــونَ على دارهم الــتي اشــتريتها، قــال: يا غلام ائتهم فــأعلمهم أن الـــدار والمال لهم جميعًا.

وكــان لعُثمــان على طلحة ـــ رضي الله عنهما ـــ خمســون ألف درهم، فخــرج إلى المســجد، فقــال طلحة: قد تهيأ مالُك فاقبضهُ.

فقال: هُو لك يا أبا محمد، معُونةً على مرُوءتك.

ودخل عليُ بن الحسن على محمد بن أســامة بن زيدٍ في مرضه، فجعل يبكي، فقال: ما شأنك؟

قال: عليَّ دين، قـال: كم هـو؟ قـال: خمسة عشر ألف دينار أو بضعة عشر ألف دينار، قال: هيَ عليَّ.

لَهُم سَـــحَائِبُ جُـــودٍ في أنَـــــــــــامِلِهم أمْطَارُهَا الفِضَّـةُ البَيْضَـاءُ والـــــــــــــذَّهَبُ
في العُسر قـــــالوا إذا أيْسَـــــرنَ ثَانِيَــــةً أقصــــــرَن عَن بَعْضِ ما نُعْطِي ومَا نَهَبُ
حتى إذَا عَـادَ أيَّامُ اليَسَـارِ لهُمْ رَأيْتَ أمْـــوالهمْ للنـــاسِ تُنْتَّهَبُ

آخر:

قَـــالَتْ طُرَيفَـــةُ ما تَبقْىَ دَرَاهِمُنَا ... وما بِنَا صَـــــلَفٌ فيها ولا خَـــــــــــرَقُ
لَكِنْ إذَا اجْتَمَعَت يَومًا دَرَاهِمُنَا ... ظَلَّتْ إلى طُـــــــرُقِ المعـــــروفِ تَسْـــتَبِقُ
لا يأْلَفُ الدِّرْهَمُ المَضْرُوْبُ صُـــــــــــرَّتنا ... لَكِنْ يَمُر عَلَيَها وهْــــــوَ مُنْطَلــــــــقُ

لما ولي عُمــرُ بن عبــدالعزيز الخلافة كتب إلى الحسن البصري إني قد ابتُليتُ بهذا الأمر، فـانظر لي أعوانًا يعينوني عليـه، فأجابه الحسـنُ أما أبنـاءُ الـدنيا فلا تريدهمُ، وأما أبنـاء الآخـرة فلا يُريـدُونكَ فاسـتعن بالله.

روي أن عمــر بن عبـدالعزيز كـان في سـفر مـع سليمان بن عبدالملك، فأصابهم السماء برعـد وبـرق وظلمة وريح شديدة حتى فزعوا لـذلك، وجعـل عُمـرُ يضحكُ، فقال له سـليمان: مـا يُضـحكَ يـا عمـر؟ أمـا ترى ما نحنُ فيه!

فقال له: يا أمير المؤمنين، هذه آثـارُ رحمتِـهِ فيهـا شدائدُ ما ترى، فكيف بآثار سخطهِ وغضبِهِ!

أرسل المنصـور إلى سـفيان الثـوري، فلمـا حضـر قال له: سلْنِي حاجتك يا أبا عبدالله.

قال سـفيان: أو تقضـيها يا أمـير المؤمـنين؟ قـال: نعم، قـال: لا تطلُبـني حـتى آتيـك، ولا تعطيـني حـتى أسألُكَ، ثم خرج مِن عنده.

فقال المنصور: ألقينا الحبَّ إلى العُلماءِ، فالتقطُوا إلا سُفيان.

إن الوُقُوفَ على الأبْـوَابِ حِرْمَـــــــــــانُ ... والعَجْزُ أن يَرجُوَ الإنسـانَ إنْسَـــــــــــانُ
فلا تُؤمِّلُ مَخْلوُقًا وتَقْصُدُهُ ... إن كـانَ عِنْـدَكَ بـالرحْمن إيْمَـــــــــــانِ

ثــقْ بالــذيْ هُــوَ يعطِي ذا في كُلِّ يَوْمٍ لَهُ في خَلْقِـهِ
ويَمْنَـــــــــــــــعُ ذا شَـــــــــــــــانُ

آخر:
إذا انقَطَعَتْ أطمــاعُ عبــدٍ تعَلَّقَ بـــــالرَّبِ الـــــرَّحِيْمِ
عَن الـــــــــــوَرَى رَجَــــــــــــــاؤُهُ
فأصْحَ حُـرًا عِـزَّة وقَنَاعَـةً عَلى وجْهِهِ أنْوَارُهُ وضِيَاؤُهُ
وإنْ عَلِقَتْ بالخَلْقِ أطْمَاعُ تَبَاعَــدَ مَا يَرجُــوْ وَطَــالَ
نَفْسِـــــــــــــهَ عَنَــــــــــــــاؤُهُ
فلا تَــــرْجُ إلّا الله لِلْخَطْب ولو صَحَّ في حــلِّ الصَّـفاءِ
وحْـــــــــــــدَه صَــــــــــــفَاؤُهُ

دخل عمر ابن الخطــاب المســجد، فــرأى رجلاً مُعتكفًا فيه للعبادة، فسأله عمن يعوله؟

فقـــال: أخي يعمل ويســـعى لرزقه ورزقي ورزقِ عياله، فقال لهُ عُمر: أخوُكَ أعبدُ منك.

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصـــــحبه وسلم.

فصل

عن ابن عبــاس ــ رضي الله عنهما ــ قــال: ســأل موسى ربه عز وجل، فقـال: أيْ ربّ أيُّ عبـادك أحب إليك؟

قال: الذي يذكرني ولا ينساني.

قال: فأي عبادك أقضَى؟

قال: الذي يقضي بالحق، ولا يتبع الهوى.

قال: أيْ رب، أي عبادك أعلم؟

قال: الــذي يبتغي علم النــاس إلى علمه عسى أن يصيب كَلِمة تهديه إلى هدى أو ترده عن رَدَى.

قال: أي رب، فهلْ في أرضك أحدٌ أعلم مني؟

قال: نعم، قال: فمن هُو؟ قال: الخضر، قال: فأين أطلُبه؟

قال: على الساحل عند الصخرة التي ينفلتُ عندها الحُوتُ.

قال: فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله.

يُـروى أن أبا حنيفة دخل عليه طائفة من الخـوارج شــاهرين سُـيُوفهُم، فقــالوا: يا أبا حنيفــة، أفتنا في مسألتين، فإن أجبت جوابًا صحيحًا نجوت وإلا قتلناك.

قال: أغمدوا سُيُوفكم، فإن بِرُؤْيتهَا ينشـغلُ القلبُ، قـالوا: وكيف نغْمِـدُها ونحنُ نحتسـبُ الأجـرَ بإغمادها في رقبتك؟

قال: اسألوا؟ قالوا: جنازتان بالباب، أحدُهما رجـلٌ شرب خمرًا فمـات سـكران، والأخـرى امـرأة حملت من الزنا، فماتت في ولادتها قبل التوَّبَة، أهما مؤمنان أم كافران؟

فسألهم: من أي الفِرقَ كانا من اليَهُود؟

قالوا: لا، قال: من النصارى؟ قالوا: لا.

قال: من المجُوس؟ قالوا: لا.

قـال: ممَّنْ كانـا؟ قـالوا: من المسـلمين، قـال: قد أجبتُمْ.

قالوا: هما في الجنة أمْ في النار.

قال: أقول فيهما ما قال الخليل ــ عليه السـلام ــ فيمن هو شر منهمــــــا: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وأقــولُ كما قــال عيسى ـــ عليه السـلام ـــ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيــزُ الحَكِيمُ﴾.

فنكَّسُوْا رؤوسهم وانصرفوا.

وسأل أبا حنيفة ناسٌ من الزنادقة عن وجُود اللــه، فقال: ذكرُوا لي أن سـفينةً في البحر مُـوقَرة، وليس بها أحــدٌ يحرسُــها ولا يســوقُها وهي مع ذلك تــذهبُ وتجيء وتسيرُ بنفسها من غير سائق يسُوقها.

فقالوا: هـذا شيء لا يقوله عاقـل، فقـال: ويحكُمْ هـــذه الموجُـــودات بما فيها من العـــالم العلـــوي والسُفلي.

وما اشـتملتْ عليه من الأشـياء المُحْكَمَة ليس لها صانع فَبُهَتَ القومُ ورجعُوْا إلى الحق.

وقال ابن القيم: إن السُنَّة الذات تمحقُ البدعةَ ولا تقـوُمُ لها وإذا طلعت شمسُـها في قلب العبد قطعتْ من قلبه ضُبَابَ كل بِدْعَةٍ وأزَالَت ظلمة كل ضلالة.

إذ لا سـلطان للظلمة مع سـلطان الشـمس، ولا يرى العبدُ الفرقَ بين السنة والبدعة.

ولا يُعينُه على الخروج من ظلمتِهَا إلى نـور السُـنَّة إلا المُتابعـــــة، والهجـــــرة بقلبه كل وقت إلى الله بالاستعانة والإخلاص وصدق اللَّجاء إلى الله.

والهجرةُ إلى رسـوله بـالحرص على الوصـول إلى أقواله وأعماله وهديه وسُـــنته، «فمن كـــانت هجرته إلى اللــهِ ورسـولهِ فهجرته إلى الله ورسـوله» ومن هـــاجَرَ إلى غـــير ذلك فهو حظه ونصـــيبه من الـــدنيا والآخرة والله المستعان.

وقـال: وأشـدُ العقوبـةُ العقوبـةُ بسـلب الإيمـان، ودُونها العقوبـــةُ بمـــوت القلب، ومحو لـــذة الـــذكر والقراءة والدعاء والمناجاة.

وربما دبَّتْ عقوبة القلب فيه دبيب الظلمـــــة، إلى أن يمتلي القلبُ بها فتعمي البصيرة.

وأهـونُ العقوبَـة، ما كـان واقعًا بالبـدن في الـدنيا، وأهونُ منها ما وقع بالمال.

وربما كـــانت عقوبـــةُ النظر في البصـــيرة أو في البصر أو فيهما.

حذار حِذار من أمرين لهما عواقب سُوءٍ:

رد الحق لمخالفته هَـــوَاك، فإنك تُعـــاقبُ بتقليب القلب.

وردّ ما يـردُ عليك من الحق رأسًـا ولا تقبلـهُ إلا إن برز في قالب هواك.

قال الله جل وعلا: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـانِهِمْ يَعْمَهُـونَ﴾فعاقبهم على رَدِ الحق أوَّل مـرة بـأن قلَّب أفئـدتهم وأبصارهم.

والثـاني: التهـاون بـالأمر إذا حظر وقتـه، فإنك إن تعاونت به ثبطك اللهُ وأقعـدكَ عن مراضـيهِ وأوامـره عُقُوبةً لك.

قـال تعـالى: ﴿فَـإِن رَّجَعَـكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَـةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَئْذَنُوكَ لِلْخُـرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُـوا مَعِيَ أَبَـدًا وَلَن تُقَـاتِلُوا مَعِيَ عَـدُوًا إِنَّكُمْ رَضِـيتُم بِـالْقُعُودِ أَوَّلَ مَـرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الخَالِفِينَ﴾ فمن سَلِم من هـاتين الآفـاتين فليهْنِهِ السلام.

قال يحيى بن معاذ: يخـرج العـارفُ من الـدنيا ولم يقضي وطرهُ من شيئين:

بكائه على نفسه، وثنائه على ربه.

وهذا يدل على معرفته نفسه وعيُوبه وآفاته.

وعلى معرفته بربه وكماله وجلالـــه، فهو شـــديد الإزدراء على نفسه ولهجٌ بالثَّنَاءِ على ربه.

قـال رجل للحسن بن علي ــ رضي الله عنهما ــ: إني أكـرهُ المـوتَ، فقـال: لعلك أخـرتَ مالـكَ، ولو قدَّمْتَهُ لسرَّك أن تلحقَ به.

ذكر أن رجلاً مـــدح رجلًا آخر في وجهه ، وكـــان الممـــدوحُ عـــاقلاً ذكيًا ورعًـــا، فقـــال: لما مـــدحتني أجربتني عند الغضب، فوجدتني حليمًا؟ قال: لا.

قال: أجربتني في السفر، فوجدتني حسنُ الخُلُق؟ قال: لا.

قال: أجربتني عند الأمانـة، فوجـدتني أمينًـا؟ قـال: لا.

قال: فلا يحلُّ لأحدٍ أن يمدحَ آخر ما لم يُجَرّبُـهُ في هذه الأشياء.

قلت: لأنها محك ينكشف فيها الخبايا خصوصًا السَّفر؛ لأنه يسفر عن أخلاق الرجال.

أثنى رجلٌ على زاهد، فقال: يا هذا، لو عرفت مني ما أعرفُه من نفسي لأبغضتني!

فـالنفسُ في الـوطن لا تظهَر خبـائثُ أخلاقِها لاسْتِئنَاسِـها بما يُوافـقُ طبعها من المألوفـات المعهودة.

فـإذا حملت وعثاء السفر وصُرفتْ عن مألوفاتِها المعتادة وامتحُنَتْ بمشاق الغُربة انكشفتْ غوائلها ووقعَ الوقوف على عُيوبها. والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

قيل: إنه شُكي أحد الولاة إلى المأمون، فكذبهم، وقال: قد صحَّ عندي عدله فيكم، وإحسانه إليكم، فاستحيوا أن يرُدُّوا عليه، فقام شيخ منهم، وقال: يا أمير المؤمنين، إذا كان قد عدل فينا خمسة أعوام، فانقلـهُ إلى مصر آخر حتَّى يسع عدلُـهُ جميع رعيَّتك وتربح الدُعاء، فضحك المأمُونُ واستحيا منهم، ونقلـهُ عنهم.

قال حكيم: للقلب ستة مواطنَ يجُول فيها ثلاثـةٌ سافلة، وثلاثةٌ عالية، فالسافلة: دُنْيا تتزين لـه، ونفسٌ تحدثه، وعدُوٌ يُوَسْوِسُ لَهُ.

والعاليةُ: علمٌ يتبينُ له، وعقلٌ يُرشده، وإله يعبدهُ.

أشدُ الأعمال ثلاثة: الجـودُ من قِلّـة، والـورع في الخلوة، وكلامُ الحقِ عند من يُرجى ويُخاف.

احـذر سـؤال البخيـل، فإنَّه إن منعك أبغضـته، وإن أعطاك أبغضك.

احذر صحبة الأشرار والفسقة، فإنهم يمنـون عليك بالسَّلامة منهم.

واحــرص على صُـحبة الزُّهــاد في الــدنيا من أهل العلم والورع إن وجدتهُم تسعدْ في الدنيا والآخرة.

وإذا أَرَدْتَ تَــرى فَضِــيْلَةَ صَــــــــــــــاحِبِ فـــــانْظُرْ بَعِيْنِ البَحْثِ مَنْ نُــــــــــــــــدَمَاؤه
فالمَرْءُ مَطْوِيٌ عَلىَ عَلَّاتِهِ طَيَّ الكِتَــــابِ وصَـــحْبُه عُنْوانُـــــــــــــــهُ

آخر:

تَحَّرَ إذ صَـــادَقْتَ مَن ودُّهُ مَحْضُ يُصَانُ لَدَيْهِ الـدِّيْنُ والمـالُ والعِـــــــــــــرْضُ
فَكُــــلُ خَلِيْـــلٍ مُنْبِئٌ عَنْ خَلِيْلِـــــــــــــــهِ كَمَا عَنْ شُؤُونِ القَلْبِ قَدْ أَنْبَـــــــــــأَ النَّبْضُ
وبالصِدْقِ عَامِـلْ مَن تُحِبُ مِن الـــــــــــوَرَى وإلَّا فَـــذَاكَ الحُبُّ آخِـــرُهُ البُغْضُ

كـان لإبـراهيم بن طهمـان جراية من بيت المـال فسُــئل عن مســألة في مجلس الخليفــة، فقــال: لا أدري، فقـالوا لـه: تأخذ في كل شـهر من بيت المـال كذا وكـذا، ولا تُحسِـن مسـألة، فقـال: إنما آخُـذُ على الذي أحسنُ فقط، ولو أخذت على ما لا أحسنُ لفنَي بيتُ المال، ولا يفنى ما لا أحسن.

فـــأعجب الخليفة جوابه وأمر بجــــائزة وزاد في جرايته أي ما يجري له من بيت المال.

قال المغيرة بن شعبة: ما خـدعني قـطُ غـيرُ غُلام من بني الحـارث، فـإني ذكـرتُ امـرأةً منهم وعنـدي شابٌ من بني الحارث، فقال: أيها الأمـير، إنه لا خـير لـــكَ فيهـــا، فقُلتُ: ولِمَ؟ قـــال: رأيتُ رجُلاً يقبِّلُهَـــا، فأقمتُ أيامًا ثم بلغني أن الفتى تـزوج بهـا، فأرسـلتُ إليه، فقُلتُ: ألم تُعلمني أنك رأيت رجُلاً يُقبِّلُها؟

قال: بلى رأيت أباها يُقبِلُهَا، فإذا ذكرت الفــتى وما صنعَ غمَّني ذلك.

خطب معاوية فأعجبتهُ خطبتُه، فقال: أيُّهـا النـاس، هَلْ مِن خَلَل؟ فقال رجل: نعم، خللٌ كخلـلَ المُنْخـل، فقال: وما هو؟ فقال: إعجابك بها ومدحكَ إيَّاها.

وما حَسَنٌ أنْ يَمْدَحَ المَرْءُ ولَكنَّ أَخْلاقًا تَـذُمُّ وتَمْـدَحُ نَفْسَـــــــــــــــهُ

 يرمي جمْرةَ العقبة لا ضرْبَ ولا طَرْدَ، ولا قال: إليْكَ إليْكَ وتواضُعُكَ يا أمير المؤمــنين هذا خيرٌ لك من تكبُّرك.

فبكى الرشيد حتى جرتْ دمُوعُـه، وقـال: أحسـنت يا بُهْلُول زدْنا.

فقـال: أيُّما رجُل آتـاهُ الله مـالاً وجمـالاً وسـلطانًا فأنفق مالهُ وعفَّ جمالهُ وعدلَ في سُلطانه كُتب في ديوان الله من الأبْرَار.

فقال له الرشيد: أحسنتَ وأمرَ لهُ بجـائزة، فقـال: لا حاجةَ لي فيها رُدَّها إلى من أخذتها منه.

قال الرشيدُ: فنجـري عليك رزقًا يقـومُ بـك، فرفع البُهْلُولُ طرفهُ إلى السماء، وقال: يا أمير المؤمــنين، أنا وأنت عيال الله فمحُال أن يذكُرك وينساني.

جاء عبدالرحمن بن زيد رجلٌ من أهل بيته، فسألهُ أن يمُدَّهُ بشيء من المال معُونةً عل الــزواج، فأجابه بجواب يـدل على قِلـةِ ما سَيُسَـاعِدُهُ بـه، فلما مضى الرجل من عنده قال لصاحب خزانته: أعطه أربعمائة دينار فاستكثرها أحدُ من حوله، وقـال: لقد رددت ردًا ضـــعيفًا حـــتى ظننا أنك تُعطيه شـــيئًا قليلاً، فقـــال عبدالرحمن: أحبُّ أن يكون فعلي أعظم من قولي.

جاء يومًا بعض خــدم الخليفة المُعتضد إلى مجلس القضاء مع خصم له فترفَّع في المجلس على خصمه، فأمره حاجب القاضي يوسف بن يعقـوب أن يسـاوي خصـــمهُ فـــامتنع إدلالاً بجاهه عند الخليفة فزجـــره

القاضي، وقال: ائتوني بالدلال النَّخاس حتى أبيع هـذا العبد وأبعث بثمنه إلى الخليفة.

وجـاء صـاحب القاضـي فأخـذ بيـده وأجلسـهُ مـع خصْـمِه، فلمـا انقضــت القضــيَّة رجــع الخــادم إلى المعتضد فبكى بين يديـه، فقـال لـه: مالـك؟ فـأخبره بالخبر وما أراد القاضي من بيعه.

فقال: والله لو باعكَ لأجزتُ بيعهُ ولما اسـترجعتُك أبـدًا، فليس خصُوصِـيَّتك عنـدي تُزيـلُ مرتبة الشـرع، فإنَّه عمُودُ السلطان وقوامُ الأديان.

وذكـــروا أن أحد التجـــار قـــدم إلى العـــراق من خراسان فتـأهَّبَ للحَج وبقي معه ألف ديْنـار لا يحتـاجُ إليها.

فقــال: إن حَمَلْتُهَا خــاطرتُ بها وإن أودعتُها خفتُ جحدِ المُودع.

فمضى إلى الصـحراء فـرأى شـجرة خـروع فحفر تحتها ودفنها، ثم خـرج إلى الحج وعـاد فحفر المكـان فلم يجد شيئًا.

فجعل يبكي، فـإذا سُـئل عن حالــه؟ قــال: الأرض سرقت مالي، فقيل له: لو قصدتَ عضد الدولة، فـإن له فطنــةٌ فقصــده فــأخبره بقصــته، فجمع الأطبــاء، وقــال: هل تــداوي عنــدكم في هــذه الســنة بعُــرُوق الخرْوع أحدٌ؟

فقــال أحــدهُم: أنا داويت فُلانًا وهو من خواصــك، فقال: عَليَّ به، فجاء.

فقال له: هل تداويْتَ هذه السنة بعُـروق الخـروع، قال: نعمْ.

قال: من جاءك به؟ قال: فلان الفراش، قال: عليَّ به، فلما جاء، قال له: من أين أخذت عروقَ الخروع؟ فقال: من المكان الفلاني.

فقال: اذهب بهذا معك فأره المكان الذي أخذَ منه، فذهب بصاحب المال إلى تلك الشجرة، وقال: من هذه الشجرة أخذتُ.

فقال: هاهُنا والله تركتُ مالي فرجعَ إلى عضد الدولة، فأخبره، فقال للفراش: هلمَّ المال فتلكأ فأوعده، فأحضر المال.

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

ويروى أن المهدي الخليفة لما دخل البصرة رأى إياس بنَ مُعاوية وهو صبيٌ وخلفه جماعةٌ من العُلماء وإياسُ قُدامَهُم.

فقال المهدي: أما كان في هؤلاء شيخ يتقدمُهم غير هذا الحدث! ثم التفت المهديُ إلى إياس، وقال: كم سنُّكَ يا فتى؟

فقال: سني أطالَ اللهُ بقاء الأمير سِنَ أسامة بن زيد بن حارثة لمَّا ولاهُ رسول الله جيشًا فيهم أبو بكر وعُمر، فقال له المهدي: تقدَّمْ بُوركَ فيْكْ.

ويُروى أن يحيى بن أكثم وليَّ قضاء البصرة وسنُّهُ قريبًا من عشرين سنة فاستصغروه، فقالوا: كم سنُ القاضي؟ فقال: أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذي وجَّهَ به رسول الله قاضيًا بمكة يوم الفتح، وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجَّهَ به رسول الله قاضيًا لليمن، وأكبر من كعب بن سُوْر الذي وجَّهَ به عمر بن الخطاب قاضيًا للبصْرَةِ.

حَبَسَ أحدُ الملوك أحدَ الحُكَماء وأمَرَ أن لا يزيْدَ طعَامُه اليومي على قرصين من شعير، فأقام الحكيم على هذه الحالة دُوْن أن يتكلم، فأمر الملك أصحابه أن يسألُوه عن ذلك، فقالوا: أيُّها الحكيم، أنت في شدة وضيق ولم تتأثر صحَّتُك، فما هُوَ السببُ في ذلك؟

فقال: عملتُ ستة أخلاطٍ آخُذُ منه كلَّ يوم شيئًا:
الأول: الثقَّةُ بالله جل جلالهُ.
والثاني: علمي أن كل ما قدرهُ الله كائنٌ لا محالة.
والثـــالث: علمي أن الصَّـــبر خَيْـــرُ ما يســـتعملُه المُمْتَحَن.
والرابعُ: الثباتُ على الصبر.
والســادس: تــرويحي على نفسِــي في قــولي من ساعة إلى ساعَة فرجٌ، فبلغ الملكَ ذلك، فعفا عنه.
قال بعضهم: انتفعت بأعدائي أكثر مما انتفعت من بأصـحابي؛ لأن أعــدائي يُعيِّرُوْنَـني بالخطأ ويُنَبِّهُـونَنِي عليه فأتجَنَّبُه، وأصحابي يمدحُونني ويُزينُون لي الخطأ ويُشـــجِّعُونَنِي عليه بنفـــاقهم، وليْسَ كـــذالك يكُـــونُ الأصْحاب.

عُـــدَاتي لَهُم فَضْـــلٌ عَليَّ ومنـــــــــــــــــــةٌ ... فَلَا أَذْهَبْ الــرحمنُ عَــني الأعَاديا
هُمُــــوْا بَحَثُـــوا عن زلَّتي فاجْتَنَبْتُهَا ... وهُمْ نافسُـوني فاكْتَسَـبُتُ المَعَالِيَا

وقال آخر:
عَـــــدُّوْا عَليَّ مَعَـــــائِبي فَحـــــــــــــذِرْتُها ... ونَفَيْتُ عن أخْلَاقِي الأقـــــــــــــــــــذَاءَ
ولَرُبَّمَا انتفَعَ الفَتَى بِعَدُوِّهِ ... كَالسُمِّ أَحْيَانًا يَكُونُ شِفَاءَ

وقال آخر: لا خير في القول إلا مع العمل، ولا في الفقه إلا مع الـــورع، ولا في الصـــدقة إلا مع النية الخالصة.
ولا في المــال إلا مع الجــود فيما يرضى اللـــه، ولا في الصدق والوعد والعهد إلا مع الوفاء.
قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ومعلـوم عند الخاصة و العامة أن فتنة سـماع الغنـاء والمعَـازف أعظم من فتنة النَّوْحَ بكثير.

والـذي شـاهدناه نحن وغيُرنا وعرفنَا بالتجـارب أنه ما ظهــرت المعــازفُ وآلات اللهو في قــومٌ وفشــتْ فيهم واشتغلُوا بها إلا سَلَّطَ الله عليهم العدو.

ويُلُو بالقُحْط والجُدب ووُلاة السُــوء والعاقل يتأمل أحوال العَالَم وينظُر، والله المستعان.

وقال شيخنا عبدالرحمن الناصر السـعدي ــ رحمه الله ــ: اعلمــوا رحمكم اللــه، أن المعــازف والغنــاء وآلات اللهو من المحرمات.

فاجتنبوهـا، فقـد جـاءت نصـوص الشـر بتحريمهـا وحذر منها العلماء وحرموها.

وقد تهاون بذلك بعض الذين يفتحــون الراديو على إذاعات العزف والغناء وذلك لا يحل ولا يجوز.

وفيه مفاسد وشرور كثيرة تصد القلوب عن الخير وترغبها في الشـــر، ويــؤذون المــارين والســامعين والجيران.

فمن فتح على الغنــاء والمعــازف، فقد بــاء بإثمه وإثم كل من سمع.

يقــول ســبحانه وتعـالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْـتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾. والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل

قـال شـيخ الإسـلام: فالعبد لابُـدَّ لـهُ من رزق وهو مُحتاجٌ إلى ذلك، فإذا طلب رزقهُ من الله صـارَ عَبْـدًا لله فقيرًا إليه، وإذا طلبهُ من مخلُوقٍ صار عبدًا لـذلك المخلوق فقيرًا إليه؛ ولهذا كـانت مسـألة (المخلُـوق) أي سؤاله (مُحرمة) في الأصل.

وإنما أُبيْحَتْ للضَّــرُورةِ، وفي النهي عنها أحــاديث كثيرة.

وقال ـ رحمه الله ـ: ولنْ يســتغْن القلبُ عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون اللـهُ هُو مـولاهُ الـذي لا يعبُد إلا إيَّاهُ ولا يستعين إلا به.

ولا يتوكل إلا عليه ولا يفـــرح إلا بما يُحبُه ويرضـــاه ولا يكره إلا ما يُبغضهُ الربُ ويكْرِهُهُ.

ولا يوالي إلا من والاه الله ولاَ يعادي إلا من عـاداهُ اللهُ.

ولا يُحبُ إلا لله ولا يُبغضُ شيئًا إلا لله ولا يُعطي إلا لله ولا يمنعُ إلا لله.

فكلما قـــــــوي إخلاصُ دينه لله كَمُلتْ عُبُوديتُه واستغناؤهُ عن المخلوقين.

وبكمـــــال عُبوديته لله تكمل تبرئتُه من الكـــــبر والشرك.

والشرك غـالب على النصـارى والكـبر غـالب على اليهود.

قـال الله تعـالى في النصـارى: ﴿اتَّخَـذُوا أَحْبَـارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَــرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وفي اليهـود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَـاءَكُمْ رَسُـولٌ بِمَا لاَ تَهْـوَى أَنفُسُـكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

وقال ـ رحمه الله ــ: أرجح المكاسب التوكـلُ على الله تعـالى والثقة بكُفْيَتِـهِ وحُسْـنُ الظن بـه، ويأخـذُ المال بسخاوة نفسٍ من غير أن يكــون له في القلب مكانــة؛ ولكن يســعى في تصــليحه وتنميته لإقامة ما عليه من واجبـــات ومســـتحبات وللاســـتغناء به عن الخلق.

وقـال ابن القيم ــ رحمه الله ــ: أعجبُ العجَب أن تعرفَ الله ثم لا تحُبُه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قـدْرَ الـربح في مُعَامَلته ثم تُعَامِل غَيْـرَهُ، وأن تعـرف قـدْر غضـبه ثم تتعـرض لـه، وأن تــذُوق ألم الوحشة في معصــيته، ثم لا تطلبُ الأنسَ بطاعته.

وأعجب من هـــذا علمك أنَّك لابُـــدَّ لك منه وأنك أحوج شيء إليه وأنت عنه مُعْـرِض وفيما يُبعـدك عنه راغب. اهـ.

فوائد جمة:

من أهــان خمســةً خسر خمســةً، ومن اســتحفَّ العُلماء خسر الدين.

ومن استخفَّ بالأمراء خسر الدنيا.

ومن استخفَّ بالجيران خسرَ المنافع.

ومن استخفَّ بأهله خسرَ طيبَ المعيشة.

روي عن النــبي أنه قــال: «لا يُعْطِي اللــهُ لأحَــدٍ خْمسًا إلا وقَدْ أعَدَّ لَهُ خمسًا أخرى: لا يُعْطِيْـهِ الشـكرَ إلا وقَدْ أعَدَّ لَهُ الزيادَة، ولا يُعْطِيه الدُّعَاء إلا وقدْ أعَـدَّ لَـهُ الاسْـتجَابَة، ولا يعطيه الاسـتغفار إلا وقد أعَـدَّ لَـهُ الغُفْران، ولا يُعْطِيه التوبة إلا وقد أعَدَّ لَهُ القَبُـول، ولا يُعْطِيه الصُّدقَةَ إلا وقد أعَدَّ لَهُ التَّقَبُّل».

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصـــــحبه وسلم.

فصل

اعلم وفقنا الله وإيــاك أن من أكــثر ذكر المــوت وزيـــارة المستشــفيات والمستوصــفات والمقـــابر والمرضى استفادة عدّة فوائد:

الأولى: المبادرة على التوبة.

الثانية: القناعة بالرزق اليسير.

الثالثة: النشاط في العبادة.

الرابعة: الوصية.

الخامسة: ترجيع العواري.

السَّادســة: أداء الحقــوق الــتي عليه لله أو لخلق الله.

الســـــابعة: اســـــتحلال من بينه وبينه مُعاملة أو مخاصــــمة قديمة أو حديثة من جــــار أو زوجــــة، أو مُعَامل، أو صديق، أو شريْكٍ، أو أجير، أو نحو ذلك.

شعرًا:

وَرُبَّ نِيَــامٍ في المقــابرِ زُرْتُهُمْ بَمُنْهَلِّ دَمْعٍ لا يُنَهنَهُ بالزَّجْرَ
وقَفْتُ على الأجْـــــدَاثِ وقْفَـــــةَ عَاشِـــــقٍ على الــدار يَــدْعُو دَارسَ الطَّلَـــــلِ القَفْــــرِ
فما سَـــالَ فَيْضُ الــدَّمْعِ حَتَّى قَرَنْتُـــــــــهُ إلى زَفَراتٍ قَـدْ تَصَـاعَدْنَ مِن صَــــــــدْرِي
أسُـــكَانُ بَطْن الأرضِ هلَّا ذَكَـــــــــرْتُمُ عُهُودَا مَضَــتْ مِنكُمُ وأنْتُم عَلى الظَّهْــــــــــرِ
رَضيْتُمْ بأكْفَـانِ البِلىَ حُللاً لَكُمْ وَكُنْتُم أولى الـــــدِّيْبَاجِ والحُلَـــــلِ الحُمْــــرِ
وقَـدْ كُنْتُمُ تُـوذِي الحَشَـايَا جُنُـــــــــوبكُم فكَيْـفَ رَقَـدْتُم والجُنُـوبُ على الصَّـــــــخْرِ
ألا يَا قُبُـــورًا زُرْتُهَا غَيْـــرَ عَــــــــــارفٍ بهَا سَــاكِنَ الصَّـحْراءِ من سَـــاكِنِ القَصْــــرِ
لَقَدْ حَارَ فِكْرِي في ذويْـكِ وإنَّهُ لَيَحْتَـارُ في مَثْـوىَ ذَويْـكِ أُولُـــــوْ الفِكْــــرِ

لا تحملْ ما لا تطيق، ولا تعملْ عملاً لا ينفعُــك، ولا تغتر بالمرأة وإن كـانتْ عفيفـةً، ولا تثِـقْ بالمـال وإن كثُر.

السُعاة والنمامُون لصوص المـودات فاحـذرهم، لا تُصدِّقْ كثير الحلف وإن اجتهد في اليمين، واحـذر كل الحــذر من الخـدامين والخـدامات والسـائقين غـير المؤمنين.

من قصَّر في حقك قبلَ أن يعرفكَ فلا تَلُمْـهُ، قـال بعضـهم موصـيًا: عليك بـالعلم لا تبغي به بـدلاً، **ثانيًا**: الحلم، **ثالثًا**: التقـــوى، **رابعًا**: الثقة بالله والاتكـــال عليه في جميع الحــــالات، **خامسًــــا**: الإخلاص في العمل، **سادسًا**: القناعة بما قسم الله لــك، **سابعًا**:

الصـدق، والوفـاء بالوعد والعهـد، **ثامنًا**: الإلحـاحُ في الدعاء في أوقات الإجابة، وتقدم ذكرها.

شعرًا:

وَلَيْسَ بمَنْسُــــــوبٍ إلى العِلْمِ وَالحِجَا ... فَتًى لا تُـــــرىَ فيه خَلَائِقُ أربَـــــــــــــــعُ

فَواحِدَةُ تَقْـوى الإلـهِ الَّتي بها ... يُنَـــــالُ جَسِــــيْمُ الخَيْر والفَضْــــلُ أجْمَــــعُ

وثانِيةٌ صِـدْقُ الحَيَـاءِ فَإنَه ... طبــاعٌ عَليه ذُوْ المُــروُءة يُطْبَــــــــــــــعُ

وثالِثُهَا حِلْمٌ إذَ الجَهْــــلُ أطْلِعَتْ ... إلَيْـــهِ خَبَايًا مِن فُجُــــورٍ تَسَــــــــــــرَّعُ

ورابعةٌ جُودٌ بمُلْـكِ يَمِيْنِـهِ ... إذَ نَابَه الحَـقُ الـذي لَيْسَ يُـــــــــــــدْفَعُ

فصل

نُبْــذَةٌ مما جـــرى لأوليـــاء الله من المِحَن والقَتِل والضـرب مِن الظلمة والطُغـاة والمُجـرمين جـازاهُم الله بما يستحقون.

لما قتل الحجاج بنُ يوسف عبدالله بن الزبـير، أمر بخشبةٍ فصلبه عليها، فلما أقبلت أمُّهُ أسماءُ بنتُ أبي بكر الصـــديق ـــ رضي الله عنهما ـــ إلى الخشـــبة فعانقتها وجلست تبكي، وتقــول: واغوثـــاه، يا لله ما أعظم ما نــزل بنا بعـدك يا محمد يا رسـول اللــه، لو تُــدرك ما نـــزل بعـــدك بأصـــهاركَ وأرْحَامك وأبنـــاء المهاجرين لرأيتَ أمرًا عظيمًا.

اللهم فبلغ عنا نبيك في عظيم ما نزل بنا، فأخبر بمقالتها عبدالله بن عُمـر، فبكى حـتى كـادتْ نفسُـه تفيض، ثم قــال لابنــه: قُــدني إليها وقد كَبُــرَ وكــان يرتِعش من الكبرِ، وكـانت قد عُمِّر فقـاده ابنـهُ إليهـا، فلما أشـرف على الخشـبة نظر إليه مصـلوبًا، قـال: سمعتُ رسول الله يقول: «لَيَقْتُلُني أمِيْرٌ جَائِر على

طَاعَة أحَبُّ إليَّ من أمُوتَ مُجاهـدًا في سـبيل الله»، فأتى شقيٌ من الأشقياء، فبلَّغ ذلك إلى الحجاج، فبلغ منه قـولُ ابن عمر كـلَّ مبلـغ، فـركب إلى خشـبة بن الزُبــير فأصــاب أمــهُ عنــدها تبكي وابن عُمر وابنه سالمًا، فقال: ليْس مِثلُه يُبكى عليه، فقال ابنُ عمــر: قــومي، فقـامت ولم تكلِمْـهُ وانصْـرَف ابنُ عُمر إلى منزله.

فدعا الحجاج رجاله، فقـال: إن ابن عُمر بن خليفة وصاحبُ رسول الله ﷺ وأخـاف إن خرجنا أن يسـتحل مِنَّا ما استحَل ابنُ الزير وعُلمـاءُ العـراق، قـالوا: فما ترى؟ قـال: هـذا أعظم مما كـان منَّا إنما عمـدنا إلى جبل الإســـــلام وحــــــاجب محمد ومن عُرضت عليه الخلافة فلم يقبلهـــــا، ومن حج أربعين حجـــــة، ومن سمتهُ قـريش حمامة الـبيت يُريد ابن عمـر، وقَـدْرُهُ في العـــرب كما علمتُم وحُبُّ الأوسِ والخـــزرج لأبيه عُمر بن الخطاب، نعوذُ بالله من الظُّلمة وأعْوانَهم.

فبعث الحجاجُ غلامهُ أن يركب فرسًا جامحًا وأمرهُ أن يطحنهُ بالفرس ويقتله.

فـــركب الغُلام الفـــرس فنظر إلى ابن عمر وهو سائرٌ يومَ الجمعة فحمل عليه وصدمهُ ورضَّـهُ، فبـادر النـاس إليـه، وقـالوا: يا غُلام، أهلكت المُسـلمين في علمهم، فطلبك الله وأقام الحجاجُ ينتظر موتَه.

فلما أبطأ عليه عمد إلى الحديدة الـتي في الـرمح فســمَّهَا سُــمًا ناقعًا وجعلها في عصــا، وقــال لأحد رجاله: ضعُه على ظهر قدمِهِ واتكئ عيه حتَّى يـدخُل، فإنت قال: أهلكْتَني، فقل: ما عَلِمْتُ أن رجْلَكَ هاهُنَا، ففعل ذلك ثم خرج عنه فاشتعل جسدُ ابن عُمَر سُمًا فأقام ثلاثة أيام فمات، رحمةُ الله عليه.

ودخل الحجــاج على ابن عمر يعُــوده قبل موتــه، فقال ابنُ عُمر: أنت قتَلْتني، حسبنا الله ونعم الوكيل.

ومن الـذين آذوا في سـبيل الله وقتلـوا سـعيد بن جبير وقصته أشهر من تذكر فلا نطيل بـذكرها، وكـان قد دعا من قبل أن يذبحــهُ الحجــاج، فقــال: اللهم لا تُسلِّطْه على أحدٍ يقتُلهُ بعدي.

وقيل: إنه عـاش بعد قتله لسـعيد سـتة عشر يومًا فقط وقعتِ الآكلة في بِطنِـه، وكـان ينـادي في بقية حياته مـالي ولسـعيد بن جبـير كُلَّما أردْتُ النـوم أخذ برجْلي.

وقيـل: دعا عليه بـالزَّمهرير الـبردِ العظيم، فكـانُوا يجعلـون حوله الكـوانِين تلتَهبُ جمـرًا مع ما عليه من الثياب التي يُدَثِّروْنَه بها.

فما زالَ في العـــذاب الأليم، ثم أرسل في طلب الحسن البصري التابعي المشهور، فأتاه واشتكى إليه ما نزل به من الألم، فقال: قد نهيتُك مرةً بعد أخــرى لا تتعـرَّضْ للصَّـالحين، ولا تكن منهم إلا بسـبيل خـير، فأبيت ولججت ﴿**لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً**﴾.

وذكر في كتـاب «المحن»: أن الحجـاج أرسل إلى أبي صالح ماهان المُسبِّحُ، فلما أتاه، قال: بلغني عنك صلاحٌ وخيرٌ وإني أريدُ أن أولِّيُكَ القضاء.

قـال لَـهُ: أنـا، قـال: نَعَمْ، قـال: أنا لا أحُسِـن أعُـدُ عشرة، قال: يا مُـرائي علي تَتَبَالَـهْ، وقـال: والفُـراتُ قدْ مَدَّ فَعَدا من بين يديه وهو شـيخ كبـير يجنح حـتى وقــفَ على جُــرْف الفُــرات، فقــال: اللهم إن كنتُ مُــرائي كما زعم الحجــاج فغرقــني، قــال: فــرمى بنفسه، فقام على متن الماء فلم تغِبْ قـدماهُ، قـال: فوالله ما نَهْنَهَهُ ذلك فأخذهُ وصلبَه على بابه.

وممَّن ضــرب مالك بن أنس وذلك أن الحُسَّــادَ دَسُّــوْا إلى أبي جعفر بن سـليمان، من قـال لـه: إن مالكًا يُفــتي النـــاس أن أيمـــان البيعة لا تلـــزمهم لمخالفتك واستكارهك إيَّاهُم عليها.

فَدسَّ عليه جعفر من يسأله عن ذلك فأفتـاهُ مالك طُمأنينـةً إليه وحسـبة منـه، فجـاءهُ رسُـولُ جعفر بن سليمان، وأتى به مُنْتِهك الحُرْمَةِ مُهانًا فـأمر به جعفر فضربه سبعين سوطًا.

ومن ما جرى على عبدالله بن عون البصري الـذي قيل ما كان بالعراق أعلم بالسُّنة منه.

وكان ورعًا تزوج امرأة عربية فضـربه بلال بنُ أبي بردة عشرة أسواط، وقـال لـه: انـزل عنهـا، قـال: لا أفعــل، فقــال له بلال: والله لا أبــرح أضــربك حــتى تطلقها.

فقــال ابن عــون: والله لا أبــرح أصــبر ولا أطلقها حتى أعْجز، قال: وكـان رجلاً نحيفًا لا يحتمَل الضـرَّب بالسوط، قال: فضـربه أيضًـا عشـرة أسـواط، وقـال بلال: هو ما ترى.

قال: فأمر به فضرب عشر أسـواط، وقـال: يا ابن عون، هو ما ترى حتى تطلُقِها، قال: هي طالق، قال: بتتها.

وممن أمتحن عطــاء بن أبي ربــاح وذلك أن رجلاً أتى من الحجاج إلى مسجد بمكة.

فنــام فكشــفت الــريح الثــوب عن بطنــه، فظهر جراب الفلوس فمر به أصحابه فخـافوا عليه فـنزعوا الجراب.

وبعد قليل انتبه الرجل فنظـر، فـإذا جرابه مـأخوذ فنظر يمينًا وشمالاً فلم يـرى حولُه إلا عطـاء بن أبي رباح قائمًا يُصلي.

فجاءهُ فأخذ بتلابيبه وضيَّق عليه، وقال له: يا عــدوَّ اللـــــه، فعلت الــــذي فعلتَ بي! فلمَّا رهقتُك قُمت تُصلي.

فقـال لـه: ما بالُك يا هـذا؟ قـال: منطقـتي حللتها (أي الجراب) قـال لـه: وكم فيهـا؟ قـال: مائتا دينـار، قال: فهل سمع بهذا غيرُك؟ قال: لا.

قال: فاذهب معي حتى أعطيك ما ذهب لك، قـال: فـذهب فَعَـدَّ لـهُ مـائتي دينـار، فـذهب إلى أصـحابه فأخبرهم الخبر.

فقـالوا لـه: ظلمتَ والله الرجل كـان من قصـتنا كيت وكيتَ، ثم حللنا عنك خوفًا عليها وها هي هذه.

فقامُوا بأجمعهم إلى الرجُل فوقفُوا عليه، فسـألوا عنـه، فقيـلَ لهُم: هو عطـاء بن أبي ربـاح فقيـهُ أهل مكة وسيدِّهم.

فاعتـذروا إليه وسـألوهُ أن يجعل الرجل في حَـلِّ ويقْبَلَ الدَّنَانِير.

فقال لهم: هَيْهاتَ ما كـانت بـالتي ترجَع إليَّ اذْهَبْ فأنْتَ في حِل وهَي لك.

شَـــمَّر عَسَـــى أنْ يَنْفَـــعَ التَّشْـــمِيرُ ... وانْظُــرْ بِفِكْــرِكَ ما إليْــهِ تَصِــيْرُ
طوَّلْتَ آمالاً تكَنَّفَهَا الهَوَى ... ونِسـيتَ أنَّ العُمْـرَ منـكَ قصِــيْرُ
قد أفْصَــحَتْ دُنْيَــاكَ عن غـــدَرَاتِها و ... أتَى مَشِــيْبُك والمَشِــيُبُ نَــذِيْرُ
دَارٌ لَهَـوْت بِزَهْوهَا مُتَمَتِّعًا ... تَرْجُــوْ المقــامَ بهَا وأنْتَ تســيْرُ
واعْلَمْ بأنــكَ رَاحِــلٌ عَنْهَا ولَــوْ ... عُمِّرْت فيها مَا أقامَ ثَبِيْـرُ
لَيْسَ الغِنَي في العَيْشِ إلا بُلْغَـــةَ ... ويَسِيْر ما يَكْفِيْكَ منه كَثِيْرُ
لا يَشْــغَلَنَّكَ عَاجِــلٌ عن آجِــلِ ... أبَــدًا فَمُلْتَمِسُ الحَقِيْــرِ حَقِيْـرُ
ولَقَـدْ تَسَـاوَى بَيْنَ أَطْبَـاقِ الـثرَّى ... في الأَرْضِ مـــأمُوْرٌ بهَا وأمِيْـرُ

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصــحبه وسلم.

فصل

بعث أبو جعفر في طلب أبي عبدالله جعفر بن محمد الصـادق، فقيل لـه: إن أمـير المؤمـنين متغيظ عليك فـدخل وهو يُحـرِّكُ شـفتيه، فلما رآه أبو جعفر نهض إليه واعتنقهُ وأجلسَه معه ثم عانقه، وقـال لـه: يا أبا عبدالله، ما هذا الـذي يبلغُـني عنك لقد هممتُ؟ فقال له: إن أيوب ابْتُلي فصـبر، وإن سـليمان أعطى فشكر، وأنت من ذلك النَسْج.

قال: فيُرفـعُ إليَّ أن الأمـوال تُجْبَى إليك بلا سَـوُطٍ ولا عَصَا، ثم أمر بالرافع فأحْضِرَ.

فقال أبو عبدالله: أحقًا رفعتَ إلى أمير المؤمـنين، قال: نَعَمْ، قال: فاستحلفهُ يا أمير المؤمنين، قال أبــو عبدالله: رد اليمين عليه.

فقال أبو جعفر: احلف، فقال: والله الذي لا إله إلا هو، فقال له أبو عبدالله: ليس هـو كـذا، إنَّ العبـد إذا مجَّد الله في يمينه أمهلهُ في العُقُوبة؛ ولكن قُلْ: أنــا بريءٌ من الله، واللهُ بريءٌ مني، وأنا خارجٌ من حــول الله وقوته راجعٌ إلى حول نفسي وقوتها.

قـال: فحلف فوالله ما رُفع إلا ميتًـا، فـراع ذلك أبا جعفر، وقال: انصـرف يا أبا عبداللـه، فلسـتُ أسـألُك بعدها.

وسُــئل عمَّا حــرَّك به شــفتيه حينما دخل عليــه، فقال: قلتُ: اللهم بك استفتح وبك استنتج اللهم ذِلل حزونته وكل حزونة وسهِّل لي صعُوبته وكلَّ صُعُوبة.

اللهم أعطني منه من الخير ما أرجو واصرف عني منه من الشر ما أحــذر، فإنك تمحُو ما تشــاءُ وتثبتُ وعندك أمُّ الكتاب ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كان صفوان بن سيم قد كفَّ بصرةُ في آخر عمره فبينما هو ذات يوم بالسوق يُقـاد إذ دخل بلال بن أبي بُردة فسمع الطريق والجلاوزة بين يديه.

فقال: ما هذا؟ فقيل: بلال، فقال: سـحائب صـيف عن قريب تقشع فسمعه بلال.

فقال: والله لأذيقنَّكَ مِن بَرْدكَ شُـؤْبُوْنَا، فلما نــزل بهيكله بعث في طلبه ثم ضـربهُ بالسِّـياط نعـوذ بالله من الظلمة وأعوانهم.

عن مالك بن أنس أنه قـال: لو قْيـلَ لصـفوان بن سليم غـدًا يـومُ القيامة ما قـدر على أن يزيد على ما هو فيه من العبادة شيئًا.

ومن ذلك ما امتحن به أبو مســـلم الخـــولاني لما ألقي في النـــار وذلك أن الأســـود العنسي تنبأ اليمن فدعا أبا مُسـلم الخـولاني، فقـال: اشـهد أني رسـول الله، قال: لا أسـمع، قـال: أشـهد أن محمـدًا رسـول اللـه، قـال: نعم، فـأمر الأسـودُ بنـار فقـذَفَ فيها أبا مسلم فخرجَ يرشَحِ عَرقًا، فقيل للأسود: إنفه عنك لا يُفْسدُ عليك النـاس فـأخرجُوهُ ثم قـدم المدينـة، وبها أبو بكر وعُمر ـ رضي الله عنهما ـ.

فقــال له عمــر: من أين أقبل الرجُـل؟ قــال: من اليمن، قـال: ما فعل الرجـلُ الـذي أحرقـهُ الكـذاب؟ قال: ذلك عبـدُ الله بنُ ثـوب، قـال له عُمـر: أنشـدُك بالله أنت هُـر؟ قـال: نعم، قـال: فأدخله وأجلسه بينه وبين أبي بكر، وقال: الحمدُ لله الذي أراني في هــذه الأمة مَن فُعِـــلَ به مثـــلَ مَا فُعـــلَ بـــإبراهيم خليل الرحمن.

وممَّنْ قُتِـلَ صـبرًا كُميل بن زيـاد النخعي الكُـوفي كان شجاعًا زاهدًا قتلهَ الحجـاجُ بنُ يُوسـف، وذلك أن الحجـاج نقم عليـه؛ لأنه طلب من عثمـان بن عفـان القِصَـاص من لطمــةٍ لطمها إيَّاه، فلما مكَّنَـهُ عثمـان من نفسه عفا عنه.

فقـــال له الحجـــاج: أو مثلـــكَ يســـألْ مِن أمـــير المؤمنين القصاص! ثم أمر به فضربت عنقـهُ، نسـأل الله العافية.

وذكر أن ريـــاح بن يزيد على أتانه في ســـفر إذ غشيتهُ السَّلَابةُ (أي قطاع الطريق) وهو يسِيْرُ فأخذوا أتانَهُ ونزعُوا ثيابه إلّا واحدًا ثم ذهبوا عنه.

فمـال ريـاح إلى موضع فـأحرمَ بتكبـيرةٍ ثم أقبل يُصلي فبينما هُو يُصلي إذا أظلمت السماء فلم تدْري السَّلابةُ أيْنَ يتوجَّهُون.

فلمَّا طَـوَّل في الصـلاة، قـالوا: أحسـنْ صـلاتَكَ يا عبدَالله أما تَـرى ما نَـزَل بنا ولا نَحْسِـبُ ذلك إلَّا من أجْلِكَ.

فَسـلَّم ثم التفت إليهم، فقـال: ما تريُـدُوْنَ أخـذْتُوا ثيابِي وحماري فَرَدُّوا عليه ثيابه ودابتهُ فـانجلتْ عَنهم الظُلمة.

فرغبُـوا عند ذلك إليه وسـألوهُ من هُو وأقسـمُوا عليه، فقال لهم: رياح بن يزيد.

طَـــالِعْ تَـــواريْخ مَن في الـــدهرِ قد وُجـــدُوا	تَجِدْ خُطُوْبًا تُسَلِّيْ عَنْكَ مَا تَجـــدُ
تجدْ أَكَـابرَهُمْ قَـدْ جُرِّعُـوا غُصَصًـــا	مِنَ الرَّزَايا بِهَا قَـــدْ فُتِّتَتْ كُبُـــدُ
عَـــزْلٌ ونَهْبٌ وضَـــرْبٌ السِّـــياط يَلِيْ	حَبْسٌ وَقَتْلٌ وتَشْـرِيْدُ لِمَنْ زَهِـــدُوْا
وإنْ وُقِيْتَ بحَمْد اللـــهِ شِـــرَّتَهُمْ	فَلْتَحْمـدِ اللـهَ في العُقْبَى كَمَنْ حَمِـــدُوْا

آخر:

إنَّ الشَّـدَائِدَ قَـدْ تَغْشَـى الكَـــرِيْمَ لأنْ	تُـــبيْنُ فَضْـــلَ سَـــجَيَاهُ وتُوْضِـــحُهُ
كَمُبْـــرِد القَيْنِ إذْ يَعْلُـــوْ الحَدِيْـــدَ بِـــهِ	وليْسَ يأكُلـهُ إلَّا لِيُصْـلِحَهُ

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصـــحبه وسلم.

فصل

قــال ابن القيم: ومن تجريبــات السَّــالكين الــتي جرَّبُوْهَا فألفَوْهَا صــحيةً أن من أدمنَ (أي أكــثر) من قول: «يا حيُّ يا قيوم لا إله إلا أنت» أورثهُ ذلك حيـاة القلب والعقْل.

وكان شيخ الإسلام شديدَ اللَّهْج بها جـدًا، وقـال لي يومًا لهــذين الاســمين وهما «الحي القيــوم» تــأثير عظيم في حياةِ القلْب.

وكأنَّه يُشـــير إلى أنهما الاسم الأعظم، وســـمعته يقول: من واظب على أربعين مرة كل يوم بين سُـنَّةِ الفجر وصـــلاة الفجر «يا حَيُّ يا قيـــوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث» حَصَلتَ لـهُ حيـاةُ القلبِ ولم يمتْ قلبُه.

قـال العلمـاء: اعلم أنه لا يقـفُ على الـدواء من لا يقفُ على الداء إذْ لا معنى للدواء إلا مناقضةُ أسـباب الداء ولا يبطل الشيء إلا بضده.

وسببُ الإصـرار الغفلة والشـهوة ولا تضـادُ الغفلة إلا بـالعلم، ولا تُضـادُّ الشَّـهْوةُ إلا بالصـبر على قَطْـعِ الأسْبَابِ المُحَرِّكَةِ للشَّهوة.

والغفلة رأس الخطايا فلا دواء إذًا للتوبة إلا بمعجُونٍ يُعجن من حلاوة العلْم ومرارة الصَّبْر.

والأطبـاءُ لهـذا المـرض هم العُلمـاء؛ لأنه مــرضُ القُلــوب ومــرض القلــوب أكــثر وأعظم من مَــرَض الأبدان.

وذلك لأمـور: أحـدها: أن مـرض القلب بالـذُنُوب لا يدرى صاحبه أنه مريض.

الثاني: أن عاقبته غـير مشـاهدة في الـدنيا بخلاف مرض الأبدان فـإن عاقبته مـوت مشـاهد ينفر الطَّبْـعُ عنه.

وما بعد المــوت غــير مشــاهد، فقلَّتِ النفــرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها.

فلـــذلك تـــراه يتكل على فضل الله في مـــرض القلب.

ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال.

والأمر الثـالث: وهو الـداء العضـال، فقد الطـبيب، فـإن الأطبـاء هم العلمــاء، وقد مرضــوا في هــذه الأعصــار مــرضٌ مخُــوفْ؛ لأن الـداء المهلك هو حب الدنيا ومع الأسفِ الشديد أنَّهُ قد غلَبَ هذا الداءُ على الأطبـاء أي العلمـاء، فلم يقـدروا على تحـذير الخلق خوفًا من أن يقـــال لهم: فما لكم تـــأمرون بـــالعلاج وتنســون أنفســكم أما تقــرؤون قــول الله جل وعلا وتقدس: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لِمَ تَقُولُـونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُـونَ﴾ فبهذا السبب عمَّ الداءُ وانقطع الدَّواءُ.

القائل في القــرن الخــامس فكيف لو رأى أكــثر علمــاء هــذا العصــر، وما هم فيه من التكــالب على الدنيا وإهمالهم القيام بما أوجب الله عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والنصيحة لله ولكتابه ورسوله والأئمة والمؤمنين.

قـال العلمـاء: من نتـائج المعصـية قلة التوفيـق، وفساد الرأي، وخفاء الحـق، وفسـاد القلب، وخمـول الذكر وإضاعة الـوقت، ونفـرت الخلـق، والوحشة مع الــرب وقلَّة السَّــداد وتشــتيتُ الفكــر، ومنع إجابة الــدعاء، وقســوة القلب، ومحق البركة في الــرزق والعمر، ولِبَاس الذل، وضيق الصدر.

كيف يسلم من له زوجةُ لا ترحمه، وولد لا يَعْـذُرُه، وجار لا يأمنه، وصاحب لا ينصحه، وشـريكٌ لا يُنصـفُه، وعدوٌ لا ينام عن مُعاداتِهِ، ونفسٌ أمَّارةٌ السُــوء، ودُنيا مُتزيِّنة، وهوىً مُرْدِي، وشهوةٌ غالبةٌ لَهُ، وغضبٌ قاهرٌ، وشيطان مُزَيِّن، وضعْفٌ مستولٍ عليه، فإن تولاه اللهُ

وجَذَبَه إليه انقهرت له هذه كُلُها وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه اجتمعتْ عليه فكانت الهلكة.

الرأيُ أخْذُكَ بالحَزَامةِ في الـــــــذي ... تَبْغي فَقَصْــــرُكَ مِيْتَــــةٌ وذَهَـــــــابُ
غَلَبَ الفَسَادُ على العُقولِ فَكُــــذِّبَتْ ... صُـــدْقُ الأنـــامِ وصُـــدِّقَ الكَـــــذَابُ
ضَرَبُوا الجَمَاجِمَ بالسُيُوفِ على الـــــذي ... يَفْنَى وطَــال عَن الهَــوَى الإضْــــرَابُ
وتَغُرُّنَا آمالُنَا فَنَخَالُهَا ... مَاءً يَمُـوْجُ وكُلُهُنَّ سَـرَابُ

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصــحبه وسلم.

موعظة لابن الجوزي

اسع يا غائب في صلاته، يا شتيت الهم في جهاتــه، يا مشــغولاً بآفاته عن ذكر وفاتــه، يا قليل الــزاد مع قُربِ مماته.

يا من يَرحَــلُ عن الــدُنيا في كُــلِّ لحظــةٍ مرحلــة، وكتابــهُ قد حــوى حتَّى مقــدارَ الخرْدَلَــةْ، وما ينتفــعُ بالنَّذِيْرِ والنُذُرُ مُتَّصِلةْ.

وما يرعوي لنَصِيْحٍ وكم وقد عذله، ودرعه متخرقـةٌ والسهامُ مُرسـلة، ونـور الهُـدى قد يُـروى وما رآه ولا تأمله، وهو يأمل البقاء وقد رآى مصيرَ من أمَّلَهْ.

وأجله قـــددني ولكن أملـــهُ قد شـــغله، وقد عكف على العيب بعد الشـيب بصــبابةٍ ولــهْ، ويحضــرُ بدنه في الصلاة، وأمَّا القلبُ فقد أهملَه.

كُنْ كيف شـئت فــبين يــديك الحســاب والزَّلْزَلَــةْ، ونعِّمْ جِسْمَكَ فلابُدَّ للدُّوُدِ أنْ يأكُلَهْ.

يا عجبًا من فُتُور مُـؤمنٍ بـالجزاء والمسـألة، أيقينٌ بالنَّجـــاة أم غُـــرورٌ ويلـــه! بـــادر ما بقي من عمـــرك واستدركْ أوَّلَهْ، فبقية عُمر المؤمن لا قيمة له.

ومُسْنَدُونَ تَعـاقَروا كـأسَ ... ودَعَا بِشُـــرْبهمُ الحِمَــــامُ

الـــــــــــــــــرَّدَى فأسُــــــــــــــرَعُوْا
بَــرَكَ الزَّمـــانُ عَلَيْهمُـــوْا بجِرَانِـــــــــــــــــهِ
وهَفَتْ بِهم رِيحُ الخُطُــوب الزَّعْــــــــــــــــزَعُ
خُرُسٌ إذَا نَـادَيْتَ إلَّا أنَّهُمْ وعَظُــوْا بِمَا يَــزِعُ اللِـبيْبَ فَأَسْـــــــــــــــمَعُوا
والــدَّهْرُ يَفْتِــكُ بــالنُفُوسِ حِمَامُــــــــــــــــــهُ
فَلِمَنْ تَعَدُّ كَرِيْمَةٌ أَوْ تُجْمَعُ
عَجَبًا لِمَنْ يُبْقِيْ ذَخَــــائِرَ مَالِــــــــــــــــــهِ
ويَظَـــلُّ يَحْفَظُهُنَّ وهْـــوَ مُضَــــــــــــــيَّعُ
ولِغَافِـلٍ ويَـرَى بكُـلِّ ثَنِيَّةٍ مُلْقًى لَـهُ بَطْنُ الصَّـحَائِفِ مضْــــــــــــــجَعُ
أتـــراه يحْسُـــب أنَّهُم مَا أسْـــــــــــــــأرُوْا
من كَأسِـــهِ أضْـــعَافَ مَا يَتَجــــــــــــــــرَّعُ

عبادَ اللهِ كَمْ أخْلى المـوتُ دارًا، وتـركَ المعمُـور قِفَــارًا، كم أوقد من الأسف في الجــوانح نــارًا، وكمْ أذاقَ الغُصَصَ المُرَّة مرارًا.

لقد جال يمينًا ويسارًا فمـا حـابى فقـرًا ولا يسـارًا، أين الجيشُ العرمــرم؟ أين الكبــيرُ المعظم؟ ألحــق الأخير بمن تقدم!

قــال محمد بن كعب القــرظي: إنما الــدنيا ســوق خرج الناسُ منها بما يضُرهُم وبما ينفعُهم.

وكم اغتر ناسٌ فخرجوا ملومين واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم وصاروا إلى من لا يعذرهم.

فيحقُ لنا أن ننظرَ إلى ما نغبطهم به من الأعمــال فنعملُها، وإلى ما نتخوَّفُ فنتجنبُها.

ذَهَبَ الشَّـــبَابُ بَجْهلِـــهِ وبعــــــــــــــــارِهِ
وأتَي المَشِـــيْبُ بحِلْمِـــهِ وَوَقَــــــــــــــــارِهِ
شَــتَّانَ بَيْنَ مُبعِّدٍ مِن رَبِّهِ بِغُـرورِهِ ومُبَشَّـرٍ بجـوارِهِ
ما زِلْت أمُــرَحُ بالشــبابِ جَهَالَــــــــــــــةً
كَـــالطِّرْفِ يَمْـــرَحُ مُعْجَبًا بِعِــــــــــــــذَارِهِ

وسَـحَبْت أثـواب البَطالَـةِ لاهِيًا — وجَررت مِن بَطَـرٍ فُضـولَ أزارِهِ
حـــــــــتى تَقَلْصَ ظِلُه فتكشَـــــــــــفَتْ — عَوْرَاتُه وبَدَا قـبِيحُ عَـوَارِهِ
لم أَحْــظَ منه بِطَائِلٍ غَيُر الأسَـــــــــــــى — وتَنَـدمٌ مِنِّي عَلَى أَوْزَارِهِ
والآن قـدْ خَـطَّ المشـيبُ بِمَفْـــــــــــرِقي — بَمَواعِـــظٍ والحـــــقُ في تَـــــــــــذْكَارِهِ
والنَّفْسُ تَـــركبُ غَيَّهَا لا تَرعَـــــــــــوي — عن ولا تُصْــغِ إلى إنْــذَارِ
لَهَفِي على عُمْــرٍ يَمُـــرُّ مُضَـــــــــــيَّعًا — مُحْصًى على بلَيْلِهِ ونَهَارِهِ

قـال علي بن أبي طـالب : ميـدانكُم نفوسـكُم، فإن انتصرتم عليها كنتم على غيرها أقدر، وإن خذلتم فيها كنتم على غيرها أعجز، فجربُوا معها الكفاح أولاً.

كـان سـفيان الثـوري ما ينـام إلا أوَّل الليـل، ثم ينتفضُ فزعًا مرعوبًا ينـادي النـار النـار شـغلني ذكُر النار عن النَّوم والشهوات.

ثم يتوضأ ويقولُ على أثر وضُوئه: اللهم إنك عـالمٌ بحـاجتي غـير مُعلَّم وما أطلبُ إلا فكـاك رقبـتي من النار.

قـال عمر بن عبـدالعزيز: أيها النـاس، إنما يُـراد الطبيب للوجع الشديد، ألا فلا وجع أشـدَّ من الجهـل، ولا داء أخبثُ من الـذنوب، ولا خـوفُ أخـوفُ من الموت.

يُـروى عن الأصـمعي، قـال: قـرأت **﴿وَالسَّـارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾**(والله غفورٌ رحيم).

وبجنبي أعرابي، فقال: كلامُ من هذا؟ فقلت: كلام الله.

قـال: أعـدْ فأعـدتُ، فقـال: ليس هـذا كلامُ اللــه، فانتبهت، فقرأتُ: ﴿**وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾.

فقال: أصبتَ هذا كلامَ الله، فقلتُ: أتقرأُ القـرآن؟ قال: لا، فُقُلتُ: من أين علمت؟

فقال: يا هذا، عزَّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحمَ لما قطع.

كـان أحد العلمـاء له وظيفة يأخذ عليها راتبٌ جيـدٌ فاتفق أنه كان يأكل يومًا مع أصحابه طعامًا فجاء قط فرموا له شيئًا فأخذه وذهب سريعًا.

ثم رجع فرموا لهُ أيضًا شيئًا، فانطلق به سـريعًا ثم جاء أيضًا فرموا له شيئًا فعلمـوا أنه لا يأكـلُ هـذا كله فتبعـوهُ فـإذا هو يـذهبُ به إلى قـطٍ آخـرَ أعمى في سطحٍ هُناك فتعجبُوا من ذلكَ.

فقال الشـيخ: يا سُـبْحانَ الله هـذا حيـوان بهيم قد ساق اللهُ إليه رزقـهُ على يد غـيره، أفلا يَرْزُقُـني وأنا عَبْدُهُ واعْبُدُه.

ثم ترك ما كان لهُ ن الرَّاتب وجمع حواشيه، وأقبل على العبادة والمُلازمة في غرفة في جامع عمـرو بن العاص إلى أن مات.

تَنَامُ وَقَدْ أُعِدَّ لكَ السُهَادُ ... وتُوقِنُ بالرَّحِيْل وَلَيْسَ زَادُ
وتُصِـبْحُ مِثْل ما تُمْسِـيْ مُضِـيْعًا ... كَأَنَّكَ لَسْـتَ تـدْرِيْ مَا المُـرَادُ
أَتَطْمَعُ أنْ تَفُـوْزَ غَـدًا هَنِيًا ... ولَمْ يَـكُ مَنْـكَ في الـدُنْيَا اجْتِهضـادُ
إذا فَـرَّطْتَ في تَقَـدِيمِ زَرْعٍ ... فَكَيْـفَ يَكـونُ مِن عَـدَمٍ حَصَـادُ

قـال بعض العلمـاء: عليكم بأهل السـخاء والشجاعة، فإنهم أهلُ حُسْـن الظَّنِّ بالله ولو أن أهل البخل لم يدخل عليهم من ضرر بُخْلهم ومَذَمَّةِ الناس

لَهُم وإطْبَـاق القلـوب على كـراهَتِهم إلَّا سُـوءُ ظَنِّهِمْ بـرَبِّهِم في الخَلَـفِ لَكَـانِ عَظِيْمًـا. والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل في ذكر بعض مسائل فيها ترويح للنَّفْس وإجمام لها وتسلية

قال رجل من اليهود –لعَنَهُم الله- لأمـير المؤمـنين علي بن أبي طــالب: ما دفنتُم نــبيكم حــتى قــالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير.

فقـــال عليُ : أنتم ما جفَّتْ أقـــدامُكم من البحر حتى قلتم ﴿**اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**﴾.

أخذ زيـادُ رجُلاً فـأفْلت منه فأخذ أخـاهُ، فقـال: إن جئتَ بأخيكَ وإلا ضرَبْتُ عُنقَكَ.

قـال: أرأيت إن جئتُ بكتـاب من أمـير المؤمـنين تُخَلي سبيلي، قال: نَعَم.

قــال: فأنا آتيك بكتــابٍ من العزيز الــرحيم وأقيمُ عليه شاهدين إبـراهيم وموسى –عليهما السـلام- ﴿**أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَـى * وَإِبْـرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾ قـال زيـاد: خَلُّوا سبيلهُ هذا لُقِّيَ حُجَّتَه.

قيل لأسم بن زُرعـــة: إن انهـــزمتَ من أصـــحاب مِرْدَاس يغضب عليك الأمير عبيدالله بن زياد، فقــال: لأن يغضب عليَّ وأنا حيٌّ أحبُّ إليَّ من أن يرضى عني وأنا ميِّت.

وقع الـــــــنزاع بين أهل السُّـــــــنة والرافضة في المفاضــــلة بين أبي كر وعلي –رضي الله عنهمــــا، فحكموا بينهم ابن الجوزي وأمـروا شخصًـا أن يسـأله عن ذلـك، فقـال: مَن كـانت ابنته تحتـه؟ فقـال: أهل السُّنة هو أبو بكر؛ لأن بنته عائشة كانت تحت رسول الله .

وقـالت الرافضـة: هو علي؛ لأن فاطمة بنت النـبي كانت تحته.

أجوبة مُسكِّتة.

قال عمرو بن العاص لعدي بن حـاتم: مـتى فُقِئَتْ عينُك: قال: يوم طُعنتَ وأنت مُول في صفِّين.

شـهد أعـرابي بشـهادةٍ عِنْـدَ مُعاوية على شـيء، فقال له مُعَاويةُ: كَذَبْتَ.

فقال الكاذبُ: والله مْزَمَّلٌ في ثِيابكَ.

فتبسَّم مُعاويةٌ، وقال: هذا جزاءُ مَنْ عَجِل.

دخل عديُ بنُ حاتم على مُعاويةُ وعنده عبدُالله بنُ عَمْرو، فقال عبدالله: يا عدي، متى ذهبتْ عينُكَ؟

قال: يوم مثل أبُوْكَ هاربًا وضُرِبَ على قفـاه مُوَليًا وأنا يومئذٍ على الحق وأنتَ وأبوكَ على الباطلِ.

قال الحسنُ لابن سيرين: تُعَبِّرُ الرؤيا كأنـكَ مِن آلِ يَعُقوب، فقال ابن سيرين: وأنت تُفسِـر القـرآن كأنكَ شهَدْت التنزيل.

قـال أبو الزنـاد لابن شـبرمة في مُناظرتِـهِ لَـهُ مِن عندنا خرَجَ العِلْمُ.

فقال ابنُ بشُبْرُمَةَ ثم لم يَعُدْ إليكم.

قال مُعاوية لعقيل بن أبي طالب أين ترى عمَّك أبا لهَب.

قال: في النار هو وعمتُكَ حمالةَ الحطَب.

قال الرَّشِيْدُ لَشـرِيْك القاضِـي: آيـةٌ في كتـاب الله ليسَ لكَ ولا لِقَوْمِكَ فيها شيء.

قال: وما هي؟ قال قولـهُ تعـالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَـذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ**﴾.

فقال: آيةٌ أُخـرى ليس لي ولا لقـومي فيها شـيء، قال: وما هي؟ قال: قول الله جل وعلا: ﴿**وَكَـذَّبَ بِـهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحَقُّ**﴾.

قـال معاوية بكلام عـرض فيه بعبدالله بن الزبـير، فقال: يا أمير المؤمنين، لا يكن حقنا منك أن تُمْسـكَ يدَكَ مغلولة إلى عنقك وتُعْملْ لِسَانَكِ في قومِك.

اشــتكى عبدالله بن صــفوان ضرســهُ، فأتا رجُل يعُودُه، وقال: ما بِك؟ قال: وجع ضِرْس.

فقــال: أما علمتَ ما يقــوُل إبليسُ؟ قــال: يقولُ دواؤهَ الكسر.

قال: إنما يطيعُ إبليس أولياؤُهُ.

وقال معاوية لرجل من أهل اليمن: ما كــان أحمق قومك حين قالوا: ﴿**رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا**﴾ أما كان جمعُ الشملِ خيرًا لهُم.

فقــال اليمــاني: قومُـكَ أحمــقُ منهم حِيْنَ قــالوا: ﴿**اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنـدِكَ فَـأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾.

قــال الربيــعُ الحــاجبُ لِشــريْكَ القاضِــي بحَضْــرَةِ المهْدِي بلغني أنك خُنْتَ أميرَ المؤمنين.

فقال شريكٌ: لا تقلْ ذلك لو خُنتُه لأتاك نَصِيْبُكَ.

مــرض الشــعبي فعــادهُ رجــلٌ ثقيل الــدَّم، فأطــال الجُلوسَ جدًّا.

فقال للشعبي: ما أشدَّ ما مَرَّ عليك في مرضك؟

قال: قُعُوْدُكَ عنْدِي.

ودخَل لِصٌ بيتًا لأحد الظُرفاء الأذكياء، فقــال للصِّ: إن الذي تطلبُه بالليل ما وجدناهُ بالنهار.

سُئل إنسان عن نســبه، فقــال: أنا ابنُ أُختِ فلان، فســمعهُ رجــلٌ، فقــال: النــاس ينتســبُون طــولاً وهــذا ينتسب عرضًا.

قــال بعضــهم يوصي إخوانــه: عاشــروا النــاس مُعاشرة الكرام إن غِبْتُم حَنُـوا إليكم وذكـرُوْكم بخـير وإن مرضتم عــادوكم ودعــوى لكم بالشــفاء وإن متم ترحمــوا عليكم، ولا تعاشــروهم مُعاشــرة اللّئــام إن غبتم، قــالوا: الحمد لله الــذي أزَال عنا نقمــة، وإن مِتُم، قــالوا: تخفيف ورحمــة، وإن مرضــتم فرحــوا، وقالوا: نسـأل الله أن يريحنـا، واعلمـوا أن النـاس ما

منهم سلامة إن انقبضتُم أو انبسَطْتُم فكونوا منهم على حذر.

النــاسُ داءُ دفين لا دواءَ له | العقـلُ قد حَـارَ منهم فهو مُنْـذَهلُ
إن كُنْتَ مُنْبسطًا مَسْخرةً | أوْ كُنْتَ مُنْقَبِضًا قـالوا به ثِقَـلُ
وإنْ تُخَـالِطَهُم قـالُوا به طَمَـعٌ | وإنْ تُجَانبهَم قالُوا بِهِ مَلَلُ
وإن تَهَوَّرْ لَاقَوْكَ بمَنْقَصَةٍ | وإنْ تَزَهَّدَ قـالوا زُهْـدُه حِيَـلُ

وفد أعرابي على أحد الوُلاة وأنشدهُ قصيدةً يثني عيه فيها وكان في فمه ميلان فلم يأمر له بشيء وكان ملتمسًا للمُكافأةِ.

فقال له الوالي: ما بالُ فَمِكَ مُعْوَجًا؟ فقال: لعلهُ عِقَابٌ من الله تعالى.

فقال الوالي: على أي شيء عاقبك، فقال: لكثرة ما كذبت بالمدح والثناء بالباطل على الناس، يعني وأنتَ منهم.

وجد يهوديٌ مُسلمًا يأكل في نهار رمضان وهو غير مسافر فطلب منه أن يُطعمهُ.

فقال المُسلم: يا هذا، إنَّ ذبيحتنا لا تحِلُ على اليهود.

فقال اليهودي: أنا في اليهود مثلك في المسلمين.

سأل رجل حكيمًا عن أخ له: كيف حاله؟ فقال: مَاتَ، فقال: ما سببُ موته، قال: حياتُه.

يُرْوَى أن رجلاً عنده زوجةٌ مات عنها أربعةُ أزواج، فمرض الخامسُ فجلست عند رأسه تبكي، وقالت: إلى من تُوصِي بي، فقال: إلى السَّادس.

ودخل الخليلُ بن أحمد على مَرِيْض نحْوي وعندهُ أخٌ له ما يُحسنُ النَّحوَ، فقال أخو المريض لِلْمَريض

افْتَحَ عينــاك وحــرِّك شــفتاك إنَّ أبو محمد عنــدك جالسًا.

فقال الخليل: إن أكثر مرض أخيكَ من كلامِكَ؛ لأن كلامَهُ لَحْنٌ.

وجاء رجلٌ إلى الجاحظُ، وقال لـه: سـمعتُ أن لك ألفَ جَوابٍ مُسْكتٌ فعلمني منها، فقـال له الجاحـظ: لك ما تريد.

فقال الثقيلُ: إذا قـال لي رجُـلٌ: يا ثقيـلَ الـدَّمَ ويا خفيفَ العقلِ فَبمَاذا أجيبُهُ؟ فقال لهُ الجاحظ: قُلْ لــهُ صدقْتَ.

رُوي أن صـهيبًا قـدم على النـبي وبين يديْه تَمْـرٌ وخُبزٍ، فقال: أدْنُ فَكُلْ فأخذ يَأكلُ مِن التمرِ.

فقـال له النـبي : «إنَّ بعَيْنِـكَ رَمَـدًا؟» فقـال: يا رسول الله، أنا آكُلُ مِن النَّاحِيةِ الأخرَى فتَبسَّمَ النــبيُ .

وسمعَ أعرابيٌ رجُلاً يروي عن ابن عبـاس ــ رضي الله عنهما ـ أنه قال: مَن نوى الحجِّ وعاقَه عائقَ كِتُبَ له الحَج، فقال الأعرابي: ما وَقَعَ أرْخَص مِن هَذا.

وعن أمِّ سلمة قالت: خَرجَ أبو بكر في تجـارة إلى بُصْرى، قَبل مَوْتِ رسـول الله بعـام ومَعَـهُ نعيْمـان وسُوَيْبط بن حرمَلة.

وكانا قَدْ شِهَدَا بَدْرًا وكان نعَيْمان على الـزاد وكـان سُويبط رجُلاً مَزَّاحًا، فقال لَنُعَيْمـانِ: أطْعِمْـني، قـال: حَتَّى يجيء أبو بكر.

قال: أما لأغيْظَنَّكَ، قال: فمـروا بقـوم، فقـال لهم: سُويْبطُ تشترون مني عبدًا لي، قـالوا: نعم، قـال: إنه عبد له كلام فهو قائل لكم إني حر، فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه، فلا تفسدوا عليَّ عبدي.

قـالوا: لا بل نشـتريه منك فاشـتروه بعشر قلائص ثم أتـــوه فوضــعوا في عنقه عمامة أو حبلاً، فقـــال نُعَيْمانُ: إن هذا يستهزئُ بكم وإني حر ولَسْـتُ بعبـد،

فقـالوا: قد أخبرنا خـبرك فـانطلقوا به فجـاء أبو بكر فأخبروه بذلك فاتبع القوم، فـرد عليهم القلائص وأخذ نعيمان.

فلما قدموا على النبي أخبروه، فضحك النــبي وأصحابه منه.

إنَّا عَلى قَلْعَـــةٍ مِن هَـــذِهِ الـــــــــــــدارِ نُسَاقُ عنها بإمْسَاءٍ وإبْكَارِ
تَبْكِيْ ونَنْـدبُ آثـارَ الـذينَ مَضَـــــــــــــوْا وسَوْفَ تَلْحَقُ آثـارٌ بآثـارِ
طَالَتْ عِمَارتُنا الـدُّنْيَا على غَـــــــــــرَرٍ ونَحْنُ نَعْلَمُ أنَّا غَيْـــرُ عُمَّارِ
يا مَنْ يُحَثُ بَتْرِحَـــالٍ على عَجَـــــــــــلٍ لَيْسَ المَحَلَّةُ غَيْـرَ الفَـــوْزِ مِن نـــــــــــارِ
فـــاتْرُكْ مُفَـــاخَرَةَ الـــدُّنيا وزيْنَتَهَا يَـوْمُ القِيامَـةِ يَـومُ الفَخَـرِ وَالعَـــــــــــارِ

والله أعلم، وصل الله على محمد وآله وصــحبه وسلم.

موعظة لله درُّ أقـــوام تركُـــوا الـــدنيا فأصـــابوا، وسمعوْا مُناديَ الله فأجابوا، وحضـروا مشـاهدَ التُّقَي فما غــابُوا، واعتــذرُوا مع التحقيق ثم تــابوا وأنــابوا، وقَصَدُوْا باب مولاهُم فما رُدُّوا ولا خابُوا.

قال عمرو بن ذر لما رأى العابــدون الليل قد هجم عليهم، ونظـــــروا إلى أهل الغفلة قد ســـــكنُوا إلى فُرشِهِمْ ورجعُوا إلى ملاذِّهم، قَـامُوْا إلى الله سـبحانه وتعالى فرحين مُستبشرين بما قدْ وهَبَ اللهُ لَهُمْ مِن السَّهَر وطول التَّهَجُدِ.

فاستقبلوا الليل بأبْدِانهِم، وباشروُا ظلمتـهُ بصـفاح وجـوجهم، فانقضى عنهم الليـلُ، وما انقضـتْ لـذَّتُهم مِن التلاوة، ولا ملَّتْ أبْـــدَانُهُم من طُـــول العِبَـــادَة، فأصبِحَ الفَرِيْقَانِ وَقَدْ ولَّى الليل بربح وغبن.

فاعملوا في هذا الليل وسواده، فـإنَّ المغبُـون من غُبن الدنيا والآخرة، كم من قـائم لله تعـالى في هـذا الليل قد اغتبط بقيامه في ظلمة حُفْرَتِه.

قــال بعض العــارفين: ما أُحبُ أنَّ حســابي يــوم القيامة يُجْعَــلُ إلى أبــويَّ؛ لأني أعلم وأتيقنُ أن الله جل وعلا أرحمُ بي منهم.

شعرًا:

أَفِــقْ وابْـكَ حَـانَتْ كَبْـرَةٌ ومَشِــــيْبُ ... أمَّا للتُّقَي والحَــقِّ فيــكَ نَصِــــيْبِ

أيَا مَن له في بــــاطِنِ الأرض مَنْــــزلٌ ... أتَأْنَسُ بالدُنْيَا وأنْتَ غَرِيْبُ

وما الـدهر إلّا مَــرُّ يَــومٍ وليْلَـــــةٍ ... وما المــوتُ إلا نـــازلٌ وقَـــــرِيْبُ

فصل

عبـاد الله قد نقلنا في كتـاب «إرشـاد العبـاد» عن النـــار وأهوالها وغمومها وأنكالها وشــــراب أهلها وطعامهم وما إلى ذلك مما أعده الله جل وعلا لأهلها من أنــواع العــذاب الأليم الأبــدي الســرمدي ما فيه كفاية.

ويقابل دار الأشــقياء دارُ أخــرى دارُ قــرارٍ ونعيمٍ وسُــرُور وحُبُـور وأمْنٍ وصـحةٍ وحيـاةٍ أبديــةٍ فيها ماً تشتهيه الأنفسُ وتلــذُ الأعينُ ممَّا لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطَر على قلب بَشرٍ.

دارٌ جعلها الكريم جل وعلا دارَ ضـيافةٍ، يُكـرم فيها عبادهُ الأخيَار الذين وفَّقَهم لخدمته والعمل بطاعته.

ولا تظن هــذه الضــيافة محــدودة، ولا أن الكرامة فيها تنتهي، بل كل ما تحبه وتتمنـــاه أمامك إن كُنْتَ من أهل العفو والتجـاوز فتـوهم إن تفضَّـل الله عليك بالعفو والتجاوز (أي تصور مَمَرَّكَ على الصراط).

ونُــورُكَ يســعى بين يــديك وعن يمينــك، وكتابُــكَ بيمينكَ مُبْيَّضَ الوَجْهِ.

قـال الله جل وعلا: ﴿**يَــوْمَ تَبْيَضُّ وَجُـوهٌ وَتَسْـوَدُّ وَجُوهٌ**﴾، وقد أيقنت برضـاه عنك وأنت على الصـراط مع زمرة العابدين ووفود المتقين.

والملائكـةُ تُنـادي: سـلِّمْ سَـلِّمْ، والوجَـلُ مع ذلك لا يفـارق قلبك ولا قلـوب المؤمـنين، تُنـادي وينـادون: ﴿**رَبَّنَـا أَتْمِمْ لَنَـا نُورَنَا وَاغْفِـرْ لَنَـا إِنَّكَ عَلَى كُـلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.

فتــدبر حين رأوا المنــافقين طفئ نُــورُهُم، وهــاج الوجلُ في قُلوبهم، فدَعَوا بتمام النُور والمغفرة.

فتوهّم أي تصـورْ وتخيل نفسـك، وأنت تمُـرُ خفيفًا مع الوجــل، وتصــوَّرْ ممــرَّك على قــدر خفَّة أوزارك وثقلها وقد انتهيتَ إلى آخِره.

فغلبَ على قلبك النجاةُ، وقد عــاينت نعيمَ الجنــانِ وأنتَ على الصـراط، فحَنَّ قلبُـكَ على جـوار الله عز وجل، واشتاق إلى رضا الله.

حتى إذا صِرْتَ إلى آخره خَطَواتٍ بأحَدِ رجليك إلى العرصـــةِ (أي عرصة القيامة) الـــتي بين آخر الجسر وبين بــاب الجنــة، فوضـعتها على العرصة الـتي بعد الصـــراط، وبقيت القـــدمُ الأخُـــرى على الصـــراط، والخوفُ والرجاءُ قد اعْتَلَيَا في قلبك وغَلبا عليك.

ثم ثنيت بالأخرى، فجُزْتَ الصِـراطَ كُله واسـتقرَّتْ قدماكَ على تلك العرصة، وزِلْتَ عن الجسَـرْ ببـدنكَ، وخلَّفْتَهُ وراء ظَهْرِك.

وجَهَنَّمُ تضــطربُ من تحت من يمُر عليهـــا، وتَثِبُ على مَن زلَّ عنه مُغْتاظةً تزفُرُ عليه وتشْهَقُ إليه.

ثم التفت إلى الجسر فنظـــرت إليه باضـــطرابه، ونظرت إلى الخلائقِ من فوقِــهِ، وإلى جهنَّم من تحته تثبُ وتزفرُ على الذين زُلْزِلُوا عن الصراطِ.

لها في رؤوسـهم وأنحـائهم قصـيفٌ، فطـار قلبـكَ فرحًا إذْ نجـــوت بضـــعفك من النـــار و خلَّفْتَ النـــارَ وجسرها من وراء ظهرِكَ، متوجهًا إلى جوارِ ربكَ.

ثم خطوتَ آمنًا إلى بـاب الجنة امتلأ قلبُـكَ سُـرورًا وفرحًا، فلا تـزالُ في مَمَـرِّكَ بـالفرح والسـرور حـتى تُوافي أبوابها.

فـإذا وفيت بابها اسـتقبلك بحسـنه، فنظـرت إلى حسنه ونوره وحسن صُورة الجنة وجُدرانها.

وقلبك مستطير فرحٌ مسرورٌ متعلقٌ بـدُخُولِ الجنة حين وافيت بابها أنت وأولياءُ الرحمن.

فتوهم أي تخيَّل وتصـور نفسك في ذلك المـوكب، وهُمْ أهــلُ كرامة الله ورضــوانه، مُبيضــةً وجــوهم، مُشرقة برضا الله، مسرورون فَرِحُـونَ مُسْتَبْشِـرُون، وقد وافيت باب الجنة بغبارِ قبركَ، وحرِّ المقَامِ ووَهجِ ما مرَّ بك.

فنظـرت إلى العين الـتي أعـدَّها الله لأوليائه وإلى حُسن مائها، فانغمست فيها مسرورًا، لما وجدت من برد مائها وطيبه، فوجدت له بردًا وطيبًا، فـذهب عنك بحُزْنِ المقام.

وطَهَّركَ من كُـلِ دنس وغُبــار، وأنت مســرور لما وجـــدت من طيب مائها لما باشـــرتهُ، وقد أفلتَّ من وهج الصراط وحرِّه؛ لأنه قد يـوافي بابها من أحـرقت النار بعض جسده بلفحها، وقد بلغت منه.

فما ظنك وقد انفلت من حر المقام ووهج أنفــاس الخلائق، ومن شدة توهُّج حرِّ الصـراط فـوافيت بـاب الجنة بــذلك، فلما نظــرت إلى العين قــذفت بنفسك فيها.

فتـوهَّمْ (أي تصـوَّر وتخيَّل) فرحة فُـؤادك لما باشر برد مائها بدنك بعد حر الصراط، ووهج القيامة، وأنت فرحٌ لمعرفتك أنك إنما تغتسـلُ لتتطَّهر لـدخول الجنة والخلود فيها.

فــأنت تغتسل منها دائبًــا، ولونُــكَ مُتغــيرٌ حســنًا، وجسدُك يزدادُ نضـرةً وبهجـةً ونعيمًـا، ثم تخـرجُ منها في أحسن الصُور وأتم النُور.

فتوهم (أي تصور وتخيل) فـرح قلبك حين خـرجت منها فنظــرت إلى كمــال جمالــك، ونضــارة وجهك وحُسنه، وأنت عالم مُوقن بأنك تتنظـفُ للـدخول إلى جوار ربك.

ثم تقصد إلى العين الأخـــرى، فتتنـــاولُ من بعض آنيتهـا، فتـوهَّمْ نظـرك إلى حُسن الإنـاء، وإلى حُسن الشــراب، وأنت مســرور بمعرفتك أنك إنَّما تشــربُ هـذا الشـراب لِتطهِّرَ جوفك من كـلِّ غـلٍ، وجسـدك ناعمٌ أبدًا.

حتى إذا وضعتَ الإناء على فيكَ ثم شربتهُ، وجدت طعم شراب لم تذق مثله، ولم تعوَّدْ شُربهُ، فيسـلس من فيْكَ إلى جَوِفك، فطـار قلبُك سُـرورًا لما وجـدت من لذَّتِهِ، ثم نقي جوفك من كُلِّ آفةٍ.

فوجدت لذة طهارة صدرك من كُلِّ طبـعٍ كـان فيه يُنازعُه إلى الغُمــوم والهُمــوم والحــرص والشـــدة والغضب والغلِّ، فيا برد طهارة صـدرك، ويا روح ذلك على فؤادك.

حـــتى إذا اســـتكملت طهـــارةُ القلب والبـــدن، واسـتكمل أحبـاءُ الله ذلك معـك، والله مُطلـعٌ يـراك ويراهُم.

أمر مــــولاك الجـــادُ المتحنن خـــوان الجنة من الملائكـــة، الـــذين لم يزالـــوا مُطيعين خـــائفين منه مُشـفقين وجلين من عقابه إعظامًا له وإجلالاً، وهيبـةً لـهُ، وحـذرًا من نقمـهِ، وأمـرُم أن يفتحُـوا بـاب جنته لأوليائه.

فانحـدروا من دارهـا، وبـادروا من سـاحاتها، وأتـوا باب الجنة فمدُوا أيديهم ليفْتحُوا أبوابها.

وأيقنت بذلك، فطار قلبك سُـرورًا، وامتلأت فرحًـا، وسمعتَ حُسن صرير أبوابهـا، فعلاك السـرور، وغلب على فُؤادك، فيا سُرور قُلوب المفتـوح لهم بـاب جنة رب العالمين.

فلما فتح لهم بابُهــا، هــاج نســيمُ طيب الجنــان، وطيب جرى مائها، فنفح وجهك، وجميع بدنك، وثارت أراييح الجنة العبقة الطيبة.

وهــاج ريحُ مســكها الأذفــر، وزعفرانها المُونِــع، وكافُورها الأصــفر، وعنبرها الأشــهب، وأريــاحُ طيب ثمارها وأشجارها، وما فيها من نسيمها.

فتـداخلت تلك الأراييح في مشـامِّكُ حـتى وصـلتْ إلى دماغِك، وصار طيبُها في قلبك، وفـاض من جميع جوارحك.

ونظـــرت بعينك إلى حُسن قصـــورها، وتأســـيس بُنيانها من طرائق الجنــــدل الأخضر من الزُمُــــردِ، والياقوت الأحمـرِ، والـدُر الأبيض قد سـطع منه نـوره وبهاؤه وصفاؤه.

فقد أكمله الله في الصفاء والنور، ومازجهُ نُورُ ما في الجنــان، ونظــرتَ إلى حُجُب اللــه، وفــرح فــــــؤادُك لمعرفتك أنك إذا دخلتها فــــــإنَّ لك فيها الزيادات، والنظرُ إلى وجه ربك، فاجتمع طيبُ أراييح الجنة وحسـنُ بهجة منظرهـا، وطيبُ نسـيمها، وبـردُ جوها.

فتصــور نفسك إن تفضل الله عليك بهــذه الهيئــة، فلو مُتَّ فرحًا لكـان ذلك يحـقُ لـك، حـتى إذا فتحـوا بابا، أقبلـوا عليك ضـاحِكين في وجهك ووُجُـوه أوليـاء الله معك.

ونـادوكم ﴿**سَـلامٌ عَلَيْكُمْ**﴾فتـوهم حسن نغمـاتهم، وطيب كلامهم، وحسن تسليمهم في كمال صــورهم، وشدة نورهم.

ثم أتبعــوا السـلام بقــولهم: ﴿**طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَــا خَالِــدِينَ** ﴾فـأثنوا عليهم بــالطيب والتهـذيب من كل دَنَس ودَرَنٍ وغلٍ وغش، وكل آفةٍ في دين أو دُنيا، ثن أذنُوا لهم على الله بالدُّخُول في جواره.

ثم أخبروهم أنهم باقُون فيها أبـدًا، فقـالوا: ﴿**طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾، فلما سمعت الأذنُ وأوليــاءُ الله معـك، بـادرتم البـاب بالـدخول، فكضَّـت الأبـوابُ من الزحام.

فتصـــور نفسك إن عفا الله عنك في تلك الزحمة مُبادرًا مع مُبادرين، مسرورًا مع مسرورين، بأبدانٍ قد طهرَتْ، ووجُوهٍ قد أشرقت وأنـارت فهي كالبـدر، قد سطع من أعراضهم كشُعاعِ الشمس.

فلما جـاوزت بابهـا، وضـعت قـدميك على تُربتهـا، وهي مسك أذفـرُ ونبتُ الزعفـران المونـع، والمسـكُ مصــبوبٌ على أرضٍ من فضــةٍ، والزعفــران نــابتٌ حولها.

فذلك أول خطوةٍ خطوتها في أرض البقـاء بـالأمن من العـــذاب والمـــوت، فـــأنت تتخطَّى في تُـــراب المسك، وريـاض الزعفـران، وعينـاك ترمقـان حُسن بهجة الدُر، مِن حُسن أشجارها، وزينة تصويرها.

فينما أنت تتخطَّى في عرصات الجنان، في ريـاض الزعفــران، وكُثبــان المســك، إذ نُــودي في أزواجك وولــدانك وخــدامك وغلمانك وقهارِمتــك، أن فلانًا قد أقبل، فأجابُوا واستبشـروا لقُـدُومك، كما يُبشـرُ أهـلُ الغــائب في الــدنيا بقُدُومِــهِ، كما قــال علي بن أبي طالب : فبينما أنْتَ تَنْظُـرُ إلى قُصُـورك، إذ سـمعت جلبتهُم وتبشِيْشَـهُم، فاسـتطرتَ لـذلك فرحًـا، فبينما أنت فــرحٌ مســرورٌ بغبطتهم لقُــدومِكَ لمَّا ســمعتَ إجلابَهَمُ فرحًا بك.

إذ ابتدرت القهارَمَةُ إليك وقـامت الولـدان صُـفُوفًا لقُدومك، فبينما أتت القهارمةٌ مُقبلة إليك، إذ استخفَّ

أزواجك للعجلة، فبعثت كُلُّ واحدةٍ منهن بعض خُدَّمها لينظر إليك مُقبلاً.

ويُسرع بالرجُوع إليها بقُدومك، لتطمئنَّ إليه فرحًا، وتسكُنَ إلى ذلك سُـرورًا، فنظر إليك الخـدمُ قبل أن تلقَاكَ قَهَارَمُتكَ.

ثم بادر رسـولُ كُل واحـدة منهنَّ إليها فلما أخبرها بقُدومِكَ، قالت كُـلُ واحـدةٍ لرسـولها: أنت رأيتـهُ من شـدة فرحها بـذلك، ثم أرسـلت كـلُ واحـدة منهنَّ رسُولاً آخر.

فلما جاءت البشارات بقُـدومك إليهن، لم يتمـالكن فرحًا، فـأردن الخُـروج إليك مُبـادراتٍ إلى لقائك لـولا أن الله كتبَ القصرَ لهنَّ في الخيام إلى قُدُومِكَ، كما قال مليكك: ﴿**حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الخِيَامِ**﴾.

فوضـعهن أيـديهن على عضـائد أبـوابهن، وأذرعهنَّ برُؤوسِـهنَّ ينظـرن مـتى تبـدو لهن صـفحةُ وجهـك، فيسـكنُ طـولُ حـنينهن، وشـدةُ شـوقهن إليـك، وينظرون إلى قرير أعينُهنَّ، ومعدن راحتهن، وأنُسَهَّن إلى ولي ربهنَّ وحبيب مولاهُنَ.

فتـوهم ما عـاينت، حين فُتحت أبـواب قُصُـورك، ورفُعت سُـتُورُهُ من حُسن بهجة مقاصـيره، وزينـةو أشجارهن وحُسْنِ رياضه، وتلألؤ صحنه، ونور ساحاته.

فبينما أنت تنظر إلى ذلك، إذ بـادرت البشـرى من خُـدَّامِكَ يُنـادون أزواجـكَ هـذا فُلانُ بنُ فلان قد دخل من باب قصره، فلما سمعنَ نـداءَ البشـراء بقـدومك ودُخُولِـكَ، تـوثَّبْنَ من الفُـرش على الأسـرة في الحجال.

وعينُك نـاظرةٌ إليهن في جـوف الخيـام والقبـاب، فنظـرت إلى وُثُـوبهنَّ مُسـتعجلات، قد اسـتخفهُنَّ الفرحُ، والشوقُ إلى رُؤيَتِكَ.

فتخيَّل تلك الأبـدان الرخيمة الرعبوبة الخريـدة الناعمة، يتوثَّبْنَ بالتهادي والتَّبَخْتُر.

فتصـور كُـلَّ واحـدةٍ منهن، حين وثبت في حُسْـن حُللها وحليتها بصباحة وجهها، وتثني بدنها بنعمته.

فتوهم انحدارها مُسـرعةً بكمـال بـدنها، نازلـةً عن سريرها إلى صحن قُبَّتِها، وقرار خيمتها، فـوثَبْنَ حـتى أتيْنَ أبوابَ خِيامِهنَّ وقبابهنَّ.

ثم أخذن بأيديهن عضـائد أبـواب خيـامهن للقصـر، الـــذي ضُـــرِب عليهنَّ إلى قـــدومك، فقمنَ آخـــذاتٍ بعضائدِ أبوابهن.

ثم خرجن برؤوسهنَّ ووُجُوهِهنَّ ينحدرن من أبـوابِ قبابهن، مُتطلعاتٍ ينظرن إليك، مُقْبِلات قد مُلئن منكَ فرحًا وسرورًا.

وتخيل نفسك بسُـرور قلبـكَ وفرحِـهِ، وقد رمقتهُنَّ على حُسْن وجوههن، وغنج أعيُنهِنَّ.

فلما قـابلت وجـوههنَّ حـار طرفُـك، وهـاج قلبك بالسرور، فبقيت كالمبهوتِ الذاهل من عظيم ما هاج في قلبك من سُـرور ما رأتْ عينـاك، وسـكنتَ إليه نفسُك.

فبينما أنت ترفُـــلُ إليهن، إذ دنـــوت من أبـــواب الخيـام، فأسـرعن مُبـادرات قد اسـتخفهن العشـقُ، مُسرعاتٍ يتثنين من نعيم الأبدان، ويتهادَيْنَ من كمال الأجسام.

ثم نادتـكَ كُـلُّ واحـدةٍ منهن: يا حبيـبي ما أبطـأك علينا؟ فأجبتها بأن قلت: يا حبيةُ ما زال الله عزَّ وجلّ يُوقفني على ذنْبِ كذا وكذا حـتى خشـيتُ أن لا أصل إليكُن.

فمشـــين نحـــوك في السُـــندسِ والحرير ، يُثْـــرِنَ المِسْكَ، وشوقًا وعِشْقًا لك.

فأول من تقَّدمتْ منهنَّ مَدَّتْ إليك بنانها ومعصمها وخاتمها وضـــمَّتْكَ إلى نحْرهَا فـــانثنيتَ عليها بكفـــكَ وسـاعدكَ حـتى وضـعتهُ على قلائـدها من حلقِهـا، ثم ضممتُها إليك وضمَّتْكَ إليها.

فتوهمن نعيم بدنها لمَّا ضَمَّتْك إليها كـاد أن يُـداخل بدنُك بدنها من لينه ونعيمه.

فتـوهم ما باشر صـدرك من حُسْـن نُهُودهـا، ولـذَّة مُعانقتهـا، ثم شـممت طيب عوارضـها، فـذهب قلبُك من كُلِّ شيء سواها حـتى غـرق في السُـرور، وامتلأ فرحًا، لما وصل إلى رُوْحك من طيب مسيسها، ولذةَ روائح عوارضها.

فلما اسـتمكنتْ خفَّة السـرور من قلبـك، وعمَّتْ لـذةُ الفـرح جميع بـدنك، وموعد الله عـزَّ وجـلَّ في سُـرورك، فنـاديت بالحمد الله الـذي صـدقك الوعـد، وأنجز لك الموعــد، ثم ذكــرت طلبك إلى ربك إيَّاهُنَّ بالدُؤوبِ والتَّشْمير.

فــأين أنت في عاقبة ذلك العمل الــذي اســتقبلته وأنت تلتثمُهُنَّ وتشمُ عوارضهنَّ ﴿ **لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ**﴾.

فتوهم صعودها على السرير بعظيم بدنها ونعيمــه، حتى استوت عليه جالسـة، ثم ارتقيت على السـرير، فاســتويت عليه معهــا، فقابلتك وأنت مُقابلُهـــا، فيا حُسنَ منظرك إليها جالسةً في حالها وحليها بصــباحة وجهها ونعيم جســـمها! الأســـاور في معاصـــمها، والخواتم في أكفها، والخلاخيل في أسـواقها، والقلائد في عنقها، والأكاليل من الدر واليـاقوت على قصـتها وجبينها، والتاج من فوق ذلك على رأسـها، والـذوائب من تحت التــاج، قد حل من مناكبهــا، وبلغ أردافهــا، تَــرى وجْهَــكَ في نحرهــا، وهي تنظر إلى وجهها في نحرك.

وقد تـدلت الأشـجار بثمارها من جـوانب حجلتِـكَ، واطـردتِ الأنهـارُ حـول قصـرك، واسـتعلى الجـداول على خيمتك بالخمر والعسل واللبن والسلسبيل.

وقد كمل حُســنُك وحُســنها، و أنت لابس الحرير والسُندسُ، وأسـاور الـذهب واللؤلؤ على كل مفْصِـل

من مفاصــلك، وتـاج الـدُر واليـاقوت مُنتصـفُ فـوق رأسك، وأكاليل الدُر مفصَّصَةً بالنور على جبينك.

وقد أضــاءت الجنة وجميع قصــورك من إشـــراق بدنك ونــور وجهـك، وأنت تعـاين من صـفاء قصـورك جميع أزواجك وخُدَّمِكَ وجميع أبنية مقاصيرك.

وقد تدلَّتْ عليك ثمـارُ أشـجارك، واطَّردت أنهـارُكَ من الخمر واللبن من تحتــك، والمـــاء والعســلُ من فوقــك، وأنت جــالس مع زوجتك على أريكتــك، وقد فُتحتْ مصاريع أبوابك، وأرخيت عليك حجال خيمتـك، وحفت الخــدام والولــدانُ بقُبتــك، وســمعت زجلهمُ بالتَّقْدِيس لربك عزَّ وجل.

وأنت وزوجُكِ بأكمل الهيئة وأتم النعمــةِ، وقد حــارَ فيها طرفُك تنظُر إليها مُتعجبًا من جمالها وكمالهـــــا، طرٌ قلبُكَ بملاحَتها، وأنسٌ قلبك بها من حُســنها، فهي مُنادمة لك على أريكتــك، تُنازعُــكَ وتُعاطيك الخمــرَ والسَّلْسَــبِيلَ والتَّســنيم في كأســاتِ الــدُر وأكــاويْبِ قوارير الفضَّةِ.

فتوهم الكأس من اليـاقوت والـدُر في بنانهـا، وقد قرُبت إليك ضاحكة بحُسن ثغرهـا، فسـطع نُـورُ بنانها في الشـراب، مع نُـور وجهها ونحرهـا، ونُـور الجنـان، ونُور وجهك وأنت مُقابلهـا، واجتمع في الكـأس الـذي في بنانها نُورٌ الكـأس، ونُـور الشـراب، ونُـورُ وجههـا، ونُورُ نحرها، ونُورُ ثغرها، انتهى بتصرف.

وقال ابن القيم:

فَاسْمَعْ صضفَاتِ عَـرَائِسِ الجَنَّات ثُمْ ... اخْتَـــرْ لِنَفْسِــكَ يَا أخَا العِرْفَـــانِ
حُــورٌ حســانٌ قَــدْ كَمَلْنَ خَلائِقًا ... وَمَحَاسِــنًا مِن أجْمَــلِ النِّسْــوَانِ

حَتَّى يَحَـــــارُ الطَّرفُ في الحُسْـــــــن الـــــذي ... قَـــدْ ألْبسَـــتْ فـــالطَّرْفُ كـــــــــــالحَيْرَانِ

وَيَقــــولُ لَمَّا أنْ يُشَـــاهدَ حُسْـــــــــــــنَهَا ... سُـــبْحَانَ مُعْطِي الحُسْـــن والإِحْسَـــــــــــانِ

والطَّرفُ يَشْـــــرَبُ مِن كـــــــــؤسِ جَمَالِهَا ... فَتَـــراهُ مِثْـــلَ الشـــاربِ النَشْـــــــــــوَانِ

كَمُلَتْ خَلَائِقُهَا وأُكْمِــــلَ حُسْــــــــــنُهَا ... كالبَـدْرِ لَيـلَ السِّـتِ بَعْـدَ ثَمَــــــــــانِ

والشَّـــمْسُ تَجْـــرِيْ في مَحَاسِـــــــنِ وَجهِهَا ... والليــــــلُ تَحتَ ذوائِبِ الأغْصَـــــــــانِ

فَتَراهُ يَعْجَبُ وَهُـوَ مَوْضِـعُ ذَاكَ مِن ... لَيــــلٍ وَشَـــمْسٍ كَيـــفَ يَجْتَمِعَـــــــــانِ

فَيَقُـولُ سُـبْحَانَ الـذيْ ذَا صُــــــــــنْعُه ... سُـــبْحَانَ مُتْقِنِ صَـــنْعَةَ الإنســـــــــانِ

وَكِلَاهُمَا مِرْآةُ صَـاحِبِه إذا ... مَا شَاءَ يُبْصِر وَجْهَهُ يَرَيَانِ

فَيَرَى مَحَاسِـنَ وَجْهِـهِ في وَجْهِهَا ... وَتَرَى مَحَاسِنَهَا به بِعَيْنَانِ

حُمْرِ الخُـــدُوْدِ ثُغُـــورُهُنَّ لآليءٌ ... سُـــودُ العُيُـــونِ فَـــوَاتِرُ الأجْفَـــــــانِ

والبَـدْرُ يَبْـدُو حِينَ يَبْسُـمُ ثَغْرُهَا ... فَيُضِـيءُ سَـقْفُ القَصْـرِ بالجُـــــــدْرَان

وَلَقَـــــــدْ رَوَيْنَا أنَّ بَرْقًا سَـــــــاطِعًا ... يَبْـــدُوْ فَيَسْـــألُ عنه مَن بِجِنَـــــــانِ

فَيُقَـالُ هَـذَا ضَـوْءُ ثَغْـرٍ ضَـــــــاحِكٍ ... في الجنةِ العُلْيَا كَمَا تَريَانِ

لِلهِ لاثِمُ ذَلِكَ الثَّغْرِ الـذي ... في لَثْمِهِ إدْرَاكُ كُلِ أمَانِ

رَيَانَـةُ الأعْطَـافِ مِن مَـاءِ الشَّـــــــبَابِ ... فَغُصْنِهَا بالمـاءِ ذُو جَرَيَـانِ

لما جَـرَى مَـاءُ الشـبابِ بغُصْـــــــنِهَا ... حَمَلَ الثِمَارَ كَثِيْرَةَ الألْوَانِ

فـالوَرْدُ والتُّفَـاحُ والرُّمَـانُ ... غُصْـنٍ تَعَـالى غَـارِسُ البُسْـــــــتَانِ

في القَـــــدُّ منها كالقَضِـــيبِ اللــــــــــــــذان في	حُسْــنِ القــوامِ كأَوْسَــطِ القُضـــــــــــــــبانِ

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ:

وإِذَا بَــــــدَتْ في حُلَّةٍ مِنْ لُبْسِـــــــــــــــهَا	وَتَمَايَلَتْ كَتَمَايُلِ النِّشْوَانِ
تَهْتَــزُّ كَالغُصْــنِ الــرَّطِيْبِ وحَمْلُه	ورْدٌ وتَفَــاحٌ على رُمَــانِ
وَتَبَخْتَـــرَتْ في مَشْــــيهَا ويَحـــــــــــــــقُ ذَاكَ	لِمِثْلِهَا في جَنَّةِ الحَيَــوانِ
وَوَصَــــــــائِفٌ مِن خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا	وعلى شَـــــــمَائِلِهَا وَعَن أيْمَـــــــــــــــانِ
كالبَدرِ لَيلةَ تِّمِـهِ قَـدْ حُـفَّ في	غَسَــقِ الــدُّجَى بكَــواكِبِ المِيْـــــــــــــزَانِ
فَلِسَانُهُ وَفُــؤادُهُ والطَّرفُ في	دَهَشٍ وإعْجَـــــــابٍ وفي سُـــــــــــــبْحَانِ
فَــالقَلبُ قَبــلَ زِفافِهَا في عُرْسِـــــــــــــهِ	والعُــرَسُ إثْــرَ العُــرْسِ مُتَّصِـــــــــــلانِ
حَتَّى إذَا مَا وَاجَهَتْـهُ تَقَـابَلا	أرَأَيْتَ إذْ يَتَقَابَلُ القَمَرَانِ
فَسَـــلِ المُتَيَّمَ أيْنَ خَلَّفَ صَـــــــــــــبْرَهُ	في أي وَادٍ أمْ بأي مكَـانِ
وَسَــلِ المُتَيَّم كَيْـفَ حَالَتُه وَقَـــــــــــــدْ	مُلِئَتْ له الأذُنَانِ والعَيْنانِ
مِن مَنْطِق رَقَّتْ حَوَاشِــيْهِ وَوَجْه	كَمْ بِـــهِ لِلشَّــــمْسِ مِن جَرَيَـــــــــــــانِ
وَسَل المُتِيِّم كَيْفَ عِيشَـتُهُ إذًا	وَهُمَا على فُرَشَــــيْهمَا خَلَـــــــــــــوَانِ
	مِن بَيْنِ مَنْظُـــومٍ كَنَظْمِ جُمَــــــــــــــانِ
	الْمَحْبُـــوْبَ في رَوْحٍ وفي رَيْحَـــــــــانِ
	بأكُفٍ أقمارٍ مِن الولْـدَانِ

يَتَسَاقَطَانِ لَئِآلِئًا مَنْثُـورةً
وَسَل المُتَيَّمَ كَيفَ مَجْلِسُه مع
وَتَـدورُ كاسَـاتُ الرَحِيْـقِ عَلَيْهِمَا
يَتَنَازَعَانِ الكَأسَ هَذَا مَرَّةً
فَيَضُـمُّهَا وَتَضُـمُّهُ أرَأيْتَ
غابَ الـرَّقِيْبُ وَغَـابَ كُـلُّ مُنَكِّدٍ
أتَرَاهُمَا ضَـــجِرَيْن مِن ذَا العَيْشِ لا
وَيَزِيْدُ كُلٌ مِنْهُمَا حُبًا لِصَـا
وَوِصَالُهُ يَكْسُوهُ حُبًا بَعْدَهُ
فالوَصْـلُ مَحْفُـوْفٌ بحُبٍ سَـــابقٍ
فَـــرْقٌ لَطِيْـــفٌ بَيْنَ ذَاكَ وَبَيْنَ ذَا
وَمَزِيْـدُهُم في كُـلِّ وَقْتٍ حَاصِـــلٌ
يا غَـــافلاً عَمَّا خُلِقْتَ لَـــهُ انْتَبِـــهْ
سَارَ الرِفَاقُ وَخَلفُـوكَ مَـعَ الأولى
وَرَأيْتَ أكْثَـــرَ مَنْ تَـــرَى مُتَخَلِّفًا
لَكنْ أتَيْتَ بخُطَّتيْ عَجْـــزٍ وَجَهْـــلٍ
مَنَّتْكَ نَفْسُكَ بالحُو قِ مَـعَ القُعُـــودِ
وَلَسَـــوْفَ تَعْلَمُ حِيْنَ يَنْكَشِـــفُ الغِطَا

والخُـودُ أخْـرَى ثُمَّ يَتَكِئَانِ
مَعْشُـوْقَيْن بَعْـدَ البُعْـدِ يَلْتقِيَـــانِ
وَهُمَا بثَـوْبِ الوَصْـلِ مُشْـــتَمِلانِ
وَحَيَـــاةِ ربِـــكَ مَا هُمَا ضَـــجِرَانِ
حِبِه جَدِيْدًا سَائِرَ الأزْمَـانِ
مُتَسَلْسِلاً لا يَنْتَهي بِزَمَانِ
وَبلاحِـقٍ وَكِلاَهُمَا صِـنْوَانِ
يَدْرِيْـهِ ذُوْ شُـغْلٍ بَهـذَا الشَّـــانِ
سُـبْحانَ ذِي المَلَكُـوَتِ والسُـــلْطَانِ
جَـدَّ الرَّحِيْـلُ وَلستَ باليَقْظَـــانِ
قَنعُوا بِذَا الحَظِ الخَسِيْسِ الفَـــانِ
فَتَبَعْهُم فَرَضِيْتَ بالحِرْمَانِ

بَعْدَ ذا وَصحِبْتَ كُلَّ أمَانِ
عَنِ المَسِـيْر وَرَاحَـةِ الأبْـــدَانِ
مـــاذا صَـنَعْتَ وَكُنْتَ ذَا إمْكَـــانِ

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

فَيَا سَـــاهِيًا في غَمْـــرِة الجَهْـــــلِ والهَـــوَى صرَيْعَ الأمَـانيْ عَنْ قَـرِيْبٍ سَـــــــــــــتَنْدَمُ
أفِقْ قَدْ دَنَى الوَقْتُ الذِيْ لَيْسَ بَعْـــــــــــدَهُ سِـــوَى جَنَّةٍ أَوْ حَـــرِّ نَــارٍ تَضَـــــــــــــــرَّمُ
وبالسُّــــنَّةِ الغَـــرَّاءِ كُنْ مُتَمَسِّـــــــــــــكًا هِيَ العُـرْوَةُ الـوُثْقَى الـتي لَيْس تُفْصَــــــــــــمُ
تَمَسَّكْ بِهَا مَسْـكَ البَخِيْـلِ بمَالِــــــــــــهِ وَعَضَّ عَلَيْهَا بالنَّواجِــــــذِ تَسْـــــــــــــــلَمِ
وَدِعْ عَنْـكَ مَا قَـدْ أحْـدَثَ النَّاسُ بَعْـــــــــدَهَا فَمَرْتَـعُ هَاتِيْـكَ الحَـوَادِثِ أوْخَمُ
وَهَيءْ جَوَابًا عنْدَمَا تَسْـمَعُ النِّدَا مِنَ الله يَوْمَ العَرْض مَـاذَا أَجَبْتُمُ

بِهِ رُسُلِيْ لَمَّا أتَـوْكُمْ فَمَنْ يَكُنْ … أجَــابَ ســوَهُمْ سَــوْفَ يُخْــزَى وَيَنــدَمُ
وَخُــذْ مِن تُقَى الــرَّحْمنِ أعْظَمَ جُنَّةٍ … لِيَوْمٍ بِهِ تَبْـدُوْ عِيَانًا جَهَنَّمُ
وَيُنْصَـبُ ذَاكَ الجَسْـرُ مِنْ فَــوْق مَتْنِهَا … فَهَــاوٍ وَمَخْــدُوْشٌ ونــاجٍ مُسَــلَّمُ
وَيَأتيْ إلَهُ العَالَمِيْنَ لِوَعْدِهِ … فَيَفْصِــلُ مَا بَيْنَ العِبَــادِ وَيَحْكُمُ
وَيَاخُذُ لِلْمَظْلومِ رَبُكَ حَقَّهُ … فَيَــابُؤْسَ عَبْــدٍ لِلْخَلائِقِ يَظْلِمُ
وَيُنْشَـرُ دِيْـوَانُ الحِسَــابِ وَتُوْضَــعُ الْمَــوازِيْنُ … بالقِسْطِ الذي لَيْسَ يَظْلِمُ
فَلَا مُجْرِمٌ يَخْشَـى ظَلَامَـةَ ذَرَّةٍ … ولا مُحْسنٌ مِن أجْـرِهِ ذَاكَ يُهْضَـمُ
وَتَشْـهَدُ أعْضَـاءُ المُسِـيء بمَا جَنَى … كَــذَاكَ على فِيْه المُهَيْمِنُ يَخْتُمُ
فَيَالَيْتَ شِعْرِيْ كَيْفَ حَالِكُ عِنْدَمَا … تَطَــايَرُ كُتْبُ العَــالِمِيْنَ وتُقْسَمُ
أتَأخُـذُ بـاليُمْنَى كِتَابَـكَ أمْ تَكُنْ … بالأخْرى وَرَاءَ الظَّهْرِ مِنْكَ تَسَــلَّمُ
وَتَقْــرَأ فِيْهَا كُــلَّ شَــيءٍ عَمِلْتَــهُ … فَيُشْرِقُ مِنْكَ الوَجْهُ أوْ هُوَ يُظْلِمُ
تَقُوْلُ كِتَابِي فاقْرَؤُهُ فإنَّهُ … يُبَشِّــرُ بــالفَوْزِ العَظِيْمِ وَيُعْلِمُ
وإن تَكُن الأخْــرَى فإنَّكَ قَائِلٌ … ألا لَيْتَنِيْ لَمْ أوْتَــهُ فَهُــوَ مَغْــرَمُ
فَبَــادِرْ إذَا مَا دَامَ في العُمْــرِ فُسْــحَةٌ … وعَـدْلُكَ مَقْبُـوْلٌ وَصَـرْفُكَ قَيِّمُ
وَجُدَّ وَسَــارِعْ واغْتَنِمْ زَمَنَ الصِّبَا … ففِي زَمْنِ الإمْكَانِ تَسْعَى وَتَغْنَمُ
وَسِــرْ مُسْــرِعًا فــالموتُ خَلْفَــكَ مُسْــرِعًا … وَهَيْهَــاتَ مَا مِنْــهُ مَفَــرٌّ وَمَهْــزَمُ

عن النعمان بن بشير أنه قال: سمعتُ رسول الله يقـــول: «إن الحلالَ بيِّنٌ وإن الحـــرامَ بَيِّنٌ، وبَيْنَهُمَا أمُورٌ مشتبهاتٌ لا يَعْلَمَهُنَّ كثيرٌ مَن النـاس فَمَن اتَقَى الشُـبهاتِ فَقَد اسْـتَبْرَأ لِدِيْنِـهِ وعِرْضِـهِ، ومَن وَقَـعَ في الشُـبَهَاتِ وَقَع في الحَــرِام كـالراعي يَـرْعَى حَـوْلَ الحِمَى يُوْشِكُ أن يَرْتَـعَ فيـه، ألا وَإن لِكُل مَلِـكٍ حَمى ألا وإن حِمىَ الله مَحَارِمُه، ألا وإنَّ في الجَسَد مُضْـغَةً إذا صَـلَحَتْ صَـلَح الجَسَـدُ كُلُـه، وإذا فَسَـدَتْ فَسَـدَ الجَسَدُ كُلُه ألا وَهي القَلْبُ» رواه البخاري ومسلم.

وعن أنس أن البــني وجد تمــرةً في الطريـــق، فقال: «لولا أني أخاف أَنْ تَكُوْنَ مِن الصدقِة لأكَلْتُهَا» متفق عليه.

وعن عُقبة بن الحارث: «أنهُ تزوَّج ابنةً لأبي إهــاب فأتته امرأة، فقالت: إني أرضـعتُ عقبة والـتي تـزوَّج بها، فقال عُقبة: ما أعلمُ أنك أرضـعتني ولا أخبرتِـني، فــركب إلى رســول الله بالمدينــة، فسـأله، فقــال رســول الله : «كَيْــفَ وقَد قِيــل؟» ففارقَهَا عُقْبَــةُ ونكحَتْ زوجًا غيره» رواه البخاري.

وعن الحسن بن علي ــــ رضي الله عنهما ــــ أنه قــال: حفظتُ من رســول الله : «دَعْ ما يَريْبُك إلى ما لا يَرِيْبُك» رواه الترمذي، ومعنـاه: اتْـرُكْ ما تشـكُ فيه وخُذْ ما لا تَشُكُ فيه.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ــ أنها قـالت: «كـان لأبي بكر الصـديق غُلامٌ يُخـرجُ له الخـراج، فجـاءه يومًا بشيء فأكل منه أبُو بكرٍ، فقال الغلام: تــدري ما هــذا؟ فقــال أبو بكــر: وما هــو؟ فقــال: كُنْتُ تَكهَنْتُ لإنســان في الجاهليــة، فأعطــاني لــذلك (أي لأجْــلِ) تَكَهُّني هذا الذي أكلتَ منه، فأدخل أبو بكر يــدهُ فقــاءَ ما في بطنه» رواه البخاري.

وعن نـــافع أن عمر بن الخطـــاب كـــان فـــرضَ للمهــاجرين الأولين أربعة آلاف وفــرض لابنه عبدالله ثلاثة آلاف فقط، فقِيـلَ لعُمـر: ابنُـكَ من المُهـاجرين، فلِمَ نقصـتَهُ الرُّبُـعَ، فقـال: «إنما هـاجر به أبُـوهُ» أي ليس كمنَ هاجر بنفْسِهِ.

وعن عبدالله بن عمر ـــ رضي الله عنهما ـــ أنه قال: اشتريتُ إبلاً وارتجَعْتُها إلى الحمى فلما سَـمنَتْ قـدِمْتُ بهـا، قـال: فـدخل عُمـرُ السـوق فـرأى إبلاً سمانًا، فقـال: لِمَن هـذه؟ فقيـل: لعبدالله ابن عمـر، فجعل يقول: يا عبدالله بَخٍ بَخٍ ابن أمير المؤمنين.

قـــال: فجئته اســـعى، فقُلتُ: مالك يا أمـــير المؤمـنين؟ قـال: ما هـذه الإبـل؟ فقُلتُ: إبـلٌ هزيلة اشـــــتريتها وبعثتُ بها إلى الحمى أبتغي ما يبتغي المســلمون، قـــال: فقـــال: ارعَـــوا إبل ابنِ أمـــير المؤمنين، أَسْقُوا إبل ابن أميرِ المؤمنين.

يا عبدالله بن عُمـر، أغْـدُ على رأسِ مالك واجعـلْ باقيه في بيت مال المسلمين.

ورهنَ الإمامُ أحمدُ سطلاً له عند بقَّالٍ بمكـة، فلما أراد فكاكهُ أخرج البقالُ سَطْلَين، وقال: خُذْ سـطلكَ، فقال أحمـد: أشـكل عليَّ سـطلي لا أدري أيَّهُمـا؟ هو لك والدراهم لك، فقال البقـال: سـطلُك هـذا وأشـار إلى أحـدهما، وقــال: أردتُ أن أجَرِّبَـكَ أيْ أختـبرُكَ، فقال: لا آخُذُه وترَكَهُ عنَده.

ورجعَ عبدُالله بنُ المبارك مِن مَرْوْ إلى الشام في قلمٍ استعارَهُ ليرُدَّهُ على صاحبه، وحُمِلَ إلى عُمر بن عبـدالعزيز مِسْـكٌ من الغنـائم فلما أدخله إلى بيت المال أمْسَكَ بأنفـه، وقـال: إنما يُنتفع منه بريْحِـهِ وأنا أكرهُ أنْ أجدَ ريحَهُ دُوْن المسلمين.

شِعرًا:

القَلْبُ أَعْلَمُ يا عَـــــذُوْلُ بِدَائِهِ ... ما غَـــيرُ دَاءِ الـــذَّنْبِ مِن أَدْوَائِهِ

والذَّنْبُ أَوْلَى مَا بَكاهُ أخُـو التُقَى ... وأَحَقُّ مِنكَ بجَفْنِهِ وبِمائِهِ

فَـــومَنْ أُحِبُّ لأَعَصْـــيَنَّ عَـــــــــواذِلِي ... قَسَـــمًا بِـــهِ في أرْضِـــهِ وسَـــــــــمائِهِ

مِن ذَا يَلُـــومُ أَخَا الـــذُّنُوبِ إذا بَكَىَ ... إنَّ المَلامـــةَ فِيـــهِ مِن أعْدَائِهِ

فَوَحِـقِّ مَن خَـافَ الفُـؤادُ وعِيْـــــــــدَهُ ... ورَجَا مَثُوبَتَـــهُ وحُسْـــنَ جَزَائِهِ

ما كِنتُ مِمَّنْ يَرتَضِـــي حُسْـــــــنَ الثَّنَا ... بِبَـــدِيعٍ نَظْمِي في مَـــدِيحِ سِـــــــوَائِهِ

مَن ذَا الـــذي بَسَـــطَ البَسِـــيْطَةَ لِلْـــوَرَى ... فُرُشًـــا وتَوَّجَهَا بِسِـــقْفِ سَـــــــمائِهِ

مَن ذَا أَتَى بالشـــمسِ في أُفُق السَـــــــمَا ... تَجْري بَتقْدِيرٍ على أرْجَائِهِ

أسواهُ سَوَّاهَا ضِـيَاءً نَافِعًا ... لا والذِي رَفَعَ السَّمَا بِبَنَائِهِ

مَن أطلعَ القَمَرَ المُنِير إذَا دَجَى ... لَيْـــلٌ فَشَـــابَهَ صُـــبْحَهُ – بِضِـــــــيائِهِ

مَن طَـــوّلَ الأيـــامَ عنـــدَ مَصْـــــــيفِهَا ... وأَتَتْ قِصَـارًا عنـدَ فَصْـلِ شِـــــــتائِهِ

مَن ذَا الذي خَلَـقَ الخَلائِقَ كُلَّهَا ... وكَفَى الجَمِيـــــعَ بِبِرِّهِ وعَطائِهِ

وأدَرَّ لِلطِّفْـــلِ الرَّضِـــيْعِ مَعَاشَـــــــهُ ... مِن أمِّهِ يَمْتصُّ طِيْبَ غِذَائِهِ

يا وَيْحَ من يَعْصِـــي الإلِـــهِ وقَـــــــدْ رَأى ... إحْسَـــانَهُ بِنَوالِـــهِ وندائِهِ

ورَأَى مَسَـاكِنَ مَن عَصَـى مِمَّنْ خَلَا ... خِلْـــوًا تَصِـــيْحُ البُـــومُ في أرْجَائِهِ

ودَعِ الجِبَـــــــابِرَةَ الأكاسِـــــــرَةالأَلي ... وانْظُرْ لِمَنْ شَـاهَدْتَ في علوائِهِ

يَخْتَالُ بَيْنَ جِيُوشِهِ ولِوَائِهِ

كم شَـــاهَدَتْ عَينَـــاكَ مِن مَلِك غَـــــــدَا ... وَسَـــقَتْهُ مُـــرَّ السُّـــمِ في حَلْوائِهِ

مَلأتْ لَــهُ الــدُنْيا كُؤوسًــا حُلْــــــــــــوةً
هِيَ طَلَّقَتْهُ وَمَّتَعَتْـهُ بِدائِهِ

ما طَلَّقَ الدُنْيَا اخْتيارًا إنَّما
حَتَّى تكـــونَ حَشَـــاهُ في أَحْشَـــــــــــائِهِ

جَعَلتْ له الأكفـانَ كِسْـوةَ عُـــــــــــــدَّةٍ
بِحِجَـــارَةٍ وبِطِيْنَـــةٍ وبمَائِهِ

ويَضُــــمُّهُ لا مُشْــفِقًا في ضِـــــــــــمِّهِ
عن دِيْنِـــهِ لا عَنْ سُــــؤالِ سِــــــــــوَائِهِ

وهُنَــاكَ يُغْلَــقُ لَحْــدُهُ عن أهلِـــــــــــهِ
ضَرْبًا لَهُ في وَجْهِهِ وقَفَائِهِ

ويَــزُوْرُهُ المَلَكَــانِ قَصْــدَ سُــــــــــؤَالِهِ
ويُقيمُ في ضِــيْقٍ لِطُــولِ عَنَائِهِ

فــإذا أجَــابَ بـــ «لَسْــتُ أدْرِيْ أَقْبِلا
عِنــدَ امْتِحَـان العَبـدِ تَحْتَ ثَرَائِهِ

ويَرىَ مَنَازلَــهُ بِقَعْر جَهَنَّمٍ
وبِكُتُبْــهِ وبِبَعْثِـــهِ ولِقَائِهِ

يا ربِّ ثَبِّتْنَا بقَـــوْلٍ ثـــابتٍ
والآلِ أهــلِ الــبيتِ أهـــلِ كِسَـــــــــــائِهِ

أنَا مُؤْمَنٌ اللـهِ ثُمَّ بِرُسْـلِهِ

ثم الصـلاةُ على الرسـولِ مُحَمَّدٍ

اللهم إنا نسألُك حياةً طيبةً، ونفسًا تقيةً، وعيشـةٍ نقية، وميتةً سويَّة، ومردًا غير مُخزي ولا فاضح.

اللهم اجعلنا من أهل الصلاح والنجاة والفلاح، ومن المؤيدين بنصرك وتأييدك ورضاك يا رب العالمين.

﴿اللَّهُمَّ مَالِـكَ المُلْـكِ تُـؤْتِي المُلْـكَ مَن تَشَـاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَـاءُ وَتُعِـزُّ مَن تَشَـاءُ وَتُـذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يا ودُودُ يا ذا العــرش المجيد يا مُبــديءُ يا معيد يا فعـالٌ لما تريد نسـألك بنـور وجهك الـذي ملأ أركـانَ عرشك وبقـدرتك الـتي قـدرتَ بها على جميع خلقـكَ وبرحمتك الـتي وسِــعَت كل شــيء لا إله إلا أنت أن

تغفر ذُنوبنا وسيئاتنا وأن تبدلها لنا بحسنات إنك جوادٌ كريم رؤوف رحيم.

اللهم افتح لـدعائنا بـاب القبـول والإجابة واغفر لنا ولوالــــــدينا وجميع المســــــلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

وصل الله على محمد وآله وصحبه أجمعين.

**نختم هذا الكتاب بنبذة من زهده **

كـــان رســـول الله أزهد النـــاس، ويكفيك في تعريف ذلك أن فقـــره كـــان فقر اختيـــاري لا فقر اضـــطراري؛ لأنه فُتحت عليه الفتـــوحُ وجُلبت إليه الأموالُ، ومات ودرعُهُ مرهونـةٌ عند يهـودي في نفقة عياله، وهو يدعو: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا.

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ما شـبعَ رسـول الله ثلاثة أيـام تباعًا من خُـبزٍ حـتى مضى لسـبيله، ولو شاء لأعطاهُ الله ما لا يخطر ببالٍ.

وعنها قالت: ما تركَ رسول الله دينـارًا ولا شـاةً ولا درهمًا ولا بعـيرًا، ولقد مـات وما في بيـتي شـيء يأكله ذو كبدٍ إلا شطر شعير في رَفٍّ لي.

وقـــــال لي: إني عـــــرض عليَّ ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبًـا، فقلتُ: لا يـارب أجـوعُ يومًا وأشـبعُ يومًـــا، فأما اليـــومُ الـــذي أجُـــوع فيه فأتضـــرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشـبعُ فيه فأحمـدُك وأثـني عليك.

وعنها قـــالت: إنْ كُنَّا آلُ محمد لنمكثُ شـــهرًا ما نستوقِدُ نارًا، إن هو إلا التمرُ والماء.

وعنها قالت: لم يمتلئ جوفُ النـبي شـبعًا قـط، ولم يبُث إلى أحدٍ شكوى.

وكانت الفاقةُ أحبَّ إليه من الغنى، وإن كان ليظلُ جائعًا يلتـــوي طُـــول ليلته من الجـــوع، فلا يمنعُه من صـيام يـوم ولو شـاء لسـأل ربه جميع كنُـوز الأرض وثمارها ورغد عيشها.

ولقد كنتُ أبكي له رحمةً مما أرى به وأمسحُ بيدي على بطنه مما به من الجـــوع، وأقـــول نفسي لك الفداء، لو تبلّغْتَ من الدنيا بما يقوتك.

فيقول: يا عائشة مالي وللدُنْيَا إخـواني أولو العـزم من الرسل صبرُوْا على ما هو أشد من هـذا، فمضـوا على حالهم فقدموا على ربهم وأكـرم مـآبهُم وأجـزل ثوابهم.

وأجـــدني أســتحي إن تــرفَّهْتُ في معيشـــتي أن يُقصِّرني غدًا دُونهم.

وما من شـــيء أحب إلي من اللحُـــوق بـــإخواني وأخلائي، قالت: فما أقام بعد إلا شهرًا ثم توفى .

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قــالت: ما رفع رسول الله قطّ غداءً لعشاءٍ ولا عشاءَ قطّ لغداء.

ولا اتخذ من شــيء زوجين لا قميصــين ولا ردائين ولا إزارين، ومن النعــــال ولا رئى قط فارغًا في بيته إما يخصف نعلاً لرجل مسكين أو يخيط ثوبًا لأرملة.

وعن أنس بن مالك أن فاطمة –عليها الســـــلام- جـاءتْ بكسـرةٍ خُـبز إلى النـبي ، فقـال: «ما هـذه الكسرة يا فاطمة؟»، قالت: قــرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتُك بهذه الكسرة، فقـال: «أما إنه أوَّلُ طعامٍ دَخَل فَمَ أبِيْكِ مُنْذُ ثلاثة أيام».

وروى مسلم عن النعمان قال: ذكر عمر ما أصاب الناس من الدنيا، فقال: لقد رأيتُ رسول الله يظل يلتوي ما يجد من الدقل ما يَمْلا بطنه.

وعن أبي هريرة قال: إن كـان ليمر بـآل رسـول الله الأهِلَّة ما يُسـرجُ في بيت أحد منهم سـراج ولا يوقد فيه نار إن وجدوا زيتًا ادهنوا به وإن وجدوا ودكًا أكلوه، رواه أبو يعلى ورواته ثقاة.

عن عبدالله بن مسـعود، قـال: نـام رسـول الله على حصير، فقام وقد أثر في جنبـه، قلنـا: يا رسـول الله، لو اتخذنا لك وطاء.

فقـال: مـالي وللـدنيا ما أنا في الـدنيا إلا كـراكب أستظل تحت شـجرة ثم راح وتركهـا، رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه.

قال عمر بن الخطـاب: دخلت على رسـول الله وهو على حصير فجلستُ فإذا عليه إزارُهُ وليس عليه غيره وإذا الحصيرُ قد أثَّرَ في جَنْبِهِ.

وإذا أنا بقبضـةٍ من شـعير نحو الصـاع وقـرظ في ناحية الغرفـــة، وإذا أهـــاب معلق (الإهـــاب: الجلد) فابتدرت عيناي.

فقال: «ما يُبكيك يا ابن الخطاب؟» فقلتُ: يا نـبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصـير قد أثر في جنبـك، وهذه خزانتُك لا أرى إلا ما أرى.

وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نـبي الله وصفوتُه وهذه خزانتك.

قـــال: «يا بن الخطـــاب، أما ترضى أن تكـــون لنا الآخـرة ولهم الـدنيا» رواه ابن ماجه بإسـناد صـحيح، والحاكم، وقال: على شرط مسلم.

وروي عن جـــابر قـــال: حضـــرنا عـــرس علي وفاطمــة، فما كـان عرسًـا كـان أحسن منه حشـونا الفــراش يعــني من الليــف، وأوتينا بتمر وزيت فأكلنا وكان فراشها ليلة عرسـها إهـاب كبش، رواه الـبزار. الإهاب: الجلد.

عن عامر الشعبي قال: قـال علي : لقد تـزوجتُ فاطمة، وما لها ولي فراش غير جلد كبش ننـام عليه بالليل ونعلف عليه الناضح بالنهار، وما لي ولها خـادم غيرها.

وعن علي أن رســول الله لما زوَّجَــهُ فاطمة بعث معها بخميلة ووسـادة أدم حشـوها ليف ورَحَيَيْن وسقاءِ وجرَّتَين.

فقـال علي لفاطمة ذات يـوم: والله سَـنَوْتُ حـتى اشتكيتُ صدري (المعنى تعبتُ من إخـراج المـاء من

البئر) وقد جـاء الله بسـبي فـاذهبي فاسـتخدمِيْهِ (أي اطلُبي منه خادمًا).

فقالت: وأنا والله لقد طحنْتُ حتى مجلتْ يدي من العمل، فأتت النبي ، فقال: «ما جاءَ بِكِ ومَا حَاجَتَكِ أيْ بُنَيَّة؟» قــالت: جئت لأســلمَ عليك واســتحَيَتْ أنَ تَسْألَهُ فَرجَعَتْ.

فقال علي: ما فعلتِ؟ قالت: استحييتُ أن أسـأله، فأتيـاه جميعًـا، فقـال عليٌّ: يا رسـول اللـه، والله لقد سنوتُ حتى اشتكيتُ صدري.

وقالت فاطمة: لقد طحنتُ حتى مجلتْ يداي، وقد جاءكَ الله عز وجل بسبيٍ وسعة فأخدمْنَا.

فقال: «والله لا أعْطِيْكُمَا وَأدَعُ أهل الصُّـفَّةِ تطْـوى بُطــونُهم لا أجــدُ ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم وأنفق عليهم».

فرجعــا، وأتاهما النــبي ، وقد دخلا في قطيفتهما إذا غَطَيا رُؤُسَــهُمَا تكَشَّــفَتْ أقــدامُهما، وإذا غَطَيَا أقدامَهما تكَشَّفَتْ رُؤسُهما فثارا، فقال: «مَكَانكما».

ثم قـال: «ألا أخبركما بخـيرٍ ما سـألتماني؟» قـالا: بلىَ، قال: «كلمات عَلَّمَنِيْهُنَّ جِبْريلَ تُسبحَّانِ في دُبُـرِ كُلِّ صَلاةٍ عشر وتَحْمَدانِ عَشْرًا، وتُكَبِّرانِ عشرًا، وإذَا أويْتُما إلى فراشِكُما، فسبحا ثلاثًا وثلاثين، وأحمدا ثلاثًا وثلاثين، وكبرا أربعًا وثلاثين»، قال: فوالله ما تَـركْتُهُنَّ منذ عَلمنْيهُنَّ رسول الله .

عن بريدة قـال: سـمع النـبي رجُلاً يقـول: اللهم أني أسـألك بـأني أشـهد أنـكَ أنتَ الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الـذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفـوًا أحد.

فقال رسول الله : «والذي نفسي بيده لقد سأل الله باســمه الأعظم الــذي إذا دعي به أجــاب، وإذا سُئل به أعطى» أخرجه أبو داود والترمذي.

وعن أنس قـال: دعا رجــل، فقــال: اللهم إني أســألك بــأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنـان المنـان بديع السـموات والأرض ذو الجلال والإكـرام يا حي يا قيوم.

فقـال النـبي : «أتـدرون بما دعـا؟» قـالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُـئل به أعطى» أخرجه أصحاب السُّنَن.

عن سعد بن أبي وقاص قال: قـال رسـول الله : «دعـوة ذي النـون إذْ دَعَى وهو في بطن الحـوت: لا إله إلا أنت سُبْحَانَكَ إني كنت من الظـالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسـلم في شـيء قط إلا اسـتجاب له» رواه الترمــذي والنســائي والحــاكم، وقــال: صـحيح الإسناد.

وعن معاوية بن أبي سُفيان قـال: سـمعتُ رسـول الله يقـول: «من دَعَا بهـؤلاء الكلمـات الخمس لم يسأل الله شيئًا إلا أعطاه: لا إله إلا الله والله أكبر، لا إله إلا الله وحـــده لا شـــريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قـدير، لا إله إلا الله ولا حـول ولا قوة إلا بالله» رواه الطبراني بإسناد حسن.

وعن معاذ بن جبل، قال: سمع رسول الله رجلاً وهو يقــول: «يا ذا الجلال والإكــرام»، فقــال: «قد اسْتُجِيْبَ لَكَ فَسَلْ» رواه الترمذي.

اللهم اجعلنا مُكـــثرين لـــذكرك مُـــؤدِّيْن لحقِّك حــافظين لأمــرك راجين لِوَعْــدِكَ راضــينٍ في جميع حالاتنا عَنك.

راغــبين في كُــلِّ أمُورنا إليك مُــؤمِّلينَ لِفضْــلِك شاكرين لِنِعَمِك.

يا مَن يحب العفو والإحسان، ويأمر بهما أعفُ عنا، وأحسِنْ إلينا.

فإنك بالذي أنت له أهل من عَفوك أحق منا بالذي نحن له أهل مِن عُقُوبتك.

اللهم ثبت رجـــــاءك في قلوبنـــــا، واقطعه عَمَّنْ سِوَاك، حتى لا نرجُـوا غـيرك ولا نسـتعين إلا إيـاك، يا أرحم الراحمين، ويا أكرم الأكرمين.

اللهم هب لنا اليقين والعافيـــــــة، وإخلاص التوكل عليك، والاستغناء عن خلقك.

واجعل خير أعمالنا ما قارب آجالنا.

اللهم أغننا بما وفقتنا له من العلم، وزينا بـــــالحلم وأكرمنا بالتقوى وجمَّلْنَا بالعافية.

اللهم افتح مسـامع قلوبنا لـذكرك وارزُقنا طاعتَك وطاعةَ رسولك ووفقنا للعمل بكتابك وسُّنة رسولك.

اللهم إنا نسـألك الهـدى، والتُّقّى والعافية والغـنى، ونعـــوذ بك من درك الشـــقاءِ، ومن جهد البلاء ومن سوء القضاء ومن شماتة الأعداء.

اللهم لك الحمدُ كُلُّه، ولك الملكَ كُلَّه، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره، أهلُ الحمد والثنـــاء أنت، لا إله إلا أنت سُـــبحانك إنك على كل شيء قدير.

اللهم اغفر لنا جميع ما ســلف منا من الـــذنوب، واعصـمنا فيما بقي من أعمارنـا، ووفقنا لعمل صـالح ترضى به عنا.

اللهم يا سـامع كل صـوت، ويا بـارئ النفـوس بعد المـــوت، يا من لا تشـــتبهُ عليه الأصـــوات يا عظيم الشـــأن، يا واضح البرهـــان، يا مَن هو كل يـــوم في شأن، اغفر لنا ذنوبنا إنكَ أنت الغفور الرحيم.

اللهم يا عظيم العفـو، يا واسع المغفـرة، يا قـريب الرحمـــة، يا ذا الجلال والإكـــرام، هب لنا العافية في الدنيا والآخرة.

اللهم يا حيُّ ويا قيُّوم فرِّغْنَا لما خَلقْتَنَا لـــــــه، ولا تُشغلنا بما تكَفَّلْتَ لنا به، واجعلنا ممن يؤمنُ بلقائــك،

ويرضى بقضــائك ويقنــع بعطائــك، ويخشــاكَ حــقَّ خشيتِك.

اللهم اجعل رزقنا رغدًا، ولا تشمتْ بنا أحدًا.

اللهم رغِّبْنَا فيما يبقى، وزهدنا فيما يفنى، وهب لنا اليقين الذي لا تسكن النفوس إلا إليــه، ولا يُعـوَّلُ في الدين عليه.

اللهم إنا نسألك بعزك الذي لا يُرام وملكك الذي لا يُضام وبنورك الــذي ملأ أركــان عرشك أن تكفينا شر ما أهمنا وما لا نهتم به وأن تعيذنا من شــرور أنفســنا ومن سيئات أعمالنا.

اللهم يا عليم يا حليم يا قـــــوي يا عزيز يا ذا المن والعطا والعز والكبريــــاء، يا مَن تغنُــوْا له الوجُــــوه وتخشع له الأصوات.

وفقنا لصــالح الأعمــال وأكفنا بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك إنك على كل شيء قدير.

اللهم إنا نسألك رحمةً من عندك تهدي بها قُلُوبنَــا، وتجمعُ بها شملنا، وتلمُ بها شعثنا، وترفع بها شــاهدنا، وتحفــظُ بها غائبنــا، وتــزكي بها أعمالنــا، وتلهمنا بها رشدنا، وتعصمنا بها من كل سوء يا أرحم الراحمين.

اللهم ارزقنا من فضلك، وأكفنا شر خلقك، وأحفظ علينا ديننا وصحة أبداننا.

اللهم يا هادي المضلين ويا راحم المذنبين، ومُقِيْـلَ عثرات العاثرين، نسألك أن تُلحقنا بعبادك الصــالحين الذين أنعمتَ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يا رب العالمين.

اللهم يا عالم الخفيات، ويا رفيع الــدرجات، يا غفر الذنب وقابل التوب شـديد العقـاب ذي الطـول لا إله إلا أنت إليك المصير.

نسـألك أن تـذيقنا بـرد عفـوك، وحلاوة رحمتـك، يا أرحم الراحمين وأرأفَ الرائفين وأكرم الأكرمين.

اللهم اعتقنا من رق الـــذُنُوبْ، وخلِّصـــنا من أشر النُّفـــوس، وأذهب عنا وحشة الإســـاءة، وطهِّرنا من دنس الـــذنوب، وباعـــدْ بيننا وبين الخطايا وأجرْنا من الشيطان الرجيم.

اللهم طيبنا للقائِكْ، وأهلْنَا لولائِكْ وأدخلنا مع المرحُـــومين من أوليائـــك، وتوفنا مُســـلمين وألحقنا بالصالحين.

اللهم أعنَّا على ذكـرك وشُـكرك وحُسن عبادتِـكْ، وتلاوةِ كِتَـــابِكْن واجعَلْنَا من حزبك المُفلحين، وأيـــدنا بجنْـــدِك المنصـــوري، وازرقْنَا مُرافقة الـــذين أنعمتَ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

اللهم يا فالق الحب والنَّوى، يا مُنْشِئ الأجسادِ بعدَ البلَى، يا مُـؤْيْ المنقطعين إليـه، يا كـافي المتُـوكِّلين عليه، انقطع الرَّجَاءُ إلا مِنْكْ، وخابت الظُنُون إلا فيْكْ، وضـعُفَ الاعتمـاد إلا عَليـكْ نسـألُك أن تُمطر محـلَ قُلُوبنَا من ســـحائب بـــرِّكْ وإحســـانِكْ وأن توفقنا لمِوجبـات رحمتك وعـزائِمَ مغفرتك إنـكَ جـواد كـريم رؤوف غفور رحيم.

اللهم إنَّا نسألك قلبًا سليمًا، ولسانًا صـادقًا، وعملاً متقبلاً، ونسألك بركة الحياة وخـير الحيـاة، ونعـوذ بك من شر الحياة، وشر الوفاة.

اللهُمَّ إنا نســألك باســمك الأعظم الأغــرَّ الأجــلَّ الأكـــرم الـــذي إذا دُعيت به أجبت وإذا سُـــئِلْتَ به أعطيْتَ.

ونسألُك بوجهكَ الكريم أكرم الوجُـوه، يا من عَنَتْ لـهُ الوجــوهُ، وخضـعتْ لَـهُ الرقـاب، وخشـعتْ لـهُ الأصواتُ، يا ذا الجلالِ والإكرام.

يا حيُّ يا قيُّومُ، يا مالك الملك، يا من هُوَ على كُـلِّ شـــيءٍ قـــديْرٌ، وبكل شـــيءٍ عليمِ، لا إله إلا أنْتَ، برحْمِتكَ نستغيْث، ومِن عذابِكَ نستجير.

اللهم اجعلنا نخشـاكَ حتَّى كأننا نَـراكَ، واسْـعِدْنا بتقْواك، ولا تُشْقِنَا بِمَعْصِيتَك.

اللهم إنك تسمعُ كلامنا، وترى مكاننـا، وتعلم سـرنا وعلانيتنا لا يخفى عليك شيءٌ من أمرنا نحن البؤسـاءُ الفُقـراءُ إليـك، المُسْـتغيثُون المُسـتجيرون الوجلُـون المشفقُون المعترفُون بذُنُوبنا.

نسـألك مسـألة المسـكين، ونبتهـلُ إليك ابتهـالَ المذنبِ الذَّليْل، وندعُوْك دُعاء الخائف الضرير.

اللهم يا من خضعتْ لهُ رقابِنَا، وفاضَتْ له ُعباراتُنَا، وذَلَّت له أجسامنا، ورغمتْ لهُ أنوفُنَا لا تجعلنا بدُعائك أشقياء، وكن بنا رؤوفًا يا خير المسئولين.

اللهم إنا نسـألُك نفسًـا مطمئنـةً، تُـؤمنُ بلقائِكْ وترضَى بقضائِكْ، وتَقْنَـعُ بعطائـكْ، يا أرأف الـرائفين، وأرحم الراحمين.

اللهم إنا نسـألُكَ التوفيق لما تُحِبُّه مِن الأعمـالِ، ونسألُك صِدْقَ التوكلِ عليكْ، وحُسْنَ الظَّنِّ بك يا ربَّ العالمين.

اللهم اجعلنا مِن عبادِكَ المُخْبِـتين، الغُـرِّ المُحَجَّلِين الوَفْدِ المُتَقَبَّلِين.

اللهم إنا نسألُك حياةً طيبـةً، ونفسًـا تقيَّة، وعيشـةٍ نقية، وميتةً سوية، ومردًا غير مُخزي ولا فاضح.

اللهم اجعلنا من أهل الصـلاح والنجـاح والفلاح، ومن المؤيـدين بنصـرك وتأييـدك ورضـاك يا رب العالمين.

﴿اللَّهُمَّ مَالِـكَ المُلْـكِ تُـؤْتِي المُلْـكَ مَن تَشَـاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَـاءُ وَتُعِـزُّ مَن تَشَـاءُ وَتُـذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يا وَدُوْدُ يا ذا العـرش المجيد يا مُبْـدِئُ يا مُعيـد، يا فعـالٌ لما تُريد نسـألك بنـور وجهك الـذي ملأ أركـان عرشك وبقـدرتك الـتي قـدرت بها على جميع خلقك وبرحمتك الـتي وسـعت كل شـيء لا إله إلا أنت أن

تغفر ذنوبنا وسيئاتنا وأن تبدلها لنا بحسنات إنك جوادٌ كريم رؤوفٌ رحيم.

اللهم افتح لدعائنا باب القبـول والإجابـة، واغفر لنا ولوالـــــدينا وجميع المســــــلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

وصل الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

عبدالعزيز بن محمد بن سلمان.